انطون تشيخوف

ترجمة د. ابو بكر يوسف



دار «رادوغا» . موسكو

مؤلفات مختارة في ٤ مجلدات

«لقد اردت فحسب ان اقول للناس بصدق وصراحة : انظروا الى انفسكم ، انظروا كيف تحيون حياة سيئة مملة . فاهم شيء ان يفهم الناس ذلك ، وعندما يفهمون سيشيدون حتما حياة اخرى افضل . ولن اراها ، ولكنى اعرف انها ستكون حياة مختلفة تماما ، لا تشبه هذه الحياة . وطالما لم تحل فسوف اظل اردد للناس مرة بعد مرة : فلتفهموا كيف تحيون حياة سيئة مملة» .

بهذه الكلمات حدد تشيخوف نفسه ومهام ابداعه .

«تشيخوف فنان لا نظير له . نعم ، نعم بالضبط ، لا نظير له . انه فنان الحياة . وميزة فنه انه مفهوم وقريب لا لكل انسان روسى فحسب ، بل ولكل انسان عموما . . .» .

ليف تولستوى

انطون تشيخوف

مؤلفات مختارة
فى ٤ مجلدات

يسر دار «رادوغا» ان تصدر هذه [illegible] «المؤلفات المختارة» للكاتب الروسى العظيم انطون بافلوفتش تشيخوف (١٨٦٠ — ١٩٠٤) فى اربعة مجلدات. يضم المجلد الاول القصص القصيرة التى كتبها تشيخوف فى الفترة من ١٨٨٠ الى ١٨٨٦. ويضم المجلد الثاني الروايات والقصص القصيرة التى كتبت من ١٨٨٧ الى ١٨٩١.

اما هذا المجلد [illegible] فيضم روايات وقصص المرحلة الا[illegible] [illegible] للكاتب [illegible] ١٨٩٢ الى ١٩٠٣، تلك المؤلفات التى عادت على تشيخوف بشهرة واسعة فى كثير من البلدان، واصبحت جزءا من الادب الكلاسيكى العالمى، وهى: «المنزل ذو العلية» و«الفلاحون» و«ايونيتش» و«الرجل المعلّب» و«فى الخور» و«العروس»، وغيرها [illegible] «فى [illegible]» للكاتب الروسى الشهير [illegible] (١٨٦[illegible] — ١٩٣٨).

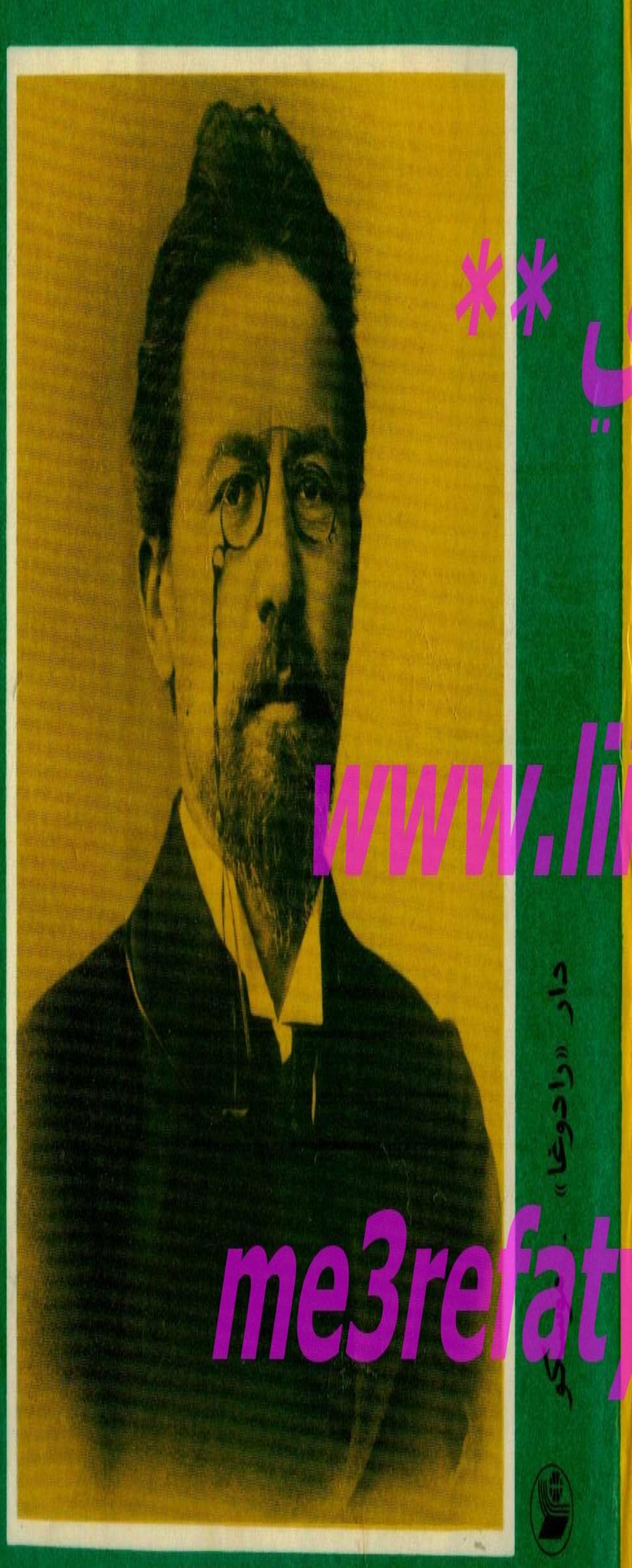


دار «رادوغا». موسكو

انطون تشيخوف ٣

انطون تشيخوف

ترجمة د. ابو بكر يوسف



دار «رادوغا»

مؤلفات مختارة
فى ٤ مجلدات





انطون تشيخوف
مؤلفات مختارة

في ٤ مجلدات

المجلد الثالث

ترجمة د . ابوبكر يوسف

دار «رادوغا»
موسكو

А. П. Чехов

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ
В 4-х ТОМАХ. ТОМ III

На арабском языке

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ١٧ ،
موسكو ــ الاتحاد السوفييتي

طبع فى الاتحاد السوفييتى

ISBN 5-05-002138-3
ISBN 5-05-002314-9

بقلم الاديب : الكسندر كوبرين

١

كانت دار تشيخوف الصيفية في يالطا * تقع خارج المدينة تقريبا ، عميقا أسفل الطريق الأبيض المترب الى «أووتا» . ولست أدرى من بناها ، ولكنها فى الغالب ، كانت اكثر مبانى يالطا تفردا وأصالة . كانت هذه الدار ، البيضاء كلها ، النظيفة ، الخفيفة ، الجميلة فى عدم تناسقها ، المشيدة خارج نطاق أى اسلوب معمارى محدد ، ببروز علوى على شكل برج ، ونتوءات مفاجئة ، وشرفة زجاجية فى الأسفل وشرفة مكشوفة فى الأعلى ، وبنوافذ متناثرة ، عريضة احيانا ، وضيقة احيانا أخرى . . كانت تشبه المبانى المشيدة بأسلوب moderne (عصرى) ، لولا انك تحس فى تخطيطها بفكرة واعية مبتكرة وذوق اصيل خاص لشخص ما . كانت الدار تقوم فى طرف البستان ، ويحيط بها حوض زهور . ومن الناحية المقابلة للطريق ، كان حائط منخفض يفصل البستان عن مقابر تترية قديمة مهجورة ، دائمة الخضرة ، ساكنة وخاوية ، بألواح حجرية متواضعة فوق القبور .

---

* منتجع فى القرم . **المعرب** .

كان حوض الزهور صغيرا ، غير مترعرع ، أما بستان الفواكه فكان بعد فتيا جدا . وكانت تنمو فيه اشجار الكمثرى والتفاح البرى والمشمش والخوخ واللوز . وفي السنوات الاخيرة بدأ البستان يطرح بعض الثمار ، عائدا على انطون بافلوفيتش بالكثير من المشاغل ، وبنوع من السرور المؤثر كسرور الاطفال . وعندما كان موسم جمع اللوز يحين ، كانوا يجمعونه في بستان تشيخوف ايضا . وكانت هذه الثمار توضع ، في العادة ، كوما صغيرا على حافة النافذة في غرفة الجلوس ، واعتقد ان احدا لم تكن تواتيه القسوة على تناولها ، رغم انهم كانوا يقدمونها للضيوف .

لم يكن انطون بافلوفيتش يحب ان يسمع ، بل وكان يغضب قليلا ، عندما يقال له ان الدار عرضة للأتربة المتساقطة عليها من أعلى ، من طريق «أووتا» ، وان البستان تنقصه المياه . فرغم انه لم يكن يحب القرم عموما ، ويالطا بصفة خاصة ، الا انه كان ينظر الى بستانه بحب غيور خاص . وقد رآه الكثيرون احيانا في اوقات الصباح ، جالسا القرفصاء ، وهو يطلي بحدب سيقان شجيرات الورد بالكبريت ، او يقتلع الاعشاب الضارة من احواض الزهور . ويا للفرحة التي كان يشعر بها عندما يسقط المطر اخيرا في جفاف الصيف فيملأ خزانات المياه الاضافية !

بيد ان هذا الحب الحادب لم يكن يخفي في طياته الاحساس بالملكية ، بل شعورا آخر ، أكثر قوة وحكمة . وكان كثيرا ما يقول ، وهو ينظر الى بستانه بعينين مزرورتين :

— اتدري ، ان كل شجرة هنا قد غرست في حضوري ، وبالطبع فهذا الأمر عزيز علي . ولكن ليس هذا هو المهم .

فقد كان المكان هنا قبلى خرابة ، ووهادا حمقاء ، كان مليئا بالاحجار والحسك . وقد جئت أنا فجعلت من هذه البقعة المتوحشة ركنا مهذبا جميلا — ثم يردف فجأة بنبرة ايمان عميق وقد ارتسم الجد على وجهه — أتدرى ، بعد ثلاثمائة او اربعمائة سنة ، ستصبح الارض كلها حديقة غناء . وحينذاك ستكون الحياة فى غاية السهولة والراحة .

هذه الفكرة عن جمال الحياة المقبلة ، والتى رن صداها الرقيق الحزين الجميل فى جميع مؤلفاته الاخيرة ، كانت فى واقع الحياة واحدة من أعز افكاره واكثرها رعاية . ولا بد انه كان كثيرا ما يفكر فى السعادة القادمة للبشرية ، وهو يجلس وحيدا فى اوقات الصباح ويقلّم فى صمت شجيرات الورد او يفحص بانتباه غرسا وليدا آذته الريح . وكم كان فى هذه الفكرة من نكران للذات مستكين ، حكيم ، مذعن .

كلا ، لم يكن ذلك ظمأ مجردا الى الوجود ، نابعا من قلب بشرى نهم ، ومتشبثا بأهداب الحياة . لم يكن فضولا جشعا لمعرفة ما سيحدث بعد الرحيل عن الحياة ، ولا غيرة حاسدة من الاجيال البعيدة القادمة . بل كان شوق روح فائقة الرهافة والسحر والحساسية ، روح تعانى اشد المعاناة من الوضاعة والفظاظة والملل والفراغ والعنف والوحشية . . من كل فظائع الحياة اليومية وجهالتها . ولهذا بالذات ، ففى آخر ايام عمره ، عندما أتته الشهرة الكبيرة ، واليسر النسبى ، والحب المخلص من كل ما كان ذكيا وموهوبا وشريفا فى المجتمع الروسى . . لم يتقوقع فى علياء العظمة الباردة ، ولم يتخذ موضع المتنبئ ، ولم يغرق فى العداوة المسمومة التافهة لشهرة الآخرين . كلا . بل تجسدت كل حصيلة خبرته

الحياتية الضخمة الشاقة ، كل احزانه وآلامه وافراحه وخيبة آماله فى هذا الحلم الرائع الحزين المتفانى بالسعادة المقبلة القريبة ، وان لم تكن سعادته .

— كم ستكون الحياة طيبة بعد ثلاثمائة عام !

ولهذا كان بنفس الدرجة من الحب يرعى الازهار ، وكأنما يرى فيها رمز الجمال المقبل ، ويتابع الدروب الجديدة التى يشقها العقل البشرى والمعرفة . كان يتطلع بسرور الى المبانى الجديدة المبتكرة التشييد ، والى السفن البحرية الكبيرة ، ويهتم بحيوية بشتى المخترعات الحديثة فى مجال التكنيك ، ولا يشعر بالملل فى صحبة الاخصائيين . كان يتحدث بقناعة راسخة عن ان الجرائم ، مثل القتل والسرقة والزنا ، تصبح أقل فأقل . وتكاد تختفى فى المجتمع المثقف حقا ، فى اوساط المدرسين والاطباء والكتاب . وكان يؤمن بأن الثقافة الحقيقية القادمة ستضفى النبل على البشرية .

٢

كان يعيش فى فناء الدار لقلق أنيس وكلبان . ومن الجدير بالذكر ان انطون بافلوفتش كان يحب كل الحيوانات ، ما عدا القطط ، التى كان يحس تجاهها بتقزز لا يقهر . أما الكلاب فكانت تتمتع بوده الخاص . كان يتذكر المرحومة «كاشتانكا» وكلبى ضيعة ميليخوفو «بروم» و«كينا» بحرارة وبعبارات كأنما كان يتذكر اصدقاء ماتوا . وكان احيانا يقول مبتسما بطيبة : «قوم رائعون هؤلاء الكلاب !»

وكان اللقلق طائرا يتسم بالعظمة والوقار . وكان يعامل

الناس عموما بريبة ، ولكنه كان على علاقة صداقة وطيدة مع أرسيني ، خادم انطون بافلوفتش . كان يجـــــرى وراء أرسيني في كل مكان ، في الفناء ، وفي البستان ، ويقفز اثناء ذلك بصورة مضحكة ، ويخفق بجناحيه المنشورين ، مؤديا رقصة اللقالق المميزة ، التي كانت تثير دائما ضحك انطون بافلوفتش .

وكان أحد الكلبين يدعى «توزيك» والآخر «كاشتـــان» ، تكريما لكلبة ضيعة ميليخوفو السابقة «كاشتانكا» . غير ان «كاشتان» هذا لم يكن يتميز بشيء ، اللهم الا بالغباء والكسل . وكان في مظهره الخارجي سمينا ، أملس وأخرق ، بلون بني فاتح ، وعينين صفراوين خاويتي النظرات . وكان ينبح على الغرباء في اثر «توزيك» ، ولكن ما أن تناديه ، وتمصمص له بشفتيك حتى ينقلب على ظهره فورا ويأخذ في التلوى على الارض تملقا . وكان انطون بافلوفتش يبعده بعصاه برفـــق عندما يلح عليه في طلب الملاطفة ، ويقول بصرامة مصطنعة :

— امش ، امش أيها الأحمق . . . لا تتمسح .

ويتوجه الى جليسه قائلا بأسى ، ولكن بعينين ضاحكتين :

— أتريد أن اهديك كلبا ؟ لن تصدق ، الى اى حد هو غبى .

ولكن حدث ذات مرة أن وقع «كاشتان» ، بغبائه المعهود وبطئه ، تحت عجلة العربة فهرست ساقه . واسرع الكلب المسكين راكضا الى الدار على ثلاث أرجل ، وهو يعوى بفظاعة . وكانت ساقه الخلفية ممزقة كلها ، والجلد واللحم مقطعين حتى العظم تقريبا والدم يتدفق منها . وعلى الفور غسل انطون بافلوفتش الجرح بماء دافئ ومطهر ، وسكب عليه

اليودفورم ، وضمده برباط شاش . وبأية رقة ومهارة وحذر كانت أنامله الكبيرة الحانية تلمس ساق الكلب الممزقة ، وبأى تأنيب وعطف كان يسب ويهدئ «كاشتان» المعول :

— آه ، آه ، يا لك من أحمق . . . كيف أصابك هذا ؟ . . مهلا ، لا تصرخ . . سيخف الألم . . . يــا مسكين . . . .

وقد أكون مضطرا الى ترديد اشياء معروفة ، بيد أن الحيوانات والاطفال ، بلا شك ، كانوا يتعلقون بتشيخوف غريزيا . وكانت تتردد عليه احيانا سيدة مريضة ، ومعها طفلة فى الثالثة او الرابعة من عمرها ، يتيمة ، تبنتها تلــك السيدة . وسرعان ما توطدت بين الطفلة الصغيرة والرجل الكهل الحزين المريض ، الكاتب المشهور ، صداقة خاصة ، جدية وصادقة . كانا يجلسان طويلا على الأريكة ، وفى الشرفة ، فكان انطون بافلوفتش يصغى بانتباه وتركيز ، بينما هى تثرثر بلا انقطاع بكلماتها الطفولية المضحكة ، وتعبث بلحيته بيديها الصغيرتين .

وكان بسطاء الناس الذين احتك بهم تشيخوف — الخدم ، والباعة ، والحمالون ، والجوالون ، وسعاة البريد — يعاملونه بحب قلبى كبير ، وليس بحب فحسب ، بل وبحس مرهف ، وبحدب وفهم . ولا يسعنى هنا الا ان أروى حادثة سمعتها من أحد شهودها العيان ، من موظف صغير فى «الشركة الروسية للملاحة والتجارة» ، وهو شخص قويم ، قليل الكلام ، والاهم من ذلك ، رجل تلقائى تماما فى الاحساس والتعبير عن انطباعاته .

كان ذلك فى الخريف . وكان تشيخوف ، العائد من

موسكو ، قد وصل لتوه بالسفينة من سيفاستوبول الى يالطا ، ولم يهبط من السفينة بعد . وكانت تلك لحظة الهرج والصياح والهرولة الفارغة التى تنشب دائما على سطح السفينة بعد انزال السلم الى البر . وفى تلك الفترة المضطربة استطاع الحمال التترى ، الذى كان يحمل دائما امتعة تشيخوف ، أن يسبق الجميع الى ظهر السفينة ، وقد رأى تشيخوف من بعيد ، وأن يعثر على امتعته . وكان على وشك النزول بها ، عندما انقض عليه فجأة مساعد القبطان العفى الشرس . ولم يكتف هذا الرجل بالسباب البذئ ، بل وفى دفقة غضب رئاسى ، أهوى بصفعة على وجه التترى المسكين .

ومضى محدثى يقول : «وهنا حدث موقف خرافى . فقد ألقى التترى بالامتعة على سطح السفينة ، وراح يضرب صدره بقبضتيه ويهم نحو مساعد القبطان بعينين جاحظتين ، ويصرخ بصوت أسمع الميناء كله :

— ماذا ؟ أتظن أنك ضربتنى أنا ؟ أنت ضربت هذا !

وكان يشير باصبعه الى تشيخوف . أما تشيخوف ، اتدرى ، فقد كان شاحبا تماما ، وشفتاه ترتعشان . واقترب من مساعد القبطان وقال له بصوت خافت ، وهو يشدد على كل كلمة ، وبتعبيرية غير عادية : «كيف لا تستحى !» وصدقنى ، اقسم لك ، لو كنت مكان هذا البحار ، لفضلت أن يبصقوا على وجهى عشرين مرة ، على ان اسمع «كيف لا تستحى» هذه ! وعلى الرغم من كل بلادة حس هذا البحار ، فقد أثّر عليه ذلك . اعتراه الاضطراب ، فدمدم بكلمات ما ، وفجأة اختفى . ولم يره أحد بعدها على السطح» .

كانت غرفة المكتب بدار تشيخوف فى يالطا صغيرة ، حوالى اثنتى عشرة خطوة طولا ، وست خطوات عرضا ، ومتواضعة ، ولكنها كانت تنفث سحرا من مذاق خاص . وفى مواجهة الباب مباشرة نافذة كبيرة مربعة فى اطار من الزجاج الاصفر الملون . وعلى يسار المدخل ، قرب النافذة ، ومتعامدا معها ، يقوم المكتب ، ومن خلفه حنية صغيرة ، تضيؤها من أعلى ، من تحت السقف ، كوة صغيرة . وفى الحنية كنبة تركية . ومن الجهة اليمنى ، وفى وسط الحائط مدفأة بنية بالبلاط القيشانى . وقد ترك فى كساء المدفأة من أعلى مكان صغير غير مكسو ، وقد رسم فيه باهمال ، ولكن برقة ، وبالالوان ، حقل مسائى باكوام دريس تمتد لتغيب فى الافق — تلك كانت لوحة للفنان ليفيتان * . ويليها فى نفس الناحية ، فى الركن تماما ، باب تلوح منه غرفة نوم انطون بافلوفتش العزوبية — حجرة مضيئة بهيجة ، ينبعث منها نقاء عذرى ما وبياض وطهارة . وكانت جدران غرفة المكتب مكسوة بورق داكن مذهب ، وبجوار المكتب علقت لافتة كتب عليها باحرف مطبعية «رجاء عدم التدخين» . والى يمين الباب مباشرة خزانة كتب . وعلى رف المدفأة بعض الحلى الصغيرة ، ومن بينها نموذج سفينة شراعية صنع باتقان . وعلى المكتب كثير من التماثيل الصغيرة الجميلة المصنوعة من العظم والخشب ،

---

* ليفيتان (١٨٦٠ — ١٩٠٠) مصور روسى شهير واستاذ فى المناظر . **المعرب** .

ولسبب ما تغلب بينها تماثيل الافيال . وعلى الجدران صور تولستوى وجريجوروفيتش وتورجينيف . وعلى طاولة صغيرة مستقلة ، على حامل على شكل مروحة ، العديد من صور الممثلين والكتاب . وعلى كلا جانبى النافذة تتدلى ستائر مستقيمة ثقيلة داكنة ، وعلى الارضية بساط كبير ، شرقى الزخارف . وهذه الكسوة تخفف حدة ملامح الاشياء وتضفى مزيدا من العتمة على غرفة المكتب ، ولكن بفضلها ينساب الضوء من النافذة على المكتب اكثر استواء ولطفا . وتفوح رائحة العطور المرهفة ، التى كان انطون بافلوفتش من عشاقها الدائمين . وتلوح من النافذة وهدة مكشوفة على شكل حدوة ، تنحدر طويلا الى البحر ، ويلوح البحر نفسه ، محاطا بمدرجات المنازل . ومن اليسار واليمين والخلف تتكتل الجبال على شكل نصف حلقة . وفى المساء عندما تشتعل الاضواء فى ضواحى يالطا الجبلية ، وعندما تختلط هذه الاضواء فى الظلمة بالنجوم فوق الرؤوس بحيث لا تميزها بعضها عن بعض ، يذكرك المكان المحيط كله ببعض احياء مدينة تفليس * . . .

ودائما ما يحدث فى الحياة هكذا : تتعرف بالشخص ، وتدرس هيئته الخارجية ، ومشيته ، وصوته ، وحركاته ، ومع ذلك لا تستطيع ان تسترجع ملامح وجهه الى الذاكرة الا كما رأيتها اول مرة ، رغم انها تختلف تماما عن ملامحه الراهنة . وهذا ما حدث لى ، فبعد عدة سنوات من تعرفى بأنطون بافلوفتش ، بقى فى ذاكرتى تشيخوف ذاك الذى رأيته اول

---

* تبيليسى حاليا ، وهى عاصمة جمهورية جورجيا . **المعرب** .

مرة ، فى ردهة فندق «لندن» فى أوديسا . وبدا لى آنذاك طويل القامة تقريبا ، نحيلا ولكن عريض العظام ، وصارم الملامح الى حد ما . ولم تبد عليه آنذاك آثار المرض ، باستثناء مشيته ، التى كانت ضعيفة ، وكأنما كان يسير بركبتين مقوستين قليلا . ولو سئلت ساعتها من يشبه للوهلة الاولى لقلت : يشبه طبيبا اقليميا او معلما فى مدرسة ريفية . ولكن كان فيه ايضا شىء ما بسيط ومتواضع ، شىء روسى ، شعبى للغاية ، فى وجهه ، ولهجته ، وعبارات حديثه ، كما كان يبدو فى حركاته نوع من الاهمال الموسكوفى الطلابى . وكان هذا الانطباع الاول هو ما بقى فى ذاكرة الكثيرين ومنهم أنا . ولكن بعد بضع ساعات رأيت تشيخوف آخر تماما . . تشيخوف الذى لم تستطع اية صورة فوتوغرافية أن تعبر عن وجهه ابدا ، والذى لم يفهمه او يحسه ، للأسف ، اى فنان ممن رسموا صوره . لقد رأيت أروع وأرهف وألهم وجه بشرى من الوجوه التى قابلتها فى حياتى .

قال الكثيرون فيما بعد ان عينى تشيخوف زرقاوان . وهذا خطأ شائع بصورة غريبة بين جميع من عرفوه . لقد كانت عيناه داكنتين ، عسليتين تقريبا ، وعلاوة على ذلك كان بؤبؤ العين اليمنى اكثر قتامة ، مما كان يضفى على نظرة انطون بافلوفتش ، عند لفتات معينة برأسه ، تعبير شرود . وكان جفناه يتهدلان قليلا فوق عينيه ، وهو ما يلاحظ كثيرا لدى المصورين ، والصيادين ، والبحارة ، اى الاشخاص ذوى النظرة المركزة . وبفضل العوينات — pince-nez — وطريقته فى النظر من خلال اسفل عدساتهما ، رافعا رأسه قليلا ، كان وجه انطون بافلوفتش كثيرا ما يبدو صارما . ولكن

كان ينبغي ان ترى تشيخوف في لحظات أخرى (وما أندرها للأسف في سنواته الاخيرة) عندما كان يتملكه المرح ، وعندما كان ينحي العوينات بحركة سريعة من يده ويتمايل الى الامام والى الخلف في كرسيه في نوبة ضحك لطيف صـــادق عميق . عندها كانت عيناه تصبحان شبه مستديرتين ، مشعتين ، بتجاعيد طيبة عند اطرافهما الخارجية ، وكانت هيئته كلها آنذاك تذكرك بتلك الصورة المعروفة له في صباه ، حيث يبدو بلا لحية تقريبا بنظرة باسمة ساذجة مقطبة من عينيـــن قصيرتي النظر . ومن المدهش انني في كل مرة انظر فيها الى هذه الصورة ، لا أستطيع أن اتخلص من فكرة ان عيني تشيخوف كانتا زرقاوين بالفعل .

وكان مما يلفت النظر في هيئة انطون بافلوفتش جبهته ، العريضة ، البيضاء ، الناعمة ، الرائعة التكوين . وفي آخر ايام حياته فقط استقرت عليها ، بين الحاجبين ، عند نقطة التقائهما بالأنف ، تقطيبتان . أما أذنا تشيخوف فكانتا كبيرتين ، غير جميلتي التكوين ولكنني لم أر أذنين ذكيتين مهذبتين مثلهما عند أحد آخر ، الا عند شخص واحد فقط هو تولستوي . . .

واذكر الآن بكل جلاء مصافحة راحته الكبيرة الجافة الدافئة ، المصافحة التي كانت دائما قوية ، رجولية ، لكنها في الوقت نفسه متزنة ، كأنما تخفي شيئا ما . كذلك أتصور خطه ، الرفيع ، الخالي من الضغط ، والدقيق للغاية ، والذي يبدو فيه للوهلة الاولى الاهمال والقبح ، ولكن اذا تأملته جيدا تجده واضحا ، رقيقا ، أنيقا ومميزا ، مثلما كان كل شيء في تشيخوف .

كان انطون بافلوفتش ينهض مبكرا جدا ، على الاقل في الصيف . ولم يره أحد ابدا ، حتى أقرب الناس اليه ، مهمل الهندام . كذلك لم يكن يحب شتى التحررات المنزلية ، كأرتداء الشبشب والروب والسترات المنزلية . وفي الساعة الثامنة او التاسعة كان من الممكن ان تراه يذرع غرفة المكتب ، او جالسا الى طاولة الكتابة ، وكما هو دائما ، في ثياب أنيقة بسيطة لا تشوبها شائبة .

ويبدو أن افضل اوقات العمل لديه كانت من الصباح الى الغداء ، رغم أن احدا ، على ما يبدو ، لم يتمكن من رؤيته وهو يكتب . وفي هذه الناحية كان كتوما وخجولا بصورة غير عادية . ولكن في اوقات الصباح الجميلة الدافئة لم يكن من النادر ان تراه جالسا على أريكة خلف المنزل ، في اكثر بقعة انزواء في البستان ، حيث تمتد أصص نبات الدفلى بحذاء الجدران البيضاء . كان يجلس هناك ساعة او اكثر ، وحيدا ، بلا حراك ، وقد وضع يديه على ركبتيه ، ويتطلع امامه الى البحر .

وحوالي الظهر ، وما بعد ذلك ، كانت داره تبدأ في الامتلاء بالزوار . وفي تلك الفترة كانت فتيات يرتدين قبعات بيضاء من اللباد ، عريضة الحواف ، يقفن بالساعـات ، فاغرات الافواه ، متعلقات بالشباك الحديدية التي كانت تفصل الدار عن الطريق . وكان يزور تشيخوف اناس من شتى الالوان : علماء ، وأدباء ، ورجال المجالس المحلية ، واطبـاء ، وعسكريون ، ومصورون ، وعشاق وعاشقات فنه ، واساتذة ، واناس من المجتمع الراقي ، واعضاء مجلس الشيـوخ ،

وقساوسة ، وممثلون ، والله يعلم من غيرهم . وكثيرا ما كانوا يقصدونه طلبا للمشورة ، او للتوسط ، أما اكثر الطلبات فكانت بخصوص قراءة مؤلفاتهم . وكان يأتى اليه مختلف مراسلى الصحف ومجرد فضوليين . وكان هناك ايضا اولئك الذين يزورونه لغرض واحد : «ان يوجهوا هذه الموهبة الكبيرة الضالة نحو الاتجاه الفكرى الواجب» . وكان يأتى اليه السائلون الفقراء ، الحقيقيون والمزيفون . ولم يكن هؤلاء يلقون رفضا ابدا . ولا اعتقد أننى فى حل من ذكر الحالات الخاصة ، ولكنى أعرف معرفة راسخة وعن يقين ان كرم تشيخوف ، وخاصة ازاء الشبان الدارسين ، كان اكبر بما لا يقارن من الامكانيات التى كانت تسمح له بها موارده الاكثر من متواضعة .

كان يزوره أناس من جميع الفئات والمعسكـــــرات والاتجاهات . ورغم الارهاق الذى تسببه هذه الدوامة البشرية الدائمة ، فقد كان فى ذلك ايضا شيء ما جذاب بالنسبة لتشيخوف : اذ كان يستقى أخبار كل ما يحدث فى تلك اللحظة فى روسيا من المنابع ، من مصادرها الاولى . اوه ، كم كانوا على خطأ اولئك الذين اعتبروه على صفحات الجرائد وفى خيالهم شخصا لامباليا بالاهتمامات الاجتماعية ، وبحياة المثقفين القلقة ، وبقضايا الواقع المعاصر الملحة . لقد كان يتابع كل شيء بيقظة وتأمل . . كان يقلق ويتعذب ويعانى كل ما كان يعانيه أفضل الروس . وكان ينبغى أن ترى ، فى تلك الايام اللعينة السوداء ، عندما كانوا يتحدثون امامه عن الظواهر الخرقاء المظلمة والشريرة فى حياتنا الاجتماعية . . كان ينبغى ان ترى كيف كان يقطب حاجبيه الكثيفين بصرامة وأسى ، وكيف كان وجهه يطفح بالعذاب ، واى حزن روحى عميق

كان يشع من عينيه الرائعتين .

ومن المناسب ان اشير هنا الى احدى الوقائع ، التى تلقى الضوء بصورة رائعة ، فى اعتقادى ، على موقف تشيخوف من حماقات الواقع الروسى . فالكثيرون يذكرون رفضه لقب العضو الفخرى لاكاديمية العلوم ، ويعرفون بواعث هذا الرفض ، ولكن القليلين يعرفون برسالته التى بعث بها الى اكاديمية العلوم بهذا الصدد ، تلك الرسالة الرائعة ، المكتوبة باعتزاز بسيط ونبيل ، وبغضب متزن لروح عظيمة :

«فى ديسمبر من العام الماضى تلقيت نبأ بانتخاب أ . م . بيشكوف * عضوا فخريا للأكاديمية ، فسارعت الى رؤية أ . م . بيشكوف ، الذى كان موجودا آنذاك فى القرم ، وكنت أول من حمل اليه نبأ انتخابه وأول من هنأه . وبعد ذلك بقليل ، نشر فى الصحف ، انه نظرا لاستدعاء بيشكوف للاستجواب حسب المادة ١٠٣٥ ، فان الانتخابات تعتبر باطلة ، وعلاوة على ذلك فقد ذكر بالدقة ان هذا الاخطار صادر عن اكاديمية العلوم . ولما كنت عضوا فخريا فى الاكاديمية ، فان هذا الاخطار صادر جزئيا عنى ايضا . انا الذى هنأته باخلاص ، وانا ايضا الذى اعتبرت الانتخابات باطلة — ان هذا التناقض لا يستسيغه ادراكى ، ولن أجبر ضميرى على القبول به . كما أن الاطلاع على المادة ١٠٣٥ لم يوضح لى شيئا .

---

* بيشكوف هو الاسم الحقيقى للكاتب مكسيم جوركى . **المعرب** .

وبعد تفكير طويل لم استطع ان اتوصل الا الى قرار واحد ، قرار صعب وأليم على نفسى ، ألا وهو ان أطلب نزع لقب العضوية الفخرية عنى .

أ . تشيخوف .»

ويا للغرابة ، الى اى حد لم يفهموا تشيخوف ! فهو ، هذا «المتشائم المنتهى» — كما كانوا يصفونه — لم يتخل ابدا عن الأمل بمستقبل مشرق ، ولم يكف ابدا عن الايمان بالعمل الدؤوب الخلاق ، وان كان غير منظور ، لأفضل قوى وطننا . فمن ذا الذى لا يذكر ، ممن يعرفونه عن قرب ، تلك العبارة المحببة المعهودة ، التى كان كثيرا ما يرددها فجأة ، واحيانا حتى فى غير موقعها المناسب من الحديث ، بنبرته الواثقة :

— اسمع ، أتدرى ؟ سيكون فى روسيا حقا دستور بعد عشر سنوات .

نعم ، حتى هنا كانت ترن لديه نفس النبرة عن المستقبل البهيج الذى ينتظر البشرية ، النبرة التى تردد صداها فى جميع مؤلفاته فى السنوات الاخيرة .

ولا بد من ذكر الحقيقة . . فلم يكن الكثير من الزوار يرحمون وقت انطون بافلوفتش وأعصابه ، بل وكان بعضهم يبلغ حد القسوة . واذكر واقعة مذهلة ، غير معقولة كالنكتة تقريبا ، بذلك الاحتياطى الهائل من الابتذال وقلة الذوق ، الذى كشف عنه شخص من المفروض أنه من عداد المثقفين .

كان ذلك فى صباح صيفى جميل ساكن وطيب ولكنه حار . وكان انطون بافلوفتش فى مزاج خفيف حى وخالى البال بصورة نادرة . واذ بسيد بدين (اتضح فيما بعد انه معمارى)

يهبط عليه ، وكأنما من السماء ، ويرسل اليه بطاقته راجيا تحديد موعد للزيارة . ويستقبله انطون بافلوفتش ، فيدخل هذا المعمارى ويقدم نفسه ، ودون ان يلقى بالا الى لافتة «رجاء عدم التدخين» ، ودون أن يستأذن ، يشعل سيجارا المانيا ضخما كريه الرائحة . وبعد أن يوجه ، كواجب محتوم ، بعض المجاملات الثقيلة كالدبش الى صاحب الدار ، يشرع فى عرض المسألة التى جاء من أجلها .

اما المسألة فهى ان ابن هذا المعمارى ، التلميذ بالصف الثالث بالمدرسة ، كان يلعب منذ ايام فى الشارع ، وكما هى عادة الاولاد كان يمسك بكل ما يقابله أثناء ركضه : بأعمدة النور ، بأركان المنازل ، بالأسيجة . وفى النهاية وقعت يده على سلك شائك فجرح راحته . وقال المعمارى فى ختام روايته : «وهكذا يا انطون بافلوفتش الموقر ، فأننى أود أن ارجوك ان تكتب عن ذلك خبرا فى الصحف . الحمد لله ان كولا جرح يده فقط ، ولكنها حادثة ! كان من الجائـــــز أن يصيب شريانا هاما ، فكيف كانت ستكون النتيجة اذن ؟» واجابه تشيخوف : «نعم ، كل هذا محزن جدا ، ولكنى للأسف لا استطيع أن اساعدك بشيء . فأنا لا اكتب ، ولم اكتب ابدا ، أخبارا صحفية . انا اكتب قصصا فقط» . ففرح المعمارى وقال : «هذا افضل ، هذا افضل ! ادخل هذه الحادثة فى احدى القصص . وانشر اسم صاحب البيت بالكامل . بل وبامكانك ان تنشر اسمى ايضا ، لا مانع عندى . . . أو كلا . . . افضل مع ذلك الا تنشر اسمى بالكامل ، ضع فقط حرف (س) . نعم ارجوك . . فأنت تعرف انه لم يبق لدينا سوى كاتبين ليبراليين حقيقيين : انت

والسيد (ن)» — (وذكر المعماري اسم أحد الأدباء السريعي الاقلام) .

انا لم استطع ان انقل ولو واحدا على مائة من تلك الاشياء المبتذلة الرهيبة التي ذكرها المعماري المهان في مشاعره الابوية ، لأن وقت زيارته طال حتى انتهى من تدخين سيجاره كله ، واضطروا بعد ذلك الى تهوية غرفة المكتب طويلا من ذلك الدخان الكريه الرائحة . ولكن ما أن انصرف حتى خرج انطون بافلوفتش الى البستان متكدرا تماما ، وقد احمرت وجنتاه . كان صوته متهدجا عندما عاتب شقيقته ماريا بافلوفنا واحد المعارف الذي كان جالسا الى جوارها على الاريكة :

— الم يكن في وسعكم يا سادة أن تخلصوني من هذا الرجل ؟ كان من الممكن أن تقولوا ان احدا يستدعيني الى مكان ما . لقد عذبني تماما .

واذكر ايضا — وأقر انني شريك في الذنب — عندما جاء الى تشيخوف جنرال ما ، يشغل وظيفة مدنية ، مغرور بنفسه ، ليعرب له عن استحسانه كقارئ . ويبدو أنه أراد ان يدخل السرور على قلب انطون بافلوفتش فبدأ ، وقد باعد بين ركبتيه ، معتمدا عليهما بقبضتي ذراعين ملويتين ، في كيل الهجاء لكاتب شاب ، كانت شهرته الضخمة في بواكير نموها . وعلى الفور انكمش تشيخوف وانطوى على نفسه ، وظل طوال الوقت جالسا مرخيا بصره ، وبوجه بارد ، دون أن يتفوه بكلمة واحدة . ومن نظرة العتاب السريعة وحدها ، التي ألقاها عند الوداع على الشخص المعرفة الذي جاء بالجنرال ، كان من الممكن أن ترى مدى الحزن الذي سببته له هذه الزيارة .

وبمثل هذا الخجل والبرود كان يتلقى المديح الذى كانوا يغدقونه عليه . كان آنذاك يذهب الى الحنّية فيجلس على الكنبة ، وترتعش اهدابه ثم تهبط ببطء فلا ترتفع بعدها ، بينما يصبح وجهه جامدا مكفهرا . واحيانا ، وعندما يكون هذا الاعجاب الزائد صادرا عن شخص اكثر قربا منه ، كان تشيخوف يحاول تحويل الحديث الى مزاح او الى اتجاه آخر . . .

٥

كان الغداء فى دار تشيخوف فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، فى الطابق الارضى ، فى غرفة الطعام الباردة المضيئة . وكان يحضر الغداء مدعوون بصفة دائمة تقريبا . فقد كان من الصعب مقاومة جاذبية هذه الاسرة البسيطة الرقيقة اللطيفة . فهنا تحس بالعناية الحانية الدائمة والحب ، الخاليين من وطأة الكلمات الضخمة العالية ، تحس بالذوق المدهش ، والرهافة والاهتمام ، والتى لا تخرج مع ذلك ابداً عن حدود العلاقات العادية التى تبدو وكأنها مبسطة عن عمد . وعلاوة على ذلك فقد كان ملحوظا دائما الخوف التشيخوفى الاصيل من كل من هو منفوخ ، طنان ، زائف ، مبتذل . فى هذه الاسرة كنت تشعر بالخفة والدفء والراحة ، ولذلك فأنا افهم تماما ذلك الكاتب الذى قال انه وقع فى حب آل تشيخوف جميعا دفعة واحدة .

كان انطون بافلوفتش قليل الأكل للغاية ، ولا يحب الجلوس الى المائدة ، بل كان طوال الوقت يذرع الغرفة من النافذة الى الباب وبالعكس . وكثيرا ما كانت يفجينيا ياكوفلفنا (والدة انطون بافلوفتش) ، حينما تبقى فى غرفة

المائدة مع شخص ما على انفراد ، تقول بصوت خافت وبحزن قلق فى نبرة صوتها :

— مرة أخرى لم يأكل انطوشا شيئا على الغداء .

كان كريما جدا ، ويحب ان يبقى لديه الضيوف لتناول الغداء ، ويعرف كيف يضيِّفهم بطريقته الخاصة ، ببساطة وبشاشة . وكان يحدث ان يتوقف خلف كرسى أحد الجالسين الى المائدة ويقول له :

— اسمع ، اشرب قليلا من الفودكا . انا كنت احبها عندما كنت شابا وصحيحا . كنت اجمع الفطر طول الصباح ، ويهدنى التعب حتى لا تحملنى قدماى الى البيت الا بالكاد ، وقبل الغداء اشرب كأسين او ثلاثا . رائع ! . .

وبعد الغداء كان يتناول الشاى فى الطابق العلوى ، فى الشرفة المكشوفة ، او فى غرفة مكتبه ، او كان يهبط الى البستان ، فيجلس هناك على الاريكة ، فى معطفه وبعصاته ، وقد اسدل قبعته اللينة السوداء حتى عينيه تماما ، وينظر من تحتها بعينين مزرورتين .

وكانت هذه الساعات اكثر الاوقات ازدحاما بالناس . كانوا لا يكفون عن السؤال بالهاتف عما اذا كان من الممكن رؤية انطون بافلوفتش ، ودائما ما كان يأتى أحد ما . كان يأتى اشخاص غير معروفين ، يطلبون صورا لتشيخوف او اهداءات على الكتب . وكانت تقع احيانا بعض المفارقات المضحكة .

فقد جاءه ذات مرة «اقطاعى من تمبوف» ، كما سماه تشيخوف ، طلبا للعلاج . وحاول انطون بافلوفتش سدى ان يؤكد له ، انه ترك العلاج زمن طويل وأصبح متخلفا عن الطب ، ونصحه عبثا بأن يعرض نفسه على طبيب ذى

خبرة ، فقد أصر «اقطاعى تمبوف» على رأيه بأنه لا يثق فى أى اطباء آخرين غير تشيخوف . واضطر انطون بافلوفتش رغما عنه أن يقدم له بعض النصائح البسيطة التى لا ضير منها على الاطلاق . وعند انصرافه وضع «اقطاعى تمبوف» على الطاولة روبلين ذهبيين ، ولم يرض ابدا أن يستردهما بالرغم من كل محاولات انطون بافلوفتش . واضطر انطون بافلوفتش الى الرضوخ . وقال له انه لا يريد ولا يعتبر من حقه ان يأخذ هذه النقود كأتعاب ، ولكنه سيأخذها لانفاقها فى صالح جمعية يالطا الخيرية ، وكتب له على الفور ايصالا باستلامها . فاتضح ان هذا بالضبط ما كان يريده «اقطاعى تمبوف» . اذ خبأ الايصال فى محفظته بعناية ، وقد تهللت اساريره ، وعندها اعترف بأن الغرض الوحيد من زيارته كان الرغبة فى الحصول على اهداء بخط تشيخوف . وقد روى لى انطون بافلوفتش بنفسه هذه الواقعة عن هذا المريض الطريف اللحوح بنبرة شبه ضاحكة وشبه غاضبة .

وأعود فأقول ان كثيرين من هؤلاء الزوار كانوا يرهقون تشيخوف بما فيه الكفاية ويثيرون أعصابه ، ولكنه ، بما تميز به من تهذيب مدهش ، كان يعامل الجميع باتزان واهتمام صبور ، وكان فى متناول كل من يبغى رؤيته . وكان هذا التهذيب يصل احيانا الى ذلك الحد المؤثر الذى يجاور ضعف الارادة . فعلى سبيل المثال أهدته احدى السيدات ، وكانت سيدة طيبة كثيرة الهرج ، من كبار المغرمات به ، فى عيد ميلاده على ما اظن ، تمثالا ضخما لكلب جالس ، مصنوع من الجبس الملون ، بارتفاع ذراع ونصف عن الارض ، اى اكبر بحوالى خمس مرات من الكلب الطبيعى . ووضعوا هذا الكلب

فى الطابق الأسفل ، على فسحة قرب غرفة الطعام ، فاستقر هناك بسحنة غاضبة مكشرا عن أنيابه ، ملقيا الرعب بجلسته الجامدة فى قلب كل من ينسى وجوده .

وقال تشيخوف معترفا :

— اتدرى ، أنا نفسى اخاف من هذا الكلب الحجرى . ولكن من المحرج أن أرفعه ، فقد تغضب . لا بأس ، فليعش هنا . . . .

وفى بعض الاوقات كان يرهقه تماما الحاح شتى المادحين والذامين بل وحتى الناصحين . وقد كتب مرة فى احدى رسائله شاكيا : «لدى جمهور من الزوار حتى ان رأسى يدور . ومن الصعب علىّ ان اكتب» . ولكنه مع ذلك لم يكن غير مبال بمشاعر الحب والاحترام المخلصة ، وكان دائما يميزها عن الثرثرة المنافقة الفارغة . وذات مرة عاد بمزاج مرح جدا من الكورنيش ، حيث كان يتنزه احيانا ، وروى بحيوية كبيرة :

— كان لدى الآن لقاء رائع . على الكورنيش اقترب منى فجأة ضابط مدفعية ، شاب صغير بعد ، ملازم . قال «هل انتم انطون بافلوفتش تشيخوف ؟» — «نعم أنا . اى خدمة ؟» — «عفوا على الازعاج ، ولكنى أريد منذ وقت طويل أن اصافحكم !» — واحمر وجهه . ياله من شاب رائع ، وما أرق وجهه . وصافحنا بعضنا بعضا وافترقنا .

كان انطون بافلوفتش يصبح فى أحسن حالاته مع حلول المساء ، فى حوالى الساعة السابعة ، عندما يجتمعون فى غرفة الطعام مرة أخرى لتناول الشاى مع عشاء خفيف . وهنا كان يُبعث فيه — ولكن أقل فأقل مع كل عام — تشيخوف القديم ، المرح بلا انتهاء ، الحاضر البديهة ، وذو الفكاهة الصبيانية الدفاقة الآسرة .

كان آنذاك يرتجل قصصا كاملة ، يجعل ابطالها من معارفه ، وكان يقبل بصفة خاصة على اقامة حفلات عرس وهمية ، تنتهى احيانا بأن يقول العريس عرضا فى صباح اليوم التالى اثناء تناول الشاى بنبرة عملية ولامبالية :

— أتدرين يا عزيزتى ، فلنلبس ثيابنا بعد الشاى ونذهب الى مكتب الشهد العقارى . فما الداعى لأن تشغلى نفسك بأمور نقودك ؟ دعيها لى .

وكان يبتكر اسماء مدهشة ، تشيخوفية . وكان يحب ايضا ان يجعل الكتّاب ، مازحا ، اكبر سنا مما هم فى الواقع . . .

ولكن مزاحه لم يكن يترك فى القلوب اطلاقا اية آثار مؤلمة . كذلك فان هذا الرجل الرقيق بصورة مدهشة لم يسبب فى حياته ابدا ولا أدنى اذى عن قصد لأى أحد من الاحياء .

وعادة ، بعد العشاء ، كان يستبقى لديه فى غرفة مكتبه أحد الاشخاص لنصف ساعة او ساعة . وتشعل الشموع على طاولة الكتابة . وفيما بعد ، واذ ينصرف الجميع ويبقى وحده ، يظل الضوء يلوح طويلا من نافذته الكبيرة . فهل كان يكتب آنذاك ، ام يقلب صفحات مفكراته ، مسجلا فيها انطباعات النهار . . هذا ما لم يكن معروفا ، فيما يبدو ، لأى شخص .

٦

وعموما فنحن لا نعرف شيئا تقريبا لا عن أسرار ابداعه فحسب ، بل ولا حتى عن اساليب عمله الخارجية العادية . وفى هذا الصدد كان انطون بافلوفتش كتوما

وصموتا الى حد غريب . اذكر مرة انه قال عرضا عبارة ذات مغزى كبير :

— نجاك الله من شر ان تقرأ لأحد ما مؤلفاتك قبل أن تنشر . لا تقرأها لأحد حتى من بروفات الطبع .

وهذا ما كان يفعله دائما ، وان كان يستثنى من ذلك احيانا زوجته وشقيقته . ويقال انه كان فيما مضى اكثر كرما فى هذا الشأن .

كان ذلك فى الفترة التى كان يكتب فيها كثيرا جدا وبسرعة كبيرة . وقد قال هو نفسه انه كان يكتب آنذاك قصة قصيرة كل يوم . وعن هذا الأمر ايضا تحدثت يفجينيا ياكوفلفنا تشيخوفا ، فقالت : «عندما كان انطوشا طالبا بعد ، كان يحدث ان يجلس صباحا لتناول الشاى . وفجأة يستغرق فى التفكير ، ويحدق احيانا مباشرة فى عينى جليسه ، ولكننى أعرف انه لم يعد يرى شيئا . ثم يستخرج المفكرة من جيبه ، ويكتب فيها بسرعة . ثم يستغرق فى التفكير من جديد . . .»

بيد ان تشيخوف فى السنوات الاخيرة اخذ يحاسب نفسه بمزيد من الصرامة والتشدد ، فكان يستبقى القصص لديه عدة سنوات وهو لا يكف عن تنقيحها واعادة صياغتها ، ومع ذلك ، وبالرغم من هذا العمل المدقق كانت بروفات المطبعة العائدة منه تبدو مليئة بالعلامات والاشارات والاضافات . ولكى ينجز العمل الادبى كان ينبغى أن يكتبه دون انقطاع . وقد قال ذات مرة : «اذا ما تركت المؤلف فترة طويلة ، فاننى لا استطيع بعد ذلك أن انهيه . وعندها احتاج الى ان أبدأ من جديد» .

من اين كان يستمد شخصياته ؟ واين كان يجد ملاحظاته

ومقارناته ؟ وأين صاغ لغته الرائعة ، الوحيدة فى الادب الروسى ؟ انه لم يبح ولم يكشف لأحد ابدا عن دروب ابداعه . ويقال انه ترك بعده كثيرا من دفاتر المفكرات . . فهل سيتمكن أحد ، مع مرور الزمن ، من العثور فيها على مفاتيح لهذه الاسرار المكنونة ؟ ربما . . أو ربما بقيت الى الابد فى طى الكتمان ؟ من يدرى ! على اى حال علينا ان تقنع فى هذا الصدد بالتلميحات والافتراضات الحذرة فحسب .

أما انا فاعتقد انه طوال الوقت ، من الصباح الى المساء ، وربما حتى ليلا ، اثناء النوم او فى ساعات الأرق ، كان يجرى داخل تشيخوف عمل غير مرئى ولكنه دؤوب ، بل واحيانا غير مدرك ، من التأمل والتمحيص والتذكر . كان يجيد الاصغاء والسؤال كما لا يجيدهما أحد غيره ، ولكن كثيرا ما كان يمكن أن تلاحظ ، فى ابان حديث شيق ، كيف كانت نظرته المنتبهة والودية تصبح فجأة جامدة وعميقة ، كأنما غاصت فى داخله لتتأمل شيئا غامضا وهاما يدور هناك فى نفسه . وفى تلك اللحظات كان انطون بافلوفتش يلقى بأسئلته الغريبة ، المذهلة بفجائيتها ، والتى لا تتفق أبدا ومجرى الحديث ، والمحرجة الى درجة كبيرة للكثيرين . فقد كان الحديث يدور مثلا عن الماركسيين الجدد ، وما زال يدور عنهم ، واذ به يسأل فجأة : «اسمع ، ألم تزر أبدا مزرعة خيول ؟ لا بد أن تزورها . ذلك طريف جدا» . او يعيد طرح السؤال الذى اجابوه عنه توا .

لم يكن تشيخوف يتميز بذاكرة ظاهرية ، ميكانيكية . وأنا اقصد تلك الذاكرة الضحلة التى يتمتع بها عادة النساء والفلاحون بدرجة كبيرة ، والتى تنحصر فى تذكر من كان يرتدى

ماذا ، وهل كانت لديه لحية او شوارب ، وما نوع سلسلة ساعته ، واى حذاء كان ينتعله ، وما لون شعره . فهذه التفاصيل لم تكن مهمة بالنسبة له أبدا او شيقة على الاطلاق . ولكنه فى المقابل كان يتناول الشخص كله دفعة واحدة ، ويحدد بسرعة ودقة ، وكأنه كيميائى خبير ، وزنه النوعى وصفاته وتركيبه ، ويعرف عندها عن يقين كيف يحدد جوهره الرئيسى الداخلى بلمستين او ثلاث . . .

اننى على ثقة راسخة بأن تشيخوف كان يتحدث بنفس الدرجة من الانتباه ، وبقدر متساو من نفاذ البصيرة والفضول مع العالم والبائع الجوال ، مع الشحاذ والأديب ، مع الشخصية الاقليمية الكبيرة والراهب المريب ، مع الخولى وموظف البريد الصغير المتولى مراسلاته . أليس هذا هو السبب فى أن الاستاذ فى قصصه يفكر ويتحدث فعلا كأستاذ عجوز ، والمتشرد كمتشرد حقيقى ؟ وأليس هذا هو السبب فى انه ظهر بعد وفاته مباشرة عدد هائل من الاصدقاء «الأصفياء» الذين كان تشيخوف مستعدا من اجلهم ، على حد زعمهم ، لأن يقتحم النيران او يقفز الى الماء من متن السفينة .

وفى اعتقادى انه لم يفتح قلبه او يعطه تماما لأى انسان (رغم انه كانت هناك اسطورة عن شخص ما ، صديق حبيب وعزيز عليه ، وكان موظفا فى تاجانروج) . ولكنه كان يعامل الجميع ببشاشة ، بلا اهتمام بهم كأصدقاء ولكن فى الوقت نفسه بأهتمام كبير ، ربما كان عن غير وعى .

كان انطون بافلوفتش كثيرا ما يستقى كلماته التشيخوفية ، وتلك الملامح المذهلة فى ايجازها ودقتهـــــــــــــا ، من الحياة مباشرة . . . اذكر اننا كنا نتحدث ذات مرة عن

شاعر موسكوفى توفى منذ وقت طويل ، فتذكره تشيخوف بجلاء ، وتذكر خليلته ، وغرف منزله الخاوية ، وكلبه «دروجوك» من فصيلة سان ــ برنارد ، الذى كان يعانى دائما من اضطراب المعدة . قال انطون بافلوفتش مبتسما بمرح : «طبعا ، اذكره جيدا . فى الساعة الخامسة دائما كانت تلك المرأة تدخل اليه وتسأل : «ليودور ايفانيتش ، يا ليودور ايفانيتش ، ماذا ، ألم يحن الوقت لتقديم البيرة ؟» وعندئذ قلت أنا بتهور : «آه ، اذن فمن هنا أخذت ذلك الموضع فى روايتك «عنبر رقم ٦» . فأجاب انطون بافلوفتش بعدم رضى : «نعم ، من هنا» .

وأنا لا أريد أن أقول انه كان **يبحث** عن النماذج كغيره من الأدباء . ولكنى اعتقد انه كان دائما وفى كل مكان يرى مادة للملاحظات ، وكان ذلك يحدث دون ارادة منه ، وربما كثيرا حتى عن غير رغبة ، وذلك حسب عادته القديمة المتأصلة التى لم تستأصل ابدا ، عادة تأمل الناس وتحليلهم وتعميمهم . ويبدو ان هذا العمل الدفين كان يحمل فى طياته لتشيخوف كل عذاب وافراح عملية الابداع الخالدة اللاواعية .

لم يكن يبوح لأحد بانطباعاته ، كذلك لم يفصح لأحد عما كان ينوى أن يكتبه وكيف سيكتبه . وكان من النادر ايضا أن يبدو فى كلامه أثر الفنان الروائى . فكان يستخدم فى حديثه ، الى حد ما عن قصد ، والى حد ما غريزيا ، تعابير عادية ، متوسطة ، دارجة ، ولا يلجأ لا الى التشبيهات ولا الى الصور . كان يحافظ على كنوزه فى نفسه ولا يدعها تتبدد فى رغوة الحديث ، وفى هذا كان الفارق الضخم بينه وبين اولئك الكتاب الذين يتحدثون عن موضوعاتهم أفضل بكثير مما يكتبونها .

واعتقد ان ذلك كان يرجع الى طبيعته المتحفظة ، وايضا الى خجله الخاص . فهناك اشخاص لا يطيقون بطبيعتهم ويتعذبون خجلا من الحركات والاوضاع وتعابير الوجه والكلمات الصارخة التعبير ، وكان انطون بافلوفتش يتحلى بهذه الصفة الى اقصى درجة . وربما يكمن فى هذا مفتاح لغز ما كان يبدو انه عدم اهتمام منه بقضايا النضال والاحتجاج ، ولامبالاة بالاهتمامات اليومية الملحة التى اثارت وكانت تثير المثقفين الروس جميعا . كان يعيش فى داخله خوف من الحماسة وما يرتبط بها من المؤثرات المسرحية نوعا ما . ولا يسعنى ان اقارن ذلك الا بأمر واحد : برجل يحب امرأة بكل الحرارة والرقة والعمق التى يستطيع ان يحب بها شخص مرهف الاحاسيس كبير العقل والموهبة . ولكنه لن يجرؤ ابدا على أن يبوح لها بذلك بكلمات ضخمة طنانة ، بل ولا يمكن حتى أن يتصور كيف يجثو على ركبتيه ، ويضع احدى يديه على قلبه ، ويشرع فى الكلام بصوت متهدج لعاشق مقرّب . ولهذا فهو يحب فى صمت ، ويتعذب فى صمت ، ولن يجرؤ أبدا على الاعراب عما يمكن أن يقوله بوقاحة وصوت عال ، وحسب جميع قواعد الالقاء ، غندور متوسط الدرجة .

٧

كان انطون بافلوفتش على الدوام حنونا ، رقيقا ، شديد الاهتمام بالأدباء الشبان المبتدئين . ولم يكن هناك من يخرج من عند تشيخوف مسحوقا من موهبته الضخمة وصغر شأنه هو . ولم يحدث ابدا ان قال لأحد : «اصنع كما اصنع أنا .

انظر كيف اتصرف» . واذا ما اشتكى له أحد ما فى حالة يأس : «وهل يستحق ان اكتب اذا ما ظللت طوال الحياة «كاتبنا الشاب» و«الواعد» ، كان يرد عليه بهـــــدوء وجدية :

— لا يمكن ان يكتب الجميع يا عزيزى مثل تولستوى .

وكان اهتمامه مؤثرا حقا . فقد وصل أحد الكتـــاب المبتدئين الى يالطا ، واستأجر غرفة لدى أسرة يونانية كبيرة العدد وصاخبة في مكان ما خلف «أووتا» ، خارج المدينة . وذات مرة اشتكى لتشيخوف من صعوبة الكتابة فى مثل هذا الجو ، فأصر تشيخوف أن يأتى اليه الكاتب منذ الصباح ويعمل فى الطابق الارضى بجوار غرفة الطعام . وقال له بابتسامته الآسرة : «سوف تكتب انت فى الأسفل ، وانا فى الأعلى . وسوف تتغدى عندى ايضا . وعندما تفرغ من الكتابة فلا بد أن تقرأ لى ما كتبت ، او اذا سافرت ، ارسل الى ولو بروفات الطبع» .

وكان يقرأ كثيرا الى حد مدهش ، ويذكر دائما كل ما قرأه ولا يخلط بين الاسماء ابدا . واذا سأله الكتاب عن رأيه فى اعمالهم ، كان يمتدحهم دائما ، لا لكى يتخلص منهم ، بل لأنه كان يعرف كم يقص النقد الحاد الاجنحة الضعيفة بقسوة ، حتى ولو كان صحيحا ، وأيـــــة حيوية وأمل يبعثهما المديح الضئيل احيانا . وفى مثل تلك الاحوال كان يقول بصوت خشن نوعا ما وودى : «قرأت قصتك . مكتوبة بروعة» . وعلى العموم ، وفى الحالات التى كان يشعر فيها ببعض الثقة وتكون معرفته بالكاتب أوثق ، وخاصة بناء على رجاء ملح من المؤلف ، كان تشيخوف يفصح عن

رأيه ، رغم التحفظات الحذرة ، بشكل اكثر تحديدا وافاضة ومباشرة .

كان يعامل بحرص واهتمام دائمين اولئك الأدباء الذين تنشأ بينه وبينهم علاقة روحية ولو بسيطة . ولم يكن ابدا يترك اية فرصة ليزف اليهم خبرا يعرف انه سيكون سارا ومفيدا لهم .

كتب لأحد معارفه : «عزيزى (س) . احيطكم علما بأن ليف نيقولايفتش تولستوى قرأ روايتكم واعجبته جدا . أرجو ان تتكرموا بارسال كتابكم اليه على العنوان التالى : كورييز ، محافظة تافريا ، وحددوا فى الفهرس القصص التى تعتبرونها أفضل قصصكم لكى يبدأ القراءة بها . او ارسلوا الكتاب الىّ ، وسأقوم أنا بتسليمه له» .

كل هذه بالطبع اشياء بسيطة ، ولكن ما اكثر ما يتخللها من عطف ورعاية ، حتى ان رسائل هذا الفنان المدهش والانسان الرائع ، تكتسب الآن ، وبعد أن غاب عنا صاحبها ، مغزى حنان بعيد لن يعود .

كان يقول للأدباء الشبان :

— اكتبوا ، اكتبوا اكبر قدر ممكن . لا يهم اذا لم توفقوا احيانا . فيما بعد ستوفقون . اما الشيء المهم فهو ألا تبددوا شبابكم ومرونتكم سدى . . عليكم الآن بالذات ان تعملوا . انظروا ، ها انتم ذا تكتبون بصورة رائعة ، ولكن رصيدكم اللغوى قليل . ينبغى جمع الكلمات والتعابير ، وهذا يتطلب ان تكتبوا كل يوم .

وكان هو يعمل بلا كلل من أجل تطوير نفسه واثراء لغته الساحرة المتنوعة بالكلمات المستقاة من كل مجال : من الاحاديث ، والمعاجم ، والكتالوجات ، ومن المؤلفات العلمية

والكتب المقدسة . كانت الحصيلة اللغوية لهذا الرجل الصموت ضخمة للغاية .

وكان يقول ناصحا :

— اسمعوا ، سافروا فى عربات الدرجة الثالثة ما أمكن . فكم آسف لأن المرض يمنعنى من السفر فى الدرجة الثالثة . فهناك قد تسمع احيانا اشياء طريفة للغاية .

وكان يستغرب ايضا من بعض الكتاب الذين يلزمون غرف مكاتبهم فى بطرسبرج بالسنوات ، فلا يرون من نوافذها سوى الجدران الصماء المجاورة . وكان كثيرا ما يقول بنبرة نفاد صبر :

— لست أفهم لماذا لا تسافر انت الشاب الصحيح البدن ، غير المشغول الى استراليا مثلا (كانت استراليا لسبب ما أحب بقاع العالم اليه) او الى سيبيريا ؟ فعندما ستتحسن صحتى سأسافر مرة اخرى الى سيبيريا حتما . لقد كنت هناك عندما سافرت الى سخالين * . انك لا تتصور يا عزيزى أية ارض رائعة هذه . انها دولة فريدة من نوعها . . .

٨

أشار ابن ألفونس دودى فى ذكرياته عن أبيه الى ان هذا الكاتب الفرنسى الموهوب كان يسمى نفسه مازحا «بائع

---

* قام تشيخوف برحلة الى شبه جزيرة سخالين فى شرق سيبيريا عام ١٨٩٠ ، حيث أجرى دراسة مستفيضة لأحوال السجناء والمنفيين فيها ، صدرت عام ١٨٩٤ فى كتاب مستقل بعنوان «جزيرة سخالين» . **المعرب** .

السعادة» . وكان يقصده أناس من شتى الدرجات طلبا للنصح والمعونة ، كانوا يأتون اليه بأحزانهم وهمومهم ، وكان هو ، الذى شده الى الكرسى مرض مؤلم لا برء منه ، يجد في نفسه من الشجاعة والصبر وحب البشر ما يمكنه من المشاركة بكل قلبه في بلوى الآخرين وتعزيتهم وتهدئتهم وتشجيعهم .

أما تشيخوف ، وبسبب تواضعه غير العادى ، ونفوره من صريح العبارة ، فما كان بالطبع ليقول عن نفسه ابدا شيئا مماثلا ، ولكن كم كان يضطر الى سماع الاعترافات المرهقة ، وكم كان يساعد بالقول والفعل ، ويمد الى المتعثرين يده الرقيقة القوية . ومن موضوعيته المدهشة ، وسموه عن الاحزان والافراح الفردية ، كان يعرف ويرى كل شيء . ولكن المشاعر الشخصية ، ايا كانت ، لم تكن تعوقه عن المشاركة المخلصة . كان بوسعه أن يكون طيبا وكريما دون حب ، ورقيقا وعطوفا دون تعلّق ، وخيّرا دون انتظار لامتنان . وفي هذه الصفات ، التى ظلت دائما غير مفهومة للمحيطين به ، ربما يكمن المفتاح الرئيسى للغز شخصيته .

وباذن من أحد اصدقائى سأورد هنا مقطعا صغيرا من احدى رسائل تشيخوف اليه . فقد كان هذا الصديق يعانى قلقا كبيرا على زوجته الحامل للمرة الاولى ، والتى كان يحبها بشدة ، وللحقيقة فقد أرهق انطون بافلوفتش كثيرا بقلقه هذا . وذات مرة كتب تشيخوف اليه :

«قل لزوجتك الا تقلق ، فسيكون كل شيء على ما يرام . سيستمر الوضع حوالى ٢٠ ساعة ، ثم تحل حالة هناء ، فتروح هى تبتسم ، اما أنت فستشعر بالرغبة في البكاء من

التأثر . ان عشرين ساعة هى maximum * العادى للولادة الاولى» .

ويا له من اهتمام مرهف بقلق الآخرين تحس به فى هذه الاسطر القليلة البسيطة . اما الأمر الاكثر دلالة فهو ان صديقى هذا ، بعد أن اصبح ابا سعيدا ، سأل تشيخوف ، وقد تذكر رسالته ، كيف تسنى له أن يعرف جيدا هذه المشاعر، فأجابه انطون بافلوفتش بهدوء ، بل حتى بلا مبالاة :

— عندما كنت مقيما فى الريف ، كنت دائما أوّلد الفلاحات . **هنا وهناك سيان ، فهناك ايضا مثل هذه الفرحة** .

لو لم يكن تشيخوف كاتبا رائعا لكان طبيبا ممتازا . فالاطباء الذين كانوا يدعونه احيانا للتشاور كانوا يثنون عليه كطبيب حصيف التفكير ودقيق الملاحظة ومشخّص بعيد النظر . ولم يكن هناك ما يستدعى الدهشة اذا ما جاء تشخيصه أعمق وأشمل من تشخيص أحد المشاهير الذين يدينون بشهرتهم للموضة . فقد كان يرى ويسمع فى المريض ، فى وجهه وصوته ومشيته ، ما كان يتوارى عن الآخرين ، ما كان يستعصى ويغيب عن نظر الملاحظ العادى .

وفى الحالات النادرة التى كانوا يقصدونه فيها كان يفضل ان ينصح باستخدام وصفات بسيطة ، مجربة ، منزلية فى الاساس . وبالمناسبة فقد كان يعالج الاطفال بنجاح فائق .

وكان يؤمن بالطب ايمانا راسخا قويا ، لا يمكن أن

---

* الحد الاقصى (باللاتينية فى الاصل) .

يزعزعه شيء . واذكر انه غضب ذات مرة عندما أخذ شخص ما يستخف بالطب حسب رواية اميل زولا «الدكتور بسكال» . فقد قال تشيخوف بانفعال وهو يسعل :

— زولا صاحبك لا يفقه شيئا ، بل يجلس في مكتبه ويختلق . فليأت ليرى كيف يعمل اطباؤنا الاقليميون وماذا يفعلون من أجل الشعب .

ومن ذا الذى لا يعرف بأية ملامح لطيفة وبأى حب وكم مرة كتب عن هؤلاء الكادحين الرائعين ، هؤلاء الأبطال المجهولين غير الملحوظين ، الذين حكموا على اسمائهم عمدا بالنسيان ؟ كتب عنهم حتى دون أن يشفق عليهم .

٩

ثمة قول مأثور : موت الانسان يشبهه . وعندما أفكر في سنوات حياة تشيخوف الأخيرة ، في أيامه الأخيرة ، بل والدقائق الاخيرة ، اتذكر لاإراديا هذا القول . بل ان القدر أضفى ، بمنهجية مشؤومة ، على جنازة تشيخوف ذاتها ، كثيرا من الملامح التشيخوفية المحضة .

لقد قاوم المرض الجبار طويلا ، وطويلا جدا ، لكنه تحمله بشجاعة ، ببساطة وصبر ، بلا عصبية ، بلا شكوى ، وتقريبا بلا كلام . وفي السنوات الاخيرة كان يشير في رسائله فقط عرضا ، بلا اهتمام ، الى صحته : «تحسنت صحتى ، رغم انى ما زلت أسير حاملا الكمادات . . .» . «منذ فترة قريبة أصبت بذات الجنب ، ولكن حالتى الآن أفضل . . .» «صحتى ليست على ما يرام . . اكتب قليلا . . .» .

كان لا يحب الكلام عن صحته ، ويغضب عندما يسألونه عنها . واذا تسنى لنا ان نعرف عنها شيئا ، فمن أرسينى وحده . اذ يقول همسا وهو يهز رأسه : «كانت حالته سيئة جدا صباح اليوم . نزف دما» . او تقول يفجينيا ياكوفلفنا سرا وبنبرة أسى فى صوتها :

— بالأمس لم ينم انطوشا مرة اخرى وهو يتقلب ويسعل طوال الليل . كنت اسمعه من خلف الجدار .

ترى هل كان يعرف أبعاد مرضه وخطورته ؟ اعتقد انه كان يعرف ، ولكنه حدق بلا خوف ، كطبيب وحكيم ، فى عينى الموت الزاحف . وكانت ثمة حوادث صغيرة مختلفة تشير الى ذلك . فقد اشتكت له امرأة ذات مرة من الأرق واضطراب الأعصاب ، فقال لها بهدوء وبنبرة حزن مستسلم لا تكاد تلحظ :

— أتدرين ، طالما لدى المرء رئتان جيدتان فكل شيء جيد .

لقد مات ببساطة ، بصورة مؤثرة ، وفى وعيه . ويقال ان آخر كلماته كانت Ich sterbe! * . وخيمت على آخر ايامه سحب الأسى العميق على روسيا ، واضطرمت برعب الحرب اليابانية الدامية الرهيبة . . .

واتذكر جنازته كأنما فى الحلم . بطرسبرج الباردة الرمادية ، والخلط الذى حدث بين البرقيات ، والمجموعة الصغيرة من الناس على المحطة ، و«عربة نقل القواقع البحريـة» ، وناظر

---

* اننى اموت : (بالالمانية فى الاصل) .

المحطة وموظفوها الذين لم يسمعوا ابدا عن تشيخوف والذين لم يروا فى جثمانه سوى شحنة سكك حديدية . وبعد ذلك ، وكنقيض له — موسكو ، والحزن العفوى ، وآلاف البشر الذين بدوا كاليتامى ، والوجوه الباكية . واخيرا القبر فى مقبـــــرة «نوفوديفيتشى» وقد غاب كله تحت الزهور ، بجوار قبر بسيط لـ«ارملة القوزاقى اولجا كوكاريتنيكوفا» .

واذكر الجناز الذى أقيم فى المقبرة فى اليوم التالى للدفن . كان مساء هادئا من شهر يوليو . وفوق القبور انتصبـــــــت اشجار الزيزفون العجوز التى ذهبتها الشمس ، ساكنة بلا حراك . وفى اصوات الكورال النسائى الرقيقة تردد حزن هادئ مستسلم وزفرات عميقة . وفى نفوس الكثيرين آنذاك جاشت حيرة مضطربة ثقيلة .

وتفرق الجمع من المقبرة ببطء ، وفى صمت . واقتربت من والدة تشيخوف ولثمت يدها دون كلمات . فقالت بصوت مرهق ضعيف :

— انظر أية بلوى اصابتنا . . . انطوشا راح . . .

آه ، يا لهذا العمق المذهل للكلمات العادية البسيطة ، التشيخوفية حقا ! لقد كشفت خلفها عن كل العمق الهائل لهذا المصاب ، وكل استحالة رد ما وقع . كلا ، ان العزاء هنا لا حول له . فهل يمكن أن تنضب وتسكن فجيعة اولئك الذين احتكت نفوسهم عن قرب بنفس هذا العبقرى المختار العظيمة ؟

ولكن فليخفف من أساهم المتأجج ادراكهم بأن فجيعتهم هى فجيعتنا كلنا . ولتلطف من حدته فكرة خلود هذا الاسم الرائع الطاهر الذى لن يُنسى . وبالفعل فسوف تمر الاعوام

والقرون ، وسوف يمحو الزمن ذكرى آلاف الآلاف من الأحياء الآن . لكن الاجيال القادمة البعيدة ، التى كان تشيخوف يحلم بسعادتها بذلك الحزن الساحر ، سوف تردد اسمه بعرفان وبأسى خافت على مصيره .

رواية رجل مجهول

١

لأسباب لا مجال للحديث عنها بالتفصيل الآن ، كان عليّ أن التحق خادما عند أحد موظفى بطرسبرج . كان رجلا فى حوالى الخامسة والثلاثين ، يدعى جيورجى ايفانيتش ، واسم عائلته أرلوف .

وقد التحقت بخدمة أرلوف من أجل والده ، الذى كان رجل دولة مشهورا ، وكنت اعتبره عدوا خطيرا لقضيتى . وبنيت حساباتى على اننى سأستطيع باقامتى لدى الابن ، وعن طريق الاحاديث التى سأسمعها والاوراق والمذكرات التى سوف أجدها على مكتبه ، أن ادرس بالتفصيل خطط الأب ونواياه .

فى حوالى الحادية عشرة صباحا فى العادة كان الجرس الكهربائى يدق فى غرفة الخدم الخاصة بى معلنا لى ان السيد استيقظ . وعندما كنت ادخل غرفة النوم ، وقد نظفت حلة جيورجى ايفانيتش وحذاءه ، أجده جالسا فى الفراش بلا حراك ، ليس نعسان بقدر ما هو مرهق من النوم ، يحدق فى نقطة واحدة ، دون أن يصدر عنه ما يعبر عن سروره باستيقاظه . وأساعده على ارتداء ملابسه ، أما هو فيستجيب لى بلا رغبة وفى صمت دون أن يلاحظ وجودى . وبعد ذلك يتوجه الى غرفة الطعام برأس مبلل من الغسيل ، ورائحة العطر المنعش تفوح

منه ، ليشرب القهوة . كان يجلس الى المائدة يشرب القهوة ويتصفح الجرائد ، أما انا والخادمة بوليا فكنا نقف بجوار الباب في احترام ونتطلع اليه . كان على شخصين بالغين ان يتطلعا بكل جدية واهتمام الى شخص ثالث وهو يشرب القهوة ويقرقش الخبز المقدد . وهذا ، على الأرجح شيء مضحك وفظيع ، ولكننى لم اكن أجد ثمة ما يهين في اضطرارى الى الوقوف بجوار الباب ، رغم انى كنت من النبلاء ورجلا متعلما مثل أرلوف نفسه .

كنت آنذاك قد مرضت بالسل ، ومعه بدأ يصيبنى شيء قد يكون أخطر من السل . ولست أدرى هل كان ذلك بتأثير المرض ، ام بتأثير التحول الذى بدأ يطرأ على معتقداتى ، والذى لم الحظه آنذاك ، فقد أخذ يتملكنى يوما بعد يوم ظمأ جارف منغّص الى الحياة العادية التافهة . كنت أريد هدوء النفس ، والصحة ، والهواء النقى ، والشبع . وأصبحت حالما ، وكحالم لم اكن أعرف ما الذى أريده بالضبط . فتارة كنت أود ان اصبح راهبا فى دير ، فأجلس هناك اياما بطولها الى جوار النافذة واتطلع الى الاشجار والحقول ، وتارة أتصور أننى اشتريت قطعة من الارض وأعيش مالكا ، وتارة أقطع على نفسى عهدا بأن اتفرغ للعلم وأصبح حتما استاذا فى احدى الجامعات الاقليمية . اننى ملازم بحرية متقاعد . ومن ثم رحت أحلم بالبحر ، وبوحدتنا البحرية ، وبالسفينة الحربية التى طفت على ظهرها حول العالم . كنت أود أن أحس من جديد بذلك الشعور الذى لا يوصف عندما تتسمر من شدة الاعجاب وفى الوقت نفسه تحن الى الوطن وأنت تتجول فى غابة استوائية او تتطلع الى مغيب الشمس

في خليج البنغال . وتراءت لي في الحلم الجبال ، والنساء ، والموسيقى ، فكنت اتفرس بفضول ، كصبي ، في الوجوه وانصت الى الاصوات . وعندما كنت اقف بجوار الباب ، واتطلع الى أرلوف وهو يشرب القهوة ، لم اكن أشعر بنفسي خادما ، بل انسانا يهمه كل شيء في الدنيا ، حتى أرلوف .

كانت هيئة أرلوف هيئة بطرسبرجية : منكبان ضيقان ، خصر طويل ، صدغان غائران ، عينان بلا لون محدد ، وشعر ينبت شحيحا ، كابي اللون ، في رأسه ولحيته وشاربه . وكان وجهه مرفها ، مرهقا ومنفرا . وكان منفرا بصفة خاصة عندما يكون أرلوف مستغرقا في التفكير او نائما . ولا اعتقد أنه ثمة داع لوصف هيئة عادية . وعلاوة على ذلك فبطرسبرج ليست كأسبانيا ، فليس لهيئة الرجال هنا اهمية كبيرة حتى في شئون الغرام ، ولا ضرورة لها الا للخدم المهيبين والحوذية . وما أشرت الى وجه أرلوف وشعره الا لأنه كان في هيئته شيء معين يستحق الذكر ، وبالتحديد : عندما كان أرلوف يتناول جريدة او كتابا ، أيا كان ، او عندما يقابل اناسا ، أيا كانوا ، كانت عيناه تشرعان في الابتسام بسخرية ، ويكتسب وجهه كله تعبير استهزاء خفيف غير خبيث . وقبل ان يقرأ او يسمع شيئا ما ، تكون السخرية جاهزة لديه دائما ، مثلما الدرع لدى المتوحش . كانت تلك سخرية مألوفة ، من طينة قديمة ، وفي الآونة الاخيرة كانت ترتسم على وجهه ، في الغالب دون أدنى ارادة ، وانما بمثابة رد فعل . ولكن سنتحدث عن هذا فيما بعد .

في بداية الساعة الواحدة كان يتناول حقيبته المحشوة بالاوراق ، وعلى وجهه تعبير السخرية ، ويرحل الى عمله .

ولم يكن يتناول غداءه فى البيت ، ويعود بعد الثامنة . وكنت اشعل المصباح والشموع فى غرفة المكتب ، فيجلس فى الفوتيل ، ويمدد ساقيه فوق الكرسى ، واذ يضطجع بهذه الصورة ، يشرع فى القراءة . وكان يعود كل يوم تقريبا بكتب جديدة او يرسلونها اليه من المتجر ، فكانت تستقر فى اركان غرفتي وتحت سريرى كتب كثيرة بثلاث لغات عدا الروسية ، مقروءة ومهملة . كان يقرأ بسرعة فائقة . ويقال : قل لى ماذا تقرأ ، أقل لك من انت . وربما كان ذلك صحيحا ، بيد أنه لا يمكن بحال الحكم على أرلوف من الكتب التى كان يقرأها . كان ذلك خليطا ما . كتب فلسفة ، وروايات فرنسية ، واقتصاد سياسى ، ومالية ، وشعراء جدد ، ومطبوعات دار «الوسيط» * . وكان يقرأها كلها بنفس السرعة ، وبنفس تعبير السخرية فى العينين .

وبعد العاشرة كان يرتدى ثيابه بعناية ، وكثيرا ما يرتدى حلة الفراك ، ونادرا جدا الحلة الرسمية لضابط البلاط ** ويغادر المنزل . ويعود قبيل الصبح .

عشنا معا فى هدوء وسلام ، ولم يقع بيننا أى سوء تفاهم . وفى العادة لم يكن يلاحظ وجودى ، وعندما كان يتحدث اليّ لم يكن وجهه يحمل تعبير السخرية ، اذ يبدو انه لم يكن يعتبرنى انسانا .

---

* دار نشر شعبية ساهمت فى نشر الكتب بأسعار رخيصة . تأسست عام ١٨٤٤ واستمرت حتى عام ١٩٣٥ . **المعرب** .

** لقب شرفى كان يمنح لأبناء النبلاء المقربين من البلاط . **المعرب** .

لم أره غاضبا سوى مرة واحدة . فذات يوم — وكان ذلك بعد أسبوع من التحاقى بخدمته — عاد من حفل غداء ما فى حوالى التاسعة ، وكان وجهه نزقا ، مرهقا . وعندما سرت خلفه الى غرفة المكتب لأشعل الشموع هناك قال لى :

— هناك رائحة كريهة فى البيت .

فأجبته :

— كلا ، الهواء نظيف .

فردد بعصبية :

— قلت لك رائحة كريهة .

— اننى أهوّي الغرف كل يوم .

فصاح بى :

— لا تجادل يا غبـى !

أحسست بالاهانة وهممت أن أعارضه ، والله يعلم كيف كان سينتهى ذلك كله لولا أن تدخلت بوليا ، التى كانت تعرف سيدها أحسن منى .

— بالفعل هناك رائحة كريهة ! — قالت وهى ترفع حاجبيها . — من أين جاءت يا ترى ؟ يا ستيبان ، افتح الشراعات فى غرفة الجلوس وأشعل المدفأة .

وتأوهت وهرولت ، وأسرعت تطوف بالغرف كلها وهى تخشخش بجونلاتها وتفح برشاشة العطور . أما أرلوف فظل معتل المزاج . ويبدو انه كان يكبح نفسه كيلا يصرخ غاضبا وهو جالس الى المكتب يخط رسالة بسرعة . وبعد ان كتب عدة أسطر زفر بغضب ومزق الرسالة ، ثم عاد يكتب مـــن جديد .

ودمدم قائلا :

— فليذهبوا الى الجحيم ! يريدون ان تكون لدى ذاكرة رهيبة !

واخيرا فرغ من كتابة الرسالة ، فنهض من امام المكتب وقال متوجها اليّ :

— اذهب الى شارع زنامينسكايا وسلّم هذه الرسالة الى زينائيدا فيودوروفنا كراسنوفسكايا شخصيا . ولكن قبل ذلك اسأل الحاجب هل عاد زوجها ، أى السيد كراسنوفسكى . فاذا كان قد عاد فلا تسلم الرسالة وعد بها . مهلا ! . . إذا سألتك هل عندى احد ما قل لها ان هناك شخصين يجلسان عندى منذ الساعة الثامنة ويكتبان شيئا ما .

وذهبت الى زنامينسكايا . وقال لى الحاجب ان السيد كراسنوفسكى لم يعد بعد ، فصعدت الى الطابق الثالث . وفتح لى الباب خادم طويل القامة ، بدين ، ثقيل الوجه ، بسالفين اسودين ، وسألنى عما أريد بصوت ناعس ذابل فظ ، كما يمكن لخادم ان يخاطب خادما . وقبل أن اجيبه جاءت من الصالة بسرعة سيدة فى ثوب أسود ودخلت الردهة . وحدقت فيّ بعينين مزرورتين . فسألتها :

— زينائيدا فيودوروفنا موجودة ؟

فقالت السيدة :

— انها أنا .

— هذه رسالة من جيورجى ايفانيتش .

فضت الرسالة بفروغ صبر وامسكت بها بكلتا يديها ، كاشفة لى عن خواتمها الماسية ، وشرعت تقرأها . . تأملت وجهها الابيض بقسماته الناعمة ، وذقنها البارز الى الامام ، واهدابها الطويلة الداكنة . ومن مظهرها الخارجى لم

تكن ، فى تقديرى ، تتجاوز الخامسة والعشرين .

وقالت بعد أن فرغت من القراءة :

— بلغ تحياتى وشكرى . — ثم سألت بنعومة وفرحة وكأنما تخجل من شكها — هل هناك أحد عند جيورجـي ايفانيتش ؟

فقلت :

— هناك سيدان . يكتبان شيئا ما .

فرددت :

— بلغ تحياتى وشكرى .

وخرجت دون صوت وقد أمالت رأسها وهى تقرأ الرسالة اثناء سيرها .

لم اكن آنذاك قد التقيت بنساء كثيرات ، فتركت هذه السيدة التى رأيتها لمحا ، اثرا فى نفسى . وعندما عدت سائرا الى المنزل تذكرت وجهها ، ورائحة عطرها الرهيف ، واخذت أحلم . وحينما وصلت كان أرلوف قد غادر المنزل .

٢

وهكذا فقد عشت مع السيد فى هدوء وسلام ، ومع ذلك فان الشيء القذر المهين ، الذى جد ما خشيته عندما التحقت خادما ، كان موجودا ، يفصح عن نفسه كل يوم . كانت علاقتى ببوليا سيئة . كانت كائنا مدملجا ، مدللا ، تعبد أرلوف لأنه سيد وتحتقرنى لأنى خادم . ومن المحتمل انها كانت مغرية من وجهة نظر الخادم الحقيقى او الطاهى : خدان أحمران ، أنف مشرئب ، عينان مزرورتان ، وجسم بدين قد مال الى الاكتناز . وكانت تضع البودرة وتصبغ حاجبيها وشفتيها ،

وتشد جسمها بالكورسيه وترتدى أردافا مستعارة وأسورة من قطع النقود . وكانت مشيتها قصيرة الخطوات ، قافزة . وعندما تسير كانت تهز ، او كما يقال ، ترعّش كتفيها ومؤخرتها . وكانت خشخشة جونلاتها ، وطقطقة كورسيها ورنين اسورتها ، وهذه الرائحة الوقحة لطلاء الشفاه وخل الزينة والعطور المسروقة من السيد ، تثير فيّ صباحا ، عندما كنا ننظف الغرف ، احساسا وكأنني كنت اصنع واياها شيئا وضيعا .

وربما لأني لم اكن اشاركها السرقة ، او لأني لم اظهر أدنى رغبة فى ان أصبح عشيقها ، الامر الذى أهانها فى الغالب ، او ربما لأنها استشعرت فيّ رجلا غريبا ، فقد مقتتنى من أول يوم . وبدت لها عدم مهارتى وهيئتى التى لم تكن تشبه هيئة الخدم ومرضى ، بدت لها مزرية واثارت فيها شعورا بالتقزز . وكنت آنذاك اسعل بشدة ، واحيانا ازعج نومها بذلك ، لأنه لم يكن يفصل غرفتى عن غرفتها سوى حاجز خشبى فكانت تقول لى كل صباح :

— انت اقلقت منامى مرة أخرى . مكانك فى المستشفى لا فى منزل السادة .

وكانت تعتقد باخلاص اننى لست انسانا ، بل شيئا أدنى منها بمراحل ، حتى انها كانت ، مثل عقيلات روما اللائى لم يكنّ يخجلن من الاستحمام عرايا أمام عبيدهن ، تسير أحيانا فى حضورى فى قميص النوم فقط .

وذات يوم اثناء الغداء (وكنا نحصل من الحانة كل يوم على حساء ولحم مشوى) وكنت فى مزاج رائع حالم سألتها :

— هل تؤمنين بالله يا بوليا ؟

— وكيف لا !

فاستطردت قائلا :

— اذن فأنت تؤمنين بأن يوم الحساب آت ، وأننا سنُسأل أمام الله عن كل عمل سيئ ارتكبناه ؟

فلم تقل شيئا بل رسمت تعبير احتقار على وجهها ، وحينما نظرت هذه المرة الى عينيها الشبعانتين الباردتين أدركت انه ليس لدى هذه الشخصية المكتملة المتحددة تماما اله او ضمير او قوانين ، وانني لو كنت بحاجة الى قتل أحد او سرقته او اشعال حريق ، لما وجدت أفضل منها شريكا مأجورا .

وفي هذا الجو غير المألوف ، ومع عدم تعودى على مخاطبة الآخرين بصيغة المفرد وعلى الكذب المستمر (ان تقول «ليس السيد موجودا» بينما هو موجود) لم تكن حياتى عند أرلوف سهلة في الاسبوع الاول . وأحسست بنفسى في حلة الخدم كأنما في دروع . لكننى فيما بعد تعودت . وكخادم حقيقى كنت أخدم ، وانظف الغرف ، وأجرى واتنقل مؤديا شتى التكليفات . وعندما لا يرغب أرلوف في الذهاب الى موعد مع زينائيدا فيودوروفنا ، او عندما ينسى وعده بزيارتها ، كنت أرحل الى زنامينسكايا وأسلمها شخصيا رسالته واكذب . وفي محصلة الأمر حدث غير ما كنت انتظره تماما عندما التحقت خادما . فقد كان كل يوم من حياتى الجديدة هذه يضيع هدرا بالنسبة لى ولقضيتى ، لأن أرلوف لم يكن يتحدث عن أبيه أبدا ، وكذلك ضيوفه . ولم اعرف عن نشاط رجل الدولة المعروف الا ما كنت قبلا استطيع الحصول عليه من الصحف ومراسلات رفاقى . ولم يكن لمئات المذكرات والاوراق التى كنت اجدها في غرفة المكتب واقرأها علاقة ولو من بعيد

بما ابحث عنه . كان أرلوف غير مبال تماما بنشاط أبيه المدوي ، وكان منظره يبدو وكأنه لم يسمع به او كأنما مات أبوه منذ زمن طويل .

٣

في ايام الخميس كان يزورنا الضيوف .

فكنت أوصى في المطعم على قطعة روزبيف ، واتصل تيلفونيا بمتجر يليسييف ليرسلوا لنا بعض الكافيار والجبن والقواقع البحرية وغيرها . وابتاع ورق اللعب . أما بوليا فكانت تعد منذ الصباح آنية الشاى وأدوات المائدة للعشاء . وللحقيقة فان هذا النشاط الصغير كان يضفى تجديدا ما على حياتنا الفارغة ، فكانت ايام الخميس بالنسبة لنا اكثر الايام متعة .

لم يكن يأتي من الضيوف غير ثلاثة . وكان اكثرهم رصانة ، وربما اكثرهم متعة ، ذلك الضيف الملقب بـ«بيكارسكى» . كان رجلا طويلا نحيفا ، في حوالى الخامسة والاربعين ، بأنف طويل أحدب ، ولحية سوداء كبيرة وصلعة . كانت عيناه واسعتين جاحظتين ، وعلى وجهه يرتسم تعبير الجدية والتفكير كما على وجه فيلسوف اغريقى . وكان يعمل فى ادارة السكك الحديدية وفى مصرف ، وكان مستشارا قانونيا لمؤسسة حكومية هامة ما ، و على علاقة عمل مع عدد كبير من الافراد كوصى وكرئيس مجلس الوصاية الخ . . ولم تكن رتبته كبيرة ، وكان يقول عن نفسه بتواضع انه محلف موثق ، ولكن نفوذه كان هائلا . كانت بطاقته او رسالة قصيرة منه كافية لكى يستقبلك طبيب مشهور او مدير السكك الحديدية

او موظف هام بدون انتظار دورك . ويقال انه كان من الممكن بواسطته ان تحصل على وظيفة حتما من الدرجة الرابعة ، وأن تحفظ اية قضية مزعجة ضدك . وكان يعد رجلا ذكيا جدا ، بيد ان ذكاءه كان غريبا ، من نوع خاص . فقد كان بوسعه في برهة واحدة أن يضرب ٢١٣×٣٧٣ في ذهنه ، او يحول الجنيهات الاسترلينية الى ماركات دون الاستعانة بالقلم او بجداول التحويل ، وكان ملما بصورة رائعة بشئون السكك الحديدية والمالية ، ولم تكن بالنسبة له ثمة أسرار في كل ما يتعلق بأمور الادارة . وكان في الشئون المدنية ، كما يقال ، محاميا بارعا ليس من السهل مجاراته . ولكن هذا العقل غير العادى كان لا يفقه البتة كثيرا من الامور التي قد يدركهـــا حتى الشخص الغبى . فعلى سبيل المثال لم يستطع ابدا أن يفهم لماذا يشعر الناس بالملل ويبكون ويتبارزون بل ويقتلون الآخرين ، ولماذا ينفعلون بأشياء وأحداث لا تمسهم شخصيا ، ولماذا يضحكون عندما يقرأون جوجول او شيدرين * . . . فكل ما كان مجردا ، محلقا في سماء الفكر والأحاسيس كان بالنسبة له غير مفهوم ومملا ، مثل الموسيقى لشخص لا يتذوقها . وكان ينظر الى الناس من وجهة نظر عملية فقط ، ويصنفهم الى موهوبين وغير موهوبين . وأى تقسيم آخر لم يكن له وجود لديه . فالشرف والاستقامة ليسا الا علامة على الموهبة .

---

* سالتيكوف-شيدرين (١٨٢٦ — ١٨٨٩) كاتب روسى ساخر ، اشتهر بنقده اللاذع للنظام البيروقراطى القيصرى وبآرائه الديمقراطية الثورية . المعرب .

والعربدة ولعب الورق والفسق ممكنة ، بشرط ألا تعوق العمل . والايمان بالله غباء ، بيد ان الدين ينبغي أن يكون مصونا لا يمس لأن الشعب بحاجة الى قوة رادعة والا فلن يعمل . والعقوبات ضرورية فقط للتخويف . ولا حاجة للتصييف فى الدور الريفية لأن المعيشة فى المدينة ايضا طيبة . وهكـــذا دواليك . كان أرملا وليس لديه اطفال ، بيد انه كان يحيا حياة بحبوحة عائلية ويدفع ثلاثة آلاف روبل سنويا ايجارا للشقة .

أما الضيف الآخر ، كوكوشكين ، مستشار الدولة الجديد ، فقد كان قصير القامة ويتميز بتعبير كريه الى اقصى حد يضفيه عليه عدم التناسق بين جذعه البدين المكتنز ووجهه الصغير النحيل . وكانت شفتاه على شكل قلب ، وشاربه المقصوص يبدو وكأنه قد لصق باللاّك . كانت حركاته كحركات السحلية . فلم يكن يدخل بل يدلف زاحفا وهو يبدّل بقدميه بسرعة ويتمايل ويهأهىء ، وعندما يضحك يكشر عن أنيابه . كان موظفا للمهمات الخاصة لدى شخص ما ، ولم يكن يفعل شيئا رغم انه يتقاضى مرتبا كبيرا ، وخاصة صيفا ، عندما يخترعون له شتى المأموريات . كان وصوليا لا الى النخاع فحسب ، بل الى أعمق من ذلك ، الى آخر قطرة دم ، وفوق ذلك ، وصوليا تافها ، غير واثق من نفسه ، يبنى مستقبله على الصدقات وحدها . فمن أجل وسام أجنبى ما ، او من أجل ان تكتب الصحف انه حضر جنازا او قداسا مع شخصيات كبيرة ، كان مستعدا لأية مهانة ، لأن يستعطف ويتملق ويعد . وبدافع الجبن كان يتملق أرلوف وبيكارسكى ، لأنه كان يعتبرهما من الاقوياء ، ويتملق بوليا ويتملقنى لأننا

تخدم عند شخص ذى نفوذ . وعندما كنت انزع عنه المعطف كان دائما يهأهىء ويسألنى : «هل أنت متزوج يا ستيبان ؟» ، وتتلو ذلك مداعبة مبتذلة فجة ، كنوع من الاهتمام الخاص بى . كان كوكوشكين ينافق نقائص أرلوف وفساده وشبعه . ولكى يعجبه تظاهر بأنه ساخر شرير وملحد ، وكان ينتقد معه اولئك الذين كان يرائيهم بمذلة فى مكان آخر . وعندما كان الحديث يتطرق اثناء العشاء الى النساء والحب ، كان يتظاهر بأنه فاسق داهية ذواقة . وعموما فمن الجدير بالذكر أن ماجنى بطرسبرج يحبون التحدث عن أذواقهم الفريدة . فقد يقنع أحد مستشارى الدولة الجدد كل القناعة بملاطفات طاهيته او احدى البائسات المتسكعات فى شارع نيفسكى ، فاذا ما سمعته يتحدث خيل اليك أنه مصاب بكل رذائل الشرق والغرب وانه عضو فخرى فى عشرات الجمعيات السرية المشبوهة وأصبح تحت رقابة الشرطة . وكان كوكوشكين يروى عن نفسه الاكاذيب بلا خجل ، وليست المسألة أن احدا لم يكن يصدقه ، بل لم يكونوا يعيرون أذنا صاغية لاكاذيبه .

أما الضيف الثالث فهو جروزين ، ابن أحد الجنرالات العلماء المحترمين ، من عمر أرلوف ، أشقر ، طويل الشعر ، ضعيف النظر ، يضع نظارة مذهبة . واذكر أصابعه الطويلة الشاحبة كأصابع عازف البيانو ، وعموما فقد كان فى هيئته كلها شىء ما موسيقى ، حاذق . واشخاص بمثل هذه الهيئة يلعبون فى الاوركسترات دور العازف الاول . كان يسعل ويعانى من الصداع ، وعموما كان يبدو مريضا وضعيفا . واغلب الظن أنهم فى البيت كانوا ينزعون عنه ثيابه ويلبسونه كطفل . وقد درس القانون فى معهد والتحق بوظيفة فى ادارة المحاكم ،

ثم نقل الى مجلس الشيوخ ، ولكنه استقال وحصل بالواسطة على وظيفة بوزارة الممتلكات الحكومية ، ثم سرعان ما ترك الوظيفة مرة اخرى . وفي فترة خدمتي كان يعمل في قسم أرلوف رئيسا لقلم ، ولكنه كان يصرح بأنه سينتقل ثانية الى ادارة المحاكم . كان ينظر الى الخدمة والى تنقلاته من مكان الى مكان باستهتار نادر ، وعندما كانوا يتحدثون في حضوره بجدية عن الرتب والاوسمة والرواتب ، كان يبتسم ببشاشة ويردد قول بروتكوف * المأثور : «في الوظيفة الحكومية فقط يدرك المرء الحقيقة !» وكانت لديه زوجة صغيرة بوجه مغضن ، غيورة جدا ، وخمسة أطفال هزالى . وكان يخون زوجته ، ويحب اطفاله فقط عندما يراهم ، وعموما كان يعامل أسرته بلامبالاة ويسخر قليلا منها . وكان يعيش واسرته على الدين ، ويستدين من اى شخص حيثما كان وفي اية فرصة مناسبة ولا يستثني حتى رؤساءه والفراشين . كان شخصية رخوة ، كسولة الى حد اللامبالاة التامة بالنفس ، تسبح مع التيار دونما وجهة او غرض معلومين . فحيثما يسوقونه يمضي . فاذا ساقوه الى حانة مضى ، واذا وضعوا امامه خمرا شرب ، فان لم يضعوا لم يشرب . واذا سبوا امامه الزوجات سبّ زوجته ، مؤكدا أنها أفسدت عليه حياته ، واذا مدحوا الزوجات مدحها ايضا وقال باخلاص : «انني احبها جدا ، هذه المسكينة» . لم يكن

---

* كوزما بروتكوف ؛ اسم مستعار كان ثلاثة من الكتاب الروس يوقعون به مؤلفاتهم الهجائية . وهم الصحفيان الاخوان جيمتشوجنيكوف والأديب اليكسي قسطنطينوفتش تولستوي (١٨١٧ — ١٨٧٥) . **المعرب** .

لديه معطف فراء ، فكان دائما يحمل حراما تفوح منه رائحة فراش الاطفال . وعندما كان يشرد اثناء العشاء فيكوّر من لب الخبز كرات صغيرة ويجرع كثيرا من النبيذ الأحمر ، كان يراودنى ، ويا للغرابة ، احساس يبلغ اليقين تقريبا بأن هناك شيئا ما يقبع فى داخله ، شيئا يدركه هو نفسه على الأرجح بصورة مبهمة ، لكنه فى غمار المشاغل والابتذال لا يجد الوقت لفهمه وتقديره . كان يعزف قليلا على البيانو . فكان يجلس احيانا الى البيانو فيدق بضعة انغام ثم يشرع فى الغناء بصوت خافت :

ماذا تخبىء يا غدي الآتى ؟

ولكنه ينهض على الفور ، كأنما فزع ، ويبتعد عن البيانو .

كان الضيوف يفدون عادة فى حوالى العاشرة . يجلسون فى غرفة مكتب أرلوف يلعبون الورق ، ونقدم لهم أنا وبوليا الشاى . وهنا فقط كنت أستطيع أن أدرك كما يجب كل لذة الخدمة . أن تقف طوال أربع او خمس ساعات بجوار الباب ، وتهتم بألا تفرغ الاكواب ، وتغير منافض السجائر ، وتهرع الى المائدة لترفع قطعة طباشير او ورقة لعب سقطت ، والمهم أن تقف ، وتنتظر ، وتكون منتبها ، واياك ان تتكلم او تسعل او تبتسم . . . اننى أؤكد لكم ان ذلك أشق من أشق عمل فلاحى . فى زمن ما كنت أقف فى نوبة الحراسة اربع ساعات فى ليالى الشتاء العاصفة ، وأرى ان الوقوف فى نوبة الحراسة أسهل بما لا يقارن .

كانوا يلعبون الورق تقريبا حتى الساعة الثانية صباحا ،

واحيانا حتى الثالثة ، ثم يتوجهون ، وهم يتمطون ، الى غرفة الطعام لتناول العشاء ، او كما كان أرلوف يقول ، لأكل لقمة . وأثناء العشاء يدور الحديث . كان يبدأ عادة بأن يشرع أرلوف ، بعينين ضاحكتين ، في الحديث عن أحد المعارف ، او عن كتاب قرأه مؤخرا ، او عن تعيين او مشروع جديد . وسرعان ما يلتقط الخيط كوكوشكين المنافق ، وتبدأ ، حسب مزاجي آنذاك ، موسيقى مقرفة . ولم تكن سخرية أرلوف واصدقائه تعرف حدودا ولا ترحم أحدا او شيئا . فاذا تحدثوا عن الدين . . فهي سخرية ، واذا تحدثوا عن الفلسفة ومغزى واهداف الوجود . . فهي سخرية ، واذا اثار أحدهم قضية الشعب . . فهـــي سخرية . ثمة في بطرسبرج طراز خاص من الناس لا عمل لهم الا التندر بكل ظاهرة من ظواهر الحياة . وهم لا يستطيعون أن يمروا حتى بجائع او منتحر دون أن يتفوهوا بأشياء وضيعة . لكن أرلوف واصدقاءه لم يكونوا يمزحون او يتندرون ، بل يتحدثون بسخرية . كانوا يقولون ان الله غير موجود ، وان الفرد يفنى تماما بموته ؛ اما الخالدون فلا وجود لهم الا في المجمع الفرنسي * . ولا وجود للنعمة الحقيقية ولا يمكن أن توجد ، لأن وجودها رهن بالكمال الانساني الذي هو لغو منطقي . وروسيا بلد ممل تعيس مثلها مثل بلاد فارس . والمثقفون لا أمل فيهم ، فالغالبية العظمى منهم ، في رأى بيكارسكي ، تتألف من اشخاص غير اكفاء ولا جدوى منهم . أما الشعب فأدمن الشراب واستسلم للكسل وتفشت فيه السرقة

---

* كان اعضاء المجمع الفرنسي يمنحون لقب : «الخالدون» .

وأخذ ينقرض . وليس لدينا علم ، والأدب شائه ، والتجارة لا تقوم الا على الاحتيال : «بلا خداع ، لا شيء يباع» . وكل شيء على هذا النحو ، وكل شيء مضحك .

وبفعل الخمر يدب المرح في ختام العشاء ، فينتقل الضيوف الى احاديث مرحة ، فيهزأون بحياة جروزين العائلية ، وبانتصارات كوكوشكين او بيكارسكي الذي كان دفتر حساباته ، كما يقال ، يتضمن صفحة بعنوان : **لأعمال البر** ، وصفحة أخرى بعنوان : **لمتطلبات الجسد** . وكانوا يقولون انه ليس هناك زوجات مخلصات ، وليست هناك زوجة لا يمكن ان تحصل منها ، بشيء من الخبرة ، على الود دون أن تغادر غرفة الجلوس بينما يجلس زوجها قريبا في غرفة المكتب . والفتيات المراهقات فاسقات وأصبحن يعرفن كل شـــــيء . ويحتفظ أرلوف لديه برسالة تلميذة في الرابعة عشرة . كانت عائدة من المدرسة «فعلّقت في شارع نيفسكي ضابطا» . وحسب قولها أخذها الى بيته ولم يتركها الا في ساعة متأخرة ، أما هي فأسرعت تكتب عن ذلك الى صديقتها لكي تفضي اليها باعجابها . وكانوا يقولون ان طهارة الاخلاق لم توجد ابدا ولا وجود لها اطلاقا ، فالظاهر أنه لا حاجة اليها . فالبشرية عاشت حتى الآن في غنى عنها تماما . أما الضرر الناشيء عما يسمى بالفسق فمبالغ فيه بالتأكيد . والشذوذ الذي تشير اليه لائحة العقوبات عندنا لم يمنع ديوجين من أن يصبح فيلسوفا ومعلما . وكان قيصر وشيشرون فاسقين وفي الوقت نفسه رجلين عظيمين اما العجوز كاتون فتزوج فتاة شابة ومع ذلك ظل يعد تقيا صارما وقيّما على الأخلاق .

وفي الثالثة او الرابعة يتفرق الضيوف او يرحلون معا الى

خارج المدينة او الى شارع أفيتسيرسكايا ، الى سيدة تدعى فارفارا أوسيبوفنا ، أما أنا فأذهب الى غرفة الخدم واظل طويلا لا استطيع النوم بسبب الصداع والسعال .

٤

بعد حوالى ثلاثة اسابيع من التحاقى بخدمة أرلوف ، وفى صباح يوم أحد على ما اذكر قرع أحدهم الجرس . كانت الساعة تقارب الحادية عشرة وأرلوف ما زال نائما . وذهبت لأفتح الباب . وبوسعكم ان تتصوروا مدى ذهولى : فعلى بسطة السلم ، خلف الباب ، كانت تقف سيدة ترخى «الفوال» على وجهها .

وسألت : هل استيقظ جيورجى ايفانيتش ؟

ومن صوتها عرفت أنها زينائيدا فيودوروفنا ، التى كنت أحمل اليها الرسائل فى شارع زنامينسكايا . ولست اذكر هل تمكنت من الاجابة اذ كنت مرتبكا برؤيتها أمامى . وعلى كلّ فلم تكن بحاجة الى اجابتى . ففى لحظة واحدة مرقت بجوارى ، وبعد أن عبأت المدخل بأريج عطرها الذى ما زلت اذكره جيدا حتى الآن ، غابت فى الشقة وخفت وقع خطواتها . ولمدة نصف ساعة على الأقل بعد ذلك لم يسمع شيء . ولكن احدا آخر قرع الجرس ثانية . كانت فى هذه المرة فتاة متأنقة بتكلف ، يبدو أنها خادمة فى بيت ثرى ومعها حاجبنا ، وكان كلاهما يلهث وهما يحملان الى داخل الشقة حقيبتين وسلة سفر .

وقالت الفتاة :

— هذا لزينائيدا فيودوروفنا .

وانصرفت دون أن تضيف كلمة اخرى . وبدا كل ما حدث غامضا ، أثار لدى بوليا التي كانت تجل شقاوات سيدها ، ابتسامة ماكرة كأنما كانت تريد بها ان تقول : «انظر ما أروعنا !» ، وظلت طول الوقت تمشي على اطراف أصابعها . وأخيرا تردد وقع خطوات ، ودلفت زينائيدا فيودوروفنا الى المدخل بسرعة ، وعندما رأتني واقفا على باب غرفتي قالت :

— يا ستيبان ، ساعد جيورجي ايفانيتش على ارتداء ملابسه .

حينما دخلت الى أرلوف حاملا البدلة والحذاء كان جالسا على السرير مدليا ساقيه فوق فراء الدب . وكانت هيئته كلها تعبر عن الخجل . ولم يلحظني ولم يكن مهتما برأيي كخادم ، اذ يبدو أنه كان خجلا مرتبكا أمام نفسه ، أمام «عينه الباطنية» . وارتدى ملابسه ، واغتسل ثم سوى شعره بالفرش والامشاط ، كل ذلك في صمت وعلى مهل ، كانما يعطي لنفسه وقتا أطول للتفكير في وضعه ولتدبره ، وكان واضحا حتى من ظهره أنه خجل وغير راض عن نفسه .

وشربا القهوة معا . صبت زينائيدا فيودوروفنا من الابريق لها ثم لأرلوف ، ثم وضعت مرفقيها على الطاولة وضحكت قائلة :

— ما زلت لا أصدق . عندما تتنقل طويلا ثم تأتي الى الفندق فانك تظل غير مصدق انه لن يكون عليك أن ترحل بعد . ما أطيب أن تتنفس بحرية .

وتنفست بحرية كفتاة صغيرة ترغب بقوة في أن تتشاقى ، وضحكت من جديد .

وقال أرلوف مومئا الى الصحف :

— ارجو أن تعذريني ، فقراءة الصحف مع القهوة عادة لا تقهر عندى . ولكنى استطيع أن اقوم بعملين فى وقت واحد : ان اقرأ واستمع .

— اقرأ ، اقرأ . . . عاداتك وحريتك ستظـــــــل كما هي . ولكن لماذا يبدو وجهك ممتعضا ؟ هل انت دائما هكذا فى الصباح ام اليوم فقط ؟ ألست مسرورا بى ؟

— بالعكس ، ولكنى ، بصراحة ، مأخوذ قليلا .

— ولماذا ؟ كان لديك الوقت لكى تستعد لهجومى . لقد كنت اهددك بذلك كل يوم .

— نعم ، ولكنى لم اتوقع ان تنفذى تهديدك اليوم بالذات .

— وأنا ايضا لم أتوقع ، ولكن هذا أفضل ، أفضل يا صديقى . اخلع السن المريضة دفعة واحدة وانتهينا .

— نعم ، طبعا .

فقالت وهى تغمض عينيها :

— آه يا حبيبى ! كل ما ينتهى بخير فهو حسن ، ولكن كم كان من مواجع قبل ان ينتهى بخير ! لا تنخدع بضحكى ، فأنا مسرورة ، سعيدة ، ولكنى أرغب فى البكاء أكثر من الضحك . — واستطردت تقول بالفرنسية — بالامس خضت معركة طويلة . الله وحده يعلم كم قاسيت . ولكنى اضحك لأنى ما زلت لا أصدق . يخيل اليّ اننى اجلس معك واشرب القهوة لا فى اليقظة ، بل فى الحلم .

ثم واصلت الحديث بعد ذلك بالفرنسية فروت كيف انفصلت بالامس عن زوجها ، وكانت عيناها تارة تغرورقان

بالدموع وتارة تضحكان وتنظران الى أرلوف باعجاب . وروت أن زوجها كان يشك فيها منذ زمن طويل ، ولكنه كان يتحاشى المصارحة . وكثيرا ما كانت تدب بينهما الخلافات ، ولكنه كان عادة ، في ذروة الشجار ، يصمت ، وينصرف الى مكتبه كيلا يفضى فجأة بشكوكه فى لحظة غضب ، وحتى لا تبدأ هى المصارحة . أما هى فكانت تحس بنفسها مذنبة ، تافهة وغير قادرة على اتخاذ خطوة جريئة جادة ، وبسبب ذلك كانت فى كل يوم تزداد كراهية لنفسها ولزوجها ، وتتعذب كما فــى الجحيم . ولكن بالامس ، اثناء الشجار ، عندما صرخ بصوت باك : «متى ينتهى هذا كله ، يا الهى !» ، وانصرف الى مكتبه ، انطلقت وراءه كالقطة وراء الفأر ، ومنعته من اغلاق الباب خلفه وصاحت بأنها تكرهه من صميم قلبها . عندئذ تركها تدخل غرفة المكتب ، فصارحته بكل شيء واعترفت له بأنها تحب شخصا آخر ، وان هذا الشخص هو زوجها الحقيقى ، الشرعى بحق ، وان ضميرها يملى عليها أن تنتقل اليه اليوم فورا ، بالرغم من كل شيء ، حتى لو اطلقوا عليها النار من مدفع .

فقاطعها أرلوف دون أن يحول عينيه عن الصحف :

— فيك ينبض عرق رومانسى قوى .

فضحكت ومضت تتحدث دون أن تمس قهوتها . وتورد خداها ، فأحرجها هذا بعض الشيء ، فراحت تتطلع اليّ والى بوليا بارتباك . وعرفت من بقية روايتها ان زوجها رد عليها بالعتاب والتهديد ، وفى النهاية بالدموع ، وكان من الأصوب القول بأنه هو ، لا هى ، الذى خاض معركة .

ومضت تقول :

— نعم يا صديقى ، لقد سار كل شيء بصورة رائعة

عندما كانت اعصابى متماسكة ، ولكن ما أن حل الليل حتى انهارت معنوياتى . انت يا جورج لا تؤمن بالله ، أما أنا فأومن قليلا واخشى القصاص . الله يأمرنا بالصبر والتسامح والتفانى ، واذا بى أرفض ان اصبر واريد أن ارتب حياتى كما يحلو لى . فهل هذا طيب ؟ ماذا لو انه من وجهة نظر الرب ليس طيبا ؟ فى الساعة الثانية صباحا جاء زوجى الى غرفتى وقال : «لن تجروئى على الذهاب ، سأرغمك على العودة بفضيحة عن طريق الشرطة» . وبعد فترة قصيرة رأيته ثانية عند بابى كالظل . قال : «ارحمينى ، هروبك قد يضر بمركزى فى العمل» . كان لهذه الكلمات وقع فظ فى نفسى ، أحسست كأنما علانى الصدأ منها ، وفكرت فى أن القصاص قد بدأ فأخذت ارتعش من الخوف وأبكى . وخيل اليّ أن السقف سينهار فوقى ، وانهم سيسوقوننى الآن الى الشرطة ، وأنك ستكف عن حبك لى ، باختصار تصورت اشياء لا يعلمها الا الله ! فقلت لنفسى سأدخل الدير ، او اعمل ممرضة فى مستشفى ما ، ولأتخلّ عن السعادة ، ولكننى اتذكر على الفور انك تحبنى ، وانه لا يحق لى التصرف فى نفسى دون الرجوع اليك ، فيختلط كل شيء فى ذهنى ، فلا أدرى من اليأس فيم افكر ولا ماذا أفعل . ولكن الشمس أشرقت ، فعاد اليّ المرح . وانتظرت حلول الصباح وطرت اليك . آه ، كم تعذبت يا حبيبى ! لم أنم ليلتين متتاليتين !

كانت مرهقة ومنفعلة . كانت تريد فى وقت واحد ان تنام ، وان تتحدث بلا نهاية ، وان تضحك ، وان تبكى وان تذهب الى المطعم للافطار لكى تحس بنفسها حرة .

وبعد أن تناولت القهوة قالت وهى تتفقد جميع الغرف بسرعة :

— شقتك لطيفة ، ولكنى أخشى ان تكون ضيقة لشخصين . أية غرفة ستخصصها لى ؟ تعجبنى هذه ، لأنها مجاورة لغرفة مكتبك .

وفى الساعة الثانية غيرت ملابسها فى الغرفة المجاورة للمكتب والتى أصبحت تسميها غرفتها ، ورحلت مع أرلوف لتناول الافطار . وتغديا ايضا فى المطعم ، وفى الفترة الطويلة الواقعة بين الافطار والغداء طافا بالمتاجر . وظللت حتى ساعة متأخرة من المساء افتح الباب لوكلاء وسعاة المحلات واتسلم منهم شتى المشتريات . وكان من بين ما أتوا به تسريحة رائعة ، وطاولة تواليت وسرير وطقم شاى فاخر لم نكن بحاجة اليه . وأتوا بعائلة كاملة من قدور الطبخ النحاسية وضعناها صفا على رف فى مطبخنا الخاوى البارد . وعندما كنا نفض لفة طاقم الشاى اتقدت عينا بوليا ، ونظرت نحوى عدة مرات بحقد وخوف من ان اكون أنا ، لا هى ، ربما البادىء بسرقة قدح من هذه الاقداح الرشيقة . وجاءوا بطاولة مكتب حريمى ، غالية جدا ولكنها غير مريحة . ويبدو أن زينائيدا فيودوروفنا كانت عازمة على الاستقرار هنا بصورة راسخة ، كربة بيت .

وعادت مع أرلوف فى حوالى العاشرة . ولما كانت مشبعة بادراك فخور بأنها أقدمت على شىء جرئ وغير عادى ، عاشقة بهيام ، وكما خيل اليها ، معشوقة بهيام ، ساهمة ، ممنية نفسها بنوم عميق سعيد ، فقد سكرت زينائيدا فيودوروفنا بنشوة الحياة الجديدة . كانت من فرط السعادة تفرك يديها بقوة ، مؤكدة ان كل شىء رائع ، وتقسم انها ستحب الى الأبد ، وهذه الايمان وتلك الثقة الساذجة ، الطفولية تقريبا ، بأنها هى ايضا محبوبة بقوة وستظل محبوبة الى الابد ، جعلتها تبدو

أصغر بخمس سنوات . وراحت تتفوه بهراء جميل وتضحك من نفسها .

وقالت وهى تجبر نفسها على ان تقول شيئا ما جادا وذا اهمية :

— ليس هناك نعمة أسمى من الحرية ! انظر الى هذه السخافة . اننا لا نقدّر ابدا رأينا الخاص ، حتى ولو كان سديدا ، بينما نرتعش وجلا أمام رأى شتى الحمقى . كنت أخشى آراء الآخرين حتى آخر لحظة ، ولكن ما أن اتبعت رأيى أنا ، وقررت ان أعيش كما أرى حتى تفتحت عيناى ، وتغلبت على خوفى الأحمق ، واصبحت الآن سعيدة وأتمنى للجميع مثل هذه السعادة .

ولكن سرعان ما ينقطع حبل افكارها ، فتعود للحديث عن الشقة الجديدة ، وعن اوراق الحيطان ، والخيول ، وعن رحلة الى سويسرا وايطاليا . أما أرلوف فكان مرهقا من الذهاب الى المطاعم والمتاجر ، وظل يعانى من ذلك الخجل الذاتى الذى لاحظته عليه فى الصباح . كان يبتسم ولكن بدافع الأدب اكثر منه بدافع السرور ، وعندما تتحدث عن شيء ما جدى كان يؤمّن بسخرية : «أوه ، نعم !»

وقالت تخاطبنى :

— يا ستيبان ، ابحث بسرعة عن طباخ جيد .

فقال أرلوف وهو يرمقنى بنظرة باردة :

— لا داعى للاستعجال بالمطبخ . ينبغى أن ننتقل اولا الى الشقة الجديدة .

لم يكن يحتفظ لديه ابدا بمطبخ او خيول ، فقد كان على حد قوله «لا يحب اقتناء الاقذار لديه» ولم يكن يطيق

بقاءنا أنا وبوليا فى شقته الا لحاجته الينا . فما يسمى بالعش العائلى ، بأفراحه وأتراحه العادية ، كان يهين ذوقه بابتذاله . وأن تكون المرأة حبلى او يكون لديها اولاد وتتحدث عنهم ، لهو قلة ذوق وسوقية . ومن ثم فقد كان فى غاية الطرافة بالنسبة لى أن أتصور كيف سيتعايش فى شقة واحدة هذان المخلوقان : هى ، السيدة المنزلية ، ربة الدار ، بقدورها النحاسية وأحلامها بطباخ جيد وبالخيول . . وهو ، الذى كثيرا ما كان يقول لأصحابه انه فى شقة الرجل القويم النظيف ، كما فى السفينة الحربية ، لا ينبغى ان يكون هناك شيء زائد . . لا نساء ، لا أطفال ، لا خرق ، لا أوانى مطبخ . . .

٥

والآن سأروى لكم ما حدث فى أقرب خميس . فى هذا اليوم تغدى أرلوف وزينائيدا فيودوروفنا فى مطعم «كونتان» او «دونون» . وعاد أرلوف الى البيت وحده ، أما هى فرحلت ، كما علمت فيما بعد ، الى مربيتها العجوز فى ضاحيـــــة بطرسبرج ، لكى تبقى عندها الى أن ينصرف الضيوف من عندنا . لم يرد أرلوف أن يقدمها لأصحابه . وقد أدركت انا ذلك فى الصباح ، اثناء تناولهما القهوة ، عندما راح يؤكد لها أنه من أجل راحتها ينبغى الغاء حفلات الخميس .

جاء الضيوف كالعادة فى وقت واحد تقريبا .

وسألنى كوكوشكين همسا :

— السيدة فى البيت ؟

فأجبته :

— كلا يا سيدى .

فدلف بعينين ماكرتين مداهنتين وهو يبتسم فى غموض ويفرك راحتيه من البرد .

وقال لأرلوف وبدنه كله يرتعش من الضحك المرائى المتزلف :

— يشرفنى ان اهنئكم . واتمنى لكما النماء والتكاثر كأرز لبنان .

وذهب الضيوف الى غرفة النوم ، وتندروا هناك على الحذاء الحريمى والبساط المفروش بين السريرين والبلوزة الرمادية المدلاة على مسند السرير . كانوا مسرورين لأن هذا العنيد الذى كان يحتقر فى الحب كل ما هو عادى ، قد سقط فجأة فى شباك امرأة بهذه البساطة والعادية .

— ما كنا نسخر منه ، اصبحنا نسجد له . . — ردد كوكوشكين الذى كان لديه بالمناسبة ميل منفر الى التباهى بترديد العبارات السلافية الكنسية . — ثم اضاف هامسا وهو يرفع اصبعه الى فمه عندما انتقلوا من غرفة النوم الى الغرفة المجاورة للمكتب — هس ! هنا تحلم مرجريتا بفتــــاها فاوست .

وأغرق فى الضحك كأنما قال شيئا مضحكا للغاية . وتفرست فى وجه جروزين ، متوقعا ألا تطيق روحه الموسيقية هذا الضحك ، ولكنى اخطأت . كان وجهه الطيب النحيل يتهلل بالمتعة . وعندما جلسوا ليلعبوا الورق ، راح يقول وهو يلثغ ويختنق بالضحك انه لم يبق لجورج ، لكى تكتمل سعادته العائلية ، الا أن يقتنى غليونا من خشب الكرز وجيتارا . وضحك بيكارسكى برصانة ، بيد انه كان واضحا من نظرته

المستغرقة ان قصة غرام أرلوف الجديدة تثير نفوره . لم يكن يفهم كنه ما حدث .

وبعد أن لعبوا ثلاث دورات سأل مستغربا :

— ولكن ماذا عن زوجها ؟

فأجاب أرلوف :

— لا أعرف .

فمشط بيكارسكى لحيته الكبيرة باصابعه واستغرق فى التفكير ، ولزم الصمت حتى العشاء . وعندما جلسوا الى المائدة قال ببطء ، ماطا كل كلمة :

— عفوا ، ولكنى عموما لا أفهمكما . كان بوسعكما ان تحبا بعضكما بعضا وتخالفا الوصية السابعة كما يحلو لكما .. هذا مفهوم . نعم هذا مفهوم لى . ولكن ما الداعى لاطلاع الزوج على اسراركما ؟ هل هذا ضرورى ؟

— أليس الأمر سواء ؟

— إم . . . — واستغرق بيكارسكى فى التفكير . — اذن فلتسمع ما سأقوله لك يا صديقى العزيز — استطرد بتوتر واضح فى التفكير — لو اننى فى وقت ما تزوجت مرة ثانيـــــــة ، وتراءى لك ان تركّب لى قرنين ، فلتفعل ذلك بحيث لا ألحظ انا . فمن الأشرف بكثير ان تخدع الرجل على أن تفسد عليه نظام حياته وسمعته . أنا افهمكما . انكما تظنان انكما بالعيش هكذا علانية تتصرفان بأمانة وليبرالية غير عادية . ولكنى لا استطيع أن اوافق على هذه الـ . . . ما اسمها ؟ . . على هذه الرومانسية .

لم يرد أرلوف بشيء . كان معتل المزاج ، فلم يشأ ان يتكلم . أما بيكارسكى فمضى فى استغرابه ، ونقر على

الطاولة بأصابعه ، وفكر ثم قال :

— اننى مع ذلك لا أفهمكما . فلست أنت طالبا ، وليست هى خياطة . كلاكما من أصحاب الموارد . اعتقد انه كان بامكانك أن تستأجر لها شقة منفردة .

— كلا ، ليس بامكانى ذلك . فلتقرأ تورجينيف .

— وما الداعى لقراءته . لقد قرأته .

— تورجينيف يعلمنا فى مؤلفاته انه على كل فتاة سامية ، شريفة التفكير ، أن تمضى مع رجلها الحبيب الى آخر الدنيا وتخدم فكرته — قال أرلوف زارا عينيه بسخرية — ان «آخر الدنيا» هى licentia poetica * . فالدنيا كلها ، بجميع أواخرها ، تتركز فى شقة الرجل الحبيب . ولذلك فألا تعيش مع المرأة التى تحبك فى شقة واحدة يعنى انك تحرمها من أسمى غاياتها ولا تشاطرها مثلها العليا . نعم يا عزيزى ، تورجينيف كتب ، وها أنذا اتجرع الكأس بدلا منه .

— ما دخل تورجينيف هنا ؟ لست أفهم — قال جروزين بصوت خافت وهز كتفيه . — اتذكر يا جورج كيف كان فى «ثلاثة لقاءات» يسير فى مكان ما بايطاليا فى ساعة متأخرة . وفجأة سمع :

Vieni pensando a me segretamente! ** — غنى جروزين — جميل

فقال بيكارسكى :

— ولكنها لم تنتقل اليك عنوة . أنت أردت ذلك .

---

* خيال شعرى (باللاتينية فى الاصل) .

** تعالى وأنت تفكرين في سرا (بالايطالية فى الاصل) .

— كيف تقول ! ما أردت ذلك ابدا ، بل حتى لم يدر بذهني ان هذا سيحدث قط . عندما كانت تقول انها ستنتقل اليّ كنت أظن أنها تمزح بلطف .

فضحكوا جميعا .

ومضى أرلوف يقول بنبرة توحي وكأنما اضطروه الى التبرير :

— لم يكن من الممكن أن أريد ذلك . أنا لست بطلا من ابطال تورجينيف ، واذا ما تطلعت في وقت مـا الى تحرير بلغاريا فلن احتاج الى صحبة نسائية * . انني انظر الى الحب قبل كل شيء باعتباره حاجة جسدية ، منحطـة ومعادية لروحي . وينبغي اشباعها بحكمة او التخلي عنها تماما ، والا فانها ستدخل الى حياتك عناصر ملوثة مثلها هي . ولكي تصبح متعة لا عذابا أحاول أن أجعلها جميلة واحيطها بكمية من الاوهام . فأنا لن اذهب الى امرأة ما لم اكن واثقا مسبقا من انها جميلة وجذابة . كذلك لن اذهب اليها ما لم اكن أنا نفسي في افضل حالاتي . وفي ظل هذه الظروف فقط نستطيع ان نخدع بعضنا بعضا ، فيخيل الينا أننا نحب واننا سعداء . ولكن هل يمكن ان أريد قدورا نحاسية وشعرا غير ممشط ، او أن يراني أحد قبل أن اغتسل ومعتل المزاج ؟ ان زيناثيدا فيودوروفنا تريد بقلبها البسيط ان تجعلني أحب ما كنت اتحاشاه طوال حياتي . انها تريد أن تفوح في شقتي رائحة المطبخ

---

* الاشارة هنا الى رواية الكاتب الكبير ايفان تورجينيف «في العشية» والتي كان بطلها احد الثوار البلغار . وقد أحب البطل فتاة روسية آمنت بقضيته ومضت معه الى بلغاريا ولكنه توفي في الطريق . **المعرب** .

وغسيل الأواني . وهى بحاجة الى الانتقال الى شقة جديدة فى صخب ، والى التنقل على جيادها الخاصة ، بحاجة الى ان تحصى غياراتى وتهتم بصحتى . انها بحاجة الى التدخل كل دقيقة فى حياتى الخاصة ، ومراقبة كل خطوة من خطواتى ، وفى الوقت نفسه تؤكد باخلاص أن عاداتي وحريتى ستظل ملكى . وهى على يقين من أننا ، كعروسين ، سنقوم فى أقرب وقت برحلة شهر العسل ، أى أنها تريد ان تبقـــى الى جوارى بلا فكاك فى مقصورات القطارات وفى الفنادق ، بينما أحب اثناء السفر ان اقرأ ولا أطيق الحديث .

فقال بيكارسكى :

— اذن نبهها الى ذلك .

— كيف ؟ اتظن انها ستفهمنى ؟ رحماك ، اننا نفكر بطريقة جد مختلفة ! فمن وجهة نظرها أن الرحيل عن ماما او بابا او عن الزوج الى الرجل الحبيب هو قمة الشجاعـــة الأدبية ، أما أنا فلا أرى فيه الا عملا صبيانيا . فى رأيها ان الحب والاتصال بالحبيب يعنى بداية حياة جديدة ، أما انا فأرى ان ذلك لا يعنى شيئا . الحب والرجل يشكلان جوهر حياتها الحقيقى ، وربما من هذه الزاوية تحركها فلسفـــــة اللاوعى . فلتحاول اذن ان تقنعها بأن الحب هو مجرد حاجة ، كالطعام والملبس ، وأن العالم لن يفنى ابدا لأن الازواج والزوجات سيئون ، وانه من الممكن أن تكون فاسقا ومفسدا وفى الوقت نفسه عبقريا ونبيلا ، ومن جهة أخرى يمكن ان تتخلى عن متع الحب وتكون فى الوقت نفسه حيوانا غبيا شريرا . ان الانسان المثقف المعاصر ، حتى الذى يقف فى اسفل السلم ، كالعامل الفرنسى مثلا ، ينفق على غدائه فى اليوم عشرة «سو» ،

وعلى نبيذ الغداء خمسة «سو» ، وعلى المرأة من خمسة الى عشرة «سو» ، بينما يعطى للعمل كل عقله وأعصابه . أما زينائيدا فيودوروفنا فلا تعطى للحب بضعة «سو» ، بل كل روحها . سأنبهها على الأرجح ، ولكنها فى المقابل ستصرخ باخلاص بأننى قضيت عليها وانه لم يعد لديها أى شىء فى الحياة .

فقال بيكارسكى :

— لا تقل لها شيئا . فقط استأجر لها شقة منفردة . وكفى .

— سهل أن تقول هذا . . .

وصمتوا قليلا .

وقال كوكوشكين :

— ولكنها لطيفة . انها رائعة . مثيلاتها يتصورن أنهن سيحببن الى الابد ، ويستسلمن بحماسة .

فقال أرلوف :

— ولكن ينبغى ان يكون لديهن عقل . ينبغى أن يفكرن . ان جميع الخبرات المعروفة لنا من الحياة اليومية والمدونة على صفحات الروايات والدرامات العديدة تؤكد بالاجماع أن شتى انواع الغرام والمعاشرة عند الاشخاص القويمين ، ومهما كان الحب فى بدايتها ، لا تستمر اكثر من عامين ، وان طالت فلا اكثر من ثلاثة . عليها أن تعرف هذا . ولذلك فان كل هذه التنقلات ، والقدور ، والاحلام بالحب والوفاق الخالدين لا تعدو ان تكون رغبة فى استغفال نفسها واستغفالى . انها لطيفة ورائعة . . من ذا يعارض ؟ ولكنها قلبت عربة حياتى . كل ما كنت اعتبره حتى الآن تافها وسخيفا تريد هى منى ان اجعله فى مستوى القضايا الهامة .

اننى أعبد صنما لم اعتبره أبدا الها . انها لطيفة ورائعة ، فلماذا اذن اصبحت أشعر بالانقباض وانا عائد من الخدمة الى البيت ، كأنما اتوقع أن أرى فى بيتى شيئا منغصا ، من نوع بناة المدافىء ، الذين نقضوا كل المدافىء وكوموا جبالا من الطوب . وباختصار فلم أعد ادفع مقابل الحب «سو» ، بل جزءا من راحتى واعصابى . وهذا شىء سيىء .

فتنهد كوكوشكين قائلا :

— انها لا تسمع ما يقوله هذا الشرير !

ثم قال بنبرة مسرحية :

— سيدى المحترم . اننى اعفيك من الواجب الثقيل بحب هذا المخلوق الرائع ! سوف انتزع منك زينائيدا فيودورفنا !

فقال أرلوف بلامبالاة :

— تفضل . . .

وظل كوكوشكين نصف دقيقة يضحك بصوت رفيع وبدنه كله يهتز ، ثم قال :

— انتبه ، اننى لا أمزح ! أرجو ألا تتقمص فيما بعد دور عطيل !

وشرع الجميع يتحدثون عن دأب كوكوشكين الذى لا يكل فى شئون الغرام ، وانه صاعق بالنسبة للنساء وخطير على الازواج ، وكيف ستشويه الشياطين على النار فى العالم الآخر جزاء على حياته الماجنة . أما هو فلزم الصمت وهو يزر عينيه ، وعندما كانوا يذكرون اسماء نساء معروفات كان يهدد بسبابته ، كأنما يحذّر من افشاء أسرار الآخرين . وفجأة نظر أرلوف الى الساعة .

فهم الضيوف وبدأوا يستعدون للانصراف . واذكر أن جروزين ، وقد انتشى من الخمر ، ظل يرتدى ملابسه هذه المرة طويلا . ارتدى معطفه الذى يشبه تلك القبوطات التى يرتديها الاطفال فى الاسر غير الموسرة ، ورفع ياقته ، وأخذ يروى قصة طويلة عن شيء ما . وعندما رأى ان احدا لا ينصت اليه وضع على كتفه حرامه الذى فاحت منه رائحة فراش الاطفال ، وطلب منى بوجه ضارع مذنب ان أجد له قبعته .

وقال بصوت رقيق :

— جورج يا ملاكى ! اصغ الىّ يا عزيزى ولنذهب الآن الى خارج المدينة !

— اذهب ، اما انا فلا استطيع . أنا الآن فى وضع الازواج .

— انها رائعة ولن تغضب . يا رئيسى الطيب فلنرحل ! الطقس رائع ، عاصف وقارس . . . اقسم بشرفى انك بحاجة الى تغيير الجو ، فمزاجك معتل ، الشيطان يعرف لماذا . . .

تمطى أرلوف وتثاءب ، ثم نظر الى بيكارسكى ، وسأله مفكرا :

— هل ستذهب ؟

— لا أعرف . أظن .

— أم ربما اسكر ، هه ؟ — وقرر أرلوف بعد تردد قصير — حسنا ، سأذهب . انتظروا ، سأحضر نقودا .

وذهب الى غرفة المكتب فتبعه جروزين متعثرا يجرجر حرامه خلفه . وبعد دقيقة عادا معا الى المدخل . كان جروزين الثمل والمسرور جدا يجعد فى قبضته ورقة من فئة العشرة روبلات .

ومضى يقول :

— غدا سأردها . اما هى فطيبة ، لن تغضب . . . هى التى عمّدت ابنتى ليزا ، اننى احبها ، هذه المسكينة . — وفجأة ضحك بفرح والصق جبينه بظهر بيكارسكى — آه ايها الرجل الحبيب ، بيكارسكى يا روح قلبـى ! محام حتى النخاع ، أعجف الفؤاد ، ومع ذلك تراه يحب النساء . . .

— أضف : السمينات — قال أرلوف وهو يرتدى معطف الفراء . — ولكن هيا بنا نرحل ، والا فقد نلقاها على العتبة .

فغنى جروزين :

— Vieni pensando a me segretamente

وأخيرا رحلوا . ولم يبت أرلوف ليلته فى المنزل ، وعاد فى اليوم التالى قرب الظهر .

٦

ضاعت ساعة زينائيدا فيودوروفنا الذهبية التى اهداها لها والدها فى زمن ما . وقد ادهشها واخافها هذا الضياع . ظلت نصف النهار تطوف بالغرف وهى تتفحص الطاولات والنوافذ بنظرات مرتبكة ، ولكن كأنما كانت الساعة قطعة ملح ذابت .

وبعد ذلك بزمن قصير ، حوالى ثلاثة ايام ، عادت زينائيدا فيودوروفنا من مكان ما ، فنسيت فى المدخل حافظة نقودها . ولحسن حظى لم اكن انا الذى ساعدتها هذه المرة على خلع معطفها بل بوليا . وعندما تذكرت المحفظة لم تجدها فى المدخل .

قالت زينائيدا فيودوروفنا مستغربة :

— غريبة ! اننى اذكر جيدا اننى اخرجتها من جيبى لكى انقد الحوذى . . . ثم وضعتها هنا بجوار المرآة . عجيبة !

لم اكن سارقا ، ولكن تملكنى احساس كأنما كنت انا السارق وضبطونى . حتى ان عينى اغرورقتا بالدموع . وعندما جلسنا للغداء قالت زينائيدا فيودوروفنا لأرلوف بالفرنسية :

— بيتنا سكنته الارواح . فقدت اليوم محفظتى فى المدخل ، واذ بى أجدها الآن على طاولتى . ولكن الارواح لم تقدم هذه النمرة مجانا ، فقد اخذت مقابل عملها قطعة ذهبية وعشرين روبلا .

فقال أرلوف :

— تارة تضيّعين ساعتك ، وتارة نقودك . . . فلماذا لا يحدث معى أى شيء من هذا القبيل ؟

وبعد لحظة لم تعد زينائيدا فيودوروفنا تذكر شيئا عن النمرة التى دبرتها الارواح ، وراحت تروى وهى تضحك كيف أوصت فى الاسبوع الماضى على اوراق رسائل ، ولكنها نسيت ان تعطى عنوانها الجديد ، فأرسل المتجر الاوراق حسب العنوان القديم الى زوجها ، الذى اضطر أن يدفع اثنى عشر روبلا لفاتورة الحساب . وفجأة توقف نظرها على بوليا وثبتت عليها عينا فاحصة . وفى نفس اللحظة تضرج وجهها وارتبكت الى درجة انها حولت مجرى الحديث الى موضوع آخر .

وعندما دخلت غرفة المكتب حاملا القهوة كان أرلوف واقفا وظهره الى المدفأة بينما جلست هى فى مقعد قبالته . وقالت بالفرنسية :

— ليس مزاجى معتلا ابدا ، لكنى اخذت أفطن

للأمور فأدركت كل شيء . استطيع ان احدد لك اليوم بل وحتى الوقت الذى سرقت فيه الساعة . والمحفظة ؟ هنا لا يمكن ان تكون أية شكوك . أوه ! — وضحكت وهى تتناول منى القهوة — الآن ادركت لماذا افقد مناديلى وقفازاتى بهذه الكثرة . كما تشاء ، ولكنى سأسرِّح هذه اللصة وأبعث بستيبان ليحضر وصيفتى صوفيا . فهذه ليست لصة ، وليس لها هذه الهيئة الـ . . . المنفرة .

— انت معتلة المزاج . غدا سيختلف مزاجك فتدركين انه لا يصح طرد شخص فقط لأنك ترتابين فيه .

فقالت زينائيدا فيودوروفنا :

— أنا لا أرتاب بل واثقة . عندما كنت ارتاب فى هذا البروليتارى ذى الوجه البائس ، خادمك ، لم اقل اية كلمة مهينة . من المحزن يا جورج أنك لا تصدقنى .

فقال أرلوف :

— اذا كان تفكيرنا مختلفا حول موضوع معين فهذا لا يعنى اننى لا أصدقك . — واستدار نحو نار المدفأة وألقى فيها سيجارته — ومع ذلك لا داعى للانفعال . وعلى العموم أصارحك بأننى لم اتوقع أن تسبب لك مملكتى الصغيرة كل هذه الهموم الجدية والانفعالات . ضاعت قطعة نقود ذهبية ، فليكن ، لها الله ، خذى منى ولو مائة قطعة ، أما أن نغير النظام ، ونأخذ من الشارع خادمة جديدة ، وننتظر حتى تعتاد . . . كل هذا شيء طويل ، ممل ، لا يتفق مع طباعى . صحيح ان خادمتنا الحالية سمينة ، وربما تعانى من ميل خاص الى المناديل والقفازات ، ولكنها فى المقابل محترمة ، منضبطة ، ولا تصرخ عندما يقرصها كوكوشكين .

ـــ باختصار انت لا تستطيع أن تفترق عنها . . . قل بصراحة .

ـــ هل تغارين ؟

ـــ نعم ، أنا اغار ! ـــ قالت زينائيدا فيودوروفنا بحزم .

ـــ أشكرك .

ـــ نعم ، أنا أغار ! ـــ رددت ولمعت فى عينيها الدموع ـــ كلا ، ليست هذه غيرة ، بل شيئا اسوأ . . . لا أعرف كيف اسميه . ـــ وامسكت بصدغيها واستطردت باندفاع ـــ انتم الرجال كم تصبحون احيانا كريهين ! هذا فظيع !

ـــ لا أرى فى ذلك أية فظاعة .

ـــ أنا لم أر ، ولا أعرف ، ولكن يقال انكم ، انتم الرجال ، منذ الطفولة تبدأون مع الخادمات ، وبعد ذلك ، ومع التعود ، لا تشعرون بأى تقزز . أنا لا أعرف ، لا أعرف ، ولكنى قرأت . . . جورج ، طبعا أنت محق ـــ قالت وهى تقترب من أرلوف مغيرة من نبرتها الى نبرة رقيقة ضارعة ـــ بالفعل أنا اليوم معتلة المزاج . لكن ارجوك افهمنى ، انا لا استطيع . انها كريهة ، وانا أخافها . اشعر بالضيق من رؤيتها .

فقال أرلوف هازا كتفيه باستغراب ومبتعدا عن المدفأة :

ـــ الا يمكن أن تكونى أرفع من ذلك ؟ ليس هناك شىء اسهل من هذا : لا تلاحظيها ولن تكون عندئذ كريهة ، ولن تحتاجى الى صنع مأساة كاملة من شىء تافه .

خرجتُ من المكتب فلم أعرف الاجابة التى تلقاها أرلوف . وأيا كان الأمر فقد ظلت بوليا عندنا . وبعد ذلك لم تعد زينائيدا فيودوروفنا تطلب منها شيئا ، اذ يبدو أنها

حاولت أن تستغني عن خدماتها . وعندما كانت بوليا تقدم لها شيئا ، او تمر فقط من جوارها وهي ترن بأسورتها وتخشخش بجونلاتها ، كانت زينائيدا فيودوروفنا تنتفض .

واعتقد انه لو طلب جروزين او بيكارسكي من أرلوف ان يطرد بوليا لفعل ذلك دون أدنى تردد ، ولما أرهق نفسه بأية تفسيرات . فقد كان سلس القياد ككل الاشخـــاص اللامبالين . ولكنه في علاقاته بزينائيدا فيودوروفنا ، وحتى في أتفه الامور ، كان لسبب ما يبدي عنادا يبلغ احيانا حد الاستبداد . وهكذا اصبحت اعرف مقدما انه اذا ما اعجب شيء ما زينائدا فيودوروفنا فلن يعجبه بالتأكيد . وعندما كانت تسرع بعد عودتها من المتجر الى التفاخر أمامه بما ابتاعته ، كان يلقي نظرة سريعة الى تلك الاشياء ويقول ببرود أنه كلما ازدادت الاشياء غير الضرورية في الشقة أصبح الهواء أقل . وكان يحدث احيانا ، بعد أن يرتدي الفراك ليذهب الى مكان ما ، ويودع زينائيدا فيودوروفنا ، أن يبقى في المنزل فجأة بدافع العناد . وكان يخيل اليّ آنذاك انه لم يبق في المنزل الا لكي يشعر أنه تعيس .

— لماذا بقيت ؟ — تقول زينائيدا فيودوروفنا بحـزن مصطنع وهي تتهلل من السعادة في الوقت نفسه . — لماذا ؟ لقد تعودت الا تبقى في البيت مساء ، وأنا لا أريد ان تغير عاداتك من أجلي . اذهب أرجوك ، اذا كنت لا تريد ان أشعر بأني مذنبة .

فيقول أرلوف :

— وهل هناك من يحملك ذنبا ؟

ويستلقي في الفوتيل في غرفة المكتب وعليه سيماء

الضحية ، ويتناول كتابا ، حاجبا عينيه بيده . ولكن سرعان ما يسقط الكتاب من يده ، فيتقلب فى الفوتيل بتثاقل ، ويحجب عينيه ثانية كأنما يتقى الشمس . الآن أصبح يشعر بالأسى لأنه لم يذهب .

وتقول زينائيدا فيودوروفنا وهى تدخل المكتب بتردد :

— ممكن أدخل ؟ أنت تقرأ ؟ أما أنا فاشتقت اليك وجئت لدقيقة واحدة . . لألقى نظرة .

واذكر انها دخلت عليه ذات مساء بمثل هذا التردد ، وبغير مناسبة استقرت على البساط عند قدمى أرلوف ، وكان واضحا من حركاتها الوجلة الناعمة أنها لم تكن تفهم مزاجه وتتخشاه .

وبدأت تقول بصوت متسلل وهى ترغب فيما يبدو فى مداهنته :

— ما زلت تقرأ . . . اتدرى يا جورج ما هو السر الآخر لنجاحك ؟ انك مثقف جدا وذكى . ما هذا الكتاب الذى تقرأه ؟

واجابها أرلوف ، ومرت بضع دقائق فى صمت ، فبدت لى طويلة للغاية . كنت واقفا فى غرفة الجلوس أرقبهما من هناك وانا اخشى ان يداهمنى السعال .

وقالت زينائيدا فيودوروفنا بصوت خافت ثم ضحكت :

— كنت أود ان اقول لك شيئا ما . . . هل أقول ؟ أظن انك ستضحك منى وتسمى ذلك هدهدة للنفس . ولكن اتدرى ، اننى اريد ، واريد بشدة أن اعتقد انك بقيت اليوم فى البيت من اجلى . . . لكى نقضى هذا المساء معا . نعم ؟ هل يمكن ان اعتقد ذلك ؟

— اعتقدى . . . — قال أرلوف حاجبا عينيه — الشخص السعيد حقا هو من يعتقد ليس فقط بما هو موجود ، بل وحتى بما ليس له وجود .

— لقد قلت شيئا طويلا ، فلم أفهم جيدا . هل معنى ذلك انك تريد ان تقول بأن السعداء يعيشون بالخيال ؟ نعم ، هذا صحيح . انا احب الجلوس فى مكتبك مساء والانطلاق بافكارى بعيدا بعيدا . . . أشعر بالراحة احيانا اذ أحلم . هيا يا جورج نحلم بصوت مسموع !

— أنا لم اذهب الى الجامعة ولم أدرس هذا العلم .

فسألت زينائيدا فيودوروفنا وهى تتناول يده :

— انت معتل المزاج ؟ قل لى ، ما السبب ؟ عندما تكون فى هذه الحالة اشعر بالخوف . ولا أفهم هل يرهقك الصداع ام انك غاضب منى . . .

ومرت عدة دقائق طويلة أخرى فى صمت .

— لماذا تغيرت ؟ — قالت بصوت خافت — لماذا لم تعد رفيقا ومرحا كما كنت فى زنامينسكايا ؟ لقد عشت عندك شهرا تقريبا ، لكن يخيل اليّ اننا لم نبدأ حياتنا معا ولم نتحدث بعد عن اى شيء كما يجب . فى كل مرة تجيبنى بمزحات او باجابات طويلة باردة كمعلم . وفى مزحاتك يلوح شيء بارد . . لماذا كففت عن التحدث معى بجدية ؟

— انا دائما اتحدث بجدية .

— اذن هيا نتحدث . استحلفك بالله يا جورج . . . هيا ؟

— هيا . ولكن عمّ ؟

— سوف نتحدث عن حياتنا ، عن المستقبل . . . —
قالت زينائيدا فيودوروفنا حالمة . — اننى اظل ارسم وارسم خططا للحياة ، وكم اشعر بالراحة ! جورج ، سأبدأ بسؤال : متى ستترك الخدمة ؟ . .

فسألها أرلوف وهو يرفع يده عن جبينه :

— وما ضرورة ذلك ؟

— بمثل آرائك يستحيل ان تخدم . انت هناك لست فى مكانك .

فسأل أرلوف :

— آرائى ؟ آرائى ؟ أنا حسب معتقداتى وطبيعتى موظف عادى ، بطل من ابطال شيدرين . اؤكد لك أنك تظنيننى شخصا آخر .

— عدت للمزاح يا جورج !

— على الاطلاق . ربما لا ترضينى الخدمة ، ومع ذلك فهى بالنسبة لى أفضل من اى شيء آخر . فهناك ألفت الجو ، والناس هناك مثلى ، على اى حال انا هناك لست زائدا عن الحاجة واشعر بنفسى لا بأس .

— انك تمقت الخدمة ، تشمئز منها .

— حقا ؟ لو اننى استقلت ، وأخذت أحلم بصوت مسموع ، وانطلق بافكارى الى عالم آخر ، فهل تظنين أن هذا العالم سيكون عندى أقل بغضا من الخدمة ؟

— لكى تعارضنى فانك مستعد حتى للافتراء على نفسك ، — قالت زينائيدا فيودوروفنا بغضب ونهضت . — اننى آسفة اذ بدأت هذا الحديث .

— لماذا تغضبين ؟ اننى مثلا لا أغضب من أنك لا تخدمين . كلّ يعيش كما يحلو له .

— وهل أنت تعيش كما يحلو لك ؟ هل أنت حر؟ —

ومضت زينائيدا فيودوروفنا تقول ملوحة بيديها فى يأس . — أن تكتب طول العمر أوراقا منافية لمعتقداتك ، أن تخضع ، وتهنىء الرؤساء بالعام الجديد ، ثم هذا اللعب الذى لا ينتهى بالورق ، والأهم من ذلك أن تخدم نظما لا يمكن أن تكون قريبة الى نفسك . . كلا ، يا جورج ، كلا ! لا تمزح بهذه الفظاظة . هذا فظيع . انت رجل عقيدة ، وعليك ان تخدم عقيدتك فقط .

فتنهد أرلوف قائلا :

— حقا انك تظنيننى شخصا آخر .

فدمدمت زينائيدا فيودوروفنا من خلال الدموع :

— قل ببساطة انك لا تريد ان تتحدث معى . انت لا تطيقنى ، هذا هو الامر .

فقال أرلوف بلهجة نصح وهو يتململ فى الفوتيل :

— اسمعى يا عزيزتى ، انت تفضلت بالقول بأننى رجل ذكى مثقف ، وتعليم المتعلم لا يؤدى الا الى افساده . ان جميع المعتقدات ، الصغيرة منها والكبيرة ، والتى اشرت اليها عندما سميتنى رجل عقيدة ، معروفة جيدا لى . وبالتالى فاذا كنت افضل الخدمة ولعب الورق على هذه العقائد ، ففى الغالب لدى اساس لذلك . هذا اولا . وثانيا ، فأنت ، بقدر علمى ، لم تخدمى ابدا ، ومعلوماتك عن الخدمة فى الدولة تستطيعين استقاءها من النكات والروايات السيئة فقط . ولهذا فلا بأس ان نتفق اتفاقا لا رجعة فيه : الا

نتحدث عما نعرفه منذ زمن بعيد ، او عما يتجاوز نطاق أهليتنا .

— لماذا تتحدث معى هكذا ؟ — قالت زينائيدا فيودوروفنا وهى تتراجع الى الوراء كأنما فزعا — لماذا ؟ جورج ، أفق أرجوك !

تهدج صوتها وتحشرج ، ويبدو انها كانت تحاول كبت دموعها ، ولكنها انتحبت فجأة .

— جورج ، يا عزيزى ، اننى أهلك ! — قالت بالفرنسية وهى تتهاوى بسرعة امام أرلوف ، ووضعت رأسها على ركبتيه — اننى معذبة ، منهكة ، انا لا استطيع ان اتحمل بعد ، لا استطيع . . . فى طفولتى كانت زوجة ابى البغيضة المنحلة ، ثم زوجى ، والآن أنت . . . أنت . . . انت ترد على حبى المجنون بالسخرية والبرود . . . وهذه الخادمة الفظيعة الوقحة ! — استطردت وهى تنتحب — نعم ، نعم اننى أرى . أنا لست زوجة لك ، لست صديقا ، بل امرأة لا تحترمها لأنها أصبحت عشيقتك . . . سأقتل نفسى !

لم اكن أتوقع ان يكون لهذه الكلمات وهذا البكاء مثل هذا التأثير القوى على أرلوف . فقد تضرج ، واخذ يتململ بقلق فى الفوتيل ، وبدلا من السخرية ظهر على وجهه خوف صبيانى بليد .

ودمدم بارتباك وهو يلمس كتفيها وشعرها :

— يا عزيزتى ، انت لم تفهمينى ، أقسم لك . سامحينى اتوسل اليك . انا لم اكن على حق و . . . أمقت نفسى .

— اننى أهينك بشكواى وأنينى . . . انت انسان شريف ، نبيل . . . نادر ، وانا أدرك هذا فى كل لحظة ، ولكن الكآبة عذبتنى طوال هذه الايام . . .

وعانقت زينائيدا فيودوروفنا أرلوف بتوتر ، وقبلته فى خده . ودمدم أرلوف :

— فقط لا تبكى ، أرجوك .

— كلا ، كلا . . لقد شبعت بكاء ، وأشعر بالراحة .

— بخصوص الخادمة ، فمن الغد لن تكون هنا — قال وهو لا يزال يتململ فى مقعده بقلق .

— كلا ، بل يجب أن تبقى يا جورج ! اتسمعنى ؟ أنا لم أعد أخشاها . . . ينبغى ان اكون أرفع من هذه التفاهات والا أفكر بالحماقات . أنت على حق ! أنت انسان نادر . . . رائع !

وسرعان ما كفت عن البكاء . وجلست على ركبتى أرلوف ، والدموع لم تجف بعد على رموشها ، وراحت تروى له شيئا مؤثرا ، اشبه بذكريات الطفولة والصبا ، وتمسح براحتها على وجهه ، وتقبل يديه وتتفحصهما بعناية بأصابعهما ذات الخواتم ، وكذلك المدلاة ذات السلسلة . وجذبتها روايتها وقربها من شخص حبيب ، وربما لأن الدموع الاخيرة قد طهرت روحها وأنعشتها فقد رن صوتها بصفاء وصدق غير عاديين . أما أرلوف فكان يلعب بشعرها الكستنائى ويلثم يديها بشفتيه دون صوت .

وبعد ذلك شربا الشاى فى غرفة المكتب ، وقرأت زينائيدا فيودوروفنا رسائل ما بصوت مسموع . وفى بدايـة الساعة الواحدة ذهبا الى غرفة النوم .

فى تلك الليلة انتابنى ألم شديد فى جنبى ، فلم أنم ولم اشعر بالدفء حتى الصباح . وسمعت أرلوف يخرج من غرفة النوم ويذهب الى مكتبه . واذ جلس هناك حوالى ساعة دق الجرس . ومن الألم والارهاق نسيت ما يقتضيه النظام والاصول فى المجتمع الراقى فذهبت الى المكتب حافى القدمين وفى ملابسى الداخلية فقط . وكان أرلوف يقف فى الباب وينتظرنى فى الروب والطاقية .

وقال بصرامة :

— عندما يستدعونك ينبغى أن تأتى بملابسك . هات شموعا أخرى .

وأردت ان اعتذر ، ولكن نوبة سعال قوية داهمتنى ، فتعلقت بعارض الباب باحدى يدى حتى لا أسقط .

فسألنى أرلوف :

— هل مرضتم ؟

يبدو انها المرة الاولى طوال فترة تعارفنا التى يخاطبنى فيها بصيغة الجمع . والله يعلم ما السبب . ربما لأنى بملابسى الداخلية ، وبوجهى الذى شوهه السعال ، كنت لا اجيد تمثيل دورى ، ولا اشبه الخادم كثيرا .

وقال أرلوف :

— اذا كنتم مرضى ، فلماذا تخدمون ؟

فأجبته :

— لكى لا أموت جوعا .

فدمدم بصوت خافت متجها الى مكتبه :

— ما اقذر هذا فى الواقع !

والى أن القيت على كتفى السترة ، ووضعت الشموع

الجديدة واشعلتها ، ظل هو جالسا بجوار المكتب ، ممددا ساقيه على المقعد وهو يفض صفحات كتاب .

وتركته وهو منهمك فى القراءة ، ولم يسقط الكتاب من يده كما حدث مساء .

٧

الآن ، وانا أدون هذه السطور ، يمنع يدى خوف ربـى فيّ منذ الطفولة من ان أبدو حساسا ومضحكا . فعندما أريد ان ألاطف وأقول كلمات رقيقة ، لا أدرى كيف افعل ذلك باخلاص . وبسبب هذا الخوف بالذات ، ولعـــدم تعودى ، فاننى لا استطيع ابدا أن أعبر بكل وضوح عما جاش آنذاك فى نفسى .

لم أكن متيما بحب زينائيدا فيودوروفنا ، ولكن الشعور الانسانى العادى الذى كنت اكنه لها كان يحمل من الصبا والطزاجة والفرحة اكثر بكثير مما يحمل حب أرلوف .

عندما كنت اعمل صباحا بفرشة الاحذية او بالمكنسة كنت انتظر بقلب واجف متى اسمع اخيرا صوتها وخطواتها . ان اقف واتطلع اليها وهى تشرب القهوة ، ثم وهى تفطر ، أن اقدم لها معطف الفراء فى المدخل ، وأضع الخف فى قدميها الصغيرتين ، بينما تعتمد بيدها على كتفى ، وأن انتظر بعد ذلك جرس الحاجب معلنا عودتها ، فألقاها عند الباب ، متوردة ، باردة ، مرشوشة بالثلج ، وان اسمع هتافاتها اللاهثة عن الصقيع والحوذى . . . آه لو تعلمون كم كان ذلك كله هاما بالنسبة لى ! كنت أود أن أعشق ،

وان تكون لى أسرة ، وان يكون لزوجتى مثل هذا الوجه بالضبط ومثل هذا الصوت . كنت أحلم اثناء الغداء ، وفى الشارع عندما يرسلوننى الى مكان ما ، وفى الليل عندما اكون مستيقظا . كان أرلوف ينحى عنه باشمئزاز الملابس النسائية والاطفال والمطبخ ، والقدور النحاسية ، أما انا فكنت التقط كل ذلك وارعاه بحرص فى أحلامى ، وأحب ، واتوسل الى القدر ، وأرى فى الخيال الزوجة ، وغرفة الاطفال ، والممرات فى الحديقة ، والمنزل الصغير . . .

كنت ادرك اننى لو أحببتها فلن اجرؤ على الأمل بمعجزة ان تبادلنى الحب ، ولكن هذا الاعتبار لم يزعجنى . فلم يكن فى شعورى الهادىء المتواضع ، الذى يشبه تعلقا عاديا ، غيرة تجاه أرلوف ، ولا حتى حسد ، لأنى كنت ادرك أن السعادة الشخصية لعاجز مثلى ، مستحيلة الا فى الاحلام .

وعندما كانت زينائيدا فيودوروفنا تنتظر فى الليالى جورجها ، وهى تحدق بجمود فى الكتاب دون ان تقلب صفحاته ، او عندما كانت تنتفض وتشحب لأن بوليا مرت عبر الغرفة ، كنت اتعذب معها ، وتراودنى الرغبة فى ان أشق بسرعة هذا الدمل المؤلم ، ان أفعل بسرعة شيئا يجعلها تعرف كل ما يقال هنا اثناء العشاء فى ايام الخميس ، ولكن كيف افعل ذلك ؟ لقد أصبحت أرى دموعها اكثر فأكثر . فى الاسابيع الاولى كانت تضحك وتشدو بأغنيتها ، حتى عندما لا يكون أرلوف فى المنزل ، أما فى الشهر الثانى فقد خيم على الشقة صمت كئيب ، لا يتبدد الا فى أيام الخميس .

كانت تتملق أرلوف ، ولكى تحصل منه على ابتسامة غير صادقة او قبلة ، تجثو أمامه على ركبتيها وتلاطفه وتتمسح

به ككلب صغير . وعندما كانت تمر بجوار مرآة ، حتى وهى تشعر بانقباض شديد ، لم تكن تستطيع ان تمسك نفسها عن النظر فيها وتسوية شعرها . وبدا لى غريبا أنها ما زالت تهتم بالأزياء ويستولى عليها الاعجاب من مشترياتها . فلم يكن ذلك يتفق وحزنها الصادق . كانت تتابع الموضة وتفصل فساتين غالية . فمن اجل من ، ولأى داع ؟ اذكر بصفة خاصة فستانا جديدا كان ثمنه اربعمائة روبل . ان تدفع مقابل فستان زائد ، لا حاجة اليه ، اربعمائة روبل ، فى الوقت الذى تحصل فيه عاملات اليومية عندنا على عشرين كوبيكا فى اليوم مقابل عملهن الشاق ، وفى الوقت الذى تحصل فيه حائكات الدانتلا فى البندقية وبروكسل على نصف فرنك فقط فى اليوم ، اعتمادا على ان الباقى سيحصلن عليه بالدعارة . . كان غريبا بالنسبة لى ومؤسفا ان زينائيدا فيودوروفنا لا تدرك ذلك . ولكن ما أن تغادر البيت حتى اغفر لها كل شىء ، وابرر كل شىء ، وانتظر دق الحاجب للجرس .

كانت تعاملنى كخادم ، كمخلوق من درجة أدنى . فمن الممكن أن تربت على كلب وفى الوقت نفسه لا تلاحظه . كانوا يأمروننى ، ويوجهون اليّ الاسئلة ، ولكنهم لم يلاحظوا وجودى . وكان السادة يعتبرون من غير اللائق أن يتحدثوا معى اكثر من المعهود . ولو انى اثناء قيامى بالخدمة على الغداء تدخلت فى الحديث او ضحكت لاعتبرونى فى الغالب مجنونا وسرحونى . ومع ذلك كانت زينائيدا فيودوروفنا تعطف عليّ . فعندما كانت ترسلنى الى مكان ما ، او تشرح لى كيف استعمل المصباح الجديد او شيئا من هذا القبيل ،

كان وجهها يبدو صافيا بصورة غير عادية ، وطيبا وبشوشا ، أما عيناها فتنظران فى وجهى مباشرة . وعلاوة على ذلك كان يخيل اليّ فى كل مرة انها تتذكر بعرفان كيف كنت انقل اليها الرسائل فى زنامينسكايا . وعندما كانت تقرع الجرس فان بوليا ، التى كانت تعتبرنى الأثير لديها وتمقتنى لذلك ، تقول بتهكم لاذع :

— اذهب ، **صاحبتك** تدعوك .

كانت زينائيدا فيودوروفنا تعاملنى كمخلوق أدنى دون ان تخمن انه لو كان ثمة فى المنزل شخص مهان فانها هى وحدها ذلك الشخص . لم تكن تعلم اننى ، الخادم ، أعانى من اجلها ، واسأل نفسى فى اليوم عشرين مرة عم ينتظرها فى المستقبل وكيف ستكون نهاية ذلك كله . كانت الامور تسير بوضوح من سيىء الى اسوأ يوما بعد يوم . فبعد ذلك المساء الذى تحدثنا فيه عن الخدمة اصبح أرلوف ، الذى كان يخشى الدموع ، يخاف الاحاديث فيما يبدو ويتحاشاها . وعندما تشرع زينائيدا فيودوروفنا فى النقاش او التوسل ، او تهم بالبكاء ، كان ينصرف متذرعا بحجة لائقة الى مكتبه ، او حتى يغادر البيت . وأصبح يكثر من المبيت خارج المنزل ، وتكرر اكثر تخلفه عن الغداء . وفى ايام الخميس كان هو الذى يطلب من اصحابه أن يأخذوه معهم الى أى مكان . أما زينائيدا فيودوروفنا فظلت كما فى السابق تحلم بمطبخها ، وبالشقة الجديدة وبالسفر الى الخارج ، بيد ان أحلامها بقيت احلاما . فقد كانوا يحضرون الغداء من المطعم ، وطلب أرلوف الا تثار قضية الشقة الى حين عودتهما من الخارج ، أما عن السفر فكان يقول انه لا يمكن

ان يسافر الى أن يصبح شعره طويلا ، لأنه لا يجوز التردد على الفنادق وخدمة العقيدة بدون شعر طويل .

وفوق ذلك كله أصبح كوكوشكين يتردد علينا في أوقات المساء في غياب أرلوف . لم يكن في سلوكه أى شيء خاص ، الا اننى لم استطع ابدا أن أنسى ذلك الحديث الذى قال فيه انه ينوى انتزاع زينائيدا فيودوروفنا من أرلوف . كنا نضيفه شايا ونبيذا أحمر ، أما هو فكان يهأهيء ، ورغبة منه فى التفوه باشياء لطيفة ، كان يؤكد ان الزواج المدنى من جميع الوجوه أسمى من الزواج الكنسى ، وان جميع الناس القويمين ينبغى فى واقع الامر ان يأتوا الآن الى زينائيدا فيودوروفنا ويركعوا امامها احتراما .

٨

مرت اعياد الميلاد بملل ، فى توقع غامض لحدوث شيء ما شرير . وعشية رأس السنة ، اعلن أرلوف فجأة ، اثناء تناول قهوة الصباح ، ان رؤساءه يرسلونه بصلاحيات خاصة الى عضو مجلس الشيوخ الذى يقوم بالتفتيش على احدى المحافظات .

وقال بأسى :

— لا أرغب فى السفر ، ولكنى لا أجد ذريعة للتخلف . ينبغى ان اسافر ، ما باليد حيلة .

ولدى سماع هذا النبأ احمرت عينا زينائيدا فيودوروفنا على الفور . وسألت :

— ستغيب طويلا ؟

— حوالى خمسة أيام .

فقالت بعد تفكير قصير :

— فى الحقيقة أنا سعيدة بسفرك . ستسرى عن نفسك . وربما أحببت امرأة ما فى الطريق ، وعندئذ ستحكى لى .

كانت تحاول فى كل فرصة مناسبة أن توحى الى أرلوف بأنها لا تحدّ ابدا من حريته ، وأنه يستطيع أن يتصرف كما يحلو له ، لكن هذه السياسة الساذجة لم تكن تخدع احدا ، بل كانت تذكر أرلوف مرة اخرى بأنه ليس حرا .

— سأسافر مساء اليوم — قال أرلوف وراح يقرأ الجريدة .

وعزمت زينائيدا فيودوروفنا على توديعه الى المحطة ، ولكنه اقنعها بالعدول قائلا انه ليس مسافرا الى أمريكا ولن يغيب خمس سنوات بل مجرد خمسة أيام ، وحتى أقل .

وفى الساعة الثامنة جرى الوداع . عانقها بذراع واحدة وقبلها فى جبينها ثم فى شفتيها .

وقال بلهجة رقيقة قلبية أثرت فيّ ايضا :

— كونى عاقلة ، ولا تسأمى فى غيابى . فليرعك الخالق .

وتفرست فى وجهه بنهم لكى تطبع ملامحه الحبيبة فى ذاكرتها بقوة ، ثم طوقت عنقه بيديها فى رشاقة ، ووضعت رأسها على صدره .

وقالت بالفرنسية :

— اغفر لى سوء تفاهمنا . الزوج والزوجة لا يمكنهما الا أن يتشاجرا اذا كانا يحبان بعضهما البعض ، وأنا احبك بجنون . لا تنسنى . . . ابرق لى كثيرا وبالتفصيل .

وقبلها أرلوف مرة أخرى ، وخرج مرتبكا دون ان يقول كلمة . وعندما صر قفل الباب خلفه توقف مترددا في منتصف السلم وتطلع الى أعلى . وخيل اليّ انه لو ان صوتا واحدا تردد من أعلى لعاد . ولكن الصمت كان مخيما . فسوى معطفه ومضى يهبط بتردد .

كان الحوذية ينتظرونه أمام الباب منذ وقت طويل . فجلس أرلوف في عربة ، وجلست أنا ومعي حقيبتان في العربة الأخرى . كان الصقيع قارسا ، وتصاعد دخان نيران التدفئة عند مفترقات الطرق . ومن سرعة السير لسع الهواء البارد وجهي ويدى ، واحتبست انفاسي ، فأغمضت عيني وفكرت : يا لها من امرأة رائعة ! كم تحبه ! حتى الاشياء التافهة يجمعونها الآن من الأهالي ويبيعونها لأغراض خيرية ، وحتى الزجاج المكسور يعد سلعة طيبة ، ولكن هذا الشيء النفيس ، النادر ، كحب هذه المرأة الرشيقة الشابة الذكية القويمة ، يضيع هدرا تماما . كان أحد علماء السوسيولوجيا القدامى ينظر الى كل عاطفة سيئة كقوة يمكن توجيهها ، اذا توفرت المقدرة ، الى فعل الخير ، أما عندنا فحتى العاطفة النبيلة الجميلة تولد ثم تذبل ، كالعجز ، دون ان توجه الى شيء ودون أن تُفهم ، او انها تبتذل . فما السبب ؟

توقفت العربتان فجأة . ففتحت عيني ورأيت أننا نقف في شارع سرجييفسكايا ، بجوار بيت كبير كان يقطنه بيكارسكي . ونزل أرلوف من العربة واختفى في المدخل . وبعد حوالي خمس دقائق ظهر خادم بيكارسكي بدون قبعة ، وصرخ يناديني غاضبا من الصقيع .

— هل انت اطرش ؟ اصرف الحوذية واصعد . انهم ينادونك !

صعدت الى الطابق الثانى وانا لا أفهم شيئا . كنت قبلا فى شقة بيكارسكى ، أعنى اننى وقفت فى المدخل متطلعا الى الصالة ، فكانت فى كل مرة ، وخاصة بعد عتمة الشارع الرطبة ، تبهرنى ببريق أطر لوحاتها ، وبرونزها واثاثها الغالى . والآن رأيت وسط هذا البريق جــــروزين وكوكوشكين ، وبعدها بقليل رأيت أرلوف .

اقترب منى وقال :

— اسمع يا ستيبان . سأبقى حتى الجمعة او السبت . اذا وصلت رسائل او برقيات احضرها اليّ هنا . قل لهم فى البيت ، بالطبع ، اننى سافرت وأبعث بتـــحياتى . اذهب اذن .

عندما عدت الى المنزل كانت زينائيدا فيودوروفنا مستلقية على الكنبة فى غرفة الجلوس وهى تقضم كمثرى . ولم تشتعل سوى شمعة واحدة مثبتة فى الشمعدان .

وسألتنى زينائيدا فيودوروفنا :

— الم تتأخروا عن القطار ؟

— كلا يا سيدتى . أمرت ان ابلغك التحيات .

ذهبت الى غرفتى واستلقيت ايضا . لم يكن لدى ما أعمله ، ولم أرغب فى القراءة . لم تتملكنى الدهشة او السخط ، بل كنت اجهد فكرى لكى أفهم الداعى الى هذا الخداع . فالمراهقون وحدهم هم الذين يخدعون عشيقاتهم بهذه الصورة . أمن المعقول انه ، وهو الشخص الواسع الاطلاع والتفكير ، لم يستطع ان يبتكر شيئا اذكى من

ذلك ؟ فى الحقيقة كنت اقدر ذكاءه . واعتقد انه لو أراد ان يخدع وزيره او اى شخص كبير آخر ، لأنفق فى ذلك الكثير من الجهد والمهارة ، أما هنا ، ولكى يخدع امرأة ، فيكفى ، على ما يبدو ، اول شيء يطرأ على ذهنه . فاذا نجحت الخدعة فحسنا ، واذا لم تنجح فلن يخسر كثيرا ، وسيكون بامكانه ان يكذب مرة ثانية بنفس البساطة والسرعة دون أن يجهد عقله .

فى منتصف الليل عندما حركوا المقاعد وصاحوا «هورا» وهم يحتفلون بالعام الجديد فى الطابق الأعلى فوقنا ، دقت زينائيدا فيودوروفنا الجرس واستدعتنى الى غرفتها المجاورة للمكتب . كانت جالسة الى الطاولة تكتب شيئا ما على قطعة ورق ، وكانت تبدو ذابلة من كثرة الرقاد .

— ينبغى ارسال برقية — قالت لى ثم ابتسمت — اذهب بسرعة الى المحطة واطلب منهم ان يرسلوها فى اثره .

وعندما خرجت الى الشارع قرأت على قطعة الورق :

«عاما جديدا ، عاما سعيدا ، أبرق بسرعة ، مشتاقة جدا . مر دهر كامل . يؤسفنى اننى لا استطيع ان ارسل بالبرق ألف قبلة وقلبى ذاته . كن مرحا يا سعادتى . زينا» .

ارسلت هذه البرقية ، وفى صباح اليوم التالى سلمتها الايصال .

٩

اسوأ شيء أن أرلوف اطلع بوليا ، دون تدبر ، على سر خداعه اذ أمرها أن تبعث بقمصانه الى شارع سرجييفسكايا . وبعدها اخذت تنظر الى زينائيدا فيودوروفنا بتشف وكراهية غير

مفهومة لى ، ولم تكف عن اطلاق ضحكات متعة مكتومة فى غرفتها او فى المدخل .

كانت تردد باعجاب :

— عاشت ما يكفى ، فلتعرف الحدود ! عليها أن تفهم من نفسها . . .

لقد أدركت بحاستها انه لم يبق أمام زينائيدا فيودوروفنا الا ايام معدودة فى هذا المنزل ، ولكى لا تفلت الفرصة راحت تسرق كل ما تقع عليه عيناها : قوارير العطور ، وبنس الشعر العاجية ، والمناديل ، والأحذية . وفى اليوم التالى لرأس السنة دعتنى زينائيدا فيودوروفنا الى غرفتها واخبرتنى همسا ان فستانها الأسود فقد . وبعد ذلك اخذت تطوف بالغرف شاحبة ، بوجه مذعور غاضب ، وهى تحدث نفسها :

— هكذا اذن ؟ هكذا ؟ هذه وقاحة لا مثيل لها !

واثناء الغداء ارادت أن تغرف لنفسها حساء فلم تستطع ، اذ كانت يداها ترتعشان . وارتعشت شفتاها ايضا . وراحت تتطلع الى الحساء والشطائر بعجز فى انتظار أن تهدأ الرعشة ، وفجأة لم تتمالك نفسها ونظرت الى بوليا .

وقالت لها :

— تستطيعين يا بوليا الانصراف . يكفى ستيبان فقط .

فأجابتها بوليا :

— لا بأس ، سأبقى هنا .

— لا داعى لبقائك . انصرفى من هنا ، نهائيا . . . نهائيا ! — واستطردت زينائيدا فيودوروفنا وهى تنهض فى انفعال شديد — يمكنك ان تبحثى عن مكان آخر . انصرفى حالا !

— لا استطيع ان انصرف بدون أمر السيد . هو الذى استأجرنى . سأفعل ما يأمر به .

فقالت زينائيدا فيودوروفنا وهى تتضرج تماما :

— انا ايضا آمرك ! انا هنا السيدة !

— ربما كنت السيدة ، ولكن لا يستطيع ان يصرفنى سوى السيد . فهو الذى استأجرنى .

فصاحت زينائيدا فيودوروفنا وضربت الطبق بالسكين :

— اياك ان تبقى هنا دقيقة واحدة ! انك لصة ! هل تسمعين ؟

والقت زينائيدا فيودوروفنا بالمنشفة على المائدة وخرجت من غرفة الطعام بسرعة ، بوجه بائس معذب . وخرجت بوليا ايضا وهى تنتحب بصوت عال وتدمدم بكلمات ما . وبرد الحساء والديك البرى . ولسبب ما بدت لى مأكولات المطعم هذه الفاخرة ، الموضوعة على المائدة ، بدت لى الآن شحيحة ، لصوصية ، مثل بوليا نفسها . وبدت الشطيرتان الموضوعتان على الطبق اكثر شيء بؤسا واجرامية . وكأنما كانتا تتحدثان : «اليوم سيعودون بنا الى المطعم ، وغدا يقدموننا ثانية للغداء لموظف ما او مغنية مشهورة» .

وتناهى الى سمعى من غرفة بوليا :

— تزعم نفسها سيدة هامة ! لو أردت لأصبحت سيدة كهذه ، ولكنى لم افقد الحياء ! فلننتظر من منا التى ستذهب اولا ، نعم !

ودقت زينائيدا فيودوروفنا الجرس . كانت جالسة فى غرفتها ، فى الزاوية ، وعلى وجهها تعبير وكأنما وضعوها فى الزاوية عقابا لها .

وسألتنى :

— لم تأت برقيات ؟

— كلا يا سيدتى .

— اسأل الحاجب ، فربما تكون قد وصلت برقية . —
ثم قالت فى اثرى — لا تغادر المنزل . اخاف البقاء وحدى .

وبعد ذلك كان عليّ أن اهبط كل ساعة الى الحاجب لأسأله هل وصلت برقية . كم كان ذلك وقتا رهيبا فى الواقع ! فلكى تتجنب زينائيدا فيودوروفنا رؤية بوليا كانت تأكل غداءها وتتناول الشاى فى غرفتها ، وهناك ايضا كانت تنام على كنبة قصيرة تشبه القوس وتسوى الفراش بنفسها . وفى الايام الاولى كنت انا الذى أرسل البرقيات ، ولكنها عندما لم تتلق ردا ، لم تعد تثق فيّ واخذت تذهب بنفسها الى مكتب البرق . واصبحت انا ايضا مثلها انتظر برقية على أحر من الجمر . كنت آمل أن يدبر اية كذبة ، كأن يأمر بأن يرسلوا اليها برقية من محطة ما . وقلت لنفسى : لو أنه انهمك بشدة فى لعب الورق ، او فتنته امرأة اخرى ، فسوف يذكره بنا بالطبع جروزين وكوكوشكين . لكن عبثا كنا ننتظر . كنت ادخل الى زينائيدا فيودوروفنا عدة مرات فى اليوم لكى أروى لها الحقيقة كلها ، لكنها كانت تبدو كالعنزة ، كتفاها مهدلتان وشفتاها ترتعشان ، فأعود أدراجى دون أن اتفوه بكلمة . لقد سلبتنى الشفقة والحسرة كل شجاعتى .
أما بوليا فكانت كأنما لم يحدث شيء ، مرحة وراضية ، تنظف مكتب السيد وغرفة النوم ، وتنقب فى الخزانات وتقرقع بالآنية ، وعندما تمر من امام باب زينائيدا فيودوروفنا تدندن بشىء ما وتسعل . كان يعجبها ان السيدة تختبىء منها .

وفى المساء كانت تذهب الى مكان ما ، وتعود فى الثانية او الثالثة صباحا فتدق الجرس ، فكان عليّ أن افتح لها وأصغى لتوبيخها بخصوص سعالى . وفى نفس اللحظة يتردد جرس آخر ، فأركض الى الغرفة المجاورة للمكتب فتسألنى زينائيدا فيودوروفنا مطلة برأسها من الباب : «من الذى دق الجرس ؟» وتنظر الى يدىّ عسى ان تكون فيهما برقية .

واخيرا عندما دق الجرس فى الأسفل يوم السبت ، وتردد على الدرج الصوت المألوف ، فرحت الى درجة أنها انخرطت فى النحيب ، وانطلقت لملاقاته ، فعانقته ، وقبلت صدره وكميه ، وهى تقول اشياء يصعب فهمها . وحمل الحاجب الحقائب ، وتردد صوت بوليا المرح . كأنما عاد الطلاب فى الاجازة !

وقالت زينائيدا فيودوروفنا وهى تلهث من الفرحة :

— لماذا لم تبرق ؟ لماذا ؟ كم تعذبت ، أمضيت هذه الفترة بالكاد . . أوه ، يا الهى !

— المسألة فى غاية البساطة . ذهبت مع عضو مجلس الشيوخ فى اليوم الاول الى موسكو ، فلم أتلق برقياتك — قال أرلوف . — بعد الغداء سأقدم لك يا روحى تقريرا مفصلا ، أما الآن فالى النوم ، الى النوم ، الى النوم . . . ارهقتنى الرحلة .

كان واضحا انه لم ينم طول الليل ، يبدو انه كان يلعب الورق وشرب كثيرا . ووضعته زينائيدا فيودوروفنا فى الفراش ، وبعدها ظللنا جميعا نمشى على اطراف اصابعنا حتى المساء . ومضى الغداء بسلام ، ولكن عندما انصرفا

الى المكتب لتناول القهوة بدأت المصارحة . تحدثت زينائيدا فيودوروفنا بسرعة عن شيء ما ، بصوت خافت ، وكانت تتكلم بالفرنسية ، فتدفق حديثها كخرير الجدول ، ثم تناهت زفرة عالية لأرلوف وسمع صوته .

قال بالفرنسية :

— يا الهي ، أليس لديك أنباء جديدة غير هذه الأغنية الخالدة عن الخادمة الشريرة ؟

— ولكنها سرقتني يا عزيزي ، وخاطبتني بعبارات وقحة .

— فلماذا لا تسرقني أنا ولا تخاطبني بعبارات وقحة ؟ لماذا لا ألاحظ انا ابدا الخادمات والخدم والبوابين ؟ انت يا عزيزتي ببساطة تنساقين وراء نزواتك ولا تريدين أن تكون لك شخصية . . . بل انني اظنك حبلى . عندما عرضت عليك تسريحها طلبت انت ان تبقى ، والآن تريدين مني أن اطردها . لكنني في هذه الاحوال عنيد ايضا ، وأرد على النزق ايضا بالنزق . أنت تريدينها أن تذهب ، أما أنا فأريدها ان تبقى . هذه هي الوسيلة الوحيدة لعلاجك من اعصابك .

— طيب ، خلاص ، خلاص — قالت زينائيدا فيودوروفنا بذعر . — كفانا حديثا عن ذلك . . . فلنؤجله الى الغد . فلتحدثني عن موسكو . . . ماذا في موسكو ؟

١٠

في اليوم التالي — وكان ذلك في السابع من يناير ، عيد يوحنا المعمدان — ارتدى أرلوف بعد الافطار الفراك الأسود

والوسام ليذهب الى ابيه مهنئا بعيد شفيعه . كان عليه أن يذهب فى الساعة الثانية ، وعندما انتهى من ارتداء ملابسه كانت الساعة الواحدة والنصف فقط . ففيم ينفق نصف الساعة هذا ؟ اخذ يسير فى غرفة الجلوس ويلقى أشعار تهنئة كان قد قرأها لأبيه وأمه فى وقت ما فى طفولته .
وكانت زينائيدا فيودوروفنا ، وقد عزمت على الذهاب الى الخياطة او الى المتجر ، تجلس هنا ايضا وتصغى اليه بابتسامة . ولا أعرف كيف بدأ الحديث بينهما ، ولكنى عندما أحضرت القفاز لأرلوف ، كان واقفا قبالة زينائيدا فيودوروفنا يقول لها بوجه نزق ضارع :

— بحق الله ، بحق كل المقدسات ، لا تتحدثى عما هو معروف لكل فرد ! ما هذه الملكة التعيسة لدى سيداتنا الذكيات المفكرات بأن يتحدثن بهيئة تفكير رصينة وحماس عما ملّه منذ زمن بعيد حتى التلاميذ . آه لو أنك تحذفين من برنامج حياتنا الزوجية كل هذه القضايا الجادة ! كم اكون ممتنا لك !

— نحن النساء لا نجرؤ على أن تكون لنا آراؤنا .

— أنا اعطيك كامل الحرية ، فلتكونى ليبرالية ، ولتستشهدى بمن تريدين من الكتاب والمفكرين ، ولكن قدمى لى تنازلا ، لا تتحدثى امامى عن شيئين فقط : عن فساد المجتمع الراقى وعن مساوىء الزواج . آن لك ان تفهمى اخيرا انهم يلعنون المجتمع الراقى دائما لكى يضعوا فى مقابله ذلك المجتمع الذى يعيش فيه التجار ، والقساوسة ، وصغار البرجوازيين ، وشتى الفلاحين والخدم . كلا المجتمعين كريه بالنسبة لى ، ولكن لو خيّرت عن صدق بين هذا

وذاك ، لاخترت المجتمع الراقي دون تردد ، ولما كان ذلك كذبا مني او مراءاة ، ذلك لأن كل ميولي وذوقي متفقة معه . ان مجتمعنا الراقي مبتذل وخاو ، ولكننا في المقابل ، على الاقل ، نتحدث بالفرنسية بصورة لائقة ، ونقرأ بعض الاشياء ، ولا نتدافع بالاكتاف ، حتى ولو تشاجرنا بعنف . اما لدى اولئك الخدم وحضرات التجار فتجدين العبارات السوقية الفجة وأخلاق الحانات المطلقة العنان وعبادة الالقاب .

— الفلاح والتاجر يطعمانك .

— نعم ، فماذا يترتب على ذلك ؟ ان هذا لا يسيء اليّ فقط ، بل اليهم كذلك . انهم يطعمونني وينزعون قبعاتهم أمامي ، واذن فليس لديهم من الذكاء والشرف ما يكفي ليتصرفوا بشكل آخر . أنا لا أذم ولا أمدح أحدا ، بل اريد فقط ان اقول : المجتمع الراقي والمجتمع الأسفل كلاهما سيان . انا بقلبي وعقلي ضدهما معا ، لكن ميولي وذوقي متفقة مع الاول . — واستطرد أرلوف وهو ينظر الى ساعته — حسنا ، والآن فيما يخص مساوىء الزواج فقد آن لك ان تفهمي انه لا توجد أية مساوىء ، بل توجد فقط مطالب تجاه الزواج غير محددة بعد . ما الذى تريدينه من الزواج ؟ ان كل المعاشرات الشرعية وغير الشرعية ، وجميع الروابط والمعاشرات ، الحسنة والسيئة ، ذات جوهر واحد . وانتن النساء ، تعشن من أجل هذا الجوهر وحده ، وهو بالنسبة لكنّ يعني كل شيء ، وبدونه لا يصبح لوجودكن معنى في نظركن . لستن بحاجة الى اى شيء عدا الجوهر ، وأنتن تأخذنه . ولكن منذ أن حشوتن رؤوسكن بالروايات ، أصبحتن تخجلن من الأخذ ، فرحتن تتخبطن يمينا ويسارا ،

وتبدلن الرجال برعونة ، ولكى تبررن هذا التشوش بدأتن تتحدثن عن مساوىء الزواج . وما دمتن لا تستطعن ولا تردن استبعاد الجوهر ، اكبر اعدائكن ، شيطانكن هذا ، وما دمتن تواصلن خدمته بخنوع ، فما معنى الحديث الجدى هنا ؟ كل ما ستقولينه لى سيكون هراء وزيفا . ولن أصدقك .

ذهبت الى الحاجب لأعرف هل حضرت العربة ، وعندما عدت وجدتهما يتشاجران . وكما يقول البحارة : اشتدت الريح .

قالت زينائيدا فيودوروفنا وهى تذرع غرفة الجلوس بانفعال شديد :

— انك تريد اليوم ، كما أرى ، أن تصعقنى بصفاقتك . اننى اشعر بالقرف مما تقوله . انا طاهرة أمام الله والناس ، ولم أفعل ما أندم عليه . لقد هجرت زوجى وجئت اليك ، وأفخر بذلك . نعم أفخر ، اقسم لك بشرفى !

— طيب ، عظيم .

— لو كنت رجلا شريفا ، مستقيما ، فينبغى ايضا ان تفخر بتصرفى . فهو يسمو بـى وبك فوق آلاف الاشخاص الذين يودون لو سلكوا مسلكى ولكنهم لا يجرؤون بسبب الجبن او الحسابات التافهة . ولكنك لست مستقيما . انك تخاف الحرية وتسخر من العاطفة الشريفة خشية ان تبدو شريفا فى نظر أحد هؤلاء الجهلة . انك تخشى ان تقدمنى لمعارفك ، وليس هناك عقاب أقسى لك من أن اكون الى جانبك فى عربة تسير فى الشوارع . . . ماذا ؟ أليس ذلك حقيقة ؟ لماذا لم تقدمنى حتى الآن لأبيك وابنة عمك ؟ لماذا ؟ — وصرخت زينائيدا فيودوروفنا ودقت بقدمها — كلا ، لقد سئمت

اخيرا كل هذا ! انا اطالبك بما هو حقى . تفضل وقدمنى الى ابيك !

— اذا كنت بحاجة اليه فقدمى له نفسك بنفسك . انه يستقبل الزوار كل يوم صباحا من العاشرة حتى العاشرة والنصف .

فقالت زينائيدا فيودوروفنا وهى تلوى ذراعيها بيأس :

— كم أنت وضيع ! حتى لو لم تكن صادقا وتقول ما لا تعتقده ، فعلى هذه القسوة وحدها تستحق أن امقتك . أوه ، كم أنت وضيع !

— اننا نلف وندور هنا وهناك ولا نتطرق الى الجوهر الحقيقى . أما جوهر الأمر فهو أنك اخطأت ولا تريدين أن تعترفى بذلك علانية . لقد تخيلت اننى بطل ، وان لدى عقائد وافكارا غير عادية ، وفى المحك اتضح اننى موظف عادى للغاية ، ومقامر ، وليس لدى أى ولع بالعقائد . اننى من الذرية الجديرة بذلك المجتمع العفن نفسه ، الذى هربت أنت منه ساخطة على خوائه وابتذاله . فلتعترفى بذلك ولتكونى عادلة . لا تغضبى منى بل من نفسك ، لأنك انت التى اخطأت ، لا أنا .

— نعم اعترف ، لقد اخطأت !

— عظيم جدا . لقد اتفقنا على الشيء الرئيسى ، الحمد لله . والآن اسمعى التالى ، اذا أردت . أنا لا استطيع ان أرقى اليك ، لأننى جد فاسد ، وأنت ايضا لا تستطيعين أن تهبطى الىّ لأنك جد سامية ، واذن فلم يبق الاشيء واحد . . .

— ماذا ؟ — سألت زينائيدا فيودوروفنا بسرعة وقد احتبست انفاسها ، وشحبت فجأة .

— لم يبق الا أن نستعين بالمنطق . . .

فقالت زينائيدا فيودوروفنا فجأة بالروسية بصوت مشروخ :

— جيورجي ، لماذا تعذبني ؟ علام ؟ فلتفهم آلامي . . .

مضى أرلوف ، الذي كان يخشى الدموع ، الى غرفة المكتب بسرعة ، ولا أدري لماذا — هل كان ذلك رغبة منه في ايلامها اكثر ، ام انه تذكر ان البعض يفعل ذلك في مثل هذه الاحوال — فقد اوصد الباب خلفه بالمفتاح . وصرخت هي وانطلقت لتلحق به يتبعها حفيف فستانها .

وسألت وهي تدق الباب :

— ما معنى هذا ؟ — ورددت بنبرة رفيعة ممزقة من السخط — ما معنى هذا ؟ هكذا اذن ؟ فلتعلم انني اكرهك ، احتقرك ! انتهى كل ما بيننا ! انتهى !

وتناهى بكاء هستيري وضحكات . ووقع في غرفة الجلوس شيء ما صغير من فوق المائدة وانكسر . وتسلل أرلوف من غرفة المكتب الى المدخل عبر الباب الآخر ، وتلفت حوله بجبن ، وارتدى معطفه وقبعته بسرعة ، وخرج .

مر نصف ساعة ، ثم ساعة ، وهي لا تزال تبكي . وتذكرتُ انها بلا أب او أم او أقارب ، وانها تعيش هنا بين شخص يكرهها وبوليا التي تسرقها ، فتبدت لي حياتها جد بائسة ! دخلت غرفة الجلوس وانا لا ادري لماذا فعلق هذا . كانت هذه المرأة الضعيفة ، العاجزة ، ذات الشعر الرائع ، والتي تراءت لي مثالا للرقة والرشاقة ، تتعذب كالمريضة . تمددت على الكنبة ، دافنة وجهها ، وجسدها كله ينتفض .

وسألتها بصوت خافت :

— سيدتى ، ألا تأمرين باستدعاء الطبيب ؟

— كلا ، لا داعى . . بسيطة — قالت ونظرت اليّ بعينين دامعتين . — عندى فقط صداع بسيط . . . اشكرك .

فخرجت . وفي المساء راحت تكتب رسالة تلو رسالة ، وترسلنى تارة الى بيكارسكى ، وتارة الى كوكوشكين ، وتارة الى جروزين ، وأخيرا الى حيث اشاء ، بشرط أن اعثر على أرلوف بسرعة واسلمه الرسالة . وعندما اعود فـي كل مرة بالرسالة ، كانت توبخنى ، وتتوسل اليّ ، وتدس في يدى نقودا كأنها فى هذيان الحمى . ولم تنم الليل بل جلست فى غرفة الجلوس تحدث نفسها .

وفى اليوم التالى عاد أرلوف قرب الغداء ، فتصالحا .

وفى الخميس التالى لذلك شكا أرلوف لأصحابه من حياته الصعبة التى لا تحتمل . دخن كثيرا وقال بعصبية :

— ليست حياة بل محكمة تفتيش . الدموع والعويل ، والاحاديث الجادة ، وتوسلات الغفران ، ثم الدموع والعويل من جديد ، وفى المحصلة لم يعد لى مسكنى الخاص ، وتعذبت وعذبتها . أمن المعقول انه سيكون عليّ أن اعيش هكذا شهرا آخر او شهرين ؟ معقول ؟ وهذا محتمل فعلا !

فقال بيكارسكى :

— تحدث اليها .

— جربت ، فلم استطع . بوسعك ان تقول بجرأة اية حقيقة لشخص مستقل ، مفكر ، أما فى حالتى هذه فأتعامل مع مخلوق لا ارادة لديه ولا شخصية ولا منطق . أنا لا أطيق الدموع فهى تجردنى من سلاحى . وعندما تبكى أصبح على استعداد لأن اقسم لها بحبـى الخالد ولأن أبكى انا نفسى .

لم يفهم بيكارسكى ، وحك جبينه العريض مفكرا وقال :

— صدقني ، هلا استأجرت لها شقة منفردة ؟ هذا بسيط جدا !

— انها بحاجة اليّ انا لا الى شقة — وتنهد أرلوف — ما جدوى الكلام ؟ انا لا اسمع الا احاديث لا تنتهى ، ولا أرى مخرجا من وضعى هذا . حقا رُبَّ ملوم لا ذنب له ! لم اجعل نفسى قنطرة ولكن عليّ ان اتحمل الدوس * . كنت طوال عمرى اتحاشى دور البطل ، وكنت دائما لا أطيق روايات تورجينيف . وفجأة ، وكأنما سخرية بـى ، اصبحت فى عداد الابطال الحقيقيين . اقسم لها بشرفى اننى لست بطلا على الاطلاق ، وأقدم الأدلة الدامغة على ذلك ، ولكنها لا تصدقنى . لماذا لا تصدقنى ؟ يبدو ان هناك شيئا ما بطوليا بالفعل فى ملامحى .

فقال كوكوشكين ضاحكا :

— اذن فلتسافر للتفتيش على احدى المحافظات .

— نعم ، لم يبق الا هذا .

بعد اسبوع من هذا الحديث أعلن أرلوف انه كلف مرة اخرى بالذهاب الى عضو مجلس الشيوخ ورحل فى مساء اليوم نفسه بحقائبه الى بيكارسكى .

---

* اشارة الى المثل : من يجعل نفسه قنطرة فليتحمل الدوس . **المعرب** .

١١

وقف على العتبة شيخ فى حوالى الستين من عمره ، فى معطف فراء طويل ينسدل حتى الارض ، وفى طاقية من فراء القندس . وسأل :

— جيورجى ايفانيتش موجود ؟

فى البداية ظننت انه أحد المرابين من دائنى جروزين الذين كانوا يأتون احيانا الى أرلوف لاستيفاء ديون صغيرة ، ولكن عندما دلف الى المدخل وفتح المعطف ، رأيت حاجبيه الكثيفين ، وشفتيه المزمومتين بصورة مميزة ، واللتين درستهما جيدا فى الصورة الفوتوغرافية ، وصفين من النجوم على سترته الميرى . وعرفته . . كان والد أرلوف ، رجل الدولة المشهور .

اجبته بأن جيورجى ايفانيتش غير موجود . فزم العجوز شفتيه بقوة ، ونظر جانبا فى تفكير موليا لى صفحة وجهه الجافة الغائرة .

وقال :

— سأترك له رسالة . أوصلنى .

وترك خفه فى المدخل ودون ان ينزع معطفه الطويل الثقيل ، توجه الى غرفة المكتب . وهناك جلس فى المقعد امام المكتب ، وقبل أن يتناول الريشة ظل حوالى ثلاث دقائق يفكر فى شيء ما ، حاجبا عينيه بيده كأنما اتقاء للشمس ، بالضبط كما يفعل ابنه عندما يكون معتل المزاج . كان وجهه حزينا ، مستغرقا فى التفكير ، يكتسى بتعبير إمتثال كنت الاحظه فقط على وجوه الشيوخ او المتدينين . وقفت خلفه اتطلع الى صلعته والى النقرة فى قفاه ، وبدا لى واضحا كالشمس ان هذا العجوز الضعيف المريض أصبح

الآن فى قبضتى . اذ لم يكن فى الشقة كلها أحد سواى وعدوى . كان يكفى أن ابذل قليلا من القوة البدنية ، ثم انزع عنه ساعته لتمويه الغرض ، ثم اتسلل من الباب الخلفى ، وبذلك أحقق ما هو اكثر بكثير مما كنت اطمح اليه عندما التحقت خادما . وفكرت : من المستبعد ان تسنح لى ثانية فرصة افضل من هذه . ولكن بدلا من ان اتحرك ، رحت اتطلع بلا مبالاة تامة تارة الى صلعته وتارة الى الفراء ، وأفكر بسكينة فى علاقات هذا الرجل بابنه الوحيد . وفى أن الاشخاص المدللين بالمال والسلطة ، اغلب الظن ، لا يريدون أن يموتوا . . .

وسألنى وهو يخط على الورق بأحرف كبيرة :

— هل تخدم عند ابنى من زمان ؟

— منذ ثلاثة أشهر يا صاحب المعالى .

وانتهى من الكتابة ونهض . كان لا يزال أمامى متسع من الوقت . فرحت استعجل نفسى وأضم قبضتى ، محاولا أن اعتصر من قلبـى ولو قطرة من الحقد السابق . وأخذت اتذكر اىّ عدو متوقد عنيد لا يكل كنته منذ وقت جـد قريب . . . ولكن يصعب ان تشعل الكبريت على حجر رخو . لم يثر فيّ الوجه العجوز الحزين وبريق النجوم البارد سوى افكار رخيصة ضحلة لا حاجة اليها عن فناء كل الاحياء وعن الموت القريب . . .

— وداعا يا أخى — قال العجوز مرتديا طاقيته ، وخرج .

لم يعد مجال للشك : لقد حدث تحول فى نفسى ، وأصبحت شخصا آخر . ولكى اختبر نفسى رحت اتذكر ، ولكنى شعرت على الفور بالرهبة ، كأنما ولجت عفوا ركنا

رطبا مظلما . تذكرت رفاقي ومعارفي فكان أول ما فكرت فيه هو : كم سأحمر خجلا وارتبك عندما ألقى أحدا منهم . فمن انا الآن ؟ وفيم افكر وماذا أفعل ؟ والى اين أمضى ؟ ولأى غرض أعيش ؟

لم أفهم شيئا ، ولم أدرك بوعى الا شيئا واحدا : ينبغي ان اجمع حاجياتي بسرعة وأرحل . فقبل مجيء العجوز كان عملي كخادم لا يزال له معنى ، أما الآن فأصبح مضحكا . وتساقطت دموعي في الحقيبة المفتوحة ، وتملكني حزن لا يطاق ، ولكن كم كنت أريد ان أعيش ! كنت مستعدا أن أضم الى عمرى القصير وأضمِّنه كل ما هو متاح لانسان . كنت أريد أن اتحدث ، وان اقرأ ، وأن أدق بمطرقة فى مصنع كبير فى مكان ما ، وأن اقف فى نوبة الحراسة ، وأن أحرث . واحسست بميل الى المضى نحو شارع نيفسكى * والى الحقول ، والى البحر ، والى كل ما يمتد اليه خيالي . وعندما عادت زينائيدا فيودوروفنا اندفعت لافتح لها الباب ، وبرقة خاصة نزعت عنها المعطف . لآخر مرة !

بخلاف العجوز زارنا ذلك اليوم شخصان . ففى المساء ، عندما أظلمت تماما جاء جروزين فجأة لكى يأخذ بعض الاوراق لأرلوف . فتح الطاولة ، واخذ الاوراق المطلوبة ، وطواها اسطوانة ، وأمرنى ان اضعها فى المدخل بجوار طاقيته ،

---

* شارع رئيسى فى بطرسبرج سابقا وفى لينينغراد حاليـــا . المعرب .

أما هو فذهب الى زينائيدا فيودوروفنا . كانت مستلقية على الكنبة فى غرفة الجلوس ، وقد توسدت ذراعيها . كانت قد مرت خمسة او ستة ايام منذ ان رحل أرلوف للتفتيش ، ولم يكن أحد يعرف متى سيعود ، لكنها لم تعد ترسل برقيات ولا تنتظرها منه . وبدا أنها لم تعد تلاحظ بوليا ، التى كانت لا تزال تعمل لدينا . وقرأت «فليكن !» على وجهها الخالى من اى تعبير والشاحب للغاية . أصبحت تريد ، مثل أرلوف ، من باب العند ، ان تكون تعيسة . ونكاية بنفسها وبالعالم أجمع كانت تستلقى على الكنبة بلا حراك أياما بطولها ، وهى لا ترجو لنفسها الا كل ما هو سيىء ، ولا تتوقع الا ما هو سيىء . كانت فيما يبدو تتخيل عودة أرلوف ومشاجراتها الاكيدة معه ، ثم بروده ، فخيانته ، ثم كيف سينفصلان ، وربما كانت هذه الافكار المضنية تبعث السرور فى نفسها . ولكن ترى ماذا تقول لو عرفت الحقيقة فجأة ؟

وقال جروزين وهو يحييها ويقبل يدها :

— اننى احبك يا اشبينة . كم أنت طيبة ! — وقال كاذبا — اذن فقد رحل جورج . رحل هذا الشرير !

وجلس متنهدا ومسد يدها برقة ثم قال :

— اسمحى لى يا حماتى ان اجلس لديك ساعة . لا أرغب فى الذهاب الى المنزل ، والوقت مبكر للذهاب الى آل بيرشوف . آل بيرشوف يحتفلون اليوم بعيد ميلاد كاتيا . فتاة لطيفة !

وقدمت له قدح شاى ودورق كونياك . وشرب الشاى

ببطء ، وبلا رغبة واضحة ، وقال بخجل وهو يعيد اليّ القدح :

— الا يوجد لديكم يا صاحبي شيء . . . يؤكل ؟ أنا لم أتغد بعد .

لم يكن لدينا شيء . فذهبت الى المطعم واحضرت له غداء عاديا غير غال .

وقال لزينائيدا فيودوروفنا وهو يشرب كأس فودكا :

— في صحتك يا عزيزتي . طفلتي الصغيرة ، ابنتك في العماد ، تبعث اليك تحياتها . المسكينة اصيبت بداء الخنازير ! — وقال متنهدا — آه ، الاولاد ! مهما كان يا أشبينة فمن المبهج ان تكون أبا . جورج لا يدرك هذا الشعور .

وشرب كأسا أخرى . وراح هذا الرجل الشاحب النحيل ، بالمنشفة على صدره وكأنها مريلة ، يأكل بنهم ، ويرفع حاجبيه وهو يتطلع بعينين مذنبتين تارة الى زينائيدا فيودوروفنا وتارة اليّ كالطفل . وبدا كأنما كان سيبكي لو لم اعطه الديك البرى والجيلي . وبعد أن شبع أصبح مرحا ، وأخذ يحكى ضاحكا شيئا ما عن آل بيرشوف ، ولكن عندما لاحظ أن ما يرويه ممل لزينائيدا فيودوروفنا وانها لا تضحك ، صمت . وفجأة أطبق الملل . جلس كلاهما بعد الغداء في غرفة الجلوس ، على ضوء المصباح وحده ولزما الصمت : كان من الصعب عليه ان يكذب ، اما هي فأرادت أن تسأله عن شيء ما ولكنها لم تجرؤ . وهكذا مر نصف ساعة . وتطلع جروزين الى ساعته .

— اظن انه حان الوقت لأذهب .

— كلا ، ابق قليلا . . . ينبغي ان نتحدث .

وصمتنا ثانية . وجلس هو الى المعزف ، ومس أحد المفاتيح ، ثم بدأ يعزف ، وغنى بصوت خافت : «ماذا تخبىء يا غدى الآتى ؟» ، ولكنه كعادته نهض فورا ، وهز رأسه .

وطلبت منه زينائيدا فيودوروفنا :

— اعزف شيئا ما يا أشبين .

— ماذا اعزف ؟ — سألها وهز كتفيه — لقد نسيت كل شيء ، تركت العزف من زمان .

وتطلع الى السقف ، كأنما يتذكر ، وعزف مقطوعتين لتشايكوفسكى بتعبير رائع ، بحرارة وذكاء . كان وجهه كما هو دائما ، غير ذكى وغير غبى ، وبدا لي معجزة حقا ان هذا الشخص ، الذى تعودت ان أراه في أكثر الاجواء انحطاطا وتلوثا ، كان قادرا على مثل هذا السمو الروحى البعيد المنال بالنسبة لى وعلى مثل هذا النقاء . وتضرجت زينائيدا فيودوروفنا واخذت تروح وتجىء فى الغرفة بانفعال .

وقال جروزين :

— مهلا يا اشبينة ، لو اتذكر فسأعزف احــــدى المقطوعات . سمعتهم يعزفونها على الفيولنشيل .

وعزف ، فى البداية بتردد وبحث ، ثم بثقة ، «اغنية البجع» لسن سانس . عزفها ثم كررها .

وقال :

— أليست لطيفة ؟

وتوقفت زينائيدا فيودوروفنا المنفعلة بجواره وسألته :

— قل يا اشبين بصراحة ، كصديق : ما رأيك فيّ ؟

— ماذا أقول لك ؟ — قال وهو يرفع حاجبيه — اننى أحبك ولا أرى فيك الا كل خير . — واستطرد وهو يمسح كمه عند مرفقه ويعبس — اما اذا اردت ان اتحدث بصورة عامة عن المسألة التى تهمك ، فلتعلمى يا عزيزتى . . . لأن السير بانطلاق وراء أهواء القلب لا يعود على الناس الطيبين بالسعادة دائما . ولكى يشعر المرء بنفسه حرا وفى الوقت نفسه سعيدا ، فاعتقد انه لا ينبغى ان يخفى على نفسه ان الحياة قاسية وخشنة وبلا رحمة فى تزمتها ، ويجب أن يرد عليها بما تستحقه ، اى ان يكون مثلها خشنا وبلا رحمة فى سعيه الى الحرية . هذا ما اعتقده .

فابتسمت زينائيدا فيودوروفنا بأسى وقالت :

— ما أبعدنى عن ذلك ! انا تعبت يا اشبين ، تعبت لدرجة اننى لن احرك اصبعا من أجل خلاصى .

— فلتلتحقى بالدير يا اشبينة .

قال ذلك مازحا ، الا انه بعد كلماته هذه اغرورقت عينا زينائيدا فيودوروفنا أولا ، ثم عيناه هو ، بالدموع . وقال :

— وهكذا فقد وصلنا . . . وداعا ايتها الاشبينة العزيزة . فليهبك الله الصحة .

وقبّل كلتا يديها ثم مسدهما برقة وقال انه سيزورها حتما مرة اخرى عما قريب . وبينما كان يرتدى فى المدخل معطفه الذى يشبه قبوط الاطفال ، مضى يبحث فى جيوبه طويلا ليمنحنى بقشيشا ، ولكنه لم يجد شيئا .

فقال بأسى :

— وداعا يا عزيزى .

وخرج .

لن انسى ابدا ذلك المزاج الذى خلفه هذا الشخص وراءه . ظلت زينائيدا فيودوروفنا تروح وتجىء فى الغرفة بانفعال . لم ترقد بل كانت تسير . . وهذا وحده حسن . واردت أن استغل هذا المزاج لكى اتحدث اليها بصراحة ثم أرحل فورا ، الا اننى ما كدت أودع جروزين حتى دق الجرس . كان ذلك كوكوشكين .

سأل :

— هل جيورجى ايفانيتش موجود ؟ هل عاد ؟ تقول كلا ؟ يا للأسف ! فى هذه الحالة سأذهب لأقبل يد السيدة وامضى . — وصاح — اتسمحين يا زينائيدا فيودوروفنا ؟ اريد ان اقبل يدك . عفوا على مجيئى فى هذا الوقت المتأخر.

مكث فى غرفة الجلوس فترة قصيرة ، لا تزيد عن عشر دقائق ، بيد انه خيل اليّ انه جالس هناك من زمان ولن يرحل أبدا . اخذت اعض شفتى من الغضب والأسى ، وبدأت أكره زينائيدا فيودوروفنا . وفكرت ساخطا : «لماذا لا تطرده عنها ؟» رغم انه كان واضحا انها تشعر بالملل معه .

وعندما قدمت له المعطف سألنى ، كنوع من التودد اليّ ، كيف استطيع أن اعيش بلا زوجة .

وقال ضاحكا :

— ولكنى اعتقد أنك لا تضيع وقتك عبثا . لا بد ان لك مع بوليا غراميات . . . يا عفريت !

رغم خبرتى الحياتية فقد كانت معرفتى بالناس قليلة فى ذلك الحين ، ومن الجائز جدا اننى كنت كثيرا ما أضخم الامور التافهة ، ولا الاحظ ابدا الامور الهامة . وبدا لى

ان كوكوشكين لا يهاهىء ولا ينافقنى عبثا : أتراه يأمل بأننى ، كخادم ، سوف أثرثر فى غرف الخدم الآخرين والمطابخ بأنه يزورنا مساء ، فى غياب أرلوف ، ويبقى مع زينائيدا فيودوروفنا حتى ساعة متأخرة ؟ وعندما تبلغ ثرثرتى مسامع معارفه يغض بصره فى استحياء ويهدد بسبابته . وفكرت وانا اتطلع الى وجهه الصغير المعسول : ثم أليس هو نفسه الذى سيتظاهر اليوم وهو يلعب الورق ، بل وفى الغـــالب سيفضفض بأنه قد انتزع زينائيدا فيودوروفنا بالفعل من أرلوف ؟

تملكنى الآن ذلك الحقد الذى افتقدته كثيرا فى النهار ، عندما جاء العجوز . وأخيرا خرج كوكوشكين . وشعرت وانا اصغى الى احتكاك نعله الجلدى بدرجات السلم برغبة شديدة بأن ارسل فى اثره عبارة سباب مقذع كوداع له . ولكننى تمالكت نفسى . وعندما خفت وقع الخطوات على السلم عدت الى المدخل ، ودون ان أدرك ما افعله ، التقطت حزمة الاوراق التى نسيها جروزين واندفعت هابطا بلا تفكير . وخرجت الى الشارع راكضا بلا معطف او طاقية . لم يكن الجو باردا ولكن ثلجا كبير الندف كان يهبط ، وهبت الريح .

وصحت وانا الحق بكوكوشكين :

— يا صاحب السعادة ! يا صاحب السعادة !

فتوقف بجوار عمود نور والتفت باستغراب .

فقلت لاهثا :

— يا صاحب السعادة ! يا صاحب السعادة !

واذ لم اجد ما أقوله صفعته بحزمة الاوراق على وجهه مرتين . ودون ان يفهم شيئا ، بل وحتى دون أن يدهش — فقد صعقته الى درجة شديدة — استند بظهره الى العمود وحمى

وجهه بيديه . وفي تلك اللحظة مر بـي طبيب عسكرى ما فرآني وانا اضرب شخصا ، الا انه نظر فقط باستغراب ، وواصل سيره .

وأحسست بالخجل ، فعدت ركضا الى المنزل .

١٢

دلفت الى غرفة الخدم لاهثا ، برأس مبلل من الثلج ، فنزعت الفراك فورا ، وارتديت السترة والمعطف ، وحملت حقيبتى الى المدخل . لا بد من الهرب ! ولكن قبل ان ارحل جلست بسرعة وبدأت اكتب لأرلوف :

«اترك لك هويتي المزيفة ، وأرجو ان تستبقيها لديك للذكرى ايها الرجل المزيف ، يا حضرة الموظف البطرسبرجي ! أن اتسلل الى منزل منتحلا اسما آخر ، وان اراقب من وراء قناع الخادم حياة ساكنه الخاصة ، ان أرى واسمع كل شيء لكى افضح بعد ذلك كذبه متطفلا . . ستقول ان ذلك كله يشبه السرقة . نعم ، ولكنى الآن لا آبه بالنبل . لقد شهدت العشرات من ولائم غدائك وافطارك ، عندما كنت تقول وتفعل ما تريد ، اما أنا فكان عليّ ان اسمع وأرى واسكت ، ولكنى الآن لا أريد ان اهديك هذا . وفوق ذلك ، اذا لم تكن بجوارك روح حية تجرؤ على مكاشفتك بالحقيقة ولا تنافقك ، فليكن الخادم ستيبان على الأقل هو الذى يغسل لك وجهك الرائع» .

لم تعجبنى هذه البداية ، ولكنى لم اشأ أن أغيرها . ثم ، أليس الأمر سواء ؟

بدت النوافذ الكبيرة بستائرها الداكنة ، والفراش والفراك المجعد الملقى على الارض ، وآثار حذائى المبللة على الارضية ، بدت صارمة وحزينة . وكان السكون ايضا من نوع خاص .

وربما لأنى خرجت الى الشارع بلا طاقية او خف فقد ارتفعت حرارتى بشدة . كان وجهى ملتهبا وساقاى مضعضعتين . . . ومال رأسى الثقيل الى الطاولة ، بينما كانت هناك ازدواجية ما فى الافكار ، حين يخيل اليك ان كل فكرة فى ذهنك يتبعها ظلها . . .

ومضيت اكتب : «اننى مريض ، ضعيف ، مقهور معنويا ، ولا استطيع ان اكتب لك كما وددت ان اكتب . للوهلة الاولى راودتنى الرغبة فى اهانتك واذلالك ، اما الآن فيبدو لى اننى لا أملك الحق فى ذلك .

فأنت وأنا ، كلانا سقطنا ، وكلانا لن ننهض أبدا ، ورسالتى هذه ، حتى لو كانت بليغة وقوية وفظيعة ، فسوف تكون مع ذلك كالطرق على غطاء تابوت ، مهما طرقت فلن توقظ من فيه ! فليس باستطاعة اية جهود ان تدفىء دمك البارد اللعين ، وانت تعرف ذلك خيرا منى . لم اذن الكتابة ؟ حسنا ، ان رأسى وقلبى يتقدان ، فأواصل الكتابة مضطربا لسبب ما ، كما لو كان لا يزال بوسع هذه الرسالة ان تنقذك وتنقذنى . ومن الحمى تختلط الافكار فى ذهنى ، ويصر القلم على الورق بلا معنى ، الا ان السؤال الذى اريد ان اوجهه اليك يواجهنى بوضوح كأنما من نار .

ليس من الصعب تفسير سبب ضعفى وسقوطى المبكر . فأنا ، مثل شمشون الجبار ، حملت على ظهرى بوابة غزة

لأنقلها الى قمة الجبل ، ولكنى لم اشعر بالاعياء الا عندما انطفأ شبابـى وصحتى الى الأبد ، فأدركت ان هذه البوابة اكبر من طاقتى وأننى خدعت نفسى . وفوق ذلك فقد تملكنى ألم قاس مستمر . وعانيت الجوع والبرد والمرض والحرمان من الحرية . ولم اعرف ولا أعرف السعادة الشخصية ، وليس عندى مأوى ، وذكرياتى أليمة ، وكثيرا ما يخشاها ضميرى . ولكن لماذا سقطت أنت ؟ اية اسباب قدرية شيطانية عاقت حياتك عن الازدهار بكل الوان الربيع ، ولماذا سارعت ، حتى قبل ان تبدأ حياتك ، بنزع صورة الله ومثاله عنك وتحولت الى حيوان جبان ينبح ويخيف الآخرين لأنه هو نفسه خائف ؟ انك تخشى الحياة ، تخشاها كذلك الأسيوى الذى يجلس اياما بطولها على الحشايا الناعمة ويدخن النارجيلة . صحيح انك تقرأ كثيرا ، وترتدى حلة فراك أوربية متقنة ، ومع ذلك فبأى اعتناء رقيق ، اسيوى خالص ، كاعتناء الخانات ، تحمى نفسك من الجوع والبرد والجهد البدنى ، من الألم والقلق ، وكم بكّرت روحك بالالتفاف بالرداء ، وعن أىّ جبان تمخضت امام الحياة والطبيعة التى يناضل ضدها كل انسان صحيح سوىّ . كم تحيط نفسك باللين والراحة والدفء ، وكم تحيا بملل ! نعم ، ملل مطبق خانق كما فى الزنزانة الانفرادية ، ولكنك تحاول الهروب من هذا العدو ايضا ، فتلعب الورق ثمانى ساعات فى اليوم .

وسخريتك ؟ أوه ، كم أفهمها جيدا ! فالفكر الحى الحر النشط فكر ثاقب ومتسلط . وهو لا يُحتمل لعقل كسول فارغ . ولكى لا يزعج هدوءك ، اسرعت منذ الصغر ، مثل

آلاف من أترابك ، الى وضعه فى أطر . وتسلحت بنظرة ساخرة الى الحياة ، او بما شئت ان تسميه ، فلن تجرؤ الفكرة المكتومة المفزوعة على ان تقفز عبر السور الذى وضعته أمامها ، وعندما تهزأ بالافكار التى تدعى انك تعرفها **كلها** ، فانك تبدو أشبه بالجندى الهارب بجبن من ميدان القتال ، ولكنه ، كى يغطى على خزيه ، يسخر من الحرب والشجاعة . ان الصفاقة تكتم الألم . وفي احدى قصص دوستويفسكى يطأ العجوز صورة ابنته الحبيبة بقدميه لأنه مخطىء فى حقها ، اما أنت فتسخر بصورة وضيعة مبتذلة من افكار الخير والحق لأنك لم تعد قادرا على العودة اليها . وكل اشارة صادقة ومخلصة الى سقوطك تفزعك ، ولذلك تحيط نفسك عن عمد بأناس لا يجيدون الا تملق ضعفك . وليس صدفة ، ابدا ليس صدفة ، أنك تخشى الدموع الى هذه الدرجة !

وبالمناسبة ، فعن موقفك من المرأة . لقد ورثنا الفجور مع لحمنا ودمنا ، وتربينا على الفجور ، ولكننا ندعى بشرا لأننا ينبغي ان نقهر فى نفوسنا الوحش . وأنت عندما شببت رجلا ، وأصبحت تعرف **كل** الافكار ، لم يكن من الممكن الا أن ترى الحقيقة . لقد كنت تعرفها ، ولكنك لم تمض وراءها ، بل فزعت منها ، ولكى تخدع ضميرك ، رحت تؤكد لنفسك جهرا انك لست المذنب ، بل المرأة ، وأنها وضيعة ايضا مثل موقفك منها . أليست نكاتك البذيئة الباردة وضحكك الذى يشبه صهيل الخيول ، وكل نظرياتك العديدة عن الجوهر ، وعن المتطلبات الغامضة تجاه الزواج ، عن العشرة «سو» التى يدفعها العامل الفرنسى للمرأة ، واستشهادك الدائم بمنطق المرأة وزيفها وضعفها وغيره . . أليس ذلك كله

اشبه بالرغبة فى احناء المرأة الى اسفل نحو الوحل بأية وسيلة حتى تصبح هى وموقفك منها على مستوى واحد ؟ انك رجل ضعيف ، تعيس ، منفر» .

فى غرفة الجلوس عزفت زينائيدا فيودوروفنا على البيانو محاولة ان تتذكر مقطوعة سن-سانس التى عزفها جروزين . وذهبت انا فتمددت على السرير ، ولكنى تذكرت ان عليّ أن أرحل ، فنهضت بصعوبة ، وعدت مرة ثانية الى المكتب برأس ثقيل ساخن .

ومضيت اكتب : «ولكن السؤال هو : لماذا تعبنا ؟ ولماذا ، ونحن بعد فى البداية ، نكون متوقدين ، جريئين ، نبلاء ، مؤمنين ، وما أن نصل الى سن الثلاثين او الخامسة والثلاثين حتى نصبح مفلسين تماما ؟ ولماذا ينطفئ احدنا بالسل ، ويطلق الآخر رصاصة على رأسه ، ويبحث الثالث عن النسيان فى الفودكا والورق ، ولكى يكبت الرابع الخوف والكآبة يطأ بصفاقة صورة شبابه الطاهر الرائع ؟ ولماذا لا نحاول ، وقد سقطنا مرة ، ان ننهض ، واذ نفقد شيئا لا نبحث عن غيره ؟ لماذا ؟

ان اللص الذى كان معلقا على الصليب قد استطاع ان يستعيد فرحة الحياة والأمل الجرىء القابل للتحقيق ، رغم أنه ربما لم يبق له من الحياة اكثر من ساعة واحدة . أما أنت فما تزال أمامك سنوات طويلة ، وانا على الأرجح لن أموت هكذا قريبا كما يبدو . فماذا لو ان معجزة جعلت من الحاضر حلما ، كابوسا رهيبا ، واذا بنا نستيقظ منه بنفوس جديدة ، اطهارا ، اقوياء ، معتزين بحقيقتنا ؟ . . ان الآمال العذبة تكوينى ، ولا أكاد اتنفس من الانفعال .

اننى أريد بشدة ان أعيش ، أريد ان تكون حياتنا مقدسة ، سامية ، مهيبة كقبة السماء . سوف نحيا ! الشمس لا تشرق فى اليوم مرتين ، والحياة لا تعطى مرتين . . فلتتشبث بقوة ببقايا حياتك ولتنقذها . . .»

لم اكتب كلمة واحدة بعد ذلك . كانت الافكار فى رأسى كثيرة الا انها اختلطت ولم تنتظم سطورا . ودون أن اكمل الرسالة وقعتها باسمى واسم عائلتى ورتبتى وذهبت الى غرفة المكتب . كانت الغرفة مظلمة . وتحسست بيدى حتى عثرت على المكتب فوضعت عليه الرسالة . ويبدو اننى تعثرت بالأثاث فى الظلام فأثرت ضجيجا .

— من هناك ؟ — تردد صوت قلق من غرفة الجلوس .

وفى نفس اللحظة دقت الساعة على المكتب برقة معلنة الواحدة ليلا .

١٣

فى الظلام انفقت نصف دقيقة على الاقل وانا اخربش باب غرفة الجلوس وأتحسسه ، ثم فتحته ببطء ودخلت الغرفة . كانت زينائيدا فيودوروفنا راقدة على الكنبة ، وقد همّت مرتكزة الى كوعها وهى تنظر نحوى . ولم اجرؤ على الكلام فمررت بجوارها وشيعتنى هى بنظراتها . ووقفت فى الصالة برهة ، ثم عدت فمررت بجوارها ثانية ، فحدقت فيّ باهتمام واستغراب ، بل وبرهبة . واخيرا توقفت وقلت بصعوبة :

— لن يعود !

هبت واقفة بسرعة ونظرت اليّ دون ان تفهم .

— لن يعود ! — قلت مرة ثانية ودق قلبي بشدة — لن يعود لأنه لم يرحل من بطرسبرج . انه يقيم عند بيكارسكى .

فهمت وصدقتنى . . ادركت ذلك من شحوبها المفاجىء ومن عقدها ليديها على صدرها فجأة بخوف وضراعة . وفى لحظة خاطفة ومض فى ذاكرتها ماضيها القريب ، وأدركت ورأت بوضوح لا يرحم الحقيقة كلها . ولكنها فى الوقت نفسه تذكرت اننى خادم ، من جنس منحط . . . أفاق بشعر مشعث ، ووجه أحمر من الحمى ، وربما ثمل ، فى معطف حقير ، يتدخل بغلظة فى حياتها الخاصة ، فأهان ذلك كرامتها . فقالت لى بصرامة :

— لم يسألك أحد . اغرب من هنا .

— أوه ، صدقينى أرجوك ! — قلت بحماسة ومددت يدىّ نحوها — انا لست خادما ، انا شخص حر مثلك !

وذكرت اسمى ، وشرحت لها بسرعة بالغة ، حتى لا تقاطعنى او تنصرف ، من أنا ولماذا أعمل هنا . وأذهلها هذا الاكتشاف الثانى اكثر من الاول . فقد كان لديها مع ذلك قبل هذه اللحظة أمل بأن الخادم قد كذب او اخطأ ، او تفوه بحماقة ما ، اما الآن ، وبعد اعترافى ، فلم تبق لديها اية شكوك . ومن نظرة عينيها البائستين وتعبير وجهها الذى أصبح قبيحا فجأة لأنه شاخ وفقد مرونته ، رأيت انها تعانى عذابا لا يطاق ، وأننى لم أصنع خيرا بشروعى فى هذا الحديث ، ولكنى واصلت باندفاع :

— عضو مجلس الشيوخ ، والتفتيش قصة مختلقة

لخداعك . وفى يناير ايضا ، كما هو الآن ، لم يسافر الى أى مكان ، بل أقام عند بيكارسكى ، وكنت أتردد عليه كل يوم وشاركت فى خداعك . لقد اثقلت عليهم ، وكانوا يكرهون وجودك هنا ، ويسخرون منك . . . لو أنك استطعت أن تسترقى السمع اليه هو واصدقائه وهم يهزأون بك وبحبك لما بقيت هنا دقيقة واحدة ! اهربى من هنا ! اهربى ! .

— حسنا ، وماذا ؟ — قالت بصوت مرتعش ومرت بيدها على شعرها — حسنا ، وماذا ؟ فليكن .

كانت عيناها مليئتين بالدموع وشفتاها ترتعشان ، وكان وجهها كله شاحبا بصورة مذهلة وينفث غضبا . اثار كذب أرلوف الفظ التافه سخطها ، وبدا لها محتقرا ومضحكا . وابتسمت فلم ترق لى ابتسامتها هذه .

— حسنا ، وماذا ؟ — رددت ثانية ومرت بيدها على شعرها من جديد — فليكن . انه يظن أننى سأموت من المهانة ، ولكننى . . ولكننى أضحك . عبثا يختفى — وابتعدت عن البيانو وقالت وهى تهز كتفيها — عبثا . . . كان من الأسهل أن يصارحنى بدلامن الاختفاء والتسكع فى شقق الآخرين . أنا عندى عينان ، وقد رأيت بنفسى منذ زمن بعيد . . . كنت فقط انتظر عودته لنتصارح نهائيا .

بعد ذلك جلست فى المقعد بجوار الطاولة ، وأمالت رأسها فوق ذراع الكنبة وبكت بحرقة . لم يكن فى غرفة الجلوس سوى شمعة واحدة تشتعل فى الشمعدان ، وكان المكان مظلما بجوار المقاعد حيث جلست ، ولكنى رأيت ارتعاش رأسها وكتفيها ، وشعرها ، وقد انفرطت تسريحته ،

يغطي عنقها ووجهها ويديها . . . وفي نحيبها الهادئ المنتظم ، اللاهستيرى ، النحيب النسائي العادى ، تجلت الاهانة ، والكرامة المذلة والغضب ، وذلك الاحساس باليأس والضياع ، الذى لم يعد من الممكن اصلاحه او التعود عليه . وتردد صدى نحيبها في نفسى المضطربة المعذبة . فنسيت مرضى ، وكل شيء فى الدنيا ، واخذت أروح واجيء فى الغرفة وادمدم بارتباك :

— ما هذه الحياة ؟ . . كلا ، لا يمكن الحياة هكذا ! لا يمكن ! انه جنون ، جريمة وليس حياة !

وقالت هى وسط البكاء :

— يا للمهانة ! يعيش معى . . . ويبتسم لى فى الوقت الذى أثقل عليه ، وأبدو مضحكة . . . أوه ، يا للمهانة !

رفعت رأسها ونظرت اليّ بعينين دامعتين من خلال شعرها المبلل بالدموع ، وسألتنى وهى تسوى هذا الشعر الذى يعوقها عن النظر اليّ :

— كانوا يضحكون ؟

— هؤلاء الناس كانوا يضحكون منك ، ومن حبك ، ومن تورجينيف الذى ادعوا أنك مولعة به . ولو أننا ، أنت وانا ، متنا الآن يأسا ، لبدا ذلك لهم مضحكا . وسوف يؤلفون مزحة مضحكة ويروونها فى حفل تأبينك . ما لنا نتحدث عنهم ؟ — قلت بنفاد صبر . — ينبغى ان نهرب من هنا . أنا لا استطيع ان ابقى هنا دقيقة واحدة .

وعادت الى البكاء ، وابتعدت انا فجلست قرب البيانو .

وسألتُ بقنوط :

— ترى ماذا ننتظر ؟ الساعة تدور فى الثالثة .

فقالت :

— انا لا انتظر شيئا . لقد ضعت .

— لماذا تقولين هذا ؟ الافضل ان نفكر معا فيما ينبغي عمله . لم يعد من الممكن لا بالنسبة لك ولا بالنسبة لى البقاء هنا . . . الى أين تنوين أن ترحلى من هنا ؟

فجأة دق الجرس فى المدخل . وانقبض قلبى . أيكون القادم أرلوف بعد ان اشتكى له كو كوشكين منى ؟ كيف سنتواجه ؟ وذهبت لأفتح الباب . كانت تلك بوليا . دخلت ونفضت الثلج عن برنسها فى المدخل ، ومضت الى غرفتها دون أن تقول لى كلمة واحدة . وعندما عدت الى غرفة الجلوس ، كانت زينائيدا فيودوروفنا في وسط الغرفة ، شاحبة كالأموات ، وقابلتنى بنظرة من عينين واسعتين .

وسألت بصوت خافت :

— من القادم ؟

فأجبت :

— بوليا .

فمرت بيدها على شعرها واغمضت عينيها بارهاق .

وقالت :

— سأمضى الآن من هنا . اصنع معروفا وأوصلنى الى بطرسبرجسكايا ستورونا . كم الساعة الآن ؟

— الثالثة الا ربعا .

١٤

عندما خرجنا من المنزل بعدها بقليل كانت الشوارع مظلمة وخاوية . وتساقط ثلج مبلل ولفحت الوجه رياح رطبة . واذكر ان ذلك كان فى اوائل مارس ، وقد بدأ ذوبان الثلوج ، وأخذ الحوذية منذ بضعة أيام يستخدمون العجلات . وتحت تأثير السلم الخلفى ، والبرد ، وظلام الليل ، والبواب ذى المعطف الثقيل والذى استجوبنا قبل أن يفتح لنا البوابة ، خارت زينائيدا فيودوروفنا تماما وانهارت معنوياتها . وعندما جلسنا فى الحنطور وأسدلنا غطاءه ، راحت تتحدث بسرعة معربة لى عن امتنانها وبدنها كله يرتعش :

— انا لا أشك فى طيبتك ، ولكنى اشعر بالخجل من ازعاجك . أوه اننى مدركة ، مدركة . . . عندما زارنا اليوم جروزين شعرت انه يكذب ويخفى شيئا . حسنا ، وماذا ؟ فليكن . ومع ذلك اشعر بتأنيب الضمير اذ اسبب لك هذا الازعاج .

لقد بقيت لديها بعض الشكوك ، ولكى أبددها تماما ، أمرت الحوذى ان يمضى الى شارع سرجييفسكايا . وعندما توقفنا عند مدخل منزل بيكارسكى ، نزلت من الحنطور ودققت الجرس . وحينما خرج الحاجب سألته بصوت عال ، حتى تسمع زينائيدا فيودوروفنا ، هل جيورجى ايفانيتش موجود .

— موجود — أجاب الحاجب — جاء منذ نصف ساعة . لا بد انه نائم الآن . وماذا تريد ؟

ولم تتمالك زينائيدا فيودوروفنا نفسها فأطلت من الحنطور وسألت :

— وهل يقيم جيورجى ايفانيتش هنا منذ وقت طويل ؟

— للاسبوع الثالث .

— ولم يسافر الى اى مكان ؟

— لم يسافر — اجاب الحاجب ورمقنى بدهشة .

فقلت له :

— أبلغه غدا مبكرا ان اخته قد وصلت من وارسو .

وداعا .

ثم واصلنا السير . ولم يكن فى الحنطور مشمع واق فانهال علينا الثلج ندفا . ونفذت الريح ، وخاصة على نهر النيفا ، الى عظامنا . وبدأ يخيل اليّ اننا نسير بالحنطور منذ أمد طويل ، ونعانى منذ أمد طويل ، وأننى اسمع منذ أمد طويل تهدج انفاس زينائيدا فيودوروفنا . ونظرت نظرة خاطفة ، فى شبه هذيان ، وكأنما اوشك على النعاس ، الى حياتى الغريبة الخرقاء ، ولسبب ما تذكرت ميلودراما «شحاذو باريس» التى شاهدتها مرتين فى طفولتى . ولسبب ما عندما نظرت من فرجة الغطاء ، لكى ابدد شبه الهذيان هذا ، فرأيت الفجر . اتحدت كل صور الماضى ، وكل الافكار الضبابية فى فكرة صافية قوية واحدة : لقد هلكت انا وزينائيدا فيودوروفنا ، وبلا رجعة . كانت تلك ثقة ، كما لو كانت السماء الزرقاء الباردة تنطوى على نبوءة ، ولكننى بعد لحظة كنت أفكر فى شيء آخر ، وأومن بشيء آخر .

وقالت زينائيدا فيودوروفنا بصوت مبحوح من البرد والرطوبة :

— ما العمل الآن ؟ الى اين أذهب ، وماذا افعل ؟ جروزين قال لى : اذهبى الى الدير . أوه ، كم وددت لو اذهب ! ابدل ثيابى ووجهى واسمى وافكارى . . . كل

شيء ، كل شيء ، واختفى الى الأبد . ولكنهم لن يقبلونى في الدير . أنا حبلى .

فقلت لها :

— غدا سنسافر معا الى الخارج .

— لا يمكن . زوجى لن يسمح لى باستخراج جواز سفر .

— سأسفّرك بدون جواز .

توقف الحوذى بجوار منزل خشبى من طابقين مطلى بلون قاتم . ودققت الجرس . وعندما تناولت زينائيدا فيودوروفنا منى سلة صغيرة خفيفة — متاعها الوحيد الذى اخذناه معنا — ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت :

— هذا ما أملكه من الـ bijoux . . . . *.

ولكنها كانت من الضعف بحيث لم تقو على حمل هذه الـ bijoux . ولم يفتحوا لنا طويلا . وبعد الجرس الثالث او الرابع لاح ضوء فى النوافذ وترددت خطوات وسعال وهمس ، وأخيرا صر المزلاج ، وظهرت فى الباب امرأة بدينة بوجه أحمر مذعور . وخلفها ، على مسافة قصيرة ، وقفت عجوز صغيرة نحيلة ، بشعر قصير أبيض ، وفى بلوزة بيضاء وفى يدها شمعة . وهرولت زينائيدا فيودوروفنا الى المدخل وارتمت على عنق تلك العجوز .

وأعولت بصوت عال :

— نينا ، لقد خُدعت ! خدعت بقسوة ، بنذالة ! نينا ! نينا !

---

* الحلى (بالفرنسية فى الاصل) .

سلمت السلة للمرأة . واغلق الباب ، ولكن ظل النحيب وصرخة «نينا !» تتناهى من ورائه . وجلست في الحنطور وامرت الحوذي ان يمضي على مهل الى شارع نيفسكي . كان عليّ ان أفكر في أمر مبيتي انا ايضا .

في اليوم التالي قبيل المساء كنت عند زينائيدا فيودوروفنا . تغيرت بشدة . لم يعد هناك اثر للدموع على وجهها الشاحب الشديد الهزال ، وكان تعبيره مختلفا . ولست أدري هل لأني رأيتها الآن في ظروف أخرى ، أبعد ما تكون عن البذخ ، ولأن علاقتنا اصبحت الآن مختلفة ، ام ربما لأن الفاجعة الكبيرة قد تركت عليها بصماتها ، فلم تعد تبدو لي الآن بمثل تلك الرشاقة والاناقة التي بدت لي بها دائما . وكما لو أن جسمها أصبح أصغر ، ولاحظت في حركاتها ومشيتها ووجهها عصبية زائدة وحدّة ، كما لو كانت على عجلة من أمرها ، ولم تعد فيها النعومة السابقة ، حتى في ابتسامتها . وكنت الآن ارتدي حلة غالية اشتريتها نهارا . فصوبت نظرتها قبل كل شيء الى هذه الحلة والى القبعة في يدي ، ثم سددت نظرة قلقة متفحصة الى وجهي وكأنما تدرسه .

وقالت :

— ان تبدلك ما زال يبدو لي أشبه بمعجزة . عفوا اذ اتأملك بهذا الفضول . انت حقا شخص غير عادي .

فرويت لها ثانية من أنا ، ولماذا عملت عند أرلوف ، رويت بتفصيل واستفاضة اكثر مما بالأمس . وأصغت اليّ بانتباه شديد ، وقالت دون ان تدعني أكمل :

— كل شيء انتهى بالنسبة لي هناك . أتدرى ، لم

أتمالك نفسي وكتبت رسالة . وها هو الرد .
على الورقة التى مدتها لى كان مكتوبا بخط أرلوف :
«لن الجأ الى التبرير . ولكن الا توافقيننى على انك أنت التى اخطأت لا أنا . اتمنى لك السعادة وارجو أن تنسى بسرعة من يحترمك : ج . أ .
ملحوظة : ارسل لك امتعتك» .
كانت الصناديق والسلال التى أرسلها أرلوف موضوعة هنا فى غرفة الجلوس ، وبينها ايضا حقيبتى البائسة .
— واذن . . . . — قالت زينائيدا فيودوروفنا ولم تكمل .
وصمتنا . وتناولت منى الرسالة وبسطتها أمام عينيها حوالى دقيقتين ، وفى تلك الاثناء اكتسب وجهها ذلك التعبير المتغطرس ، الهازىء المتكبر والقاسى الذى لاح فيه بالأمس فى بداية مكاشفتى لها . وطفرت من عينيها الدموع ، لم تكن دموعا وجلة او مريرة ، بل دموعا أبية غاضبة .
— اسمع — قالت وهى تنهض بحدة وتمضى الى النافذة لكى لا أرى وجهها — هذا هو قرارى : غدا سأسافر معك الى الخارج .
— رائع . انا مستعد ان اسافر ولو اليوم .
— جندنى . هل قرأت بلزاك ؟ — سألتنى فجأة وقد التفتت نحوى — هل قرأته ؟ روايته Père Goriot * تنتهى بالبطل وهو ينظر من قمة تل الى باريس ويتوعد هذه المدينة : «الآن سنصفى حسابنا !» ، وبعد ذلك يبدأ حياة جديدة .

---

* الأب جورجو (بالفرنسية فى الاصل) .

وانا كذلك ، عندما القى آخر نظرة من عربة القطار على بطرسبرج سأقول لها : «الآن سنصفى حسابنا !»

واذ قالت ذلك ابتسمت لمزحتها هذه ، ولسبب ما انتفض بدنها كله .

١٥

فى البندقية بدأت تنتابنى آلام الرئتين . يبدو أننى اصبت ببرد فى المساء عندما توجهنا بزورق من المحطة الى Hôtel Bauer . واضطررت من أول يوم الى ملازمة الفراش فلم أبرحه مدة اسبوعين . وطيلة فترة مرضى كانت زينائيدا فيودوروفنا تأتى اليّ من غرفتها كل صباح لتتناول معى القهوة ، ثم تقرأ لى بصوت مسموع من الكتب الفرنسية والروسية التى اشترينا منها الكثير فى فيينا . وكانت هذه الكتب معروفة لى او غير ممتعة منذ زمن بعيد ، ولكن صوتا رقيقا طيبا كان يتردد بجوارى ، بحيث كان محتواها جميعا فى الواقع يتلخص بالنسبة لى فى شيء واحد : اننى لست وحيدا . وكانت تخرج للنزهة وتعود فى فستانها الرمادى الفاتح وفى قبعة خفيفة من القش ، مرحة وقد ادفأتها شمس الربيع ، فتجلس بجوار سريرى وتنحنى مقتربة من وجهى ، وتروى لى شيئا ما عن البندقية او تقرأ هذه الكتب ، فكنت أشعر بالراحة .

فى الليل كنت أحس بالبرد والألم والملل ، أما فى النهار فكنت أنهل من الحياة ، ولست أجد تعبيرا افضل من ذلك . كانت الشمس الساطعة الحارة الضاربة فى النوافذ المفتوحة

٩

وباب الشرفة ، والصيحات المتناهية من أسفل ، وطرطشة المجاذيف ، ورنين الاجراس ، والدوى الراعد لمدفع منتصف النهار ، والاحساس بالحرية ، الحرية التامة ، كان كل ذلك يصنع بـى المعجزات . فأحسست على جنبـيّ اجنحة قوية عريضة حملتنى الى حيث لا يعلم الا الله . وأى سحر ، واية سعادة تراودنى احيانا من فكرة ان حياة أخرى تسير الآن بجوار حياتى ، واننى خادم ، حارس ، صديق ، رفيق لا غنى عنه لمخلوق فتى جميل غنى ، لكنه ضعيف ، مهان ، وحيد ! حتى المرض يصبح محببا عندما تعرف ان هناك اشخاصا ينتظرون شفاءك كما ينتظرون العيد . وذات مرة سمعتها تتهامس مع طبيبـى خلف الباب ، ثم دخلت غرفتى بعيون دامعة ـــ وكان ذلك نذير سوء ـــ ولكنى كنت متأثرا واحسست فى نفسى براحة غير عادية .

وها قد سمُح لى بالخروج الى الشرفة . الشمس والنسيم الخفيف القادم من البحر يهدهدان ويداعبان جسدى المريض . وانظر اسفل الى قوارب الجندول المألوفة لدى منذ وقت بعيد والتى تسبح برشاقة نسائية ، برفق وعظمة كأنما تحيا وتشعر بترف هذه الحضارة الاصيلة الجذابة . وتفوح رائحة البحر . وفى مكان ما يتردد عزف وترى وغناء بصوتين . يا للروعة ! ما أبعد الشبه بتلك الليلة البطرسبرجية التى هطل فيها الثلج المبلل وراح يلسع الوجه بغلظة ! لو نظرت مباشرة عبر القناة فسيبدو شاطىء البحر ، وعند الأفق ، فى المدى الواسع تسطع الشمس فى الماء بشدة الى درجة تؤلم العيون . وتنجذب روحى الى هناك ، الى البحر الحبيب الطيب الذى وهبته شبابـى . اريد ان اعيش ! ان اعيش ، ولا شىء اكثر !

بعد اسبوعين أصبحت اتحرك واذهب الى حيث اشاء .
كنت احب الجلوس فى الشمس والاصغاء الى غناء ملاح الجندول دون ان افهمه ، والنظر ساعات الى ذلك المنزل الصغير الذى يقال ان ديدمونة كانت تسكنه . . منزل ساذج حزين ، برئ المنظر ، خفيف كالدانتلا ، خفيف الى درجة يبدو معها وكأن من الممكن زحزحته من مكانه بيد واحدة . وكنت اقف طويلا على قبر كانوفا * دون ان أحول بصرى عن الأسد الحزين . اما فى قصر الدوجات فكان يشدنى دائما ذلك الركن الذى دهنوا فيه بالطلاء الأسود مارينو فالييرو المسكين ** . وفكرت فى انه من الجميل أن تكون فنانا ، او شاعرا ، او مسرحيا ، ولكن اذا كان ذلك بعيد المنال عنى فلأنغمس على الاقل فى الغيبيات ! نعم ، لو كان لدى فوق هذه السكينة القريرة والراحة التى تملأ الروح . . . ولو قطعة من اى ايمان .

فى المساء كنا نأكل القواقع البحرية ونشرب النبيذ ، ونتنزه بالجندول . واذكر جندولنا الأسود ، وهو يتمايل فى مكانه ، ومن تحته يتناهى خرير المياه الضعيف . وهنا وهناك ترتعش وتومض انعكاسات النجوم واضواء الشاطىء . وغير بعيد عنا يجلس اشخاص ما ويغنون فى جندول مزين بالمصابيح الملونة التى تنعكس فى صفحة المياه . وتتردد

---

* كانوفا (١٧٥٧ — ١٨٢٢) نحات ايطالى كلاسيكى شهير . المعرب .

** مارينو فالييرو (١٢٧٨ — ١٣٥٥) دوج البندقية ، أعدم بتهمة التآمر لاقامة جمهورية ديمقراطية فى البندقية . المعرب .

في الظلام انغام جيتارات وكمانات وماندولينو واصوات رجال ونساء ، وزينائيدا فيودوروفنا جالسة بجوارى شاحبة ، بوجه جاد ، صارم تقريبا ، وقد زمت شفتيها وعقدت ذراعيها بشدة . وتفكر في شيء ما دون ان يطرف لها جفن ولا تسمعني . هذا الوجه ، والجلسة ، والنظرة الجامدة الخالية من أى تعبير ، والذكريات الكئيبة الى درجة لا تعقل ، المرعبة ، والباردة كالثلج ، بينما تحيط بها زوارق الجندول والاضواء والموسيقى والاغنية ذات الصيحة النشطة المنفعلة «Jam-mo!.. Jam-mo...» — يا لتناقضات الحياة ! عندما تجلس هكذا ، عاقدة ذراعيها ، متصلبة ، مجللة بالحزن ، كان يخيل اليّ اننى واياها نشارك في رواية ما ، من طراز قديم ، بعنوان : «البائسة» او «المهجورة» او شيء من هذا القبيل . أنا وهى . . هى البائسة ، المتروكة ، وانا الصديق الوفى المخلص ، الحالم ، واذا شئتم الخائب ، الفاشل ، الذى لم يعد يصلح لشيء اللهم الا لأن يسعل ويحلم ، وربما ايضا لأن يضحى بنفسه . . . ولكن من بحاجة الآن الى تضحياتى ، ولأى داع ؟ ثم حقا ما الذى اضحى به ؟

بعد نزهة المساء كنا دائما ما نتناول الشاى في غرفتها ونتحدث . لم نكن نخشى مس الجراح القديمة التى لم تندمل بعد . . على العكس ، لقد كنت اشعر حتى بالمتعة عندما احكى لها عن حياتى عند أرلوف ، او اتناول بصراحة علاقاتهما التى كنت على علم بها ولم تكن لتخفى عليّ .

كنت أقول :

— احيانا كنت أمقتك . عندما كان يتدلل ويمنّ ويكذب كان يدهشنى انك لا ترين شيئا ولا تفهمين بينما

كل الأمور واضحة تماما . تقبلين يديه وتـــركعين أمامه وتنافقينه . . .

فتقول وهي تتضرج :

— عندما كنت . . . أقبل يديه واركع أمامه ، كنت أحبه . . .

— أمن المعقول انه كان صعبا كشفه ؟ يا له من أبـى الهول ! أبو الهول–ضابط البلاط ! اننى لا ألومك على شيء ، حاشا لله — قلت وانا اشعر اننى فظ ، وافتقر الى التربية الارستقراطية وتلك اللباقة التى لا غنى عنها عندما تتعامل مع روح غريبة . ولم الاحظ فى نفسى هذا النقص فيما مضى ، قبل ان اتعرف عليها — ولكن كيف لم تستطيعى ان تفطنى ؟ — رددت ولكن بنبرة اخفت وأقل ثقة .

فقالت بانفعال شديد :

— تريد ان تقول انك تحتقر ماضيّ ، وانت على حق . انك تنتمى الى ذلك الطراز الخاص من الناس الذين لا يمكن تقييمهم بالمقاييس العادية ، ومتطلباتك الخلقية تتميز بالصرامة المطلقة ، وانت لا تستطيع ان تغفر ، وانا افهم ذلك . اننى افهمك ، واذا كنت احيانا أعارضك فذلك لا يعنى ان نظرتى الى الامور مختلفة عن نظرتك . اننى اتفوه بهراء الماضى لأننى ببساطة لم اتمكن بعد من استهلاك فساتينى وافكارى القديمة . انا نفسى احتقر وأمقت ماضيّ وأرلوف وحبـى . . . أى حب هذا ؟ الآن يبدو كل ذلك حتى مضحكا — قالت مقتربة من النافذة ومحدقة الى القناة فى الاسفل — كل هذه الغراميات لا تؤدى الا الى تكدير الضمير وتشتيت العقل . مغزى الحياة يكمن فى شيء

واحد : فى النضال . أن تدوس بكعبك على رأس الحية الغادر حتى يصر منسحقا ! فى هذا يكمن المغزى . فى هذا وحده ، والا فليس ثمة مغزى .

ورويت لها قصصا طويلة من ماضيّ ، ووصفت لها مغامراتى المدهشة بالفعل . ولكنى لم اتفوه بكلمة عن ذلك التحول الذى طرأ عليّ . وكانت تصغى اليّ فى كل مرة بانتباه شديد ، وتفرك يديها فى المواضع الشيقة كأنما تأسى على انها لم تتمكن من خوض مثل هذه المغامرات والمخاوف والافراح ، ولكنها تشرد فجأة وتنطوى على نفسها ، وأرى فى وجهها انها لم تعد تصغى اليّ .

عندها اغلق النوافذ المطلة على القناة واسألها : هل اشعل المدفأة ؟

فتقول وهى تبتسم ابتسامة ذابلة :

— كلا ، دعك منها . انا لا أشعر بالبرد . فقط أحس بضعف فى جسمى كله . أتدرى ، يخيل الى اننى فى الفترة الاخيرة ازددت ذكاء بشكل فظيع . لدى الآن افكار غير عادية ، أصيلة . عندما افكر ، مثلا ، فى الماضى ، فى حياتى السابقة . . . وفى الناس عموما ، يتحد كل ذلك عندى فى شيء واحد : فى صورة زوجة والدى . امرأة فظة ، وقحة ، بلا قلب ، زائفة ، فاجرة ، وفوق ذلك مدمنة مورفين . كان أبى رجلا ضعيفا ، بلا ارادة ، وقد تزوج أمى طمعا فى نقودها وأوصلها الى السل ، بينما احب هذه المرأة ، زوجته الثانية ، بعنف ، بجنون . . . كم عانيت ! حسنا ، ما جدوى الكلام ! وهكذا ، كما قلت ، يتحد كل شيء فى صورة واحدة . . . وانى لأشعر

بالأسى : فلماذا ماتت زوجة أبـى ؟ كم كنت أود لو قابلتها الآن ! . .

— لماذا ؟

— هكذا لا أدرى . . . — قالت وهى تضحك وتهز رأسها بطريقة جميلة — طابت ليلتك . تماثل للشفاء . وما أن تشفى حتى نشرع فى أعمالنا . . حان الوقت .

وعندما أمسك بمقبض الباب بعد ان نتودع تقول لى :

— ما رأيك ؟ هل بوليا لا تزال تعيش لديه ؟

— فى الغالب .

وانصرف الى غرفتى . وهكذا عشنا شهرا كاملا . وذات يوم مكفهر ، وكنا واقفين بجوار النافذة فى غرفتى نحدق صامتين فى الغيوم الزاحفة من البحر وفى القناة المزرقة وننتظر هطول المطر بين لحظة وأخرى ، وعندما اصبح شريط المطر الضيق الكثيف يحجب الشاطئ كالشاش ، أحسسنا كلانا فجأة بالملل . وفى نفس اليوم رحلنا الى فلورنسا .

١٦

جرى ذلك خريفا فى نيس . فذات صباح ، عندما دخلت غرفتها ، وجدتها جالسة فى المقعد ، واضعة ساقا على ساق ، محنية ، هزيلة ، وقد غطت وجهها بيديها وهى تبكى بحرقة وشهيق ، وسقط شعرها الطويل غير المصفف على ركبتيها . وفجأة تبخر من نفسى ذلك الانطباع الساحر الرائع عن البحر الذى رأيته لتوى وكنت أود ان احدثها عنه ، وعصر الألم قلبـى .

— ماذا بك ؟ — سألتها ، فنزعت احدى يديها عن وجهها واشاحت لى ان أخرج — ولكن ماذا بك ؟ — رددت ، ولأول مرة طوال فترة تعارفنا قبلت يدها .

فقالت بسرعة :

— كلا ، كلا ، لا شيء ! آه ، لا شيء ، لا شيء . . اخرج . . . ألا ترى أننى لم ارتد ثيابى .

خرجت فى ارتباك شديد . لقد سممت الشفقة تلك السكينة والمزاج الصافى الذى لازمنى فترة طويلة . وتملكتنى رغبة جارفة فى ان ارتمى على قدميها واتوسل اليها الا تبكى وحدها بل تفضى الىّ ببلواها ، وزمجر صخب البحر المنتظم فى أذنى كنبوءة جهمة ، فرأيت فى المستقبل دموعا جديدة واحزانا وخسائر جديدة . ما الذى تبكيه ، ما الذى تبكيه ؟ سألت نفسى متذكرا وجهها ونظرتها المعذبة . وتذكرت انها حبلى . وكانت تحاول ان تخفى وضعها عن الناس وعن نفسها ايضا . كانت ترتدى فى المنزل بلوزة فضفاضة او سترة بثنايا مبالغ فى انتفاخها عند الصدر ، وعندما تخرج الى مكان ما تحكم الكورسيه على جسدها بشدة ، لدرجة ان الاغماء داهمها مرتين اثناء التنزه . ولم تتحدث معى عن حملها ابدا ، وذات مرة ، عندما ألمحت الى انه لا بأس لو استشارت طبيبا ، تضرجت كلها ولم تنبس بكلمة .

عندما دخلت غرفتها فيما بعد وجدتها مرتدية ثيابها ، مصففة الشعر .

— كفى ، كفى ! — قلت عندما رأيتها تهم بالبكاء ثانية — هيا بنا نذهب الى البحر ونتحدث .

— لا استطيع ان اتحدث . عفوا ، ولكنى الآن

فى حالة اشعر فيها بالرغبة ان أبقى وحدى . ثم أرجوك يا فلاديمير ايفانوفتش ، اذا أردت فى مرة أخرى ان تدخل فلتدق الباب مقدما .

رنت «مقدما» هذه بصورة خاصة ، غير نسائيـــة . فخرجت . وعاد اليّ المزاج البطرسبرجى اللعين ، وانطوت كل احلامى وانكمشت كأوراق الشجر فى اللهب . وشعرت اننى وحيد من جديد ، وليس هناك قرابة بيننا . اننى بالنسبة اليها مثل خيوط العنكبوت بالنسبة لهذه النخلة ، تعلقت بها صدفة وسوف تنزعها عنها الريح وتذهب بها . وتجولت فى الحديقة ، حيث كانت تعزف موسيقى ، ودخلت الكازينو. وهنا تأملت النساء المتأنقات ، المتضوعات بشدة ، ونظرت كل منهن اليّ وكأنما تريد ان تقول : «انت وحيد ، هذا رائع . . .» ، ثم خرجت الى الشرفة وتطلعت طويلا الى البحر . لم يلح شراع واحد بعيدا عند الأفق ، وعلى الشاطىء الأيسر ، فى الظلام الليلكى تراءت الجبال والحدائق والابراج والمنازل ، وتراقصت اشعة الشمس فوق ذلك كله ، ولكن كل شيء بدا غريبا ، لامباليا ، بدا اضطرابا مشوشا . . .

١٧

ظلت تأتى اليّ كما فى السابق كل صباح لتشرب القهوة ، ولكننا لم نعد نتغذى معا . لم تشعر ، كما قالت ، برغبة فى الأكل ، فلم تكن تتغذى الا بالقهوة والشاى وشتى الاشياء التافهة كالبرتقال والكرملة .

وفى الأمسيات لم نعد نتحادث . لست أدرى لماذا .

فبعد ان فاجأتها تبكى اصبحت تعاملنى بلا اهتمام ، واحيانا باهمال ، بل وحتى بسخرية ، وتدعونى لسبب ما بـ«يا سيدى» . وكل ما كان يبدو لها من قبل مخيفا ، مدهشا وبطوليا ، ويثير فيها الحسد والاعجاب ، لم يعد الآن يحرك فيها ساكنا ، وبعد أن تسمعنى كانت عادة تتمطى قليلا وتقول :

— نعم ، يا لها من ايام يا سيدى ، يا لها من ايام .

بل كان يحدث الا ألقاها أياما كاملة . كنت أدق بابها بوجل وتهيب — ولا مجيب ، وأدق مرة ثـــانية : صمت . . . واقف بجوار الباب واصيخ السمع . وها هى الخادم تمر بجوارى وتقول ببرود : «Madame est partie» * . ثم اتجول فى طرقة الفندق واتجول . . . انجليز ما ، وسيدات بصدور ممتلئة ، وخدم يرتدون الفراك . . . وعندما احدق طويلا فى البساط الطويل المخطط الذى يمتد بطول الطرقة يرد الى ذهنى أننى العب فى حياة هذه المرأة دورا غريبا ، ربما مزيفا ، وليس فى مقدورى قط أن اغير هذا الدور . فأركض الى غرفتى ، وارتمى على السرير ، وافكر ، افكر ، ولا استطيع ان اتوصل الى شىء ولا ادرك بوضوح الا أننى أريد ان اعيش ، وانه كلما ازداد وجهها قبحا وجفافا وقسوة اصبحت هى اقرب الى قلبى ، وازداد شعورى بقرابتنا حدة وايلاما . فلأكن انا «يا سيدى» ، ولتكن هذه النبرة

---

* السيدة انصرفت (بالفرنسية فى الأصل) .

الخفيفة اللامبالية ، فليكن اى شيء ، لكن لا تتركينى يا كنزى . فأنا الآن أخاف الوحدة .

ثم اعود ثانية الى الطرقة ، وأصيخ بقلق . . . ولا أتغدى ، ولا ألاحظ حلول المساء . واخيرا ، فى حوالى الحادية عشرة اسمع وقع الخطوات المألوف ، وفى الزاوية قرب السلم تظهر زينائيدا فيودوروفنا .

وتسألنى وهى تمر بجوارى :

— تتمشى ؟ الأفضل ان تخرج الى الشارع . . . طابت ليلتك .

— ولكن ألن نلتقى اليوم ؟

— يبدو ان الوقت متأخر . وعموما كما تشاء .

واسأل وانا ادلف خلفها الى غرفتها :

— خبرينى ، اين كنت ؟

— أين ؟ فى مونت كارلو — وتخرج من جيبها حوالى عشر قطع ذهبية وتقول — انظر يا سيدى . كسبتها . فى الروليت .

— ولكنك لن تمارسى القمار .

— ولم لا ؟ غدا سأذهب ثانية .

وتصورتها بوجهها المريض المشوه ، حبلى ، محزمة بشدة ، تقف بجوار طاولة القمار فى حشد من الغانيات والعجائز الخرفات ، اللائى يتهافتن على الذهب كالذباب على العسل ، وتذكرت أنها ذهبت الى مونت كارلو خفية عنى لسبب ما . . .

قلت لها ذات مرة :

— انا لا أصدقك . لن تذهبى الى هناك ثانية .

ـــ لا تقلق . انا لا استطيع ان أخسر كثيرا .

فقلت بأسى :

ـــ ليست القضية فى الخسارة . الم يخطر ببالك وأنت تلعبين هناك ان بريق الذهب ، وكل هؤلاء النسوة ، العجائز والصبايا ومديرى اللعب وكل هذا الجو ، الم يخطر ببالك ان كل ذلك هو استهزاء خسيس حقير بكد العامل وبالعرق الدامى ؟

فسألتنى :

ـــ اذا لم ألعب فماذا أفعل هنا ؟ كد العامل والعرق الدامى . . هذه البلاغة أجّلها الى مرة اخرى . والآن طالما أنك بدأت ، فلتسمح لى أنْ أواصل . اسمح لى ان أضع السؤال بحدة : ماذا علىّ ان افعل هنا وما الذى سأفعله ؟

ـــ ماذا تفعلين ؟ ـــ قلت وهززت كتفى ـــ لا يمكن الاجابة فورا على هذا السؤال .

فقالت وأصبح وجهها غاضبا :

ـــ ارجو ان تجيبنى بصدق يا فلاديمير ايفانيتش . فطالما تجرأت ان اسألك هذا السؤال فلا لكى أسمع عبارات عامة ـــ واستطردت وهى تدق براحتها على المائدة فى ايقاع مصاحب ـــ اننى اسألك : ما الذى علىّ ان افعله هنا ؟ وليس هنا ، فى نيس ، بل عموما ؟

لزمت الصمت ونظرت من النافذة الى البحر . وكان قلبى يدق بعنف .

ـــ فلاديمير ايفانيتش ـــ قالت بصوت خافت ، مضطربة الانفاس ، فقد كان الحديث مجهدا لها ـــ فلاديمير ايفانيتش ، اذا كنت انت نفسك لا تثق بالقضية ، واذا كنت كففت

عن التفكير فى العودة اليها فلماذا اذن . . . لماذا سحبتني من بطرسبرج ؟ لماذا وعدتنى ولماذا ايقظت فيّ احلاما جنونية ؟ لقد تبدلت معتقداتك ، واصبحت شخصا آخر ، ولا أحد يحملك الذنب فى ذلك ، فالمعتقدات لا تخضع دائما لسلطاننا ، ولكن . . . ولكن بالله يا فلاديمير ايفانيتش لماذا لا تكون صادقا ؟ — واستطردت بصوت خافت وهى تقترب منى — عندما كنت أحلم بصوت عال طوال هذه الشهور واهذى واعجب بخططى ، واعيد بناء حياتى على اسس جديدة ، لماذا لم تقل لى الحقيقة بل صمتّ او شجعتنى بقصصك وكنت تتصرف وكأنك تتعاطف معى تماما ؟ لماذا ؟ ما الداعى لذلك ؟

فقلت مستديرا ولكن دون ان اتطلع اليها :

— من الصعب ان يعترف المرء بافلاسه . نعم ، اننى لا أومن ، وقد تعبت ، وانهارت معنوياتى . . . من الصعب ان يكون المرء صادقا ، صعب جدا ، ولذلك صمت . ارجو من الله الا يجعل احدا يعانى ما عانيت .

خيل الىّ اننى سأشرع فى البكاء حالا ، فصمت .

فقالت وهى تمسك بكلتا يدى :

— فلاديمير ايفانيتش ، انت عانيت وخضت الكثير ، وتعرف اكثر منى . فلتفكر بجدية ولتخبرنى : ماذا علي أن افعل ؟ علمني . اذا لم تعد قادرا على السير وقيادة الآخرين فلتشر لى على الأقل الى أين اذهب . اننى انسان حى ، موجود ، يفكر ، اليس كذلك ؟ أن اجد نفسى فى وضع زائف . . . أن العب دورا أحمق . . . هذا شاق علي . أنا لا ألومك ، ولا أتهمك ، بل فقط أرجوك .

وجاءوا بالشاى .

— حسنا ، فماذا اذن ؟ — سألتنى زينائيدا فيودوروفنا وهى تقدم لى كوب الشاى — ماذا تقول لى ؟

فأجبتها :

— ليس كل الضياء ما ترينه من النافذة . فهناك اناس غيرى يا زينائيدا فيودوروفنا .

فقالت بحيوية :

— اذن فلتشر لى اليهم . هذا فقط ما أطلبه منك .

فاستطردت قائلا :

— واريد ايضا ان أقول : بوسع المرء أن يخدم الفكرة فى اكثر من مجال . فاذا ما اخطأ او فقد ايمانه بشىء ، فمن الممكن البحث عن شيء آخر . ان عالم الأفكار واسع لا ينضب .

— عالم الأفكار ! — قالت وهى تحدق فى وجهى بسخرية — من الافضل اذن ان نكف . . ما جدوى الكلام . . .

وتضرجتُ .

— عالم الافكار ! — رددت ثم القت جانبا بالمنشفة واكتسب وجهها تعبيرا ثائرا متقززا — ان كل افكارك الرائعة ، كما أرى ، تقود الى خطوة حتمية ضرورية واحدة : عليّ أن اصبح عشيقتك . هذا هو المطلوب . فأن اهيم بالافكار دون ان اكون عشيقة رجل من اشرف الناس واكثرهم عقائدية يعنى اننى لا أفهم الافكار . ينبغى البدء من هذه النقطة . . اعنى من العشيقة ، والباقى يأتى تلقائيا .

فقلت :

— انت منزعجة يا زينائيدا فيودوروفنا .

— كلا ، أنا صادقة ! — صاحت وهى تتنفس بصعوبة — أنا صادقة .

— ربما كنت صادقة ، ولكنك مخطئة . اننى اتعذب من سماع كلامك .

فضحكت قائلة :

— انا مخطئة ! دع احدا غيرك يقول ذلك يا سيدى . فلأبْدُ لك غير لبقة ، قاسية ، ولكن لا بأس ، ألست تحبنى ؟ تحبنى ، نعم ؟

فهززت كتفى .

فاستطردت تقول بسخرية :

— نعم ، تهز كتفيك ! عندما كنت مريضا سمعتك تهذى ، وعلاوة على ذلك فهاتان العينان المغرمتان دوما ، وهذه الزفرات ، والاحاديث النبيلة عن القرب والصلة الروحية . . . ولكن المهم هو لماذا كنت حتى الآن غير صادق ؟ لماذا اخفيت ما هو موجود وتحدثت عما هو غير موجود ؟ كان الأجدر بك ان تقول من البداية اية افكار فى الواقع دفعتك الى شدى من بطرسبرج ، اذن لكنت على بيّنة من امرى . اذن لانتحرت آنذاك كما كنت انوى ، ولما كنا الآن فى هذه الكوميديا السمجة . . . ايه ، ما جدوى الكلام ! — واشاحت نحوى بيدها وجلست .

فقلت مغضبا :

— انك تتحدثين بلهجة توحى بارتيابك فى وجود نوايا غير شريفة لدى .

— حسنا ، كفاك ! ما جدوى ذلك . انا لا أرتاب فى وجود نوايا لديك ، بل فى عدم وجود اية نوايا . فلو

كانت لديك لعرفت بها . لم يكن لديك شيء سوى الافكار والحب . الآن الافكار والحب ، وفي المستقبل انا عشيقة . هكذا طبيعة الاشياء في الحياة وفي الروايات . . . — وقالت وهي تدق بكفها على الطاولة — ها أنت ذا قد سببته ، ولكن المرء يجد نفسه رغما عنه متفقا معه . فله العذر في احتقار كل هذه الأفكار .

فصحت أنا :

— انه لا يحتقر الافكار بل يخشاها . انه جبان وكذاب .

— حسنا ، كفاك ! هو جبان وكذاب وخدعني . وأنت ؟ اعذرني على صراحتي ، ولكن من أنت ؟ لقد خدعني وتركني عرضة للمقادير في بطرسبرج ، وأنت خدعتني وتركتني هنا . ولكنه على الأقل لم ينسج خداعه بالافكار ، أما أنت . . .

— استحلفك بالله لماذا تقولين هذا ؟ — قلت مرتاعا وانا الوي ذراعي واقتربت منها بسرعة — كلا زينائيدا فيودوروفنا ، كلا ، هذا ابتذال ، لا ينبغي اليأس بهذه الدرجة ، اسمعيني ارجوك — استطردت وقد امسكت بفكرة ومضت في ذهني فجأة بصورة غامضة وبدا لي انها يمكن أن تنقذنا كلينا — اسمعيني ارجوك . لقد عانيت في حياتي الكثير ، الكثير الى درجة يدور معها رأسي عندما اتذكره ، والآن ادركت جيدا بعقلي ، وبروحي المعذبة أن رسالة الانسان اما ان تكون لاشيء واما ان تكون شيئا واحدا ، الا وهو الحب المتفاني للأقرباء . هذا هو ما ينبغي ان نسعى اليه ، وهذه هي رسالتنا ! ذلك هو ايماني !

اردت بعد ذلك ان اتحدث عن الرحمة وعن التسامح ، ولكن صوتى رن فجأة بنبرة غير صادقة ، فتملكنى الحرج .
وقلت باخلاص :
— اننى أريد أن احيا ! ان أحيا ، ان أحيا ! أريد السلام والسكينة ، اريد الدفء ، هذا البحر ، القرب منك . اوه ، كم وددت لو نقلت اليك هذا الظمأ الجارف الى الحياة ! لقد تحدثت منذ قليل عن الحب ، ولكن يكفينى مجرد القرب منك ، صوتك فقط ، تعبير وجهك . . .
تضرجت وقالت بسرعة لكى تمنعنى من الكلام :
— انت تحب الحياة وأنا أمقتها . واذن فطريقانا مختلفان .
وصبت لنفسها شايا ، ولكنها لم تمسسه ، وذهبت الى غرفة النوم واستلقت على السرير .
وقالت لى من هناك :
— اعتقد ان من الافضل أن نترك هذا الحديث . بالنسبة لى انتهى كل شىء ، ولست بحاجة لشىء . . . ما جدوى الكلام بعد !
— كلا ، لم ينته كل شىء !
— حسنا ، كفاك . . . انا أدرى ! مللت . . . يكفى .
وقفت قليلا ، وتمشيت من ركن الى ركن ، ثم خرجت الى الطرقة . وفيما بعد ، فى ساعة متأخرة من الليل ، عندما اقتربت من بابها وأصخت السمع ، خيل اليّ بوضوح اننى اسمع بكاء .
فى صباح اليوم التالى اخبرنى الخادم مبتسما وهو يقدم لى الحلة ان السيدة من الغرفة رقم ١٣ سوف تلد . فارتديت

ثيابي كيفما كان وهرعت الى زينائيدا فيودوروفنا وأنا اتجمد رعبا . كان في غرفتها طبيب وقابلة وسيدة روسية كهلة من مدينة خاركوف تدعى داريا ميخايلوفنا . وفاحت رائحة محلول الأثير . وما أن خطوت الى الداخل حتى تردد انين خافت ضارع من الغرفة التي ترقد فيها ، وكأنما حملته اليّ الريح من روسيا ، فتذكرت أرلوف وسخريته ، وبوليا ، والنيفا ، وندف الثلج المنهمرة ، ثم الحنطور الخالي من المشمع الواقي والنبوءة التي قرأتها في صفحة السماء الصباحية الباردة ، والصيحة اليائسة : «نينا ! نينا !» .

وقالت السيدة :

— اذهب اليها .

دخلت الى زينائيدا فيودوروفنا يراودني شعور وكأني والد الطفل . كانت ترقد مغمضة العينين ، نحيلة ، شاحبة ، في طاقية بيضاء بالدانتلا . واذكر على وجهها تعبيرين : احدهما لامبال ، بارد ، ذابل ، والثاني طفولي عاجز أضفته عليها الطاقية البيضاء . لم تسمع حركة دخولي ، او ربما سمعت ولكنها لم تلتفت اليّ . ووقفت انظر اليـــهـــا وانتظر .

ولكن وجهها التوى من الألم ، ففتحت عينيها ، وراحت تحدق في السقف كأنما تحاول ان تفهم ماذا ألمّ بها . . . ولاح على وجهها التقزز .

وهمست :

— يا للقرف .

فناديتها بصوت ضعيف :

— زينائيدا فيودوروفنا .

فنظرت اليّ بلامبالاة ووهن ثم أغمضت عينيها . ووقفت قليلا ثم خرجت .

ليلا اخبرتني داريا ميخايلوفنا انه قد ولدت طفلة ، ولكن الوالدة في حالة خطيرة . ثم ترددت في الطرقة هرولة وصخب . وجاءتني داريا ميخايلوفنا ثانية وعلى وجهها ارتسم اليأس ، ولوت ذراعيها وهي تقول :

— أوه ، هذا فظيع ! الدكتور يظن أنها تناولت سما ! أوه ما أسوأ مسلك الروس هنا !

وفي اليوم التالي ، في منتصف النهار ، توفيت زينائيدا فيودوروفنا .

١٨

مر عامان . وتغيرت الأحوال ، فعدت الى بطرسبرج واصبح بوسعي ان اعيش هنا دون استخفاء . لم أعد اخشى ان اكون أو أبدو حساسا ، واستغرقت تماما في المشاعر الأبوية ، او بالأصح مشاعر عبادة الأوثان ، التي اثارتها فيّ سونيا ابنة زينائيدا فيودوروفنا . كنت اطعمها بيدي ، وأحممها وأرقدها ، ولا أحول عيني عنها ليالي كاملة ، وأصرخ عندما يخيل اليّ انها ستسقط من يدي المربية الآن . واصبح ظمئي الى الحياة العادية التافهة بمرور الزمن اكثر حدة وعصبية ، ولكن آمالي العريضة توقفت بالقرب من سونيا ، وكأنما وجدت فيها اخيرا ما كنت بحاجة اليه . احببت هذه الطفلة بجنون . ورأيت فيها استمرارا لحياتي . ولم يكن يخيل اليّ ، بل كنت اشعر وأكاد أومن ، بأنني ، عندما انضو عني اخيرا

هذا الجسد الطويل المعروق الملتحى ، فسوف أحيا في هاتين العينين الزرقاوين ، وفي هذه الخصلات الذهبية الحريرية ، وفي هاتين الذراعين الصغيرتين الورديتين البضتين ، اللتين تمسدان بهذا الحب وجهي وتطوقان عنقي .

كنت اشعر بالخوف على مصير سونيا . فقد كان أبوها أرلوف ، وفي شهادة الميلاد كان اسم عائلتها كراسنوفسكايا ، أما الشخص الوحيد الذي كان يعلم بوجودها ويهتم به ، أي أنا ، فكانت اغنيته على وشك الانتهاء . كان من الضروري التفكير في مستقبلها بجدية .

في اليوم التالي لوصولي الى بطرسبرج توجهت الى أرلوف . وفتح لي الباب عجوز بدين بسالفين أحمرين ودون شارب ، يبدو انه ألماني . ولم تعرفني بوليا التي كانت تنظف غرفة الجلوس ، ولكن أرلوف عرفني على الفور .

— آه ، السيد الخارج على القانون ! — قال وهو يتفحصني بفضول ضاحكا — ما هذه الصدف ؟

لم يتغير اطلاقا : نفس الوجه المدلل الكريه ، ونفس السخرية . وعلى الطاولة ، كما في الزمن الماضي ، كتاب جديد وضع بين صفحاته سكين من العاج . يبدو انه كان يقرأ قبل وصولي . وأجلسني ، وقدم لي سيجارا . وبلباقة يتميز بها الاشخاص الممتازو التربية وحدهم قال بملاحظة عابرة وهو يكتم الاحساس الكريه الذي اثاره فيه وجهي وجسمي الهزيل ، انني لم اتغير بتاتا ، وانه من السهل التعرف عليّ ، حتى بالرغم من انني اطلقت لحيتي . وتحدثنا عن الطقس ، وعن باريس . ولكي يتخلص بسرعة من السؤال الثقيل الحتمي الذي كان يرهقه ويرهقني سألني :

— هل ماتت زينائيدا فيودوروفنا ؟

فأجبته :

— نعم ، ماتت .

— بسبب الولادة ؟

— نعم ، بسبب الولادة . كان الدكتور يرتاب في سبب آخر ولكن . . . سيكون من المريح لك ولى ان نعتقد أنها ماتت بسبب الولادة .

وتنهد مراعاة للأصول وصمت . وعبر محلقا ملاك الوئام .

— هكذا . أما أنا فمثلما كنت ، ليس هناك تغيرات تذكر — قال بحيوية وقد لاحظ اننى اتفحص غرفة المكتب — أبـى ، كما تعلم ، متقاعد ، يستريح ، وأنا ما زلت هناك . هل تذكر بيكارسكى ؟ هو ايضا كما كان . جروزين توفى فى العام الماضى بالدفتيريا . . . حسنا ، وكوكوشكين حيّ وكثيرا ما يتذكرك . وبالمناسبة — استطرد أرلوف وقد غضّ بصره بخجل — عندما علم كوكوشكين بحقيقتك اخذ يروى فى كل مكان انك هاجمته واردت ان تقتله . . . وأنه نجا بالكاد .

ولم أعلق بشيء .

— الخدم القدامى لا ينسون أسيادهم . . . هذا لطيف منك — قال ارلوف مازحا — ولكن الا تريد خمرا او قهوة ؟ سآمر باعدادها .

— كلا ، اشكرك . لقد جئتك فى أمر هام جدا يا جيورجى ايفانيتش .

— لست من هواة الأمور الهامة ، ولكن يسرنى أن اخدمك . بم تأمر ؟

فشرعت أقول بانفعال :

— المسألة انه توجد معى هنا حاليا ابنة المرحومة زينائيدا فيودوروفنا . . . حتى الآن كنت أقوم بتربيتها ، ولكنى كما ترى ، سأصبح اليوم او غدا صوتا أجوف . وبودى أن أموت وانا أعلم انها مكفولة .

تضرج أرلوف قليلا وعبس ، ونظر الىّ بصرامة نظرة خاطفة . لم يثر نفوره «الأمر الهام» بقدر ما أثارته كلماتى عن الصوت الأجوف ، عن الموت .

وقال وهو يحجب عينيه كأنما يتقى الشمس :

— نعم ، ينبغى التفكير فى ذلك . اشكرك . تقول انها صبية ؟

— نعم صبية . صبية بديعة !

— هكذا . هذا بالطبع ليس جروا ، بل انسانا . . . مفهوم ، ينبغى التفكير بجدية . انا مستعد أن اشارك و . . . وممتن لك جدا .

ونهض ، وتمشى وهو يقضم أظافره ، ثم توقف امام لوحة .

— ينبغى التفكير فى ذلك — قال بصوت مكتوم مديرا لى ظهره — سأزور اليوم بيكارسكى واطلب منه ان يذهب الى كراسنوفسكى . اظن ان كراسنوفسكى لن يماطل طويلا وسيوافق على اخذ هذه الصبية .

— ولكن عفوا ، انا لا أعرف ما دخل كراسنوفسكى هنا — قلت ، ونهضت انا ايضا مقتربا من لوحة فى الركن المقابل من غرفة المكتب .

فقال أرلوف :

— ولكنها تحمل اسم عائلته كما آمل !

— نعم ، ربما كان ملزما حسب القانون أن يأخذ هذه الطفلة ، انا لا أعرف ، ولكنى لم آت اليك يا جيورجى ايفانيتش لكى نتحدث عن القوانين .

— نعم ، نعم ، أنت على حق — وافقنى ارلوف بسرعة — يبدو أننى اتفوه بهراء . لكن لا تقلق . سوف نجد حلا مرضيا للطرفين . بطريقة او بأخرى او بثالثة ، على اية حال سنجد حلا لهذه المسألة الحساسة . سيرتب بيكارسكى كل شيء . لو تكرمت اترك لى عنوانك وسأخطرك فورا بالحل الذى سنتوصل اليه . أين تسكن ؟

سجل أرلوف عنوانى ، وتنهد ، ثم قال مبتسما :

— فيا له من قدر يا خالقى ، بأن اكون والدا لابنة صغيرة ! * ولكن بيكارسكى سيرتب كل شيء . انه رجل «فهيم» . وأنت ، هل مكثت طويلا فى باريس ؟

— حوالى شهرين .

وصمتنا . كان ارلوف يخشى ، على ما يبدو ، أن اعود الى الحديث عن الطفلة فقال لكى يصرف انتباهى الى موضوع آخر :

— انت ، فى الغالب ، لم تعد تذكر رسالتك .

---

* بيت محرف من الكوميديا الشعرية : «وذو العقل يشقى» للشاعر الروسى الكسندر جريبويدوف (١٧٩٥ — ١٨١٩) وأصله : فيا له من قدر يا خالقى بأن اكون والدا لابنة كبيرة . **المعرب** .

أما انا فأحافظ عليها . اننى أفهم مزاجك آنذاك ، وأصارحك بأننى احترم هذه الرسالة . الدم البارد اللعين ، الرجل الأسيوى ، الضحك الذى يشبه صهيل الخيل ـــ هذا لطيف ومعبر ـــ استطرد أرلوف مبتسما بسخرية ـــ والفكرة الاساسية قريبة من الحقيقة على الأرجح ، رغم انه من الممكن المجادلة بلا نهاية ـــ ثم قال متلعثما ـــ أقصد المجادلة ليس فى الفكرة نفسها ، بل فى موقفك من المسألة ، فى حماستك ، اذا جاز التعبير . نعم ، ان حياتى غير طبيعية ، فاسدة ، لا تصلح لشىء ، والجبن يعوقنى عن أن ابدأ الحياة من جديد . . فى هذا انت على حق تماما . أما كونك تنفعل بذلك وتقلق ويبلغ بك الأمر حد اليأس ، فهذا ليس من الحكمة ، وانت هنا لست محقا أبدا .

ـــ الشخص الحى لا يمكنه الا أن ينفعل ويتملكه اليأس عندما يرى نفسه يهلك ، ويهلك من حوله الآخرون .

ـــ وأنت تقول هذا ! اننى لا اعظ ابدا باللامبالاة ، بل اريد فقط نظرة موضوعية الى الحياة . وكلما كانت النظرة اكثر موضوعية قلّت اخطار الوقوع فى الخطأ . ينبغى ان ننظر الى الجذور ، وان نبحث فى كل ظاهرة عن علة كل العلل . لقد ضعفنا ، وانحططنا ، وأخيرا سقطنا ، وجيلنا يتألف كله من اشخاص مضطربى الأعصاب وشكائين ولا نجيد شيئا الا أن نتحدث عن التعب والاعياء ، ولكن المذنب فى ذلك ليس أنت او أنا ، فنحن جد تافهين لكى يتعلق بارادتنا مصير جيل بأكمله . لا بد ان الاسباب هنا ، كما أظن ، اسباب كبيرة ، عامة ، لها من وجهة النظر البيولوجية

raison d'être * الخاص الكبير . نحن مضطربو الأعصاب ، خاملون ، مرتدون ، ولكن ربما كان ذلك ضروريا ومفيدا للأجيال التي ستأتي بعدنا . لا تسقط شعرة واحدة من الرأس بدون مشيئة الاب في السموات . وبعبارة اخرى فلا شيء في الطبيعة او في المحيط الانساني يحدث بلا غاية . كل شيء له اسسه وضرورته . واذا كان الأمر كذلك فما الداعي لأن نقلق هكذا ونكتب رسائل يائسة ؟

فقلت بعد تفكير :

— ليكن كذلك . انني أومن بأن الأمور ستكون أسهل وأوضح للاجيال القادمة . وستكون خبرتنا في متناول ايديهم . ولكنني اريد ان اعيش بغض النظر عن الاجيال القادمة وليس فقط من أجلها . الحياة تعطى لنا مرة واحدة ، واريد ان احياها بقوة ، بوعي ، بجمال . اريد ان العب دورا بارزا ، مستقلا ، نبيلا ، اريد ان اصنع التاريخ ، حتى لا يكون من حق هذه الاجيال القادمة ان تقول عن كل واحد منا : لقد كان تافها ، او شيئا اسوأ من ذلك . . . انا أومن بحكمة وضرورة ما يجري حولنا ، ولكن ما شأني بهذه الضرورة ، ولماذا ينبغي لذاتي أن تضيع ؟

— ما باليد حيلة ! — تنهد أرلوف ونهض كأنما يشير الى ان حديثنا انتهى .

فتناولت قبعتي .

— جلسنا نصف ساعة فقط فانظر كم من القضايا

* مغزاها (بالفرنسية في الأصل) .

حللنا ! — قال أرلوف وهو يودعنى الى المدخل — اذن سوف اهتم بالموضوع . . . اليوم مباشرة سأقابل بيكارسكى . لا يكن لديك شك .

وقف منتظرا حتى افرغ من ارتداء معطفى ، ويبدو انه كان يشعر بالمتعة من اننى سأنصرف حالا .

قلت له :

— جيورجى ايفانيتش ، رد لى رسالتى .

— حاضر .

ذهب الى المكتب وعاد بعد دقيقة بالرسالة . فشكرته وخرجت .

فى اليوم التالى تلقيت منه رسالة . هنأنى بالتوفيق فى حل المسألة . كتب يقول ان لدى بيكارسكى سيدة معرفة ، تدير بنسيونا ، أشبه بروضة أطفال ، تقبل فيه حتى الاطفال الصغار جدا . وهى سيدة يمكن الاعتماد عليها تماما ، ولكن قبل الاتفاق معها لا بأس من التحدث مع كراسنوفسكى ، فالشكليات تتطلب ذلك . ونصحنى بأن اتوجه فورا الى بيكارسكى ، وآخذ معى بالمناسبة شهادة الميلاد اذا كانت موجودة . «تقبل أصدق الاحترام والولاء من خادمكم المطيع . . .»

قرأت هذه الرسالة بينما كانت سونيا جالسة على الطاولة تنظر اليّ بانتباه ، دون ان تطرف عيناها ، وكأنما كانت تعرف ان مصيرها يتقرر .

الراهب الأسود

١

أصيب أندريه فاسيليفتش كوفرين الماجستير فى الفلسفة بالارهاق وانهارت اعصابه . ولكنه لم يتعالج ، بل تحدث ذات مرة ، بصورة عابرة ، مع طبيب من اصدقائه وهما يحتسيان الخمر ، فنصحه هذا بقضاء الربيع والصيف فى الريف . وبالمناسبة فقد تلقى رسالة طويلة من تانيا بيسوتسكايا ، طلبت منه فيها ان يأتى الى ضيافتهم فى بوريسوفكا . فقرر أنه بالفعل بحاجة الى السفر .

فى البداية — وكان ذلك فى ابريل — سافر الى ضيعة عائلتهم كوفرينكا ، حيث أمضى هناك وحيدا ثلاثة أسابيع . ثم انتظر حتى اصبحت الطرق صالحة ، فسافر بالخيول الى وصيه ومربيه السابق بيسوتسكى ، خبير البساتين المعروف فى روسيا كلها . كانت المسافة من كوفرينكا الى بوريسوفكا ، حيث كان يعيش آل بيسوتسكى ، لا تزيد على سبعين فرسخا ، وكان السفر على طريق ربيعى لين ، وفى عربة مريحة بزنبركات متعة حقيقية .

كان منزل بيسوتسكى ضخما ، بأعمدة وأسود تساقط منها الملاط ، وبحاجب يقف فى الفراك بجوار المدخل .

وامتدت حديقة عتيقة ، جهمة وصارمة ، مخططة على الطريقة الانجليزية ، حوالى فرسخ كامل من المنزل حتى النهر ، وانتهت هنا بشاطئ طيني جرفي منحدر بشدة ، نمت فوقه صنوبرات بجذور عارية تشبه المخالب الكثة . وفى الأسفل لمعت المياه بعزلة وخواء ، وحلقت طيور البكاشين بزعيق شاك ، وكان يسود هنا دائما مزاج خاص يغرى بتأليف الأناشيد الملحمية . ولكن بجوار المنزل ، فى فنائه وفى بستان الفواكه الذى كان يشغل مع المشاتل حوالى ثلاثين ديسياتينا * ، كان الجو مرحا ومفعما بالفرحة حتى فى الطقس السيىء . لم ير كوفرين فى اى مكان آخر مثل هذه الورود المدهشة والزنابق والكاميليا ، مثل هذه الاقحوانات العديدة الالوان ، ابتداء من الابيض الناصع وانتهاء بالاسود كالسناج ، وعموما مثل هذه الثروة من الزهور التى كانت لدى بيسوتسكى . كان الربيع قد بدأ لتوه ، وكانت الروعة الحقيقية لاحواض الزهور ما تزال مختبئة بعد فى الدفيئات ، ومع ذلك فقد كان ما يزدهر منها بحذاء الممرات ، وهنا وهناك فى الخمائل كافيا لكى تشعر ، وانت تتجول فى البستان ، بأنك فى ملكوت الالوان الرقيقة ، وخاصة فى ساعات الصباح الباكر ، عندما يلمع الندى على كل ورقة .

أما القسم الديكورى من البستان ، والذى كان بيسوتسكى نفسه يسميه فى احتقار بالتوافه ، فقد ترك فى نفس كوفرين ايام الطفو لة انطباعا خياليا . أية شواذ ومسوخ منتقاة بدقة ، وتشويهات للطبيعة كانت هنا ! كان هنا تكعيبات من اشجار الفواكه ،

* الديسياتينا مقياس روسى قديم لمسطح الارض يعادل ١,٠٩ هكتار . **المعرب** .

وشجرة كمثرى على شكل حور هرمى ، واشجار بلوط وزيزفون على صورة كرات ، ومظلة من شجرة تفاح ، واقواس وزخارف وشمعدانات ، بل وحتى رقم ١٨٦٢ من اشجار البرقوق — الرقم المشير الى السنة التى بدأ فيها بيسوتسكى يزاول فلاحة البساتين . وكنت ترى هنا احيانا شجيرات جميلة باسقة ، بجذوع مستقيمة وقوية كجذوع النخل ، ولكن اذا ما حدقت فيها بامعان تعرفت فى هذه الشجيرات على عنب الثعلب او الزبيب الرومى . اما اكثر ما كان يضفى البهجة والرونق الحى على البستان ، فهو الحركة الدائبة . فمن الصباح الباكر وحتى المساء كان اناس بعربات ومجارف ورشاشات ينقبون كالنمل حول الاشجار والخمائل وفى الممرات والأحواض . . .

وصل كوفرين الى آل بيسوتسكى مساء ، فى حوالى العاشرة . ووجد تانيا واباها يجور سيميونيتش فى قلق بالغ . فقد كانت السماء الصافية النجمية والترمومتر ينبئان بصقيع فى الصباح ، بينما رحل البستانى ايفان كارليتش الى المدينة ، ولم يكن هناك من يعتمد عليه . واثناء العشاء دار الحديث فقط عن صقيع الصباح ، وتقرر الا تذهب تانيا الى الفراش ، وفى الساعة الواحدة تتجول فى البستان لترى هل كل شيء على ما يرام ، أما يجور سيميونيتش فسيستيقظ فى الساعة الثالثة او ربما قبل ذلك .

جلس كوفرين مع تانيا المساء كله ، وبعد منتصف الليل مضى معها الى البستان . كان الجو باردا . وفاحت فى الفناء بشدة رائحة الدخان . ففى بستان الفواكه الكبير الذى كان يدعى بالتجارى وكان يعود على يجور سيميونيتش بدخل صاف يبلغ عدة آلاف روبل سنويا ، انتشر فوق الارض دخان

أسود كثيف خانق وغطى الاشجار لينقذ من الصقيع هـــذه الآلاف . كانت الاشجار موزعة هنا بنظام رقعة الشطرنج ، وكانت صفوفها مستقيمة منتظمة ، كأنها طوابير جنود ، فأضفى هذا الانتظام الصارم الدقيق ، مع كون الاشجار كلها بارتفاع واحد ، واغصان وجذوع متشابهة تماما ، اضفى على الصورة طابع الرتابة ، بل والملل . سار كوفرين وتانيا عبر صفوف الاشجار التى كانت تشتعل بجوارها اكوام من الروث والقش وشتى المخلفات ، وكانا احيانا يقابلان عمالا يحومون فى الدخان كالظلال . لم تكن مزهرة سوى اشجار الكرز والبرقوق وبعض انواع التفاح ، بيد ان البستان كله كان غارقا فى الدخان ، فلم يتنفس كوفرين بملء رئتيه الا بجوار المشاتل .

قال وهو يهز كتفيه :

— منذ الطفولة كنت اعطس هنا من الدخان . ولكنى حتى الآن لا أفهم كيف يستطيع الدخان ان يحمى من الصقيع .

فأجابت تانيا :

— الدخان يحل محل السحب عندما لا تكـــــون موجودة . . .

— وما الحاجة الى السحب ؟

— فى الجو الملبد بالسحب لا يحل الصقيع صباحا .

— هكذا !

وضحك وأمسك يدها . كان وجهها العريض ، الجاد للغاية والمقرور وذو الحاجبين الأسودين الدقيقين ، وياقة معطفها المرفوعة التى كانت تعوق رأسها عن التحرك بحرية ، وهى كلها ، النحيلة الممشوقة ، فى فستانها المرفوع قليلا حتى لا يبلله الندى ، تثير فيه الدهشة والتأثر .

وقال :

— يا الهى ، لقد أصبحت كبيرة ! عندما سافرت من هنا آخر مرة ، منذ حوالى خمس سنوات ، كنت بعد طفلة تماما . كنت نحيلة جدا ، طويلة الساقين ، حاسرة الرأس ، ترتدين فستانا قصيرا ، وكنت أغيظك بـ«الكركى» . . . ماذا يفعل الزمن !

فتنهدت تانيا :

— نعم ، خمس سنوات ! كم مر منذ ذلك الحين . قل لى يا أندريوشا بصدق — قالت بحيوية وهى تحدق فى وجهه — هل نسيتنا ؟ وعموما فما لى اسأل ؟ انت رجل ، تحيا الآن حياتك الخاصة ، الشيقة ، أنت شخص بارز . . . والاغتراب طبيعى تماما ! ولكن مهما كان يا أندريوشا ، فاننى أود ان تعتبرنا أهلك . ولنا الحق فى ذلك .

— انا اعتبركم يا تانيا .

— اتقول الحق ؟

— نعم ، اقول الحق .

— ادهشك اليوم ان لدينا هذه الكثرة من صورك . ولكنك تعرف ان أبى معجب بك . واحيانا يخيل اليّ انه يحبك اكثر منى . انه فخور بك . فأنت عالم ، رجل فذ ، وقد شققت لنفسك مستقبلا باهرا ، وهو واثق من أنك أصبحت كذلك لأنه هو الذى ربّاك . وأنا لا أصرفه عن هذا الاعتقاد . ليكن .

حل الفجر . وكان هذا ملحوظا بصفة خاصة من ذلك الوضوح الذى اخذت تبرز به فى الهواء اعمدة الدخان واغصان الاشجار . وصدحت البلابل ، وتناهى من الحقول صياح السمان .

وقالت تانيا :

ــ ولكن حان الوقت لننام . ثم ان الجو بارد ــ وتأبطت ذراعه ــ شكرا يا أندريوشا على مجيئك . معارفنا هنا ليسوا ممتعين ، وحتى هؤلاء قليلون . ليس لدينا سوى البستان ، البستان ، البستان ، ولا شيء غيره ــ وقالت ضاحكة ــ شتامب ، نصف شتامب ، أوبورتو ، رينيت ، بوروفينكا * ، التلقيح ، التطعيم ... حياتنا كلها ابتلعها البستان ، حتى اننى لا أحلم ابدا بشيء سوى باشجار التفاح والكمثرى . بالطبع هذا حسن ، مفيد ، ولكنى احيانا أتوق ايضا الى شيء أخر من اجل التنويع . اذكر عندما كنت تأتى الينا فى الاجازات او هكذا بلا مناسبة ، كان جو المنزل يصبح اكثر انتعاشا واشراقا ، كما لو كانت الأغطية قد نزعت عن النجف والاثاث . كنت أنا طفلة آنذاك ، ومع ذلك كنت أفهم .

تحدثت طويلا بعاطفة قوية . ولسبب ما دار بذهنه انه من الجائز خلال الصيف ان يتعلق بهذا المخلوق الصغير الضعيف الكثير الكلام ، ويغرم به ويحبه . . ففى مثل وضعهما كان هذا شيئا محتملا جدا وطبيعيا ! وفتنته هذه الفكرة واضحكته ، فمال الى الوجه الرقيق المهموم وغنى بصوت خافت :

أنيجين ، لن أخفى حتى
قد هام بتاتيانا قلبى . . . **

---

* شتامب : اسم جذع الشجرة من الجذر الى الفروع . أوبورتو ، رينيت ، بوروفينكا : اسماء انواع من التفاح . **المعرب** .

** من اوبرا تشايكوفسكى «يفجينى أنيجين» المأخوذة عن رواية بوشكين الشعرية . وتانيا هو اسم التدليل من الاسم الكامل تاتيانا .

حينما عادا الى المنزل كان يجور سيميو نيتش قـــد استيقظ . ولم يشعر كوفرين برغبة فى النوم فاندمج فى الحديث مع العجوز ، وعاد معه الى البستان . كان يجـــــور سيمونيتش طويل القامة ، عريض المنكبين ، بكرش كبير ، وكان يعانى من اللهاث ، ولكنه كان يسير دائما بسرعة الى درجة يصعب معها اللحاق به . وكان مظهره ينم عن القلق البالغ ، يسرع دائما الى مكان ما وعلى وجهه تعبير ، كأنما لو تأخر دقيقة واحدة لضاع كل شىء !

— يا لها من حكاية يا أخى . . . — شرع يتحدث متوقفا بين الحين والحين ليلتقط انفاسه — على سطـــــح الارض صقيع كما ترى ، ولو رفعت الترمومتر على عصا لمسافة ذراعين فوق الارض فستجد الجو دافئا . . . فلماذا هكذا ؟

فقال كوفرين ضاحكا :

— لا أدرى حقا .

— ام . . . طبعا لا يمكن معرفة كل شـــىء . . . مهما كان العقل واسعا فلن يتسع لكل شىء . انت مهتم اكثر بالفلسفة ، أليس كذلك ؟

— نعم ، اقرأ محاضرات فى علم النفس ، ولكنى اشتغل عموما بالفلسفة .

— ألا تمل ؟

— بالعكس ، لا أحيا الا على ذلك .

— وفقك الله . . . — قال يجور سيميونيتش وهو يمسد سالفيه الاشيبين متفكرا — وفقك الله . . . انا مسرور جدا من أجلك . . . مسرور يا أخى . . .

ولكنه أصاخ السمع فجأة ، وأصبح وجهه رهيبا ، وركض

جانبا ، وسرعان ما غاب وراء الاشجار فى سحب الدخان .

— من هذا الذى ربط الحصان الى شجرة التفاح ؟ — تناهت صرخته اليائسة الملتاعة — من هذا الوغد المحتال الذى تجاسر على ربط الحصان الى شجرة التفاح ؟ يا الهى يا الهى ! افسدوا البستان ، دنسوه ، لوثوه ! ضاع البستان ! هلك البستان ! يا الهى !

وعندما عاد الى كوفرين كان وجهه منهكا ، مهانا . وقال بصوت باك وهو يشيح بيديه :

— ماذا افعل لهؤلاء الملاعين ؟ ستيوبكا نقل الروث ليلا وربط الحصان الى شجرة التفاح ! لف عليها الوغد اللجام بشدة ، حتى ان اللحاء جرح فى ثلاثة مواضع . هل رأيت ! أقول له وهو لا يفقه شيئا بل يطرف بعينيه ! قليل عليه الشنق !

واذ هدأت ثورته عانق كوفرين وقبله فى خده . ودمدم :

— حسنا ، وفقك الله . . . وفقك الله . . . انا سعيد جدا بمجيئك . سعيد سعادة لا توصف . . . شكرا لك .

وبعد ذلك ، وبنفس المشية السريعة والوجه المهموم ، طاف بالبستان كله ، وفرّج ربيبه السابق على المشاتل والدفيئات وحظائر التربة ومنحليه اللذين كان يسميهما اعجوبة هذا القرن .

واثناء طوافهما اشرقت الشمس واضاءت البستان بنور ساطع وانتشر الدفء . واذ توقع كوفرين يوما طويلا صافيا مرحا ، تذكر ان ذلك ليس الا بداية مايو ، وان الصيف كله ما زال فى الامام ، صيف طويل صاف مرح مثل هذا اليوم ، وفجأة تحرك فى قلبه احساس فرح فتى كذلك الذى كان يراوده فى الطفولة عندما كان يركض فى هذا البستان . واذا به يعانق

العجوز ويقبله برقة . ومضيا كلاهما الى البيت منفعلين ، وشرعا يشربان الشاى من اقداح خزفية عريقة مع الكريم والكعك الدسم المشبع . وذكّرت هذه التفاصيل كوفرين بطفولته وصباه مرة أخرى . واتحد الحاضر الرائع بصور الماضى التى استيقظت فيه ، فضاقت بهما روحه ، ولكنه احس بالراحة .

وانتظر حتى استيقظت تانيا ، فشرب معها القهوة ، وتنزه ، ثم ذهب الى غرفته وجلس يعمل . كان يقرأ بامعان ، ويسجل ملاحظات ، واحيانا يرفع بصره لينظر الى النوافذ المفتوحة او الى الزهور النضرة التى لا تزال مبللة بالندى والموضوعة فى أصيص على الطاولة ، ثم يعود ببصره الى الكتاب ، وبدا له ان كل عرق فى بدنه ينتفض ويرقص من المتعة .

٢

ظل فى الريف يواصل نفس الحياة القلقة المضطربة التى كان يحياها فى المدينة . كان يقرأ ويكتب كثيرا ، ويتعلم اللغة الايطالية ، وعندما يتنزه كان يفكر بلذة فى انه سيعود ليواصل العمل قريبا . وكان ينام قليلا جدا لدرجة اثارت دهشة الجميع . فاذا نعس فى النهار صدفة لنصف ساعة فلا ينام الليل ، وبعد ليلة من السهاد يشعر بالحيوية والمرح وكأن شيئا لم يكن .

كان يتحدث كثيرا ، ويحتسى النبيذ ويدخن السيجار الفاخر . وكانت آنسات من جارات تانيا يزرن آل بيسوتسكى كثيرا ، كل يوم تقريبا ، ويعزفن مع تانيا على البيانو ويغنين . واحيانا كان يأتى شاب جارهم ، يعزف جيدا على الكمان .

وكان كوفرين يستمع الى العزف والغناء بنهم ويرهق منهما ، وكان الاحساس الاخير يتجلى بدنيا فى انطباق جفنيه وميل رأسه جانبا .

وذات مرة جلس بعد شاى المساء فى الشرفة يقرأ . وفى تلك الاثناء كانت تانيا فى غرفة الجلوس تغنى سوبرانو ، واحدى الآنسات تغنى كونترالتو والشاب يعزف على الكمان ، وهم يتدربون على سيرنادا براج المعروفة . وأصغى كوفرين الى الكلمات — وكانت بالروسية — ولم يستطع ابدا ان يفهم معناها . وأخيرا ترك الكتاب وأصاخ بامعان ففهم : سمعت فتاة مصابة بالوهم فى الحديقة ليلا اصواتا غامضة ، رائعة وغريبة الى درجة كان ينبغي معها أن تعتبرها هارمونى مقدسا ، ليس مفهوما لنا نحن الفانين ، ولهذا يعود أدراجه طائرا الى السماء . وأخذ جفنا كوفرين ينطبقان . فنهض وتمشى فى غرفة الجلوس مرهقا ، ثم فى الصالة . وعندما توقف الغناء تأبط ذراع تانيا وخرج معها الى الشرفة . وقال :

— منذ الصباح تشغل بالى احدى الأساطير . لا اذكر هل قرأتها فى كتاب ما أم سمعتها ، ولكنها اسطورة غريبة ، لا مثيل لها . فهى قبل كل شيء لا تتميز بالوضوح . فقبل ألف عام سار راهب ما ، يرتدى السواد ، فى الصحراء ، فى مكان ما فى سوريا او الجزيرة العربية . . . وعلى بعد عدة أميال من المكان الذى كان يسير فيه رأى الصيادون راهبا آخر كان يمشى ببطء على سطح البحيرة . وكان هذا الراهب الثانى سرابا . والآن انسي كل قوانين البصريات ، التى يبدو ان الاسطورة لا تعترف بها ، واسمعي التالى . من ذلك السراب تكون سراب آخر ، ومن الآخر تكون ثالث ، حتى أن صورة

الراهب الأسود أصبحت تتنقل بلا نهاية من احدى طبقات الجو الى الاخرى . وشوهد تارة فى افريقيا ، وتارة فى اسبانيا ، وتارة فى الهند ، وتارة فى أقصى الشمال . . . وأخيرا تجاوز نطاق الغلاف الجوى الأرضى وأصبح الآن يضرب فى الكون دون أن يصادف محيطا تنطفىء صورته فيه . وربما يرونه الآن فى مكان ما على المريخ ، او فى احدى نجوم الصليب الجنوبى . ولكن أهم ما فى الأمر يا عزيزتى ، الشىء المحورى فى الاسطورة ، هو انه بعد ألف عام بالضبط من ذلك الزمن الذى كان الراهب فيه يقطع الصحراء ، سيعود السراب ثانية الى الغلاف الجوى الارضى ويظهر للناس . وكما لو كانت هذه الألف عام على وشك الانقضاء . . . وحسب مغـزى الاسطورة فعلينا ان نتوقع ظهور الراهب الأسود بين يـــوم وليلة .

— سراب غريب . . . — قالت تانيا التى لم تعجبها الاسطورة .

فضحك كوفرين قائلا :

— ولكن اغرب ما فى الأمر اننى لا استطيع ابدا أن اتذكر من أين وردت هذه الاسطورة الى رأسى . هل قرأتها ؟ هل سمعتها ؟ أما ربما رأيت الراهب الاسود فى المنام ؟ اقسم اننى لا اذكر . ولكن الاسطورة تشغل بالى . اننى افكر فيها اليوم طوال النهار .

وترك تانيا تنصرف الى ضيوفها وخرج من المنزل وتجول متفكرا بجوار احواض الزهور . كانت الشمس تغرب ولأن الزهور قد رشت لتوها بالماء فقد تضوعت برائحة رطبة مثيرة للأعصاب . وتردد الغناء فى المنزل من جديد ، وبدا صوت الكمان من

بعيد اشبه بصوت بشرى . وأجهد كوفرين فكره ليتـــــذكر أين قرأ او سمع الاسطورة ، ومضى على مهل الى الحديقة فبلغ النهر دون أن يلحظ .

وهبط الى النهر على الدرب الممتد على الشاطئ الشديد الانحدار بجوار الجذور العارية ، فأزعج البكاشين وأفزع بطتين . وعلى ذؤابات الصنوبرات الجهمة كانت آخر اشعة الشمس الغاربة تنعكس هنا وهناك ، ولكن المساء كان قد حل تماما على سطح النهر . وعبر كوفرين الى الضفة الأخرى فوق قنطرة . اصبح امامه الآن حقل واسع مغطى بجودار فتى لم يزدهر بعد . ولم يكن هناك مسكن بشرى او روح حية على مدى البصر ، وبدا ان الدرب ، لو سرت عليه ، لأفضى بك الى ذلك المكان الغامض المجهول الذى هبطت فيه الشمس لتوها ، والذى يتوهج فيه المغيب بهذا الاتساع والعظمة .

وفكر كوفرين وهو يسير على الدرب : «يا للرحابة والحرية والهدوء هنا ! يبدو ان الدنيا كلها تنظر الىّ ، وقد كتمت انفاسها فى انتظار أن افهمها . . .» .

وها هو الجودار يتموج ، ومس نسيم المساء الخفيف رأس كوفرين الحاسر برقة . وبعد دقيقة هبت دفقة ريح ثانية ، ولكنها أقوى ، فصخب الجودار ، وتناهى من الخلف هزيم الصنوبرات المكتوم . وتوقف كوفرين مأخوذا . فعند الافق تصاعد من الارض حتى السماء عمود أسود طويل ، يشبه الزوبعة او الدوامة الهوائية . ولم تكن حدوده واضحة ، ولكن كان من الممكن منذ الوهلة الاولى ادراك انه لم يكن ثابتا فى مكانه ، بل يتحرك بسرعة رهيبة ، يتحرك الى هنا بالذات ، نحو كوفرين مباشرة ، وكلما اقترب أصبح أصغر وأوضح . وارتمى كوفرين

جانبا فى الجودار ليفسح له الطريق ، وبالكاد تمكن من ذلك . . .

مرق بجواره ، راهب فى حلة سوداء ، برأس أشيب وحاجبين أسودين ، وقد عقد ذراعيه على صدره . . . ولم تكن قدماه الحافيتان تمسان الارض . وبعد أن مرق الى مسافة ثلاث اذرع التفت الى كوفرين ، واومأ برأسه وابتسم له ابتسامة رقيقة ولكنها فى الوقت نفسه ماكرة . ولكن كم كان وجهه شاحبا ، شاحبا الى درجة فظيعة ، ونحيلا ! وأخذ يكبر مرة أخرى فعبر النهر طائرا ، وارتطم دون صوت بالشاطئ الطينى والصنوبرات ، ونفذ من خلالها ، ثم اختفى كالدخان .

ودمدم كوفرين :

— أرأيتم اذن . . . وهكذا فالأسطورة صادقة .

لم يحاول أن يشرح لنفسه هذه الظاهرة الغريبة ، وأرضاه فحسب انه استطاع أن يرى بهذا القرب والوضوح لا حلة الراهب السوداء ، بل ووجهه وعينيه ، فعاد الى المنزل وهو يشعر بانفعال لطيف .

فى الحديقة وفى البستان كان الناس يغدون ويروحون فى هدوء ، وفى المنزل كانوا يعزفون ، واذن فهو وحده الذى رأى الراهب . وتملكته رغبة شديدة فى أن يخبر بذلك تانيا ويجور سيميونيتش ، ولكنه أدرك انهما ، فى الغالب ، سيعتبران روايته هذيانا ، وسيفزعهما ذلك ؛ فمن الأفضل اذن أن يصمت . واخذ يضحك بصوت عال ، ويغنى ، ويرقص المازوركا ، وكان يشعر بالمرح ، فاعتبر الجميع ، الضيوف وتانيا ، ان وجهه يبدو اليوم بصورة خاصة ، نورانيا ، ملهما ، وأنه شخص طريف للغاية .

٣

بعد العشاء ، عندما انصرف الضيوف ، ذهب الى غرفته وتمدد على الكنبة ، فقد كان يريد ان يفكر فى الراهب . ولكن سرعان ما دخلت تانيا .

— خذ يا أندريوشا ، اقرأ مقالات أبى — قالت وهى تقدم له رزمة من الكراريس والملازم المطبعية — مقالات ممتازة . انه يكتب بصورة رائعة .

— دعيك من المبالغة ! — قال يجور سيمونيتش الذى دخل فى اثرها وهو يضحك بتصنع ، فقد كان خجلا — لا تصغ اليها من فضلك ، لا تقرأ ! وعموما اذا أردت ان تنعس فلتقرأها اذن ، وسيلة منومة رائعة .

فقالت تانيا بيقين راسخ :

— فى رأيى انها مقالات عظيمة . اقرأها يا أندريوشا ، واقنع بابا بأن يكتب أكثر . بامكانه ان يكتب دورة محاضرات كاملة فى فلاحة البساتين .

قهقه يجور سيميونيتش بتوتر ، وتضرج وجهه ، واخذ يقول عبارات من تلك التى يقولها المؤلفون المحرجون عادة . وأخيرا بدأ يستسلم .

— فى هذه الحالة اقرأ أولا مقالة جوشيه ثم هـــذه المقالات الروسية — دمدم وهو يقلب الكراريس بأصابع مرتعشة — والا فلن تكون المسائل مفهومة لك . فقبل ان تقرأ اعتراضاتى ينبغى ان تعرف علام اعترض . وعموما ، كلام فارغ . . . فى غاية الملل . ثم ان موعد النوم قد حان ، كما أظن .

خرجت تانيا . وجلس يجور سيميونيتش الى جانب كوفرين على الكنبة وزفر بعمق .

— نعم يا أخى . . . — شرع يقول بعد فترة صمت — هكذا يا عزيزى الماجستير . ها أنذا اكتب مقالات ، واشارك فى المعارض ، وأحصل على ميداليات . . . ويقولون ان التفاحة عند بيسوتسكى بحجم الرأس ، ويقولون ان بيسوتسكى كوّن لنفسه ثروة من البستان . وباختصار ، كوتشوبى غنى وشهير * . ولكن السؤال هو : وما جدوى ذلك ؟ صحيح ان البستان رائع ، نموذجى . . . ليس بستانا ، بل مؤسسة كاملة ذات اهمية كبرى على مستوى الدولة ، لأنه ، اذا جاز التعبير ، خطوة الى العصر الجديد للاقتصاد الروسى والصناعة الروسية . ولكن ما جدواه ؟ ما الهدف ؟

— عملكم يشهد لنفسه بنفسه .

— لا أقصد هذا المعنى . اننى اريد أن اسأل : ما الذى سيحدث للبستان عندما أموت ؟ لن يبقى بعد وفاتى شهرا واحدا بهذه الصورة التى تراه عليها . ان سر النجاح ليس فى كون البستان كبيرا والعمال كثيرين ، بل فى أننى أحب هذا العمل ، اتفهم ؟ أحبه ربما اكثر من نفسى . انظر اليّ ، اننى اصنع كل شيء بنفسى . اننى اعمل من الصباح الى المساء . التطعيم كله اجريه بنفسى ، والتقليم بنفسى ، والشتل بنفسى ، كل شيء بنفسى . وعندما يساعدنى أحد اشعر بالغيرة واستثار الى حد الخشونة . السر كله فى الحب ، أى فى العين المدبرة اليقظة ، وفى الأيدى المدبرة ، وايضا فى ذلك الاحساس الذى يراودك عندما تذهب ضيفا الى أحد

---

* البيت الأول من قصيدة بوشكين «بولتافا» ، وكوتشوبى احدى شخصيات هذه القصيدة . **المعرب** .

ما لمدة ساعة فتشعر وانت هناك بأن قلبك فى غير مكانه ، وانت نفسك على غير طبيعتك اذ تخشى ان يحدث شىء للبستان . فمن ذا الذى سيعتنى به بعد ان اموت ؟ من ذا الذى سيعمل ؟ البستانى ؟ العمال ؟ نعم ؟ اذن فلتسمع ما اقوله لك يا صديقى العزيز : ان العدو الأول لعملنا ليس الأرنب او الخنفساء او الصقيع ، بل الشخص الغريب .

فسأله كوفرين ضاحكا :

— وتانيا ؟ لا يمكن ان تكون اكثر ضررا من الارانب . انها تحب هذا العمل وتفهمه .

— نعم ، انها تحبه وتفهمه . لو ان البستان آل اليها بعد وفاتى وأصبحت صاحبته ، فليس هناك بالطبع ما هو أفضل من ذلك . ولكن ماذا ، لا قدر الله ، لو تزوجت ؟ — همس يجور سيميونيتش ، ونظر الى كوفرين بفزع — تلك هى المسألة ! ستتزوج ، وتنجب اطفالا ، وعندها لا يصبح لديها وقت للتفكير فى البستان . ان اكثر ما أخشاه ان تتزوج من شاب ما ، ويتملك الجشع هذا الشاب فيؤجر البستان للبائعات ، فيذهب كل شىء الى الشيطان فى أول سنة ! النساء فى عملنا هذا لعنة مسلطة !

تنهد يجور سيميونيتش وصمت قليلا . ثم قال :

— ربما كانت هذه أنانية ، ولكنى اقول لك بصراحة : انا لا أريد لتانيا ان تتزوج . أخاف ! يوجد هنا غندور يزورنا بكمان ويطنطن عليه . وأعرف ان تانيا لن تتزوجه ، اعرف جيدا ، ومع ذلك لا أطيق رؤيته ! وعموما يا أخى فأنا فعلا غريب الأطوار . اعترف بذلك .

نهض يجور سيميونيتش ، وذرع الغرفة منفعلا ، وكان

واضحا أنه يريد ان يقول شيئا هاما للغاية ولكنه لا يجرؤ .

— انني احبك بحرارة وسوف اكون صريحا معك — قرر اخيرا ان يقول ، وقد دس يديه عميقا في جيبيه — أنا انظر الى بعض الأمور الحساسة ببساطة ، وأقول مباشرة ما افكر فيه ، ولا اطيق ما يسمى بالافكار المكنونة . اقول لك بصراحة : أنت الشخص الوحيد الذى لا أخشى أن ازوجه ابنتي . أنت رجل ذكي ، ذو قلب ، ولن تسمح لعملي المحبوب أن يهلك . أما السبب الرئيسي فهو انني احبك كابني . . . وافخر بك . ولو نشأت بينك وبين تانيا علاقة فليكن . سأكون مسرورا جدا ، بل وسعيدا . اقول لك هذا بصدق ، دون تكلف ، كرجل شريف .

ضحك كوفرين . وفتح يجور سيميونيتش الباب ليخرج ، ثم توقف على العتبة .

— لو ولد لك ولد من تانيا لجعلت منه خبير بساتين — قال بعد تفكير — وعموما فما هذه الا احلام فارغة . . . طابت ليلتك .

عندما أصبح كوفرين وحده تمدد في وضع مريح وتناول المقالات . كان عنوان احداها : «حول المحصول الانتقالي» ، وعنوان الاخرى : «تعليق قصير على مقال السيد (س) حول تقليب التربة لاقامة بستان جديد» ، وكان عنوان الثالثة : «مرة اخرى عن التطعيم بالأكمام النائمة» ، وهكذا دواليك . ولكن أية نبرة منفعلة ، عصبية ، اى حماس يكاد يكون مرضيا ! ها هي مقالة بعنوان يبدو مسالما للغاية وبمحتوى محايد ، وهي تتحدث عن تفاح انطونوفكا الروسي . ولكن

يجور سيميونيتش يبـــــدأهـــا« audiatur altera pars » * وينهيها بـ« sapienti sat » ** وبين هاتين العبارتين شلال دافق من الكلمات اللاذعة الموجهة الى «الجهل العلمى للسادة خبرائنا المعترف بهم فى فلاحة البساتين الذين يراقبون الطبيعة من منابرهم الجامعية» ، او الى السيد جوشيه «الذى احرز نجاحه بفضل الجهلة والهواة» ، ثم أسف غير مناسب ، وغير صادق ، على أنه لم يعد من الممكن جلد الفلاحين الذين يسرقون الفواكه ويحطمون الاشجار اثناء ذلك .

وفكر كوفرين : «قضية جميلة ، لطيفة ، وسليمة ، ولكن حتى هنا تلتهب الغيرة وتشتعل الحرب . لا بد أن الاشخاص العقائديين هم فى كل مكان ومجال عصبيون ويتميزون بحساسية عالية . ربما كان ذلك مطلوبا» .

وتذكر تانيا التى تعجبها جدا مقالات يجور سيميونيتش . قصيرة القامة ، شاحبة ، نحيلة الى درجة بروز عظام الترقوة . عيناها مفتوحتان باتساع ، داكنتان ، ذكيتان ، تحدقان دائما بامعان وتبحثان دائما عن شيء ما . ومشيتها ، كمشية ابيها ، دقيقة ، متعجلة . وهى تتحدث كثيرا ، وتهوى الجدل ، وخلال ذلك تصاحب كل عبارة ، حتى التافهة بحركات الوجه واليدين . يبدو انها عصبية الى أقصى حد .

وواصل كوفرين القراءة ، ولكنه لم يفهم شيئا فتركها . وذلك الانفعال اللطيف ، الذى رقص به المازوركا واستمع الى

---

* «فليسمعوا الطرف الآخر» (باللاتينية فى الأصل) .
** «الذكى يكفيه» (باللاتينية فى الأصل) .

الموسيقى منذ قليل ، اصبح الآن يعذبه ويثير فيه افكارا كثيرة . فنهض ، واخذ يذرع الغرفة ، وهو يفكر فى الراهب الأسود . وخطر بذهنه انه اذا كان هو وحده الذى رأى هذا الراهب الغريب ، الخارق ، فهذا يعنى انه مريض وبلغ به الأمر حد التهيؤات . وأخافه هذا الخاطر ، ولكن لوقت قصير .

«ولكنى اشعر بالراحة ، ولا أسبب اذى لأحد ، واذن فليس فى تهيؤاتى اى شيء سيىء» — فكر كوفرين ، ومن جديد أحس بالراحة .

وجلس على الكنبة ووضع رأسه بين يديه وهو يكتم فرحة غير مفهومة ملأت كل كيانه ، ثم راح وجاء مرة اخرى ، وجلس الى المكتب ليعمل . ولكن الافكار التى قرأها فى الكتاب لم ترضه . كان يرغب فى شيء عملاق ، لا حدود له ، مذهل . وقبيل الصباح نزع ملابسه وأوى مكرها الى الفراش ، فمن المفروض فى النهاية ان ينام !

وعندما سمع كوفرين وقع خطوات يجور سيميونيتش الذى خرج الى البستان ، دق الجرس وأمر الخادم ان يحضر له نبيذا . وشرب عدة كؤوس من نبيذ «لافيت» بلذة ، ثم تغطى حتى رأسه . وغام وعيه ، ثم نعس .

٤

كان يجور سيميونيتش وتانيا كثيرا ما يتشاجران فيكيل كل منهما للآخر كلمات مسيئة .

وفى هذا الصباح تشاجرا بسبب شيء ما . وبكت تانيا وانصرفت الى غرفتها . ولم تخرج للغداء ولا لتناول الشاى .

وفى البداية سار يجور سيميونيتش متخذا سيماء الأهمية ، عابسا ، كما لو كان يريد أن يظهر أن مصالح العدالة والنظام بالنسبة له أسمى من اى شيء فى الدنيا ، ولكنه لم يستطع أن يصمد طويلا وسرعان ما انهارت معنوياته . واخذ يتجول فى الحديقة حزينا ويتنهد : «آه ، يا الهى ، يا الهى !» ، ولم يذق فى الغداء لقمة واحدة . وأخيرا مضى مذنبا ، معذب الضمير الى الباب الموصد فطرقه ونادى بوجل :

— تانيا ! تانيا !

فسمع من خلف الباب صوتا ضعيفا ، ارهقته الدموع ولكنه فى الوقت نفسه حازم :

— دعنى أرجوك .

وانعكست كآبة السادة على البيت كله ، وحتى على العاملين فى البستان . وكان كوفرين منهمكا فى عمله الشيق ، ولكن حتى هو ، أحس فى النهاية بالملل والحرج . ولكى يبدد المزاج العام السيئ بشكل ما ، قرر أن يتدخل ، فدق باب غرفة تانيا قبيل المساء . وسمحت له بالدخول .

— عيب ، عيب ، الا تخجلين ؟ — بدأ يقول مازحا وهو ينظر بدهشة الى وجه تانيا الباكى ، الحزين ، المغطى ببقع حمراء — الأمر جد هكذا ؟ عيب عليك .

— آه لو تعلم كيف يعذبنى ! — قالت تانيا وانهمرت دموع مريرة غزيرة من عينيها الواسعتين — لقد عذبنى تماما ! — استطردت وهى تلوى ذراعيها — انا لم اقل له شيئا . . . أبدا . . . قلت فقط انه لا داعى للاحتفاظ . . . بعمال زائدين ، طالما . . . طالما من الممكن فى اى وقت استئجار عمال مياومين . . العمال . . العمال لا يفعلون شيئا طوال

أسبوع . . . أنا . . . هذا فقط ما قلته ، فصرخ فيّ ، وانهال عليّ بكلمات مسيئة ، مهينة جدا ، لماذا ؟

فقال كوفرين وهو يسوى شعرها :

— كفى ، كفى . تشاجرتما وبكيت فيكفى . لا يصح الزعل طويلا ، هذا ليس حسنا . . وخاصة انه يحبك بلا حدود .

فمضت تانيا تقول وهى تشهق :

— انه . . . انه فسد حياتى . لا اسمع منه سوى الاساءات . . . و . . . والاهانات . انه يعتبرنى زائدة فى بيته . حسنا ، انه على حق . سأرحل من هنا غدا ، والتحق بمكتب تليغراف . . . ليكن . . .

— طيب ، طيب ، طيب . . . لا داعى للبكاء يا تانيا . لا داعى يا عزيزتى . . . كلاكما سريع الغضب ، عصبى ، وكلاكما مخطىء . هيا ، هيا أصالحكما .

كان كوفرين يتكلم بلطف واقناع ، بينما واصلت تانيا البكاء وكتفاها تنتفضان ، وراحت تعصر يديها وكأنما حلت بها حقا فاجعة رهيبة . ومما زاد من اشفاقه عليها أن مصابها كان بسيطا بينما كانت تعانى منه بشدة . أية اشياء تافهة كانت كافية لجعل هذا المخلوق تعيسا طول النهار ، بل وربما طول العمر ! وبينما كان كوفرين يهدئ تانيا ، راح يفكر فى انه لن يجد فى الدنيا كلها ، ولو اعياه البحث ، غير هذه الفتاة وأبيها أحدا يحبه كواحد منهم ، كشخص عزيز قريب . ولولا هذين الشخصين لما عرف فى الغالب حتى الممات ، هو الذى فقد أباه وأمه فى طفولته المبكرة ، معنى المودة الصادقة ، وذلك الحب الساذج المسلّم الذى نكنه فقط للاشخاص

القريبين للغاية الذين تربطنا بهم أواصر الدم . وأحس ان اعصابه شبه المريضة ، المستثارة تستجيب لأعصاب هذه الفتاة الباكية المنتفضة ، كالحديد الى المغنطيس . وما عاد فى وسعه ابدا ان يحب امرأة صحيحة ، قوية ، حمراء الخدين ، ولكن تانيا الشاحبة الضعيفة ، التعيسة ، اعجبته .

فراح يمسد شعرها وكتفيها بسرور ، ويضغط على راحتيها ، ويمسح دموعها . . . واخيرا كفت عن البكاء . وظلت طويلا تشكو من ابيها وحياتها الشاقة التى لا تحتمل فى هذا البيت وتتوسل الى كوفرين أن يتفهم وضعها . ثم اخذت شيئا فشيئا تبتسم وتتنهد اذ بلاها الله بهذا الطبع السيىء ، ولكنها فى النهاية ضحكت بصوت عال ، ووصفت نفسها بالحمقاء وانفلتت راكضة من الغرفة .

وعندما خرج كوفرين الى البستان بعد ذلك بقليل ، كان يجور سيميونيتش وتانيا يتنزهان معا فى الممر ، كأن شيئا لم يكن ، وكانا كلاهما يأكلان خبز الجودار بالملح ، فقد كانا جائعين .

٥

ذهب كوفرين الى الحديقة مسرورا من انه وفق فى أن يلعب دور المصلح . وبينما كان جالسا على الأريكة يفكر سمع وقع عربات وضحكا نسائيا . . لقد وصل الضيوف . وعندما ارتمت ظلال المساء على البستان ، ترددت بوهن انغام كمان وأصوات تغنى ، فذكره ذلك بالراهب الأسود . ترى أين يهوم الآن هذا اللامعقول البصرى ، فى أى بلد او فى اى كوكب ؟

وما أن تذكر الاسطورة ورسم فى خياله ذلك الشبح الأسود الذى رآه فى حقل الجودار حتى خرج من وراء الصنوبرة ، قبالته تماما بدون صوت ، دون أدنى حفيف ، رجل متوسط القامة ، برأس اشيب حاسر ، متشحا بالسواد ، حافى القدمين ، اشبه بالشحاذ ، وفى وجهه الشاحب كوجه ميت ، برز بحدة حاجباه الأسودان . اقترب هذا الشحاذ او الجو آل من الاريكة دون صوت فجلس ، وهو يومئ برأسه محييا ، فعرف فيه كوفرين الراهب الأسود . ومضت دقيقة وهما يتبادلان النظر . . كوفرين بذهول ، والراهب برقة ، وكما فى المرة السابقة ، بشيء من المكر ، وبتعبير من يعرف شيئا ويخفيه .

وقال كوفرين :

— ولكنك سراب . فلماذا أنت هنا ولماذا انت جالس لا تتحرك ؟ ان هذا لا يتفق والأسطورة .

فأجابه الراهب بعد فترة ، بصوت خافت ، ملتفتا بوجهه نحوه :

— هذا سيان . الاسطورة والسراب وأنا . . كل ذلك من وحى خيالك المستثار . أنا شبح .

فسأله كوفرين :

— اذن فلست موجودا ؟

— فكر كما تشاء — اجاب الراهب وابتسم بوهن — أنا موجود فى خيالك ، وخيالك جزء من الطبيعة ، واذن فأنا موجود فى الطبيعة .

فقال كوفرين :

— وجهك عجوز وذكى جدا ، ومعبر الى أقصى حد ، كأنك عشت بالفعل اكثر من ألف عام . لم اكن اعرف ان

خيالى قادر على خلق هذه الخوارق . ولكن لماذا تنظر اليّ بهذا الاعجاب ؟ هل أروق لك ؟

— نعم . أنت واحد من اولئك القلائل الذين يدعون بابناء الله المختارين . انت تخدم الحقيقة الخالدة . وافكارك ، ونواياك ، وعلمك المدهش ، وحياتك كلها تحمل بصمات الهية ، سماوية ، لأنها مكرسة لما هو حكيم وجميل ، أى لما هو خالد .

— تقول : الحقيقة الخالدة . . . ولكن هل يستطيع الناس بلوغ الحقيقة الخالدة ، وهل هم بحاجة اليها اذا لم تكن هناك حياة خالدة ؟

فقال الراهب :

— بل هناك حياة خالدة .

— اتؤمن بخلود البشر ؟

— نعم ، طبعا . ان مستقبلا عظيما باهرا ينتظركم ، انتم البشر . وكلما كثر امثالك على الارض ، تحقق هذا المستقبل أسرع . فلولاكم ، انتم الذين تخدمون الغاية الأسمى ، وتعيشون بوعى وحرية ، لكانت البشرية تافهة . ولو تطورت وفق النظام المألوف لظلت طويلا تنتظر نهاية تاريخها الارضى . أما أنتم فسوف تدخلونها ملكوت الحقيقة الخالدة قبل الأوان ببضع آلاف من السنين — وتلك هى الخدمة الجليلة التى ستقدمونها . أنتم تجسدون البركة الالهية التى لم يحظ بها البشر .

فسأل كوفرين :

— وما هى غاية الحياة الخالدة ؟

— كغاية كل حياة : المتعة . ان المتعة الحقيقية هى

فى المعرفة ، والحياة الخالدة ستقدم منابع عديدة لا تنفد للمعرفة ، وفى هذا المعنى بالذات قيل : ان فى بيت أبى منازل كثيرة * .

فقال كوفرين وهو يفرك يديه من المتعة :

— آه لو تدرى كم استمتع بسماعك !

— مسرور جدا .

— ولكنى اعرف انك حينما تمضى سوف يؤرقنى السؤال عن طبيعتك . انت شبح ، تهيؤات . واذن فأنا مريض نفسيا ، مجنون ؟

— حتى لو كان كذلك . فيم الخجل ؟ أنت مريض لأنك عملت فوق طاقتك وأجهدت نفسك ، وهذا يعنى انك ضحيت بصحتك فى سبيل الفكرة ، وقريبا يحل الوقت الذى تهبها فيه حياتك ايضا . فهل هناك ما هو أفضل ؟ ان هذا هو ما تسعى اليه عادة كل الشخصيات الموهوبة النبيلة .

— واذا ما كنت اعرف اننى مريض نفسيا ، فهل استطيع اذن ان اثق فى نفسى ؟

— ولماذا تعتقد ان العباقرة ، الذين يثق بهم العالم أجمع ، لم يروا هم ايضا أشباحا ؟ ألا يقول العلماء الآن ان العبقرية صنو الجنون . يا صديقى ، الأصحاء والطبيعيون هم فقط الاشخاص العاديون ، أفراد القطيع . ان الاعتبارات التى تذكر بخصوص عصر القلق ، والارهاق ، والانحلال ، الخ ، لا يمكن ان تثير احدا سوى اولئك الذين يرون غاية

---

* انجيل يوحنا ، الفصل الرابع عشر ، الآية ٢ . **المعرب** .

الحياة فى الحاضر ، أى أفراد القطيع .

— ولكن الرومان قالوا : mens sana in corpore sano * .

— ليس كل ما قاله الرومان او الاغريق حقيقة . فالمزاج العالى ، والاستثارة ، والنشوة ، أى كل ما يميز الأنبياء والشعراء وشهداء الفكرة عن الناس العاديين ، يتنافر مع الجانب الحيوانى فى الانسان ، اى مع صحته البدنية . اكرر : اذا اردت ان تكون صحيحا وطبيعيا ، فاذهب الى القطيع .

فقال كوفرين :

— غريب انك تكرر ما يطوف كثيرا بذهنى . كأنك تلصصت وتنصتّ الى افكارى المكنونة . ولكن دعنا نترك الحديث عن شخصى . ما الذى تعنيه بالحقيقة الخالدة ؟

لم يرد الراهب . وتطلع كوفرين اليه فلم يميز وجهه . . تضببت ملامحه وتلاشت . ثم اخذ يختفى رأس الراهب ، ويداه ، واختلط بدنه بالاريكة وغسق المساء ، ثم تلاشى تماما .

— انتهت التهيؤات ! — قال كوفرين ثم ضحك — يا خسارة .

وعاد ادراجه الى البيت مرحا وسعيدا . لم تهدهد تلك الكلمات القليلة التى قالها له الراهب الأسود غروره ، بل روحه كلها ، وكيانه كله . ان يكون من المختارين ، ان يخدم الحقيقة الخالدة ، ان يكون فى عداد اولئك الذين سيجعلون البشرية جديرة بملكوت الله قبل الأوان بعدة آلاف من السنين ،

---

* العقل السليم فى الجسم السليم (باللاتينية فى الأصل) .

أى يريحون الناس من عدة آلاف سنين لا مبرر لها من النضال والذنوب والعذاب ، ان يهب الفكرة كل شيء : صباه وقواه وصحته ، ان يكون مستعدا للموت فى سبيل خير الجميع . . يا له من قدر سام سعيد ! وومض فى ذاكرته ماضيه ، البرىء ، الطاهر ، المفعم بالعمل ، وتذكر ما تعلمه وما علمه هو نفسه للآخرين ، فقرر انه لم تكن هناك مبالغة فيما قاله الراهب .

كانت تانيا تسير نحوه فى الحديقة . وكانت قد غيرت فستانها .

قالت :

— أنت هنا ؟ ونحن نبحث عنك ونفتش . . . ولكن ماذا بك ؟ — قالت بدهشة وهى ترى وجهه المفعم بالاعجاب والبريق وعينيه المليئتين بالدموع — كم أنت غريب يا أندريوشا .

فقال كوفرين وهو يضع يديه على كتفيها :

— أنا مبسوط يا تانيا . بل اكثر من مبسوط ، أنا سعيد ! تانيا ، يا تانيا العزيزة ، أنت مخلوق لطيف للغاية . تانيا العزيزة ، كم أنا مسرور ، كم أنا مسرور !

ولثم يديها بحرارة واستطرد :

— لقد عشت منذ قليل لحظات مشرقة ، خلابة ، سامية . ولكنى لا استطيع ان اروى لك كل شيء لأنك ستعتبريننى مجنونا او لا تصدقيننى . فلنتحدث عنك . تانيا العزيزة الرائعة ! اننى أحبك وأصبحت آلف حبك . أصبح قربك ولقاؤنا عشر مرات فى اليوم حاجة لا غنى عنها لروحى . لا أعرف كيف سأعيش بدونك عندما أعود الى دارى .

فضحكت تانيا :

— أوه ! سوف تنسانا بعد يومين . نحن ناس صغار ،

وأنت رجل عظيم .

فقال كوفرين :

— كلا ، فلنتحدث جديا ! سوف آخذك معى يا تانيا . حسنا ؟ هل تأتين معى ؟ هل تريدين أن تصبحى لى ؟

— أوه ! — قالت تانيا وأرادت ان تضحك ثانية ، ولكنها لم تنجح ، وظهرت بقع حمراء على وجهها .

وترددت أنفاسها بتلاحق ، واندفعت تسير بسرعـــة ، ولكن ليس باتجاه المنزل ، بل الى عمق الحديقة .

— أنا لم أفكر فى ذلك . . . لم أفكر ! — قالت وهى تعصر يديها كأنما فى يأس .

وسار كوفرين خلفها وهو يقول بنفس الوجه المشرق الطافح بالاعجاب :

— اننى اريد حبا يستولى على كل كيانى ، وهذا الحب لا يستطيع ان يهبه لى الا أنت يا تانيا . أنا سعيد ! سعيد !

كانت مذهولة ، فانطوت وانكمشت كأنما كبرت فجأة عشرة اعوام ، اما هو فكان يراها رائعة ويعبر عن اعجابه بصوت عال :

— كم هى جميلة !

٦

عندما علم يجور سيميونيتش من كوفرين أنه لم تنشأ بينه وبين تانيا علاقة فحسب ، بل وسيكون عرس ايضا ، اخذ يروح ويجىء طويلا من ركن الى ركن محاولا اخفاء اضطرابه . وأصابت الرعشة يديه ، وانتفخ عنقه وتضرج ، فأمر باعداد

العجلة الخفيفة ورحل الى جهة ما . وعندما رأت تانيا كيف اهوى بالسوط على الحصان ، وكيف شد العمرة عميقا على رأسه ، حتى اذنيه تقريبا ، ادركت كنه مزاجه ، فأغلقت غرفتها على نفسها وبكت طول النهار .

في الدفيئات كان الخوخ والبرقوق قد نضجا . وكان تغليف هذه البضاعة الرقيقة والنزقة وارسالها الى موسكو يتطلب كثيرا من العناية والجهد والمشاغل . ولما كان الصيف حارا وجافا ، فقد كان ينبغي ري كل شجرة ، الأمر الذي استهلك الكثير من الوقت والأيدي العاملة ، وظهرت الديدان بكمية رهيبة ، فكان العمال ، وحتى يجور سيميونيتش وتانيا ، يسحقونها بأصابعهم مباشرة ، مما أثار تقزز كوفرين البالغ . وعلاوة على ذلك فقد حان الوقت لتلقي الطلبات لتوريد الفواكه والاشجار في الخريف والقيام بمكاتبات كثيرة . وفي ابان هذه الفترة الحرجة ، حين بدا ان احدا لا يملك دقيقة فراغ حل أوان أعمال الحقول ، التي انتزعت من البستان اكثر من نصف العمال . وكان يجور سيميونيتش ، الذي اسمّر بشدة ، يركض معذبا ، غاضبا ، تارة الى البستان ، وتارة الى الحقل ، ويصرخ بأنهم يمزقونه اربا ، وانه سيطلق رصاصة على رأسه .

اضف الى ذلك مشاغل جهاز العروس ، الذي كان آل بيسوتسكي يولونه أهمية غير قليلة . ومن رنين المقصات ودق ماكينات الخياطة ، ودخان المكاوي ، ومن نزق مصممة الأزياء ، تلك السيدة العصبية السريعة الغضب ، دارت رؤوس كل أهل البيت . وكأنما نكاية بهم اخذ الضيوف يأتون كل يوم ، فكان لا بد من تسليتهم واطعامهم ، بل وابقائهم للمبيت أحيانا . ولكن كل هذه الاشغال الشاقة مرت دون

أن تلحظ ، وكأنما من خلال الضباب . وكانت تانيا تشعر وكأنما دهمها الحب والسعادة بغتة ، رغم انها كانت منذ الرابعة عشرة من عمرها واثقة لسبب ما بأن كوفرين سيتزوج منها بالذات . كانت تشعر بالذهول والدهشة ولم تصدق نفسها . . . وتارة تغمرها فرحة بحيث تود لو حلقت الى عنان السماء فتصلى هناك لله ، وتارة تتذكر فجأة انه سيكون عليها فى أغسطس ان تفارق عشها الحبيب وتترك أباها ، او تواتيها من حيث لا يعلم الا الله فكرة انها تافهة ، ضحلة وغير جديرة برجل عظيم مثل كوفرين ، فتمضى الى غرفتها وتوصدها عليها وتبكى بحرقة لعدة ساعات . وعندما يزورهم ضيوف يخيل اليها بغتة ان كوفرين جميل بصورة غير عادية ، وان جميع النساء مغرمات به ويحسدنها ، فتمتلئ روحها بالاعجاب والفخر ، كأنما انتصرت على العالم أجمع ، ولكن ما أن يبتسم كوفرين لآنسة ما ، حتى تنتابها رعشة الغيرة ، فتمضى الى غرفتها ، فالى الدموع ثانية . واستولت عليها تماما هذه المشاعر الجديدة ، فكانت تساعد أباها بطريقة آلية ولا تلاحظ الخوخ او الديدان او العمال ، او مرور الوقت بهذه السرعة .

وكان نفس الشيء تقريبا يحدث ليجور سيمونيتش . كان يعمل من الصباح الى المساء ، ودائما يقصد على عجل جهة ما ، ويفقد أعصابه ويتوتر ، ولكن ذلك كله كان يجرى فى شبه حلم مسحور . وكأنما كان يستقر داخله شخصان : أحدهما يجور سيميونيتش الحقيقى ، الذى كان ، وهو يصغى الى تقرير البستانى ايفان كارليتش عن المخالفات ، يغلى غضبا ويمسك رأسه بيديه فى يأس ، والثانى شخص آخر ، غير حقيقى ، كأنما شبه ثمل ، يقطع فجأة حديث العمل ،

ويربت على كتف البستانى ويشرع يدمدم :

— أيا كان الأمر ، فالدم يعنى الكثير . لقد كانت أمه امرأة مدهشة ، فى غاية النبل والذكاء . كان من الممتع أن تنظر الى وجهها الطيب الصبوح الصافى كوجه ملاك . كانت ترسم بروعة ، وتنظم الأشعار ، وتتحدث بخمس لغات اجنبية ، وتغنى . . . المسكينة ، عليها الرحمة ، ماتت بالسل . . .

ويتنهد يجور سيميونيتش غير الحقيقى ، ويصمت قليلا ، ثم يستطرد :

— عندما كان صغيرا يتربى عندى كان له مثل ذلك الوجه الملائكى الصبوح الطيب . ونظراته وحركاته وحديثه رقيقة ورشيقة مثلما لدى أمه . وذكاؤه ؟ كان دائما يذهلنا بذكائه . يكفى انه اصبح ماجستيرا ليس صدفة ! ليس صدفة ! انتظر يا ايفان كارليتش وسترى كيف سيصبح بعد عشر سنوات ! لن تبلغه يدك !

ولكن يجور سيميونيتش الحقيقى يستدرك فجأة ، فيصبح وجهه رهيبا ، ويمسك برأسه ويصيح :

— الشياطين ! أفسدوا البستان ، دنسوه ، لوثوه ! ضاع البستان ! هلك البستان !

أما كوفرين فكان يعمل بدأبه السابق ولم يلاحظ الهرج . وصب الحب المزيد من الزيت على النار . وبعد كل لقاء مع تانيا كان يعود الى غرفته سعيدا ، معجبا ، وبنفس الهيام الذى قبّل به تانيا منذ قليل وباح لها بحبه ، ينكب على كتاب او على مخطوطه . كان ما قاله الراهب الأسود عن ابناء الله المختارين ، عن الحقيقة الخالدة ، عن مستقبل البشرية الباهر وغير ذلك ، يضفى على عمله اهمية خاصة ،

غير عادية ، ويملأ روحه بالاعتزاز والادراك لسموه . وكان يلتقى بالراهب الأسود مرة او مرتين اسبوعيا ، فى الحديقة او فى المنزل ، فيتحدث معه طويلا ، ولكن ذلك لم يخفه ، بل بالعكس ، اثار اعجابه ، لأنه اصبح على ثقة تامة بأن مثل هذه الرؤى لا تراود الا المختارين ، البارزين ، الذين وهبوا حياتهم لخدمة الفكرة .

وذات مرة جاء الراهب اثناء الغداء فجلس بجوار النافذة فى غرفة الطعام . وفرح كوفرين ، وأدار حديثا مع يجور سيميونيتش وتانيا بمهارة كبيرة عما يمكن ان يكون شيقا للراهب . وأصغى الضيف الأسود وهو يهز رأسه ببشاشة ، وأصغى يجور سيميونيتش وتانيا ايضا وهما يبتسمان بمرح ، دون أن يفطنا الى أن كوفرين لا يتحدث اليهما ، بل الى تهيؤاته .

لم يلاحظوا كيف اقترب صيام الرفع ، وسرعان ما تبعه يوم العرس الذى احتفلوا به ، حسب رغبة يجور سيميونيتش الملحة ، «بفرقعة» ، أى بازدحام مشوش استمر يومين . وأكلوا وشربوا بحوالى ثلاثة آلاف روبل ، ولكنهم بسبب الفرقة الموسيقية المؤجرة السيئة ، والانخاب الزاعقة ، وهرولة الخدم ، بسبب الصخب والزحام لم يقدروا مذاق النبيذ الفاخر او المزات المدهشة المجلوبة من موسكو .

٧

ذات ليلة طويلة من ليالى الشتاء كان كوفرين راقدا فى الفراش يقرأ رواية فرنسية . وكانت تانيا المسكينة ، التى كانت تعانى من الصداع كل مساء لعدم تعودها على المعيشة فى

المدينة ، نائمة منذ وقت طويل ، واحيانا تتفوه هاذية بعبارات ما غير مترابطة .

ودقت الساعة الثالثة . فاطفأ كوفرين الشمعة ورقد . وظل ممددا فترة طويلة بعينين مغمضتين ، ولكنه لم يستطع أن ينام لأن الجو فى غرفة النوم ، كما خيل اليه ، كان حارا ، وكانت تانيا تهذى . وفى الرابعة والنصف اشعل الشمعة ثانية وفى تلك اللحظة رأى الراهب الأسود جالسا فى المقعد قرب السرير .

— مرحبا — قال الراهب ، ثم صمت قليلا وسأله — فيم تفكر الآن ؟

فقال كوفرين :

— فى الصيت . فى الرواية الفرنسية ، التى كنت اقرأها لتوى يصور المؤلف شخصا ، عالما شابا ، يرتكب الحماقات ويذوى من الحنين الى الصيت . هذا الحنين غير مفهوم لى .

— لأنك ذكى . أنت تنظر الى الصيت بلا مبالاة ، كدمية لا تثير اهتمامك .

— نعم ، هذا صحيح .

— والشهرة لا تروق لك . فما هو الأمر المغرى ، او المسلى ، او ذو العبرة فى ان ينقشوا اسمك على تمثال القبر ، ثم يمحو الزمن هذه الكتابة مع طلائها المذهب ؟ ثم انكم ، ولحسن الحظ ، اكثر من ان تحتفظ الذاكرة البشرية الضعيفة باسمائكم .

فقال كوفرين موافقا :

— مفهوم ، ثم ما الداعى لتذكرها ؟ لكن هيا نتحدث عن شيء آخر . عن السعادة مثلا . ما هى السعادة ؟

عندما دقت الساعة الخامسة ، كان جالسا فى السرير ، مدليا ساقيه على البساط ، يتحدث مخاطبا الراهب :

— فى الماضى أحس أحد السعداء فى نهاية الامر بالخوف من سعادته لفرط ما كانت عظيمة ! ولكى يتقى غضب الآلهة ضحى لهم بخاتمه الأثير . أتدرى ؟ أنا ايضا ، مثل بوليقراط ، بدأت اقلق نوعاً ما من سعادتى . اذ يبدو لى غريبا اننى لا أشعر من الصباح الى المساء الا بالفرحة فقط ، وهى تملأ كل كيانى ، وتطغى على كل المشاعر الأخرى . انا لا اعرف ما هو الحزن او الأسى او الملل . ها أنذا لا أنام ، وينتابنى الارق ، ولكنى لا أشعر بالملل . اقول لك بجدية ، لقد بدأت استغرب .

فذهل الراهب وقال :

— فلماذا ؟ هل الفرحة شعور خارق ؟ أليس من المفروض ان تكون هى الحالة الطبيعية للانسان ؟ وكلما ارتقى الانسان فى تطوره الذهنى والخلقى ، وكلما أصبح اكثر تحررا ، أصبحت الحياة تجلب له المزيد من المتعة . ان سقراط وديوجين ومرقس أوريليوس كانوا يشعرون بالفرحة لا بالحزن . كما أن الرسول قال : افرحوا كل حين . فلتفرح اذن ولتكن سعيدا .

— ولكن قد تغضب الآلهة ؟ — قال كوفرين مازحا ثم ضحك — لو أنهم حرمونى من الرفاهية واضطرونى الى حياة البرد والجوع فلا أظن ان ذلك سيروق لى .

وفى تلك الاثناء كانت تانيا قد استيقظت واخذت تنظر الى زوجها بذهول ورعب . كان يتحدث مخاطبا المقعد ، وهو يشيح بيديه ويضحك . وكانت عيناه تلمعان وكان فى ضحكه شىء ما غريب .

— اندريوشا مع من تتحدث ؟ — سألته تانيا وهى تشد يده التى مدها نحو الراهب — اندريوشا ! مع من تتحدث ؟

فقال كوفرين محرجا :

— أه ؟ مع من ؟ معه . . ها هو جالس — قال مشيرا الى الراهب الأسود .

— لا أحد هنا . . . لا أحد ! اندريوشا ، أنت مريض !

وعانقت تانيا زوجها والتصقت به كأنما تحميه من الرؤى وأغمضت عينيه بيدها .

وانتحبت وبدنها كله يرتجف :

— أنت مريض ! سامحنى يا حبيبى ، يا عزيزى ، ولكنى لاحظت من وقت طويل أن روحك مضطربة . . . انت مريض نفسيا يا أندريوشا . . .

وانتقل ارتجافها اليه . ونظر مرة أخرى الى المقعد ، الذى اصبح الآن خاويا ، فأحس فجأة بضعف فى يديه وقدميه ، وتملكه الخوف ، وراح يرتدى ملابسه .

ودمدم وهو يرتعش :

— هذا لاشىء يا تانيا . . . لا شىء . فعلا أنا معتل قليلا . . . ينبغى ان اعترف بذلك .

فقالت تانيا وهى تحاول كتمان النحيب :

— انا لاحظت منذ وقت طويل . . وبابا ايضا لاحظ . أنت تكلم نفسك ، وتبتسم ابتسامات غريبة . . . ولا تنام . أوه يا الهى ، يا الهى انقذنا ! — قالت برعب — لكن لا تخف يا اندريوشا ، لا تخف ، بالله عليك لا تخف . . . وراحت هى الأخرى ترتدى ثيابها . الآن فقط ، عندما

نظر كوفرين اليها ، أدرك كل خطورة وضعه ، أدرك ما الذى يعنيه الراهب الأسود وأحاديثه معه . لقد أصبح واضحا له الآن أنه مجنون .

لبسا كلاهما ملابسهما وهما لا يدريان لماذا وخرجا الى الصالة ، هى فى المقدمة وهو خلفها . وهنا ايضا كان يقف يجور سيميونيتش ، الذى نزل ضيفا عليهما ، فى الروب ، حاملا شمعة بعد ان ايقظه النحيب .

وقالت تانيا وهى ترتعش كالمحمومة :

— لا تخف يا أندريوشا ، لا تخف . . . بابا ، هذا سيزول . . . كل شيء سيزول . . .

ولم يستطع كوفرين أن يتحدث من شدة الانفعال . وأراد أن يقول لحميه بلهجة مازحة :

— هنئنى ، يبدو أننى جننت . — ولكنه حرك شفتيه فقط وابتسم بمرارة .

وفى التاسعة صباحا ألبسوه المعطف الصوفى ومعطف الفراء ، ولفعوه بشال ، ونقلوه فى عربة الى الطبيب . وبدأ يتعالج .

٨

حل الصيف من جديد ، ونصح الطبيب بالانتقال الى الريف . وكان كوفرين قد شفى ، ولم يعد يرى الراهب الأسود ، ولم يبق الا أن يعزز قواه البدنية . واثناء اقامته لدى حميه فى الريف اخذ يشرب اللبن بكثرة ، ويعمل ساعتين فقط فى اليوم ، وامتنع عن شرب الخمر وعن التدخين .

وعشية عيد القديس ايليا اقاموا فى المنزل صلاة المساء .

وعندما اعطى الشماس المبخرة للقس فاحت فى الصالة العتيقة الضخمة رائحة كرائحة القبور ، فأحس كوفرين بالملل . وخرج الى البستان . ودون أن يلاحظ الزهور الفاخرة ، تجول فى البستان ، وجلس على الأريكة ، ثم تمشى فى الحديقة . وعندما بلغ النهر هبط الى اسفل ، ووقف هناك متفكرا وهو يحدق فى المياه . لم تعد الصنوبرات الجهمة ذات الجذور الكثة ، والتى شهدته فى العام الماضى شابا ، فرحا ، نشيطا ، تهمس الآن ، بل انتصبت جامدة خرساء ، كأنما لم تتعرف عليه . وبالفعل ، فقد كان رأسه حليقا ، ولم يعد لديه ذلك الشعر الطويل الجميل ، وأصبحت مشيته ذابلة ، وسمن وجهه ، بالمقارنة مع العام الماضى ، وشحب .

وعبر الى الضفة الأخرى فوق القنطرة . وفى المكان الذى كان يغطيه الجودار فى العام الماضى امتدت الآن صفوف شعير محصود . وكانت الشمس قد غربت ، وتوهج عند الأفق شفق أحمر عريض ، منبئا بطقس ريحى فى الغد . وساد الهدوء . وحدق كوفرين فى الجهة التى ظهر منها الراهب الأسود لأول مرة فى العام الماضى ، ووقف حوالى عشرين دقيقة ، الى أن بدأ شفق المغيب يعتم . . .

وعندما عاد الى البيت ذابلا غير راض ، كانت الصلاة قد انتهت . وكان يجور سيميونيتش وتانيا جالسين على درجات الشرفة يشربان الشاى . كانا يتحدثان عن شىء ما ، ولكنهما صمتا فجأة عندما شاهدا كوفرين فقرر من تعبير وجهيهما انهما كانا يتحدثان عنه .

وقالت تانيا لزوجها :

— أظن ان الوقت قد حان لتشرب اللبن .

— لا ، لم يحن . . . — قال وهو يجلس على آخر درجة فى أسفل السلم — اشربيه أنت . أنا لا أريد .

تبادلت تانيا مع أبيها نظرة قلقة وقالت بنبرة ذنب :

— أنت نفسك تلاحظ أن اللبن مفيد لك .

فضحك كوفرين بسخرية :

— نعم ، مفيد جدا ! اهنئكم : منذ يوم الجمعة ازداد وزنى رطلا آخر — وضغط رأسه بيديه بقوة وقال بأسى — لماذا ، لماذا عالجتمونى ؟ محاليل البروم ، والبطالة ، والحمامات الدافئة ، والرقابة ، والخوف الجبان من كل رشفة ، من كل خطوة . . كل هذا سيؤدى بى فى النهاية الى البله . نعم ، لقد جننت ، كنت مريضا بجنون العظمة ، ولكنى كنت مرحا ، نشيطا ، بل وحتى سعيدا . كنت طريفـــا وأصيلا . والآن اصبحت أعقل وأرصن ، ولكنى صرت مثل الجميع ، أنا عادى ، سئمت الحياة . . . أوه ، كم قسوتم علي ! كنت أرى تهيؤات ، ولكن من ذا الذى كان يزعجه ذلك ؟ اننى اسأل : من ذا الذى كان يزعجه ذلك ؟

فتنهد يجور سيميونيتش وقال :

— الله يعلم ما هذا الذى تقول ! حتى سماع هذا ممل .

— اذن لا تسمع .

كان وجود الآخرين ، وخاصة يجور سيميونيتش ، يثير الآن كوفرين ، فكان يرد عليه بجفاف وبرود ، بل وحتى بغلظة ، ولم يكن يعامله الا بسخرية وكراهية ، أما يجور سيميونيتش فكان يرتبك ويسعل بذنب ، رغم انه لم يكن يحس بأنه ارتكب أى ذنب . ولما لم تكن تانيا تفهم لماذا

تغيرت بحدة علاقات الود والبشاشة بينهما ، فقد التصقت بأبيها واخذت تحدق في عينيه بقلق . كانت تريد ان تفهم ولا تستطيع ، واصبح واضحا لها شيء واحد ، وهو أن علاقاتهما تتدهور من يوم الى يوم ، وان أباها هرم بشدة في الآونة الاخيرة ، واصبح زوجها عصبيا ، نزقا ، متمحكا وغير طريف . ولم يعد في وسعها أن تضحك أو تغني ، ولم تكن تذوق شيئا في الغداء ، ولا تنام ليالي كاملة وهي تتوقع شيئا رهيبا ، وأنهكت الى درجة أنها ظلت ذات مرة في حالة اغماء من الغداء الى المساء . وخيل اليها اثناء صلاة المساء أن اباها كان يبكي ، اما الآن ، وهم جالسون ثلاثتهم في الشرفة ، فقد جاهدت لكي لا تفكر في ذلك .

وقال كوفرين :

— ما كان أسعد بوذا ومحمد او شكسبير لأن اقاربهم الطيبين والاطباء لم يعالجوهم من النشوة والوحي ! لو أن محمد كان يتناول بروميد البوتاسيوم من الأعصاب ، ويعمل ساعتين فقط في اليوم ويشرب اللبن لما تبقى بعد هذا الانسان الرائع اكثر مما تبقى بعد كلبه . سيتمكن الأطباء والأقارب الطيبون في نهاية الأمر من جعل البشرية تتبلد ، وسوف تعتبر العادية عبقرية وستهلك الحضارة — وقال كوفرين بأسى — آه لو تعلمون كم أنا ممتن لكم !

أحس بضيق شديد ، ولكي لا يتفوه بما لا داعي له نهض بسرعة ودخل المنزل . كان الهدوء يشمل المنزل ، ومن النوافذ المفتوحة تناهت من البستان رائحة الطباق ونبات الجلبة . وفي الصالة الضخمة المظلمة انتشرت على الارض والبيانو بقع خضراء من ضوء القمر . وتذكر كوفرين لحظات اعجابه في

العام الماضى ، عندما تضوع شذى الجلبة ايضا مثلما الآن ولاح ضوء القمر من النوافذ . ولكى يستعيد مزاج العام الماضى توجه بسرعة الى غرفة المكتب ، ودخن سيجارا قويا وأمر الخادم ان يحضر له نبيذا . ولكنه أحس بطعم السيجار مرا وكريها فى فمه ، ولم يكن النبيذ لذيذا كما فى العام الماضى. ما اكثر ما يعنى نسيان العادة ! فمن سيجار وجرعتى نبيذ دار رأسه وتلاحقت نبضات قلبه ، فكان لا بد من تناول بروميد البوتاسيوم .

وقبل أن يأويا الى الفراش قالت له تانيا :

— أبى يعبدك . وأنت غاضب منه لسبب ما ، وهذا يكاد يقتله غما . انظر كيف يهرم كل ساعة لا كل يوم . اتوسل اليك يا أندريوشا ، استحلفك بالله ، أن تكون لطيفا معه من اجل راحتى ومن اجل ابيك الراحل !

— لا أستطيع ولا أريد .

— ولكن لماذا ؟ — سألته تانيا وبدأ بدنها كله يرتجف — خبرنى ، لماذا ؟

— لأنه لا يروق لى ، وهذا كل ما هنالك — قال كوفرين باستخفاف وهز كتفيه — ولكن دعينا لا نتحدث عنه . انه أبوك .

فقالت تانيا وهى تضغط على صدغيها وتحدق فى نقطة واحدة :

— لا استطيع ، لا استطيع ان افهم ! هناك شىء رهيب ، لا يمكن ادراكه ، يجرى فى منزلنا . أنت تغيرت ، لم تعد كما كنت . . . انت الشخص العاقل ، غير العادى ، اصبحت تنزعج لأشياء بسيطة وتتدخل فى المشاحنات . . .

تثيرك اشياء فى غاية التفاهة لدرجة اننى احيانا ادهش ولا أصدق : أهذا أنت ؟ حسنا ، حسنا ، لا تغضب — استطردت تانيا ومضت تلثم يديه وقد خافت من كلماتها — أنت ذكى ، طيب ، نبيل . فلتكن عادلا مع أبى . انه لطيف جدا !

— ليس لطيفا بل ملاطفا . ان الأعمام الهزليين ، امثال أبيك ، ذوى الوجوه الشبعانة البشوشة ، الكرماء للغاية والغريبى الأطوار ، كانوا فى وقت ما يثيرون اعجابى وضحكى سواء فى القصص ام فى الهزليات ام فى الحياة ، أما الآن فيثيرون نفورى . انهم انانيون حتى النخاع . واكثر ما ينفرنى منهم هو شبعهم ، وذلك التفاؤل الثيرانى او الخنازيرى البحت النابع من معداتهم .

جلست تانيا فى الفراش ووضعت رأسها على الوسادة .

— هذا عذاب — قالت ، وكان واضحا من صوتها أنها اصبحت مرهقة لأقصى حد وانه من الصعب عليها ان تتكلم — من الشتاء لم أعرف دقيقة راحة . . . ما افظع هذا يا الهى ! اننى اتعذب . . .

— نعم ، أنا طبعا هيرودس ، وأنت وبابـــاك صبيان مصر * . طبعا !

بدا وجهه لتانيا قبيحا ومنفرا . ولم تكن الكراهية والسخرية

---

* الاشارة الى ما جاء بانجيل متى (الفصل الثانى) عن قيام الملك هيرودس بقتل جميع صبيان بيت لحم بعد هروب يوسف ومريم ويسوع الوليد الى مصر خوفا من بطشه . **المعرب** .

تنسجمان معه . وقد لاحظت من قبل ان شيئا ما ينقـــــص وجهه ، كما لو ان ملامحه ايضا قد تغيرت منذ أن حلق شعره . وشعرت بالرغبة فى ان تقول له شيئا مهينا ، ولكنها انتبهت على الفور الى هذا الاحساس الكريه فخافت ، وغادرت الغرفة .

٩

حصل كوفرين على كرسى استاذ مستقل . وتحدد موعد محاضرته الافتتاحية فى الثانى من ديسمير ، وعلّق اعلان بذلك فى طرقة الجامعة . ولكنه فى اليوم المحدد ارسل الى مسئول الطلاب برقية يعتذر فيها عن عدم استطاعته القاء المحاضرة لمرضه .

نزف دما من حلقه . كان قبلها يبصق دما ، ومرتين فى الشهر ينزف بغزارة ، وعندئذ كان ينتابه ضعف شديد وميل الى النوم . ولم يكن هذا المرض يسبب له خوفا كبيرا لأنه كان يعرف ان المرحومة أمه عاشت بنفس هذا المرض عشر سنوات بل واكثر ، واكد له الأطباء ان ذلك ليس خطيرا ، ونصحوه فقط بألا ينفعل ، وان يتبع نظاما سليما للمعيشة ، ويقلل من الكلام .

وفى يناير ألغيت المحاضرة لنفس السبب ، أما فى فبراير فكان الوقت متأخرا للبدء فى الدورة . فاضطروا للتأجيل الى العام القادم .

لم يعد يعيش مع تانيا ، بل مع امرأة أخرى كانت تكبره بعامين وتعتنى به كما يعتنى بطفل . وكان مزاجه مسالما ، مستكينا : فقد كان يطيعها عن طيب خاطر ، وعندما عزمت

فارفارا نيكولايفنا ــ هكذا كانت تدعى رفيقته ــ على السفر به الى القرم ، وافق رغم انه كان يحدس بأن هذه الرحلة لن تسفر عن اى شيء طيب .

وصلا الى سيفاستوبول مساء ونزلا فى فندق لكى يستريحا ثم يسافرا غدا الى يالطا . وارهقهما السفر كليهما . وشربت فارفارا نيكولايفنا الشاى ، وأوت الى الفراش ، وسرعان ما نامت . ولكن كوفرين لم يذهب الى الفراش . فقد تلقى وهو بعد فى المنزل ، قبل التوجه الى المحطة بساعة ، رسالة من تانيا ، ولم يجرؤ على فضها ، وها هى الآن ترقد فى جيبه الجانبى ، واثار التفكير فيها اضطرابا كريها فى نفسه . كان الآن يعتبر فى قرارة نفسه وباخلاص ان زواجه بتانيا كان خطأ ، وكان راضيا لأنه انفصل عنها نهائيا ، ولم تثر ذكرياته عن هذه المرأة التى تحولت فى نهاية الأمر الى مومياء حية ، والتى بدا ان كل شيء فيها مات ، اللهم الا عينيها الواسعتين الذكيتين الثاقبتى النظرة ، لم تثر ذكرياته عنها الا الحسرة والأسى على نفسه . وذكّره خطها على المظروف كم كان ظالما وقاسيا منذ عامين ، وكم صب نقمته لخواء روحه وملله ووحدته وبرمه بالحياة على اناس أبرياء . وتذكر بالمناسبة كيف مزق ذات مرة رسالة الدكتوراه ومقالاته التى كتبها اثناء مرضه مزقا صغيرة ، والقى بها من النافذة ، فطارت المزق مع الريح وهى تتعلق بالأشجار والأزهار . لقد رأى فى كل سطر من سطورها ادعاءات غريبة لا اساس لها ، وهراء عابثا ووقاحة وجنون عظمة ، فترك هذا فى نفسه انطباعا ، كأنما كان يقرأ وصفا لرذائله . ولكن عندما مزق آخر دفتر والقى به من النافذة شعر فجأة بالأسى والمرارة ، فذهب الى زوجته

وأسمعها الكثير من الاساءات . يا الهى كم كان يتلـــف اعصابها ! ذات مرة ، وقد أراد ان يؤلمها ، قال لها ان أباها لعب فى قصة غرامهما دورا مشينا ، لأنه رجاه ان يتزوج منها . وسمع يجور سيميونيتش ذلك عرضا فاندفع الـــى الغرفة ، ولم يستطع من شدة الاساءة أن يقول كلمة واحدة ، بل ظل فقط يراوح فى مكانه ، ويخور بصورة غريبة ، كما لو كان لسانه قد شل ، أما تانيا فنظرت الى ابيها وصرخت صرخة تمزق القلب وسقطت مغشيا عليها . كان ذلـك شيئا فظيعا .

ورد كل هذا على خاطره عندما تطلع الى الخط المعروف. وخرج الى الشرفة . كان الجو هادئا دافئا ، وفاحت رائحة البحر . وعكس الخليج الرائع صورة القمر والأضواء ، واكتسى بلون يصعب ان تجد له اسما . كان ذلك خليطا رقيقا وناعما من اللونين الازرق والأخضر . وفى بعض الاماكن كان لون المياه يشبه الزاج الازرق ، وفى اماكن اخرى بدا أن ضوء القمر تكثف فملأ الخليج بدلا من المياه ، وعموما ، فيا له من توافق ألوان ، ويا له من مزاج مسالم ، مستكين ، سام !

يبدو ان النوافذ فى الطابق الأدنى ، تحت الشرفة ، كانت مفتوحة ، فقد تناهت بوضوح اصوات نسائيـــة وضحك . الظاهر انه كانت هناك حفلة .

وتحامل كوفرين على نفسه وفض الرسالة ، وذهب الى غرفته وقرأ :

«مات أبى لتوه . وأنا مدينة لك بذلـــك ، لأنك أنت الذى قتلته . وبستاننا يهلك ، وأصبح الغرباء

يديرونه ، أى يحدث بالضبط ما كان يخشاه أبى المسكين . وأنا مدينة بذلك لك ايضا . اننى امقتك من صميم قلبى واتمنى أن تهلك فى أقرب وقت . أوه ، كم اعانى ! روحى يحرقها ألم لا يطاق . . . عليك اللعنة . لقد ظننتك انسانا فذا ، عبقريا ، وأحببتك ، ولكن ظهر أنك مجنون . . .» .

لم يستطع كوفرين أن يواصل القراءة فمزق الرسالة وألقى بها . وتملكه قلق يشبه الخوف . وكانت فارفارا نيكولايفنا نائمة خلف الحاجز ، وتردد صوت انفاسها . ومن الطابق الأسفل تناهت الاصوات النسائية والضحك ، ولكن تملكه احساس بأنه لا يوجد فى الفندق كله أحد غيره . ولأن تانيا التعيسة ، التى حطمتها البلوى لعنته فى رسالتها وتمنت له الهلاك ، فقد أحس بالرعب ، ونظر الى الباب لمحا ، كأنما كان يخشى ان تدخل الغرفة وتتحكم فيه ثانية تلك القوة المجهولة التى ألحقت بحياته وحياة اقربائه فى غضون ما لا يزيد عن سنتين كل هذا الدمار .

كان يعرف من واقع التجربة انه اذا ما افلتت الأعصاب فان افضل وسيلة لكبح جماحها هى العمل . ينبغى ان يجلس الى الطاولة ويرغم نفسه ، مهما كلف الأمر ، ان يركز انتباهه على فكرة ما . واخرج من حقيبته الحمراء دفترا سجل فيه ملخصا سريعا لمؤلف تصنيفى صغير ، كان قد أعده ليشغل به نفسه فيما لو بدت له الاقامة فى القرم مملة بدون عمل . وجلس الى الطاولة وانكب على هذا الملخص ، فبدا له انه يستعيد مزاجه الهادئ المستكين اللامبالى . بل ان هذا الدفتر قد أوحى اليه بافكار عن باطل الحياة الدنيا . وفكر فى ان الحياة تأخذ الكثير لقاء تلك النعم الضئيلة ، او العادية

للغاية ، التى يمكن ان تقدمها للانسان . وعلى سبيل المثال ، فلكى يحصل على كرسى استاذ وهو يناهز الأربعين ، ولكى يكون استاذا عاديا ، يصوغ بلغة ذابلة مملة ثقيلة افكـــارا عادية ، هى فوق ذلك أفكار الآخرين . . وباختصار فلكى يبلغ منزلة العالم المتوسط ، كان عليه ، هو كوفرين ، ان يدرس خمسة عشر عاما ، ويعمل ليل نهار ، ويصاب بمرض نفسى عضال ، ويخوض تجربة زواج فاشل ، ويرتكب الكثير من الحماقات والمظالم التى يسعده ألا يتذكرها . كان كوفرين يدرك الآن بوضوح أنه شخص عادى ، وقنع بذلك عن طيب خاطر ، لأن كل انسان ، حسب رأيه ، ينبغى أن يرضى بما هو عليه .

كان الملخص يهدئه تماما ، بيد ان الرسالة الممزقة الملقاة على الارض كانت تلوح لناظريه فتعوقه عن التركيز . فنهض من امام الطاولة ، وجمع مزق الرسالة والقى بها فى النافذة ، ولكن نسيما خفيفا هب من البحر فتناثرت المزق على حافة النافذة . ومن جديد تملكه قلق يشبه الخوف ، وعاوده الاحساس بأنه لا يوجد فى الفندق كله أحد غيره . . . وخرج الى الشرفة . كان الخليج ، كمخلوق حى ، يحدق فيه بأعين زرقاء وسماوية وفيروزية ونارية عديدة ويشده اليه . وبالفعل كان الجو حارا وخانقا يغرى بالاستحمام .

وفجأة تردد من الطابق الادنى تحت الشرفة عزف كمان ، وغنى صوتان نسائيان رقيقان . وبدا ذلك شيئا مألوفا . كانت الأغنية التى غنوها فى الأسفل تتحدث عن فتاة مـــــــا ، مصابة بالوهم ، سمعت ليلا فى الحديقة اصواتا غامضـة فاعتبرتها هارمونى مقدسا ، ليس مفهوما لنا نحن الفانين . . .

واحتبست انفاس كوفرين ، وعصر الحزن قلبه ، ورفرفت فى صدره فرحة رائعة حلوة منسية منذ زمن بعيد .

وعلى ضفة الخليج الأخرى ظهر عمود أسود طويل ، يشبه الزوبعة او الدوامة الهوائية . وتحرك فوق الخليج بسرعة رهيبة متجها نحو الفندق وهو يزداد انكماشا وقتامة ، فلم يتمكن كوفرين من التنحى الا بالكاد ليفسح له الطريق . . . ومرق الراهب الأسود ، برأسه الأشيب الحاسر ، وحاجبيه الأسودين ، وقدميه الحافيتين ويديه المعقودتين على صدره ، بجوار كوفرين وتوقف فى وسط الغرفة .

وسأل بعتاب وهو ينظر الى كوفرين برقة :

— لماذا لم تصدقنى ؟ لو صدقت ما قلته لك آنذاك بأنك عبقرى ، لما قضيت هذين العامين بهذا الحزن والجدب .

أصبح كوفرين الآن يؤمن بأنه من ابناء الله المختارين وعبقرى ، وتذكر على الفور كل احاديثه السابقة مع الراهب الأسود ، وأراد ان يتكلم ، ولكن الدم سال من حلقه على صدره مباشرة ، فأخذ ، وهو لا يدرى ماذا يفعل ، يمسح بيديه على صدره ، فتبللت أساوره بالدم . وأراد أن يدعو فارفارا نيكولايفنا التى كانت نائمة خلف الحاجز ، فتحامل على نفسه وتمتم :

— تانيا !

وسقط على الأرض ، ثم نهض على ذراعيه ونادى ثانية :

— تانيا !

كان ينادى تانيا ، ينادى البستان الكبير بأزهاره الفاخرة المبللة بالندى ، ينادى الحديقة ، واشجار الصنوبر ذات الجذور

الكثة ، وحقل الجودار ، وعلمه البديع ، وشبابه ، وجسارته ، وفرحته ، كان ينادى الحياة التى كانت جد رائعة . ورأى بجوار وجهه على الأرض بركة دم كبيرة ، ولم يعد بوسعه من شدة الضعف أن ينطق بكلمة واحدة ، ولكن سعادة لانهائيـــــة لا توصف ملأت كل كيانه . وفى الأسفل تحت الشرفة كانوا يعزفون سيرنادا ، بينما راح الراهب الأسود يهمس له بأنه عبقرى وبأنه لا يموت الا لأن جسده البشرى الضعيف قد فقد توازنه ولم يعد قادرا على ان يكون غلافا يحفظ العبقرية .

عندما استيقظت فارفارا نيكولايفنا وخرجت من وراء الحاجز ، كان كوفرين قد فارق الحياة ، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عذبة .

١٨٩٤

قلادة آنـا

١

بعد عقد القران لم تقدم حتى المزات الخفيفة . شرب العروسان كأسين ، وبدّلا ثيابهما ، ورحلا الى المحطة . وبدلا من حفل الزفاف المرح والعشاء ، وبدلا من الموسيقى والرقص كانت هذه الرحلة للحج على بعد مائتى فرسخ . وحبذ الكثيرون ذلك قائلين ان موديست اليكسييتش رجل ذو مركز ولم يعد شابا ، وان العرس الصاخب قد يبدو على الأرجح ، غير لائق تماما . كما انه من الممل سماع الموسيقى عندما يتزوج موظف فى الثانية والخمسين من عمره فتاة لم تتجاوز الثامنة عشرة الا بقليل . وقالوا ايضا ان موديست اليكسييتش ، كرجل يراعى الاصول ، انما دبر هذه الرحلة الى الدير لكى يُفهم زوجته الشابة بأنه فى الزواج ايضا يضع الدين والاخلاق فى المقام الاول .

ودعوا العروسين . ووقف جمع زملاء العمل والاقـــارب والكؤوس فى ايديهم منتظرين تحرك القطار لكى يهتفوا : «هورا» ، وكان والد العروس ، بيوتر ليونتيتش ، الذى يرتدى قبعة اسطوانية وحلة المدرسين ، وهو ثمل جدا وشاحب جدا ، يهم طول الوقت بجسده نحو نافذة العربة ، والكأس فى يده ، ويقول بصوت ضارع :

ـــ أنيوتا ! يا آنيا ! يا آنيا ، كلمة واحدة !

فتنحنى آنيا نحوه من النافذة ، فيهمس لها بكلمات ما وهو يلفحها ببخر الخمر وينفخ فى أذنها ، فلا تستطيع ان تميز شيئا ، ويرسم علامة الصليب على وجهها وصدرها وذراعيها . واثناء ذلك تتهدج انفاسه وتغرورق عيناه بالدموع . اما شقيقا آنيا ، التلميذان بيتيا وأندريوشا ، فيشدانه من بدلته من الخلف ويهمسان بحرج :

ـــ بابا كفى . . بابا لاداعى . . .

وعندما تحرك القطار رأت آنيا كيف ركض أبوها قليلا فى اثر العربة وهو يترنح ويسكب الخمر ، وكان وجهه بائسا ، طيبا ، مذنبا .

وصاح :

ـــ هورا ــ ا ــ ا . . .

اصبح العروسان وحدهما . تفحص موديست اليكسييتش المقصورة ، ووزع المتاع على الارفف ، وجلس قبالة زوجته الشابة مبتسما . كان موظفا متوسط الطول ، بدينا ، مدملجا ، شبعان جدا ، بسالفين طويلين وبلا شارب ، وكان ذقنه الحليق المستدير البارز بشدة يشبه الكعب . وكان اكثر ما يميز وجهه انعدام الشارب ، وذلك المكان الحليق العارى ، الذى يلتقى تدريجيا بخدين مكتنزين مرتعشين كالجيلى . وكانت هيئته رصينة ، وحركاته متأنية ، واسلوبه ناعما .

قال مبتسما :

ـــ لا يسعنى الآن الا ان اتذكر احدى الوقائع . فمنذ خمس سنوات ، عندما حصل كوسوروتوف على وسام القديسة آنّا من الطبقة الثانية وجاء للشكر رد عليه صاحب السمو هكذا :

«اذن فقد اصبح لديك ثلاث آنّات : واحدة في عروتك ، واثنتان في رقبتك» . وجدير بالذكر انه في ذلك الوقت كانت زوجة كوسوروتوف قد عادت اليه لتوها ، وكانت امرأة سليطة ، مستهترة تدعى آنّا . آمل عندما احصل على وسام آنّا من الطبقة الثانية الا يكون لدى صاحب السمو مبرر ليقول لي نفس الشيء .

وابتسم بعينيه الصغيرتين . وابتسمت هي ايضا مضطربة من فكرة ان هذا الرجل يستطيع في اية لحظة ان يقبلها بشفتيه السمينتين ، وانها لم تعد تملك الحق في منعه من ذلك . كانت حركات جسمه البدين الناعمة تخيفها ، فكانت تشعر بالرهبة والتقزز . ونهض ، ونزع الوسام من رقبته على مهل ، ونزع السترة والصديري ، وارتدى الروب .

— هكذا . . . — قال وهو يجلس الى جوار آنيا .

وتذكرت كم كانت طقوس العرس مرهقة ، عندما خيل اليها ان القسيس والمدعوين وكل من في الكنيسة ينظرون اليها بأسى : فلماذا ، لماذا تتزوج ، هي الفتاة الرقيقة ، الجميلة ، من هذا السيد الكهل غير الطريف ؟ اليوم صباحا كانت في قمة الاعجاب من ان الامور سارت بهذا التوفيق ، ولكن اثناء الزفاف ، والآن في المقصورة ، أحست بأنها مذنبة ، مخدوعة ومضحكة . ها هي قد تزوجت من رجل ثرى ، ومع ذلك فهي بلا نقود ، وفستان الزفاف حيك دينا ، وعندما ودعها ابوها واخواها اليوم ادركت من وجوههم انه ليس لديهم كوبيك واحد . ترى هل سيتعشون اليوم ؟ وغدا ؟ ولسبب ما خيل اليها ان اباها واخويها يجلسون الآن بدونها جوعى ، ويشعرون بتلك الوحشة التي تملكتهم في اول مساء بعد دفن الأم .

وفكرت : «أوه ، كم انا تعيسة ! لماذا انا تعيسة هكذا ؟»

وبسماجة الرجل الرصين الذى لم يألف معاملة النساء لمس موديست اليكسييتش خصرها وربت على كتفها ، بينما كانت هى تفكر فى النقود ، وفى أمها وموتها . فعندما ماتت أمها اغرق ابوها ، بيوتر ليونتيتش ، مدرس الخط والرسم ، فى الشراب ، وحلت بهم الفاقة . لم يكن لدى الصبيين احذية واخفاف ، وجرجر الدائنون اباهم الى قاضى الصلح ، وجاء محضر المحكمة فحجز على الاثاث . . . يا للعار ! وكان على آنيا ان تعتنى بأبيها الثمل ، وترتق جوارب اخويها ، وتتردد على السوق ، وعندما كانوا يمتدحون جمالها وشبابها وحركاتها الرشيقة ، كان يخيل اليها ان الدنيا كلها ترى قبعتها الرخيصة وثقوب حذائها المدهونة بالحبر . وفى الليل الدموع وفكرة ملحة مزعجة بأنه قريبا جدا سيطردون أباها من المدرسة لضعفه ، وانه لن يحتمل ذلك فيموت ايضا كأمها . ولكن ها هى السيدات المعارف قد تحركن واخذن يبحثن عن عريس جيد لآنيا . وسرعان ما وجدن هذا الموديست اليكسييتش نفسه ، الذى لم يكن شابا ولا جميلا ، ولكن ذا نقود . كان لديه فى البنك حوالى مائة الف روبل ، وضيعة موروثة يؤجرها . وهو رجل يعرف الاصول وله مكانة لدى صاحب السمو . ولم يكن يكلفه شيئا ، كما قيل لآنيا ، ان يأخذ من صاحب السمو رسالة الى مدير المدرسة ، بل حتى الى رئيس مصلحة المعارف ، لكيلا يفصلوا بيوتر ليونتيتش . . .

وبينما كانت تتذكر هذه التفاصيل دوت الموسيقى فجأة واقتحمت النافذة مع صخب اصوات . لقد توقف القطار فى

محطة صغيرة . ووراء الرصيف كانوا يعزفون وسط حشد بحيوية على الاكورديون وعلى كمان رخيص معول ، ومن وراء اشجار البتولا والحور العالية ، من وراء الدور الصيفية المغمورة بنور القمر تناهت انغام اوركسترا عسكرية ؛ يبدو انه كانت هناك حفلة راقصة . وعلى الرصيف كان يتنزه المصطافون واهل المدينة الذين كانوا يأتون الى هنا فى الطقس الجيد ليستنشقوا الهواء النقى . وكان هنا أرطينوف ايضا ، مالك هذه الدور الصيفية ، ذلك الثرى الطويل البدين ، الاسود الشعر ، الذى كان يشبه بوجهه ارمنيا ، بعينين جاحظتين وفى بدلة غريبة . كان يرتدى قميصا مفكوك الازرار على صدره ، وحذاء طويلا بمهماز ، ومن كتفيه انسدل معطف خفيف اسود متجرجرا على الارض كذيل الفستان . وسار خلفه كلبان سلوقيان وقد نكسا سحنتيهما الحادتين .

كانت الدموع لا تزال تترقرق فى عينى آنيا ، الا انها لم تعد تذكر أمها او النقود او زفافها ، بل راحت تصافح التلاميذ والضباط المعارف ، وتضحك بمرح وتقول بسرعة :

— مرحبا ! كيف حالكم ؟

وخرجت الى فسحة العربة ، ووقفت تحت ضوء القمر بحيث يرونها بكامل هيئتها ، فى فستانها الجديد الرائع والقبعة . وسألت :

— لماذا توقفنا هنا ؟

فقيل لها :

— هنا مفرق طرق . ينتظرون القطار المعاكس .

واذ لاحظت ان أرطينوف يتطلع اليها ، زرت عينيها بدلال وتحدثت بالفرنسية بصوت عال . ولأن صوتها تردد بهذه الروعة بينما صدحت الموسيقى وانعكس القمر فى البركة ،

ولأن أرطينوف ، هذا الدون جوان والعابث المعروف كان يتطلع اليها بشراهة وفضول ، ولأن الجميع كانوا يشعرون بالمرح ، فقد تملكتها الفرحة فجأة ، وعندما تحرك القطار ، وأدى لها الضباط المعارف التحية مودعين ، كانت تدندن بلحن رقصة البولكا ، الذى راحت الفرقة العسكرية الهادرة فى مكان ما وراء الاشجار تبعث بانغامه فى اثرها . فعادت الى مقصورتها باحساس ، وكأنما اقنعوها فى المحطة الصغيرة بأنها ستكون سعيدة حتما ، وبالرغم من اى شىء .

امضى العروسان فى الدير يومين ثم عادا الى المدينة . وعاشا فى شقة حكومية . وعندما كان موديست اليكسييتش يذهب الى العمل كانت آنيا تعزف على البيانو ، او تبكى من الملل ، او تستلقى على التخت وتقرأ روايات او تتصفح مجلة ازياء . وكان موديست اليكسييتش يأكل كثيرا جدا اثناء الغداء ويتحدث عن السياسة وعن التعيينات والتنقلات والمكافآت ، وعن انه لابد من الكد ، وان الحياة الزوجية ليست متعة بل واجبا ، وانك اذا صنت الكوبيك صنت الروبل ، وانه يضع الدين والاخلاق فوق كل شىء . وكان يقول ممسكا بالسكين فى قبضته كالسيف :

— ينبغى ان يكون لكل شخص واجباته !

وكانت آنيا تستمع اليه وتخافه ولا تستطيع ان تأكل ، فتنهض عادة عن المائدة وهى جائعة . وبعد الغداء ينام الزوج ويشخر بصوت عال ، اما هى فتذهب لزيارة اهلها . وكان ابوها واخواها ينظرون اليها نظرة خاصة ، كأنما كانوا قبل وصولها بقليل يدينونها لانها تزوجت من اجل النقود من رجل ممل ، ثقيل الدم ، لا تحبه . وكان فستانها ذو الحفيف ،

واساورها ، وعموما مظهرها كسيدة يحرجهم ويهينهم . وفى حضرتها كانوا يشعرون بالخجل ولا يعرفون عم يتحدثون معها . ومع ذلك ظلوا يحبونها كما فى السابق ، ولم يتعودوا بعد على الغداء بدونها . كانت تجلس معهم الى المائدة فتأكل حساء الكرنب والعصيدة والبطاطس المحمرة بدهن الضأن الذى كانت تفوح منه رائحة الشمع . وكان بيوتر ليونتيتش يصب الفودكا من الابريق بيد مرتعشة فيشرب بسرعة ونهم وتقزز ، ثم يشرب كأسا اخرى ، ثم ثالثة . . . وكان بيتيا وأندريوشا ، النحيلان الشاحبان ، الواسعا العينين ، ينحيان الابريق ويقولان بارتباك :

— لاداعى يا بابا . . . كفى يا بابا . . .

وتنزعج آنيا ايضا وتتوسل اليه الا يشرب بعد ، فينفجر فجأة ويدق على الطاولة بقبضته صائحا :

— لن اسمح لاحد بمراقبتى ! عيال صغار ! طفلة ! ساطردكم جميعا من هنا !

ولكن صوته كان يبدى ضعفا وطيبة ، فلم يخف منه احد . وبعد الغداء عادة كان يتأنق . كان يقف امام المرآة طيلة نصف ساعة ، شاحبا ، بذقن مجروح من الحلاقة ، يمد عنقه النحيل ، ويتزين ، فتارة يمشط شعره وتارة يفتل شاربه الاسود ، ويرش العطر ، ويعقد ربطة العنق فراشة ، ثم يرتدى القفاز والقبعة الاسطوانية ، ويخرج لاعطاء دروس خصوصية . اما فى العيد فكان يبقى فى المنزل ويرسم بالالوان او يعزف على القدمية * التى كانت تفح وتزأر . وكان يحاول

* آلة موسيقية ، ضرب من الارغن ، تشبه بمظهرها البيانو . **المعرب** .

ان يستخرج منها انغاما منسقة ، هارمونية ، ويدندن ، او يغضب من الصبيين فيصيح بهما :

— يا اوغاد ! يا سفلة ! اتلفتم الآلة !

في المساء كان زوج آنيا يلعب الورق مع زملائه الذين كانوا يقطنون معه فى نفس المنزل الحكومى . واثناء اللعب كانت تجتمع زوجات الموظفين القبيحات ، المتأنقات بلا ذوق ، الفظات كالطاهيات ، فتتردد فى الشقة الشائعات القبيحة ، القليلة الذوق مثل زوجات الموظفين انفسهن . وكان يحدث ان يذهب موديست اليكسييتش مع آنيا الى المسرح . وفى فترات الاستراحة لم يكن يتركها تبتعد عنه خطوة ، بل كان يتجول معها فى الطرقات والردهة متأبطا ذراعها . واذ ينحنى محييا شخصا ما ، يهمس على الفور لآنيا : «مستشار دولة . . . استقبله صاحب السمو . . .» او «غنى . . . يملك داره الخاصة . . .» . وعندما يمران بجوار البوفيه كانت آنيا تتوق الى شىء حلو ، فقد كانت تحب الشيكولاته والجاتوه بالتفاح ، ولكنها لم تكن تملك نقودا وتخجل من سؤال زوجها . وكان هو يتناول ثمرة الكمثرى فيجسها بأصابعه ثم يسأل مترددا :

— بكم ؟

— بخمسة وعشرين كوبيكا .

— يا سلام ! — يقول ويضع الكمثرى فى مكانها . ولكن لما كان من المحرج الانصراف من البوفيه دون شراء شىء فقد كان يطلب زجاجة مياه سلتر ويشربها كلها وحده ، بينما تطفر الدموع من عينيه ، وفى تلك اللحظة كانت آنيا تمقته .

او يتضرج كله فجأة ، ويقول لها بسرعة :

— حيى هذه السيدة العجوز !

— ولكننى لا اعرفها .

— سيان . انها زوجة مدير الغرفة الاميرية ، حييها اقول لك ! — يلح متذمرا — لن ينكسر عنقك .

فتحيي آنيا بايماءة ، ولا ينكسر عنقها بالفعل ، ولكنها تشعر بمعاناة . كانت تفعل كل ما يريده زوجها ، وتمقت نفسها لانه خدعها وكأنها احمق حمقاء . لم تتزوج منه الا من اجل النقود فقط ، بينما اصبح لديها من النقود اقل مما كان قبل الزواج . فمن قبل كان ابوها على الاقل يعطيها عشرين كوبيكا بين الحين والحين ، اما الآن فلا تملك خردة . ولم تكن تجرؤ على اختلاس النقود سرا او سؤال زوجها ، فقد كانت تخشاه وترتعب منه . وخيل اليها انها تحمل الخوف من هذا الرجل فى قلبها منذ امد بعيد . ففى زمن ما فى طفولتها كانت تتصور ناظر المدرسة ارهب وارعب قوة تزحف نحوها كالعاصفة او كالقاطرة التى توشك ان تدهمها ؛ اما القوة الاخرى التى كانوا يتحدثون عنها فى الاسرة دائما ، والتى كانوا يخشونها لسبب ما فكان صاحب السمو ؛ وكانت هناك ايضا بضع قوى اصغر ، من بينها مدرسو المدرسة ذوو الشوارب المحلوقة ، الصارمون القساة ، ثم اخيرا موديست اليكسييتش ، الرجل الذى يراعى الاصول ، والذى يبدو حتى بملامحه اشبه بالناظر . واتحدت هذه القوى فى خيال آنيا فى كل واحد ، وزحفت فى صورة دب ابيض ضخم رهيب على الضعفاء والمذنبين امثال ابيها ، فكانت تخشى ان تقول شيئا معارضا ، وتبتسم بتكلف وتبدى الرضا المتصنع عندما يلاطفونها بغلظة ، ويدنسونها بالعناق الذى يلقى فى قلبها الرعب .

مرة واحدة فقط تجرأ بيوتر ليونتيتش فطلب منه خمسين روبلا قرضا لكى يسدد احد الديون الكريهة ، ولكن اى عذاب كان ذلك !

فقد فكر موديست اليكسييتش قليلا ثم قال :

— حسنا ، سأعطيك . ولكنى انبهك الى اننى لن اساعدك بعد ما لم تكف عن الشراب . ان هذا الضعف عار على شخص يخدم فى الدولة . ولا يسعنى الا ان اذكرك بحقيقة معروفة ، وهى ان هذه الشهوة قد اهلكت كثيرا من الاشخاص الموهوبين ، فى حين انهم لو تجنبوها لربما بلغوا مع الزمن مراكز مرموقة .

وتتابعت عبارات طويلة : «وبقدر ما . . .» . و«انطلاقا من واقع ان . . .» و«بناء على ما سبق ذكره» ، فكان بيوتر ليونتيتش المسكين يعانى من الذل ويشعر برغبة شديدة فى الشرب .

وكان على الصبيين اللذين يزوران آنيا عادة فى احذية ممزقة وسراويل مهترئة ، ان يسمعا ايضا المواعظ الطويلة . كان موديست اليكسييتش يقول لهما :

— ينبغى ان يكون لكل شخص واجباته !

ولا يعطى نقودا . ولكنه فى المقابل اهدى آنيا خواتم واساور وبروشات ، قائلا انه من المستحسن اقتناء هذه الاشياء لليوم الاسود . وكثيرا ما كان يفتح صوانها ويجرى تفتيشا ليتأكد هل كل شىء فى مكانه .

٢

ثم حل الشتاء . وقبل اعياد الميلاد بفترة نشرت الصحيفة المحلية اعلانا بأنه فى ٢٩ ديسمبر سيقام فى مجمع النبلاء الحفل الشتوى المعهود . فكان موديست اليكسييتش يتهامس مع زوجات الموظفين كل مساء ، بعد الفراغ من لعب الورق ، ويتطلع الى آنيا بقلق ، ثم يظل طويلا يذرع الغرفة مستغرقا فى التفكير ، واخيرا ، وذات ساعة متأخرة من المساء ، توقف امام آنيا وقال :

— ينبغى ان تفصلى فستانا للحفل ، مفهوم ؟ ولكن ارجوك ، تشاورى مع ماريا جريجوريفنا ونتاليا كوزمينشنا .

واعطاها مائة روبل ، فأخذتها . ولكنها لم تستشر احدا عندما اوصت على فستان الحفل بل تحدثت فقط مع ابيها ، وحاولت ان تتصور كيف كانت امها ستتزين للحفل . كانت المرحومة امها تتأنق دائما حسب آخر موضة ، وكانت تنشغل دائما بآنيا وتلبسها بأناقة كدمية ، وعلمتها التحدث بالفرنسية ورقص المازوركا جيدا (فقد عملت امها مربية لخمس سنوات قبل ان تتزوج) . وكانت آنيا ، مثل امها ، تعرف كيف تصنع فستانا جديدا من ثوب قديم ، وتغسل القفاز فى البنزين وتستأجر الـ bijoux * ، وكأمها كانت تجيد ايضا زر عينيها واللثغ واتخاذ الاوضاع الجميلة ، وابداء الاعجاب عند الضرورة ، والتطلع بحزن وغموض . اما عن ابيها فقد ورثت لون الشعر الداكن ، والعينين السوداوين والعصبية ، وطريقته فى التأنق الدائم .

---

* الحلى (بالفرنسية فى الاصل) .

وقبيل الرحيل الى الحفل بنصف ساعة ، عندما دخل عليها موديست اليكسييتش بدون سترة لكى يضع قلادة الوسام فى رقبته امام مرآتها ، سحره جمالها وبريق فستانها الهوائى المنعش ، فمشط سالفيه برضى وقال :

— كم انت جميلة . . . كم انت جميلة ! — واستطرد فجأة بنبرة احتفالية — انيوتا ! انا قد اسعدتك ، واليوم تستطيعين انت اسعادى . ارجوك تعرفى بزوجة صاحب السمو ! بالله عليك ! فعن طريقها يمكننى ان اصبح كبير المعاونين .

وذهبا الى الحفل . وها هو مجمع النبلاء ، والمدخل ذو الحاجب . والردهة ذات المشاجب ، ومعاطف الفراء ، والخدم المهرولون ، والسيدات العاريات الاكتاف والصدور ، وهن يتقين بالمراوح تيارات الهواء . وتفوح رائحة غاز الاستصباح والجنود . وعندما سمعت آنيا الموسيقى وهى تصعد الدرج متأبطة ذراع زوجها ، ورأت نفسها بالكامل فى مرآة ضخمة ، وقد اضاءتها عشرات المصابيح ، استيقظت الفرحة فى قلبها وذلك الهاجس بالسعادة ، الذى تملكها فى تلك الامسية القمرية على المحطة الصغيرة . سارت بعزة ، وثقة ، وهى تحس بنفسها لاول مرة لا كفتاة ، بل كسيدة ، وتقلـــد بمشيتها وحركاتها لا ارادياً المرحومة امها . ولاول مرة فـــى حياتها احست بأنها غنية وحرة . حتى حضور زوجها لـــم يضايقها ، ذلك لانها ما ان عبرت عتبة المجمع حتى ادركت بغريزتها ان وجود زوج عجوز بقربها لا يحط من قدرهـــا ابدا ، بل بالعكس ، يضفى عليها طابع الغموض المثير الذى يستهوى الرجال الى تلك الدرجة . وفى القاعة الكبيرة كان الاوركسترا يدوى وقد بدأ الرقص . وبعد الشقة الحكومية

نظرت آنيا التى بهرها انطباع الاضواء والالوان والموسيقى والصخب الى الصالة وفكرت : «آه ما اروع هذا !» ، وعلى الفور ميزت فى الحشد جميع معارفها ، جميع من رأتهم من قبل فى الحفلات او النزهات ، جميع هؤلاء الضباط والمدرسين ، والمحامين ، والموظفين ، والاقطاعيين ، وصاحب السمو ، وارطينوف ، وسيدات المجتمع الراقى المتأنقات ، العاريات الأكتاف والصدور بشدة ، الجميلات والقبيحات ، اللائى شغلن مواقعهن فى اكشاك واجنحة السوق الخيرية استعدادا لبدء البيع لصالح الفقراء . وظهر فجأة ضابط ضخم بكتفيات حريرية مقصبة — كانت قد تعرفت به فى شارع ستارو كييفسكايا وهى بعد تلميذة ، ولم تعد تذكر اسمه الآن — وكأنما انشقت الارض عنه ، ودعاها لرقصة الفالس ، فحلقت مبتعدة عن زوجها ، واصبح يخيل اليها انها تسبح فى زورق شراعى اثناء عاصفة شديدة ، بينما بقى زوجها بعيدا على الشاطئ . . . رقصت بهيام وولع رقصات الفالس والبولكا والكادريل ، والايدى تتناقلها ، وهى نشوى من الموسيقى والصخب ، وتخلط الكلمات الروسية بالفرنسية ، وتلثغ وتضحك ولا تفكر لا فى زوجها ولا فى احد او شيء . لقد حازت على اعجاب الرجال ، وكان ذلك واضحا ، ولم يكن من الممكن ان يكون غير ذلك ، وكانت تختنق من الانفعال وتعصر المروحة فى يدها بتوتر وتشعر بالظمأ . واقترب منها ابوها بيوتر ليونتيتش ، فى فراك مجعد تفوح منه رائحة البنزين ، ومد لها طبقا به آيس كريم احمر .

وقال لها وهو يرمقها باعجاب :

— انت اليوم فاتنة . لم اشعر ابدا بالاسف كما شعرت اليوم على تسرعك بالزواج . . . لماذا ؟ انا اعرف انك فعلت

ذلك من اجلنا ، ولكن . . . — واخرج بيدين مرتعشتين رزمة نقود صغيرة وقال — اليوم اخذت اجر الدروس واستطيع ان اسدد دينى لزوجك .

ودست الطبق فى يديه وحلقت بعيدا عنه وقد سحبها شخص ما ، ورأت من فوق كتفى مراقصها كيف انزلق ابوها على باركيه الارضية فاحتضن سيدة ودار بها فى الصالة .

وفكرت : «كم هو لطيف عندما يكون مفيقا !» .

رقصت المازوركا مع ذلك الضابط الضخم . كان يخطو بثقل وعظمة كأنما ذبيحة فى حلة ، ويدير كتفيه وصدره ، ولا يكاد يحرك قدميه ، فقد كان غير راغب فى الرقص ابدا ، اما هى فكانت تخفق من حوله مستفزة اياه بجمالها وعنقها المكشوف . وكانت عيناها تتقدان حماسة ، وحركاتها تفيض حرارة ، اما هو فازداد لامبالاة ومد اليها يديه بتفضل كأنه ملك .

وتردد فى الجمع :

— برافو ! برافو !

ولكن شيئا فشيئا لم يصبر الضابط الضخم . دبت فيه الحياة ، فانفعل واستجاب للسحر فتملكته الحمية واصبح يتحرك بخفة وصبا ، اما هى فكانت تدير كتفيها فحسب وتحدق بمكر ، كأنما هى التى اصبحت ملكة وهو عبد ، وفى تلك الاثناء خيل اليها ان الصالة كلها تنظر اليهما ، وان كل هؤلاء الناس يذوبون تأثرا ويغبطونهما . وما ان شكرها الضابط الضخم حتى انشق الجمهور فجأة ، واستطالت قامات الرجال بصورة غريبة وتهدلت اذرعهم . . . كان صاحب السمو قادما نحوها ، فى فراك بنجمتين . نعم ، كان صاحب السمو



قادما نحوها بالذات اذ كان يحدق فيها مباشرة ويبتسم ابتسامة معسولة وخلال ذلك كان يتلمظ بشفتيه ، وهو ما كان يفعله دائما عندما يرى نساء جميلات .

وراح يقول :

— سعيد جدا ، سعيد جدا ، . . . سآمر بسجن زوجك لانه اخفى عنا هذا الكنز حتى الآن — واستطرد يقول مادا لها يده — جئتك بتكليف من زوجتى . ينبغى ان تساعدينا . . . إم . . يجب ان تخصص لك جائزة الجمال . . كما فى امريكا . . . إم . . الامريكيون . . . زوجتى تنتظرك بفارغ الصبر .

وقادها نحو كشك ، الى سيدة كهلة ، كان الجزء الاسفل من وجهها ضخما بما لا يتسق وبقية الوجه ، فبدت وكأنما وضعت فى فمها حجرا كبيرا .

وقالت لآنيا بصوت اخنف ناغم :

— ساعدينا . كل السيدات الجميلات يعملن فى السوق الخيرية ، وانت وحدك التى تلهو لسبب ما . لماذا لا تريدين مساعدتنا ؟

وانصرفت ، وشغلت آنيا مكانها بجوار سماور فضى حوله فناجين الشاى . وعلى الفور بدأت تجارة نشيطة . لم تكن آنيا تتقاضى مقابل فنجان الشاى اقل من روبل ، واجبرت الضابط الضخم على شرب ثلاثة فناجين . . . وجاء ارطينوف ، ذلك الثرى ذو العينين الجاحظتين الذى يعانى من اللهاث ، ولكنه لم يكن فى حلته الغريبة التى رأته آنيا فيها صيفا ، بل فى فراك ، مثل الجميع . ودون ان يحول بصره عن آنيا شرب كأس شمبانيا ودفع مائة روبل ، ثم شرب شايا ودفع

مائة اخرى . . فعل كل ذلك فى صمت ، وهو يعانى من الربو . . . ومضت آنيا تنادى الزبائن وتتقاضى منهم النقود ، وهى واثقة تماما من ان ابتساماتها ونظراتها لا تجلب لهؤلاء الناس سوى المتعة الخالصة . وادركت انها لم تخلق الا لهذه الحياة الصاخبة البراقة الضاحكة بموسيقاها ورقصها ومعجبيها ، وبدا لها مضحكا خوفها القديم من تلك القـــــــــــوة التى تزحف نحوها وتهدد بدهمها . لم تعد تخشى احدا ، ولم تأسف الا لغياب امها التى لو كانت حية لشاركتها الفرحة بنجاحها .

اقترب بيوتر ليونتيتش ، الذى اصبح شاحبا ، وان كان لا يزال يقف راسخا على قدميه ، من الكشك وطلب كأس كونياك . وتضرجت آنيا وهى تتوقع ان يتفوه بشيء غير لائق (فقد اصبحت تشعر بالخجل من ان لها ابا فقيرا وعاديا الى هذا الحد) ، ولكنه شرب ، والقى اليها بعشرة روبلات من رزمته الصغيرة ، وابتعد بعظمة دون ان يقول كلمة واحدة . وبعد قليل رأته وهو يراقص سيدة فى grand-rond ، ولكنه اصبح الآن يترنح ويصرخ بشيء ما ، مما اثار خجل صاحبته الشديد ، فتذكرت آنيا كيف كان يترنح ويصرخ هكذا فى الحفل منذ ثلاث سنوات ، وانتهى الامر بأن حمله الشرطى الى البيت لينام ، وفى اليوم التالى هدده الناظر بالفصل من الوظيفة . اوه ، كم جاءت هذه الذكرى فى غير وقتها !

عندما اطفئت نيران السماور فى الاكشاك وسلمت فاعلات الخير حصيلة البيع الى السيدة الكهلة ذات الحجر فى فمها ، تأبط ارطينوف ذراع آنيا وقادها الى الصالة ، حيث اقيمت مأدبة عشاء لجميع المشتركين فى السوق الخيرية . ولم يزد

عدد المدعوين عن عشرين شخصا ولكن الصخب كان شديدا . ورفع صاحب السمو نخبا : «فى هذا المطعم الفاخر سيكون من المناسب ان نشرب من اجل ازدهار المطاعم الرخيصة التى اقيمت من اجلها سوق اليوم» . واقترح الجنرال ان يشربوا «نخب القوة التى تتراجع امامها حتى المدفعية» فمد الجميع كؤوسهم ليقرعوها بكؤوس السيدات . كان الجو فى غاية المرح !

وعندما اوصلوا آنيا الى البيت كانت تباشير الفجر تلوح ، وكانت الطاهيات يمضين الى السوق . ونزعت آنيا ثيابها فرحة ، ثملة ، مشبعة بالانطباعات الجديدة ، منهوكة القوى ، وارتمت على السرير فنامت على الفور . . .

وفى حوالى الساعة الثانية ايقظتها الخادم وابلغتها ان السيد ارطينوف جاء للزيارة . فارتدت ثيابها على عجل وذهبت الى غرفة الجلوس . وبعد ارطينوف سرعان ما جاء صاحب السمو ليشكرها على مساهمتها فى السوق الخيرية . وقبل يدها وهو ينظر اليها نظرة معسولة ويتلمظ بشفتيه ، ورجاها ان تسمح له بزيارتها مرة اخرى ، ثم رحل ، بينما وقفت هى وسط الغرفة ، مذهولة ، مسحورة ، غير مصدقة ان تحولا فى حياتها ، تحولا مدهشا ، قد وقع بهذه السرعة . وفى تلك اللحظة دخل زوجها موديست اليكسييتش . . . ووقف امامها الآن بذلك التعبير المتزلف الحلو الخانع المبجل ، الذى تعودت ان تراه على وجهه فى حضور الاشخاص الاقوياء الكبار . فقالت له بابتهاج وسخط واحتقار ، واثقة من انه لن يحدث لها شىء عقابا على ذلك ، وهى تلفظ كل كلمة بوضوح :

— اغرب من هنا ايها الأحمق !

وبعد ذلك لم يعد لدى آنيا يوم فراغ واحد ، لانها

كانت تشارك اما فى رحلة خلوية واما فى نزهة ، واما فى مسرحية . وكانت تعود الى البيت كل يوم قرب الصباح فترقد فى غرفة الجلوس ، على الارض ، ثم تحكى للجميع بتأثر كيف تنام تحت الزهور . واصبحت بحاجة الى نقود كثيرة جدا ، ولكنها لم تعد تخشى موديست اليكسييتش فراحت تنفق نقوده وكأنها نقودها . ولم تكن ترجوه او تطالبه بل ترسل اليه الفواتير او رسائل قصيرة : «ادفع لحامله ٢٠٠ روبل» او «ادفع ١٠٠ روبل فورا» .

وفى عيد الفصح حصل موديست اليكسييتش على وسام قلادة آنا من الطبقة الثانية . وعندما جاء الى صاحب السمو ليشكره ، نحى الاخير الصحيفة وغاص فى مقعده اكثر . وقال وهو يتملى يديه البيضاوين بأظافرهما الوردية :

— اذن فقد اصبح لديك ثلاث آنّات . واحدة فى عروتك واثنتان فى رقبتك .

فوضع موديست اليكسييتش اصبعين على شفتيه خشية ان يضحك عاليا وقال :

— لم يبق الآن الا ان ننتظر مجيء فلاديمير الصغير . واننى لأتجاسر يا صاحب السمو فأرجوكم ان تكونوا راعيه .

كان يلمح الى وسام فلاديمير من الطبقة الرابعة ، ومضى يتصور كيف سيحكى فى كل مكان عن قفشته هذه الموفقة ببراعتها وجسارتها ، واراد ان يقول شيئا آخر ، موفقا ايضا ، ولكن صاحب السمو انكب على الجريدة من جديد وأومأ برأسه . . .

اما آنيا فكانت تتنزه فى عربة الترويكا ، وتذهب مع ارطينوف الى رحلات الصيد ، وتمثل فى المسرحيات ذات الفصل الواحد ، وتتعشى ، وندرت زياراتها لاهلها . كانوا

الآن يتغدون وحدهم . واغرق بيوتر ليونتيتش فى الشراب اكثر من ذى قبل ، ولم تعد لديه نقود ، وباعوا القدمية من زمان سدادا للديون . ولم يعد الصبيان يتركانه يخرج الى الشارع وحده ، وكانا يراقبانه دائما حتى لا يسقط . وعندما كانـــوا يلاقون آنيا اثناء التنزه فى شارع ستاروكييفسكايا راكبة عربة بحصانين ، وارطينوف فى مكان الحوذى ، كان بيوتر ليونتيتش ينزع القبعة ويهم بأن يصرخ بشيء ما ، ولكن بيتيا واندريوشا يمسكان به من تحت ابطيه ويقولان بصوت ضارع :

ـــ لا داعى يا بابا . . . كفى يا بابا . . .

١٨٩٥

المنزل ذو العلّية

(رواية مصور)

١

كان ذلك منذ حوالى ٦ — ٧ سنوات عندما كنت اعيش في احد مراكز محافظة (ت) في ضيعة الاقطاعى بيلوكوروف ، الشاب الذى كان يستيقظ مبكرا جدا ويرتدى صديريا ثقيلا ، ويشرب البيرة في المساء ويشكو لى طوال الوقت من انه لا يجد تعاطفا في اى مكان ولا من اى شخص . كان يعيش في جناح بالبستان ، اما انا ففى بيت السيد القديم ، في قاعة ضخمة ذات اعمدة ، لم يكن بها اى اثاث سوى كنبة عريضة كنت انام عليها ، وطاولة كنت انشر فوقها اوراق اللعب . وحتى في الاوقات الصحوة ، كان هناك شيء ما يئز دائما في المدافئ ، وفى اوقات العاصفة يرتعش البيت كله ويبدو انه يتمزق اشلاء ، فتشعر ببعض الخوف ، خاصة في الليل ، عندما يضيء البرق فجأة النوافذ العشر الضخمة كلها .

ولما كان القدر قد رمانى بالفراغ الدائم ، فقد كنت لا افعل شيئا على الاطلاق . كنت اقضى الساعات الطوال انظر من نوافذى الى السماء ، والطيور ، وممرات البستان ، واقرأ كل ما يحمله لى البريد ، وانام . واحيانا كنت اغادر

البيت واظل اتسكع في مكان ما حتى ساعة متأخرة من المساء .

وذات مرة ، اثناء عودتي ، دلفت صدفة الى حديقة دار غير معروفة لي . كان الشمس قد اختفت ، وامتدت ظلال المساء على الحنطة المزهرة . وانتصب صفان من اشجار الحور العجوز المتلاصقة والطويلة جدا مثل جدارين اصمين ، فصنعا ممرا مظلما جميلا . وعبرت السياج بسهولة وسرت في هذا الممر اتزحلق على الاوراق الابرية التي كانت تغطي الارض بسمك شبر . كان المكان هادئا ، مظلما ، وعلى قمم الاشجار العالية فقط كان يلوح في بعض الاماكن ضوء ذهبي ساطع يتموج بالوان الطيف في خيوط العنكبوت . وفاحت رائحة الصمغ بشدة ، الى درجة خانقة . ثم انعطفتُ بعد ذلك الى ممر باشجار زيزفون . وهنا ايضا ساد الاهمال والشيخوخة . . كانت اوراق العام الماضي تخشخش بحزن تحت الاقدام ، وتخفت ظلال الغسق بين الاشجار . والى اليمين ، في بستان الفاكهة العجوز صدح طائر الصفارية بصوت واهن ، ويبدو انه هو ايضا كان عجوزا . وها هي اشجار الزيزفون تنتهي ، وسرت بجوار بيت ابيض ذي شرفة وعلية ، وفجأة انكشف امامي منظر فناء بيت السادة ، وبركة عريضة بمسبح ، ومجموعة كثيفة من الصفصاف الاخضر ، وقرية على الشاطئ الآخر ببرج اجراس عال ضيق يشتعل فوقه صليب عاكسا اشعة الشمس الغاربة . وللحظة هبت عليّ روائح شيء ساحر قريب الى النفس ومعروف جدا ، وكأنما رأيت هذا المنظر نفسه في وقت ما ايام الطفولة .

وعند البوابة الحجرية البيضاء التي كانت تفضي من الفناء الى الحقل ، عند هذه البوابة العتيقة الصلبة ذات الاسود ،

وقفت فتاتان . كانت احداهما ، وهي الاكبر ، نحيلة ، شاحبة ، جميلة جدا ، تحمل على رأسها كومة من الشعر الكستنائي ، وبفم صغير عنيد ، وكان تعبير وجهها صارما ، ولم تكد توليني انتباها . اما الاخرى فكانت شابة جدا ، في حوالي السابعة عشرة او الثامنة عشرة لا اكثر . . وكانت هي ايضا نحيلة شاحبة ، بفم واسع وعينين واسعتين ، ونظرت اليّ بدهشة عندما مررت بالقرب منهما ، وقالت بالانجليزية شيئا ما واعتراها الخجل ، وخيل اليّ ان هذين الوجهين الرقيقين معروفان لي ايضا منذ زمن بعيد . وعدت الى المنزل باحساس من رأى حلما جميلا .

وبعد ذلك بوقت قصير ، عندما كنت اتجول مع بيلوكوروف بجوار المنزل ، دلفت الى الفناء بغتة عربة بنوابض ، وخشخشت الاوراق تحت عجلاتها ، وفيها كانت تجلس احدى تلكما الفتاتين . كانت الفتاة الاكبر . وقد جاءت بكشف تبرعات لمنكوبي الحريق . ودون ان تتطلع فينا اخبرتنا بجدية وتفصيل عن عدد المنازل التي احترقت في قرية سيانوفو ، وعدد الرجال والنساء والاطفال الذين اصبحوا بلا مأوى ، وما هي التدابير التي تنوي اتخاذها في المراحل الاولى لجنة اغاثة منكوبي الحريق التي هي عضو فيها الآن . وبعد ان اعطتنا الكشف لنوقعه اخذته واخفته وعلى الفور ودعتنا .

وقالت لبيلوكوروف وهي تناوله يدها :

— لقد نسيتنا تماما يا بيوتر بتروفتش . زرنا ، واذا كان monsieur N (وذكرت اسمي) يرغب في ان يرى كيف يعيش محبو موهبته ويتفضل بزيارتنا فستكون ماما وانا سعداء .

واومأت برأسي محييا .

وبعد ان رحلت راح بيوتر بتروفتش يحكي لي . قال ان هذه الفتاة من اسرة طيبة وتدعى ليديا فولتشانينوفا ، اما الضيعة التي تعيش فيها مع امها واختها ، وكذلك القرية على شاطئ البركة الآخر فتسمى شيلكوفكا . وكان والدها يحتل في وقت ما مكانة مرموقة في موسكو ، ومات وهو في رتبة المستشار السري . ورغم مواردهم الجيدة فقد عاش آل فولتشانينوف في القرية صيفا وشتاء دون ان يغادروها ، وكانت ليديا مدرسة في مدرسة ريفية في شيلكوفكا ، وتتقاضى ٢٥ روبلا في الشهر . ولم تكن تنفق على نفسها سوى هذه النقود ، و تعتـــز بانها تعيش على حسابها .

وقال بيلوكوروف :

— اسرة شيقة . اعتقد اننا ينبغي ان نزورهم ذات مرة . وسيكونون سعداء جدا .

وذات مرة بعد الغداء ، في احد الاعياد تذكرنا آل فولتشانينوف ، فتوجهنا اليهم في شيلكوفكا . كانت الأم والفتاتان في البيت . ويبدو ان الأم يكاترينا بافلوفنا كانت في وقت ما جميلة ، اما الآن فاصبحت مترهلة قبل الأوان ، مريضة بضيق التنفس وحزينة وشاردة ، وحاولت ان تسليني بالحديث عن التصوير . وعندما علمت من ابنتها انني ربما ازور شيلكوفكا ، تذكرت على عجل منظرين او ثلاثة من رسمي كانت قد رأتها في المعارض بموسكو ، فراحت تسألني الآن عما كنت اريد ان اعبر عنه فيها . اما ليديا ، او كما يسمونها في البيت ليدا ، فتحدثت مع بيلوكوروف اكثر مما تحدثت معي . كانت تسأله بجدية ، ودون ابتسام ، لماذا لا يعمل

فى مجلس الاقليم ، ولماذا لم يحضر حتى الآن اجتماعا واحدا للمجلس .

وقالت بتأنيب :

— لا يصح يا بيوتر بتروفتش ، لا يصح . عيـــب عليك .

وقالت امها مؤمنة :

— صحيح يا ليدا صحيح . . لا يصح .

واستطردت ليدا تقول وهى تخاطبنى :

— مركزنا كله فى ايدى بلاجين . هو رئيس مجلس الادارة ، وقد وزع جميع المناصب فى المركز على اولاد اخوته أنسابه ويفعل ما يريد . ينبغى الكفاح ضده . وعلى الشباب ان يشكل جماعة قوية ، ولكن ها انت ترى شبابنا . عيب يابيوتر بتروفتش .

وصمتت الاخت الصغرى جينيا عندما دار الحديث عن مجلس الاقليم . لم تكن تشارك فى الاحاديث الجدية ، ولم تكن العائلة تعتبرها كبيرة بعد ، وكانوا يدعونها كالصغار بـ«ميسوس» لانها فى طفولتها كانت تدعو مربيتها **ميس** . ظلت تتطلع الىَّ طوال الوقت بفضول ، وعندما تفرجت فى الالبوم على الصور اخذت تشرح لى : «هذا عمى . . . هذا ابى فى العماد» ، وتمر باصبعها على الصور ، وتمسنى بكتفها كالاطفال ، فرأيت عن قرب صدرها الضعيف الذى لم يكتمل ، وكتفيها الدقيقتين ، وضفيرتها ، وجسدها النحيل ، المشدود بقوة بحزام .

ولعبنا الكروكت ، و lawn-tennis وتجولنا فى البستان ، وشربنا الشاى ، ثم جلسنا طويلا الى مائدة العشاء .

وبعد القاعة الضخمة الخاوية ذات الاعمدة احسست بنوع من الضيق في هذا المنزل الصغير المريح الذى لم تكن على جدرانه لوحات زيتية ويخاطب اهله الخدم بصيغة الجمع ، وبدا لى كل ما فيه شابا ونقيا بفضل وجود ليدا وميسوس ، وانبعثت من كل شيء رائحة الاستقامة . واثناء العشاء تحدثت ليدا مع بيلوكوروف مرة اخرى عن مجلس الاقليم ، وعن بلاجين ، وعن مكتبات المدارس . لقد كانت فتاة حية ، مخلصة ، ذات عقيدة ، وكان الاستماع اليها ممتعا ، رغم انها كانت تتحدث كثيرا وبصوت عال ، ربما لانها تعودت على ذلك في المدرسة . ولكن صاحبى بيوتر بتروفتش ، الذى كانت لديه منذ ايام الدراسة عادة تحويل اى حديث الى نقاش ، كان يتحدث بملل وتراخ وبجمل طويلة ، وبرغبة ظاهرة في ان يبدو شخصا ذكيا وتقدميا . وبينما كان يلوح بيديه اثناء الحديث اسقط وعاء الصلصة بكمه فظهرت على المفرش بقعة كبيرة ، ولكن احدا غيرى ، فيما بدا ، لم يلحظ ذلك .

وعندما غادرنا عائدين كان الظلام قد حل وساد الهدوء .

وقال بيلوكوروف :

— ليست التربية الجيدة هى الا تريق الصلصة على المفرش ، بل الا تلاحظ ذلك عندما يفعله شخص آخر — ثم تنهد وقال — نعم ، اسرة رائعة ، مثقفة . لقد تخلفت عن الناس الطيبين ، آه كم تخلفت ! وكل ذلك بسبب الاعمال ، الاعمال ! الاعمال !

وتحدث عن العمل الكثير الذى ينبغى ان تقوم به اذا اردت ان تكون مالكا ريفيا نموذجيا . اما انا ففكرت : ياله من رجل ثقيل وكسول . وعندما يتحدث عن شيء ما جدى

يمط بتوتر «إ ــ إ ــ إ» ويعمل ايضا ببطء مثلما يتحدث ، ويتأخر دائما عن المواعيد . لم اكن اثق فى روحه العملية ايضا لأن الرسائل التى كنت اعطيها له ليرسلها بالبريد كانت تبقى اسابيع عديدة فى جيبه .

ودمدم وهو يسير بجانبى :

ــ اصعب شيء انك تعمل ولا تجد تعاطفا من احد ، لا أدنى تعاطف .

٢

اخذت اتردد على آل فولتشانينوف . وكنت اجلس عادة على درجة الشرفة السفلية . كان يعذبنى سخطى على نفسى ، وكنت آسفا على حياتى التى كانت تمضى بهذه السرعة وعلى هذا النحو غير الممتع ، فرحت افكر فى انه من الخير لو استطعت ان انزع من صدرى قلبى الذى اصبح ثقيلا هكذا . وفى تلك الاثناء كانوا يتحدثون فى الشرفة ، ويتناهى حفيف الفساتين ، وتقليب صفحات كتاب . وتعودت على ان ليدا تستقبل المرضى نهارا وتوزع الكتب ، وتذهب كثيرا الى القرية حاسرة الرأس ، حاملة مظلة ، وتتحدث فى المساء بصوت عال عن مجلس الاقليم وعن المدارس . هذه الفتاة النحيلة الجميلة ، الصارمة دوما ، ذات الفم الرشيق الخطوط ، كانت تقول لى دائما بصوت جاف عندما يبدأ حديث عملى :

ــ هذا ليس ممتعا لك .

لم اكن اروق لها . ولم تكن تحبنى لاننى ارسم مناظر ،

ولا اصور في لوحاتي احتياجات الشعب ، وكنت ، كما بدا لها ، لامباليا تجاه ما كانت تؤمن به بقوة . واذكر عندما كنت مسافرا على شاطىء بحيرة «البايكال» انني قابلت فتاة من البوريات ترتدي قميصا وسروالا من القماش الازرق وتمتطي جوادا . وسألتها ان تبيع لي غليونها ، وطوال حديثنا كانت تنظر باحتقار الى وجهي الاوروبي والى قبعتي ، وفي لحظة ملت الحديث معي فاطلقت صيحة وركضت بالحصان مبتعدة . كذلك كانت ليدا تحتقر ما هو غريب في . ولم تظهر ابدا نفورها مني ، ولكني كنت اشعر به ، فكنت احس بالغيظ وانا جالس على درجة الشرفة السفلية فاقول ان علاج الفلاحين ، بينما لست انت طبيبا ، انما هو خداع لهم ، وانه من السهل ان تكون خيّرا عندما تملك الفي ديسياتينا * .

اما شقيقتها ميسوس فلم تكن لديها اية هموم ، فكانت تقضي ايامها في فراغ تام ، مثلي . وعندما تستيقظ صباحا تمسك على الفور بكتاب وتقرأ وهي جالسة في الشرفة في مقعد عميق . فكانت قدماها لا تكادان تلمسان الارض ، او تختفي مع الكتاب في ممر الزيزفون ، او تمضي خارج البوابة الى الحقل . كانت تقرأ طوال النهار وهي تحدق في الكتاب بنهم . ومن نظرتها التي كانت تصبح احيانا مرهقة مذهولة ، ووجهها الذي يشحب بشدة كان بالامكان ان تخمن كم ترهق هذه القراءة مخها . وعندما آتي وتراني ، كانت تحمـــر

---

* الديسياتينا — مقياس روسي قديم لمسطح الارض يعادل ١,٠٩ هكتار . **المعرب** .



قليلا ، وتنحى الكتاب ، وتحدق فى وجهى بعينيها الواسعتين وتروى لى بحيوية ما حدث ، كأن تحدثنى عن اشتعال السناج فى غرفة الخدم ، او ان احد عمالهم اصطاد فى البركة سمكة كبيرة . وفى الايام العادية كانت ترتدى قميصا فاتحا وجونلة زرقاء قاتمة . وكنا نتنزه معا ونجمع الكرز للمربى ونسبح بالقارب ، وعندما كانت تقفز لتقطف الكرز ، او تجذف ، كانت ذراعاها النحيلتان الضعيفتان تشفان من اكمامها الواسعة . واحيانا كنت ارسم مشهدا فتقف بجوارى وتتطلع باعجاب .

وفى احد ايام الاحد ، فى نهاية يوليو جئت الى آل فولتشانينوف صباحا ، فى حوالى الساعة التاسعة . سرت فى الحديقة بعيدا عن البيت واخذت ابحث عن الفطر الابيض الذى كان كثيرا جدا فى ذلك الوقت ، واضع علامات بجواره لكى اجمعه مع جينيا فيما بعد . وهبت ريح دافئة . ورأيت جينيا وامها فى فستانين فاتحين من فساتين الاعياد ، قادمتين من الكنيسة الى البيت ، وكانت جينيا تثبت القبعة على رأسها كيلا تطوح بها الريح . ثم سمعتهم يشربون الشاى فى الشرفة .

وبالنسبة لى ، كرجل خالى البال ، يبحث عن تبرير لفراغه الدائم ، كانت هذه الاصباح العيدية فى ضياعنا تبدو لى دائمة جذابة بصورة غير عادية . عندما يشع البستان الاخضر فى الشمس ، وهو لا يزال رطبا من الندى ، فيبدو سعيدا ، وعندما تتضوع قرب البيت رائحة الخزامى والدفل ، والشباب قد عاد لتوه من الكنيسة ويشرب الشاى فى الحديقة ، وعندما يلبس الجميع ثيابا لطيفة ويعلو وجوههم المرح ، وعندما تعلم ان كل هؤلاء الاشخاص الاصحاء الشبعى الجميلين لن يفعلوا شيئا طوال اليوم . . عندها تود ان تصبح الحياة كلها هكذا .

والآن كنت افكر في ذلك واتمشى فى البستان ، وانا على استعداد لان اتمشى هكذا بلا عمل طول النهار ، طول الصيف .

وجاءت جينيا ومعها سلة . وكان على وجهها تعبير وكأنها كانت تعرف او تحدس انها ستجدنى فى البستـــــان . وجمعنا الفطر وتحدثنا ، وعندما كانت تسألنى عن شيء ما ، كانت تتقدمنى لكى ترى وجهى .

وقالت :

— وقعت معجزة بالامس فى القرية . فقد كانت بيلاجيا العرجاء مريضة طول السنة ، ولم يسعفها اى طبيب او دواء ، وبالامس رقتها عجوز فزال المرض .

فقلت :

— هذا ليس مهما . لا ينبغى ان نبحث عن المعجزات فقط بجوار المرضى والعجائز . أليست الصحة معجزة ؟ والحياة نفسها ؟ كل ما هو غير مفهوم معجزة .

— وانت ، الا تخاف من غير المفهوم ؟

— كلا . الظواهر التى لا افهمها اعاملها بنشاط ولا اخضع لها . انا أسمى منها . ينبغى على الانسان ان يحس بنفسه أسمى من الاسود والنمور والنجوم ، أسمى من كل ما فى الطبيعة ، بل حتى أسمى من كل ما هو غير مفهوم ويبدو معجزا ، والا فهو ليس بانسان ، بل فأر يخاف من كل شيء .

كانت جينيا تعتقد اننى كمصور اعرف كثيرا جدا واستطيع ان اخمن بصواب ما لا اعرفه . وقد ارادت ان ادخلها ميدان الخلود والجمال ، ذلك المجتمع السامى الذى كنت فيه ، حسب اعتقادها ، واحدا من افراده ، فكانت تتحدث معى

عن الله ، وعن الحياة الخالدة ، وعن المعجزات . وكنت انا الذى لا اتصور انه بعد الموت سأهلك انا وخيالى الى الابد ، اجيبها : «نعم ، البشر خالدون» ، «نعم ، الحياة الخالدة فى انتظارنا» ، فكانت تسمع وتصدق ولا تطالب بالادلة .

وعندما كنا عائدين الى المنزل توقفت فجأة وقالت :

— ليدا انسان رائع ، أليس كذلك ؟ اننى احبهـا بحرارة ، وبوسعى ان اضحى بحياتى من اجلها فى كل لحظة . ولكن قل لى — ولمست جينيا كمى باصبعها — لماذا تتجادل معها دائما ؟ لماذا انت عصبى معها ؟

— لانها ليست على حق .

فهزت جينيا رأسها سلبا ، وظهرت الدموع فى عينيها . ودمدمت :

— كم يبدو لى هذا غير مفهوم .

فى تلك الاثناء كانت ليدا قد عادت لتوها من مكان ما ، ووقفت فى الشرفة ممسكة بسوط فى يدها ، رشيقة ، جميلة ، تضيؤها الشمس ، وكانت تصدر الاوامر لأحد العاملين . واستقبلت مريضين او ثلاثة على عجل ، وهى تتكلم بصوت عال ، ثم طافت بالغرف بوجه يعبر عن روح الجد والمشغولية ، تفتح هذا الصوان او ذاك ، وذهبت الى العلّية . وبحثوا عنها طويلا ، ودعوها للغداء فجاءت عندما فرغنا من تناول الحساء . ولست ادرى لماذا اذكر واحب كل هذه التفاصيل الصغيرة ، واذكر جيدا ذلك اليوم الحار كله رغم انه لم يحدث شىء ذو قيمة . وبعد الغداء جلست جينيا فى مقعد عميق وراحت تقرأ ، وجلست انا على درجة الشرفة السفلية . ولزمنا الصمت .

واتشحت السماء كلها بالغيوم ، وراح يسقط مطر خفيف متقطع . كان الجو حارا ، والريح قد سكنت منذ فترة طويلة ، وبدا ان هذا النهار لن ينتهي ابدا . وجاءتنا يكاترينا بافلوفنا فى الشرفة بوجه ناعس وفي يدها مروحة .

فقالت جينيا وهى تقبل يدها :

— اوه يا ماما ، من المضر لك النوم فى النهار .

كانتا تعشقان بعضهما البعض . وعندما تذهب احداهما الى البستان ، تقف الاخرى فى الشرفة وتتطلع الى الاشجار وتنادى «يا جينيا» او «ماما ، اين انت ؟» وكانتا تصليان دائما معا ، وعلى درجة واحدة من الايمان ، وتفهمان بعضهما البعض جيدا حتى عندما تصمتان . وكان موقفهما من الناس واحدا . وكذلك تعودت على يكاترينا بافلوفنا وتعلقت بى بسرعة ، وعندما كنت لا ازورهم يومين او ثلاثة ، كانت ترسل من يسأل هل انا بصحة طيبة . وكانت تتطلع الى مشاهدى ايضا باعجاب ، وبنفس الثرثرة وبنفس الصراحة مثل ميسوس كانت تحدثنى عما يحدث ، وكثيرا ما كانت تأتمننى على اسرارها العائلية .

وكانت تبجل ابنتها الكبرى . ولم تكن ليدا تلاطف احدا ، ولا تتحدث الا عن الامور الجدية ، وتعيش حياتها الخاصة وكانت بالنسبة لامها وشقيقتها مقدسة ، وشخصية غامضة الى حد ما مثل الاميرال بالنسبة للبحارة ، والذى يجلس طوال الوقت فى مقصورته .

وكانت الام تقول كثيرا :

— ليدانا شخص رائع ، أليس كذلك ؟

والآن ، وبينما المطر يتساقط ، اخذنا نتحدث عن ليدا .

— انها انسان رائع — قالت الام ، ثم اضافت فى همس وبنبرة تآمر وهى تتلفت حولها بخوف — مثلها لن تجد مهما بحثت ، ولكنى ، اتدرى ، بدأت اقلق قليلا . المدرسة ، والصيدليات ، والكتب ، كل ذلك جميل . . ولكن لماذا التطرف ؟ انها الآن فى الرابعة والعشرين ، آن لها ان تفكر فى نفسها بجدية والا فلن تشعر من وراء الكتب والصيدليات الا والحياة قد ولت . . . ينبغى ان تتزوج .

ورفعت جينيا رأسها ، وكان وجهها شاحبا من القراءة ، وتسريحتها مجعدة وقالت وهى تنظر الى امها وكأنها تقول لنفسها :

— ماما ، كل شىء رهن بمشيئة الله .

وانهمكت فى القراءة من جديد .

وجاء بيلو كوروف فى الصديرى الثقيل وقميصه المطرز . ولعبنا الكروكت ، و lawn-tennis ، وعندما حل الظلام تعشينا طويلا ، وعادت ليدا تتحدث عن المدارس وعن بلاجين الذى سيطر على الاقليم . وعندما رحلت فى ذلك المساء عن آل فولتشانينوف حملت معى انطباع يوم طويل طويل فارغ وادراكا حزينا بان لكل شىء نهاية فى هذه الدنيا مهما كان طويلا . وودعتنا جينيا حتى البوابة ، وربما لانها قضت معى اليوم كله من الصباح حتى المساء ، احسست بدونها بالوحشة وبأن هذه الاسرة اللطيفة قريبة الى قلبى ، ولاول مرة طوال الصيف شعرت بالرغبة فى الرسم .

وسألت بيلوكوروف وانا عائد معه الى البيت :

— خبرنى ، لماذا تعيش على هذا النحو الممل ، العديم الالوان ؟ ان حياتى مملة ، ثقيلة ورتيبة لاننى مصور ،

لاننى انسان غريب ، مزقتنى منذ الصغر الغيرة وعدم الرضا عن النفس وعدم الثقة فى عملى . اننى فقير دوما ، انا صعلوك ، ولكن انت ، انت انسان صحيح ، طبيعى ، اقطاعى ، سيد ، فلماذا تحيا هذه الحياة غير الممتعة ولماذا لا تأخذ من الحياة الا هذا القدر القليل ؟ لماذا ، مثلا ، لم تقع فى حب ليدا او جينيا حتى الآن ؟

فاجاب بيلوكوروف :

— انك تنسى اننى احب امرأة اخرى .

كان يقصد صاحبته لوبوف ايفانوفنا ، التى كانت تعيش معه فى الجناح . وكنت كل صباح ارى هذه السيدة البدينة ، التى تشبه اوزة معلوفة ، وهى تتجول فى البستان مرتدية فستانا روسيا وعقدا ، ودائما تحت شمسية ، والخدم يدعونها بين الحين والحين لتأكل تارة ، ولتشرب الشاى تارة اخرى . منذ حوالى ثلاثة اعوام استأجرت احد الاجنحة من بيلوكوروف كمقر صيفى ، ومن يومها بقيت عنده يبدو الى الابد . كانت تكبره بحوالى عشرة اعوام ، وتتحكم فيه بصرامة ، بحيث كان عليه ان يطلب الاذن منها اذا اراد ان يغادر البيت . وكانت تنتحب كثيرا بصوت رجالى ، وعندئذ ارسل اليها من يقول انها اذا لم تكف فسأرحل عن الشقة ، فكانت تكف عن البكاء .

وعندما وصلنا البيت جلس بيلوكوروف على الكنبة وقطب حاجبيه مفكرا ، اما انا فاخذت اتمشى فى القاعة وقد انتابنى اضطراب خفيف وكأننى عاشق . كنت اشعر برغبة فى الكلام عن آل فولتشانينوف .

فقلت :

— ليدا لا يمكن ان تحب سوى عضو مجلس اقليم ، مغرم مثلها بالمستشفيات والمدارس . اوه ، في سبيل فتاة كهذه يمكن للمرء ان يصبح لا عضو مجلس اقليم فحسب ، بل وان يذيب نعل حذاء حديدى كما فى الحكايات . وميسوس ؟ يا لها من ساحرة ميسوس هذه !

ومط بيلوكوروف ببطء «إ — إ — إ» وتحدث عن التشاؤم ، مرض العصر . كان يتحدث بثقة ، وبنبرة كأنما كنت اجادله . ان مئات الكيلومترات من السهوب الخاوية ، الرتيبة ، العارية لا تستطيع ان تصيبك بهذه الكآبة التى يصيبك بها شخص واحد ، عندما يجلس ويتحدث ، ولا تدرى متى سيرحل .

وقلت بعصبية :

— ليست القضية فى التشاؤم او التفاؤل ، وانما فى ان تسعة وتسعين فى المائة من الناس ليس لديهم عقول .

واعتبر بيلوكوروف انه المقصود بذلك ، فغضب وانصرف .

٣

قالت ليدا لأمها وهى تخلع القفاز وقد عادت من مكان ما :

— الامير نزل ضيفا فى مالوزيوموف ، ويبلغك التحية . روى اشياء طريفة كثيرة . . . ووعد ان يثير فى مجلس المحافظة من جديد مسألة المركز الطبــى فى مالوزيوموف ، ولكنه قال ان الامل ضعيف — وقالت تخاطبنى — عفوا ، اننى دائما انسى ان هذا لا يمكن ان يكون طريفا بالنسبة لك .

وشعرت بالضيق ، فسألتها وانا اهز كتفى :

— لِمَ ليس طريفا ؟ انت لا تريدين سماع رأيــى ، ولكنى اؤكد لك ان هذه المسألة تهمنى جدا .

— حقا ؟

— نعم ، فى رأيــى ان المركز الطبــى فى مالوزيوموف غير ضرورى البتة .

— وما هو الضرورى ؟ المناظر ؟

— والمناظر ايضا غير ضرورية . لا ضرورة لشىء هناك .

وفرغت من خلع قفازها وفتحتْ الصحيفة التى حملها البريد لتوه . وبعد دقيقة قالت بهدوء وهى تكبح نفسها فيما يبدو :

— فى الاسبوع الماضى ماتت آنا اثناء المخاض ، ولو كان هناك مركز طبــى قريب لبقيت على قيد الحياة . ويخيل الىّ انه ينبغى على السادة رسامى المناظر ان تكون لديهم عقيدة ما فى هذا الصدد .

فأجبت ولكنها حجبت نفسها عنى بالصحيفة وكأنما لا تريد ان تسمع :

— عندى عقيدة محددة تماما فى هذا الصدد . ففى رأيــى ان المراكز الطبية والمدارس والمكتبات والصيدليات فى ظل الظروف القائمة لا تساعد الا على الاستعباد . ان الشعب مكبل بسلسلة هائلة ، وانتم لا تحطمون السلسلة ، بل تضيفون اليها حلقات جديدة . هذه هى عقيدتى .

ورفعت الىّ بصرها وابتسمت بسخرية ، اما انا فاستطردت محاولا ان اقتنص فكرتى الرئيسية :

— ليس المهم ان آنا ماتت اثناء المخاض ، ولكن المهم هو ان امثال آنا ومافرا ، وبيلاجيا ، جميعهن يحنين

ظهورهن من الصباح الى المساء ويمرضن من الكد المرهق ، ويرتعشن طوال حياتهن هلعا على اولادهن الجوعى والمرضى ، ويخفن طوال الحياة من الموت والامراض ، ويتعالجن طوال الحياة ، ويذوبن مبكرا ، ويهرمن مبكرا ، ويمتن في القذارة والنتانة . وعندما يكبر اولادهن يسيرون على نفس المنوال ، وهكذا تمضي مئات السنين ، بينما يعيش مليارات البشر اسوأ مما تعيش الحيوانات . . فقط من اجل كسرة الخبز ، وهم يعانون من الخوف الدائم . والفظاعة في وضعهم انه لا وقت لديهم للتفكير في انفسهم وفي ارواحهم . الجوع والبرد ، والخوف الحيواني ، وكمية العمل الهائلة قد سدت عليهم ، ككتل الجليد المنهارة ، كل الطرق المؤدية الى النشاط الروحي ، بالضبط الى ذلك الذي يميز الانسان عن الحيوان ، ويشكل الشيء الوحيد الذي يستحق ان نعيش من اجله . وانتم تخفون لمساعدتهم بالمستشفيات والمدارس ، ولكنكم بذلك لا تحررونهم من القيود ، بل بالعكس ، تستعبدونهم اكثر ، وذلك لانكم بادخال مزيد من الخزعبلات الى حياتهم تزيدون من عدد احتياجاتهم ، هذا اذا تغاضينا عن انهم لا بد ان يدفعوا لمجلس الاقليم مقابل العقاقير والكتب ، اي مزيدا من احناء الظهر .

فقالت ليدا وهي تنزل الصحيفة :

— لن اجادلك . لقد سمعت ذلك قبلا . ولكني سأقول لك شيئا واحدا : لا ينبغي ان نجلس بلا عمل . صحيح اننا لا ننقذ البشرية ، وربما كنا نخطئ في اشياء كثيرة ، ولكننا نفعل ما نستطيع ، ونحن على حق . ان اسمى واقدس مهمة للانسان المتحضر ان يساعد الأقربين ،

ونحن نحاول ان نساعدهم حسبما نستطيع . هذا لا يعجبك ، ولكن ما العمل ، لا يمكن ارضاء الجميع .

وقالت الام :

— صحيح ياليدا ، صحيح يا ليدا ، صحيح .

كانت تشعر دائما بالوجل فى حضرة ليدا ، وعندما تتكلم تتطلع اليها بقلق ، خشية ان تقول شيئا ما لا لزوم له او غير مناسب . ولم تعارضها ابدا ، بل كانت توافقها دائما : صحيح يا ليدا ، صحيح .

وقلت :

— ان تعليم الفلاحين ، والكتب ذات المواعظ والدروس التافهة ، والمراكز الطبية ، لايمكن ان تقلل نسبة الجهل او الوفيات مثلما لا يمكن لضوء نوافذكم ان يضيء هذا البستان الضخم . انكم لا تفعلون شيئا ، وبتدخلكم فى حياة هؤلاء الناس لا تصنعون سوى احتياجات جديدة ، ومبرر جديد للكد .

— آه ، يااللهى ، ولكن ينبغى ان نفعل اى شيء ! — قالت ليدا بأسى ، وظهر من نبرتها انها تعتبر افكارى تافهة ، وتحتقرها .

فقلت :

— ينبغى تحرير الناس من العمل البدنى الشاق . ينبغى تخفيف النير عنهم ، واعطاؤهم فرصة لالتقاط الانفاس ، لكى لا يقضوا حياتهم كلها امام الافران والطسوت وفى الحقل ، بل يكون لديهم وقت للتفكير فى الروح والله ، وفرصة للتعبير عن قدراتهم الروحية على نطاق اوسع . ان رسالة كل انسان هى فى النشاط الروحى ، فى البحث الدائم عن الحقيقة

ومغزى الحياة . فلتجعلوا العمل الحيوانى الفظ غير ضرورى لهم ، اعطوهم الفرصة ليحسوا بانفسهم احرارا ، وعندئذ ستدركون اية سخرية فى الواقع تمثل هذه الكتب والصيدليات . واذا ما ادرك الانسان رسالته الحقيقية فلن يشبعها سوى الدين والعلوم والفنون ، لا هذه التفاهات .

وقالت ليدا ساخرة :

— تحريرهم من العمل ! وهل هذا ممكن ؟

— نعم . خذوا على عاتقكم جزءا من عملهم . فلو اننا جميعا ، سكان المدن والقرى ، جميعا بدون استثناء ، وافقنا على توزيع العمل بيننا ، العمل الذى تنفقه البشرية عموما على اشباع الحاجات المادية ، فربما لم يزد نصيب الفرد منا عن ساعتين او ثلاث من العمل فى اليوم . تصورى اننا جميعا ، اغنياء وفقراء ، نعمل فقط ثلاث ساعات فى اليوم ، وبقية الوقت احرار . وتصورى ايضا اننا ، لكى نكون اقل تبعية لاجسادنا ونعمل اقل ، سنخترع آلات تقوم هى بالعمل ، واننا سنسعى الى تخفيض احتياجاتنا الى ادنى حد . واننا سنقوى عزيمتنا وعزيمة اطفالنا لكى لا يخافوا الجوع والبرد ولكى لا نرتعش خوفا على صحتهم كما ترتعش آنا ومافرا وبيلاجيا . تصورى اننا لا نتعالج ، ولا نحتفظ بصيدليات ولا مصانع دخان وخمور . . فأى وقت فراغ سيتبقى لدينا فى النهاية . وعندئذ نخصص جميعا هذا الوقت للعلوم والفنون . ومثلما يقوم الفلاحون جماعة باصلاح الطريق ، نقوم نحن جماعة بالبحث عن الحقيقة ومغزى الحياة ، وعندئذ — وانا على يقين من ذلك — سنكتشف الحقيقة بسرعة ، وسيتخلص الانسان من هذا الخوف الدائم

المعذب الممض من الموت ، بل وحتى من الموت نفسه .

فقالت ليدا :

— ولكنك تناقض نفسك . انت تقول : العلوم ، العلوم ، ومع ذلك تنكر التعليم .

— التعليم عندما لا تكون لدى الانسان امكانية سوى قراءة لافتات الحانات ، واحيانا بعض الكتب التى لا يفهمها .. هذا التعليم قائم لدينا من ايام ريوريك . والخادم بتروشكا ، عند جوجول ، يقرأ منذ زمن بعيد ، ومع ذلك فالقرية ظلت حتى الآن كما كانت فى عصر ريوريك . ليس المطلوب هو التعليم ، بل حرية اظهار القدرات الروحية على اوسع نطاق . لسنا بحاجة الى مدارس ، بل الى جامعات .

— وانت تنكر الطب ايضا .

— نعم . فلن يكون ضروريا الا لدراسة الامراض ، كظواهر طبيعية ، لا لعلاجها . واذا كان لا بد من العلاج فلنعالج لا الامراض ، بل اسبابها . لو ازلنا السبب الرئيسى — وهو العمل البدنى — لاختفت الامراض — ورحت اقول بانفعال — اننى لا اعترف بالعلم الذى يعالج . فالعلوم والفنون ، اذا كانت حقيقية ، لا تسعى الى اغراض مؤقتة ، جزئية ، بل الى الشىء الخالد والعام . . انها تبحث عن الحقيقة ومغزى الحياة ، تبحث عن الله ، وعن الفكرة . اما عندما يربطونها بالحاجات اليومية الملحة ، بالصيدليات والمكتبات فانها لا تؤدى الا الى تعقيد الحياة وتلويثها . لدينا الكثير من الاطباء ، والصيادلة ، والمحامين ، واصبح لدينا الكثير من المتعلمين ، ولكن ليس لدينا ابدا بيولوجيون ورياضيون وفلاسفة وشعراء . لقد انصرف العقل كله ، والطاقة الروحية

كلها الى اشباع الاحتياجات المؤقتة الزائلة . . . والعمل يجرى على قدم وساق لدى العلماء والكتاب والمصورين ، وبفضلهم تزداد وسائل الراحة فى الحياة يوما بعد يوم ، وتتضاعف متطلبات الجسد ، ومع ذلك فما زلنا بعيدين عن الحقيقة ، ويظل الانسان كما كان احط الحيوانات واشدها وحشية ، وكل شيء يشير الى ان البشرية قد انحلت فى غالبيتها وفقدت الى الابد اية قدرة على الحياة . وفى ظل هذه الظروف ليس لحياة المصور من معنى ، وكلما ازدادت موهبته يصبح دوره اشد غرابة وعدم مفهومية ، لانه عند التمحيص يتضح انه يعمل من اجل تسلية حيوان مفترس منحط مساندا بذلك النظام القائم . وانا لا اريد ان اعمل ، ولن اعمل . . . لا ضرورة لاى شيء ، فلتذهب الارض فى داهية .

— اخرجى يا ميسوسكا . . . — قالت ليدا لاختها وهى ترى فى كلماتى على ما يبدو ضررا بالنسبة لفتاة صغيرة .

فنظرت جينيا بحزن الى اختها ثم الى امها وخرجت . فقالت ليدا :

— ان مثل هذه الاشياء اللطيفة يقولونها عندما يريدون تبرير لا مبالاتهم . ان انكار المستشفيات والمدارس اسهل من العلاج والتدريس .

ثم استطردت ليدا تقول :

— انك تهدد بانك لن تعمل . يبدو انك تقدر اعمالك تقديرا عاليا . فلنكف عن الجدل فلن نلتقى ابدا ، لان اكثر المكتبات والصيدليات تخلفا ، والتى تحدثت عنها لتوك باحتقار ، هى فى نظرى اسمى من جميع المناظر فى العالم — والتفتت على الفور الى امها وقالت بنبرة مختلفة

تماما ــ لقد هزل الامير جداً وتغير بشدة منذ ان كان عندنا . الاطباء ينصحونه بالذهاب الى فيشى .

تحدثت مع امها عن الامير كيلا تتحدث معى . وكان وجهها محتقنا ، ولكى تخفى اضطرابها انحنت بشدة على الطاولة كقصيرى النظر وتظاهرت بانها تقرأ الصحيفة . كان وجودى مكروها ، فودعت وانصرفت عائدا الى البيت .

٤

كان الجو فى الفناء هادئا ، وقد نامت القرية على شاطىء البركة الآخر فلم يلح منها بصيص ضوء ، ولم تنعكس في مياه البركة بوهن الا ظلال النجوم الشاحبة . وبجوار البوابة ذات الاسود كانت جينيا واقفة بلا حراك فى انتظارى لكى تودعنى .

وقلت لها وانا احاول ان اتفحص وجهها فى الظلمة ، فرأيت عينيها السوداوين الحزينتين ترمقاننى :

ــ الجميع نيام فى القرية . صاحب الحانة ولص الخيول ينامان في هدوء ، اما نحن ، الناس المحترمين ، فنثير اعصاب بعضنا البعض ونتجادل .

كانت ليلة حزينة من ليالى اغسطس . . حزينة لان انفاس الخريف ترددت فيها . وبزغ القمر ملفعا بسحابة حمراء فاضاء بالكاد الطريق والحقول على جانبيه . وتهاوت النجوم بكثرة . وسارت جينيا بجوارى على الطريق وهى تحاول الا تتطلع الى السماء لكيلا ترى النجوم المتهاوية التى كانت تخيفها لسبب ما .

وقالت وهي ترتعش من رطوبة الليل :

— يخيل اليّ انك على حق . لو ان الناس جميعا استطاعوا ان يكرسوا قواهم للنشاط الروحي لسرعان ما توصلوا الى معرفة كل شيء .

— طبعا . اننا مخلوقات سامية ولو اننا ادركنا بالفعل كل قوة العبقرية الانسانية وعشنا فقط من اجل الاغراض السامية لاصبحنا في النهاية مثل الالهة . ولكن ذلك لن يحدث ابدا . ستتحلل البشرية ولن يبقى من العبقرية اثر .

وعندما غابت البوابة عن الانظار توقفت جينيا وصافحتني على عجل .

— ليلة سعيدة — قالت وهي ترتعش فلم يكن يغطي كتفيها سوى القميص فانكمشت من البرد — تعال غدا .

ارعبتني فكرة بقائي وحدي منفعلا ، غير راض عن نفسي وعن الناس ، واخذت انا ايضا احاول الا اتطلع الى النجوم الهاوية . فقلت :

— ابقي معي دقيقة اخرى . . ارجوك .

كنت احب جينيا . يبدو انني احببتها لاستقبالها ووداعها لي ، لانها كانت تنظر اليّ برقة واعجاب . وكم كان مؤثرا ورائعا وجهها الشاحب ، وعنقها الدقيق ، ويداها الدقيقتان ، وضعفها ، وفراغها وكتبها ! وعقلها ؟ لقد خمنت فيها عقلا فذا ، واعجبتني سعة تفكيرها ، ربما لانها كانت تفكر بصورة تختلف عن ليدا الصارمة الجميلة التي لم تكن تحبني . وكانت جينيا معجبة بـي كمصور ، وقد انتصرت على قلبها بموهبتي ، ورغبت بشدة في ان ارسم لها وحدها ، واخذت احلم بها وكأنها ملكتي الصغيرة التي سوف تملك



معنى هذه الاشجار والحقول والضباب ، والفجر ، هذه الطبيعة الساحرة البديعة والتى شعرت بنفسى فيها رغم ذلك وحيدا وغير ضرورى بلا نهاية . ورجوتها :

— ابقي دقيقة اخرى . اتوسل اليك .

ونزعت معطفى وغطيت كتفيها المرتعشتين ، فضحكت والقت به خشية ان تبدو مضحكة وغير جميلة فى المعطف الرجالى . وفى تلك اللحظة ضممتها وانهلت عليها بالقبلات فى وجهها وكتفيها ويديها .

— الى الغد ! — همست وعانقتنى بحذر وكأنما تخشى ان تعكر هدوء الليل — ليس بيننا اسرار ، وعليّ الآن ان اخبر أمى واختى بكل شيء . . . كم أخاف ذلك ! من جهة امى لا بأس ، انها تحبك ، ولكن ليدا !

وركضت نحو البوابة ، وصاحت :

— وداعا !

وسمعت مدة دقيقتين ركضها . لم اكن اريد العودة الى المنزل ، ولم يكن ثمة داع للذهاب . فلبثت قليلا افكر ، ثم عدت ادراجى لألقى نظرة اخرى على البيت الذى كانت تقطنه ، هذا البيت الرقيق الساذج القديم والذى بدا يتطلع اليّ بنوافذ عليّته وكأنما يتطلع بأعين ، ويدرك كل شيء . ومررت بحذاء الشرفة ، وجلست على اريكة قرب ملعب lawn-tennis فى الظلام تحت شجرة دردار عتيقة ، ورحت انظر من هنا الى البيت . وشع ضوء ساطع فى نوافذ العلّية التى كانت ميسوس تسكن فيها ، ثم ظهر ضوء اخضر هادىء . فقد غطوا المصباح بالاباجورة . وتحركت ظلال . . . وكنت مشبعا بالرقة والسكينة والرضا عن النفس ،

الرضا بانني استطعت ان اولع واحب ، وفي الوقت نفسه شعرت بعدم الراحة من فكرة انه في هذه اللحظة ذاتها ، وعلى قيد بضع خطوات مني ، وفي احدى غرف هذا المنزل تعيش ليدا ، التي لا تحبني ، بل وربما تمقتني . جلست ورحت انتظر لعل جينيا تخرج ، واصخت السمع فخيل اليّ انهم يتحدثون في العلّية .

ومر حوالي ساعة . انطفأ الضوء الاخضر ، ولم تعد تلوح الظلال . وكان القمر قد صعد عاليا فوق البيت واضاء البستان النائم والطرقات . وفي حوض الزهور امام المنزل لاحت الداليا والورود بوضوح وبدت كأنها من لون واحد . وبرد الجو بشدة . وخرجت من البستان والتقطت معطفي في الطريق ، ومضيت الى المنزل على مهل .

عندما جئت في اليوم التالي بعد الغداء الى آل فولتشانينوف كان الباب الزجاجي المفضي الى البستان مفتوحا على مصراعيه . وجلست في الشرفة متوقعا ان ارى بين لحظة واخرى جينيا قادمة من وراء حوض الزهور او من احد الممرات ، او يتناهي الى صوتها من الداخل . ثم دخلت غرفة الاستقبال ، ثم غرفة الطعام ، فلم اجد اثرا لاحد . وعبرت طرقة طويلة من غرفة الطعام الى ردهة المدخل ، ثم عدت ادراجي . كان في الطرقة عدة ابواب ، وخلف واحد منها تردد صوت ليدا :

— رزق الله . . . الغراب ذات مرة . . . — قالت بصوت عال وبتمهل ، اذ يبدو انها كانت تملي — الغراب ذات مرة . . . بقطعة جبن . . . الغراب ذات مرة . . . من هناك ؟ — صاحت فجأة وقد سمعت وقع اقدامي .

— انا .

— آ ، عفوا ، لا استطيع ان اخرج اليك الآن ، اننى ادرّس لداشا .

— هل يكاترينا بافلوفنا فى البستان ؟

— كلا لقد سافرت مع اختى صباح اليوم الى خالتى فى محافظة بنزا . ومن المحتمل ان تسافرا شتاء الى الخارج — وصمتت قليلا ثم استطردت — رزق الله الغراب ذات مرة . . . بقطعة جبن . . . كتبت ؟

خرجت الى ردهة المدخل وانا لا افكر فى شيء ، ووقفت هناك انظر الى البركة والقرية ، وتناهى الى سمعى :

— بقطعة جبن . . . رزق الله الغراب ذات مرة بقطعة جبن . . .

وغادرت الضيعة عبر الطريق الذى سلكته اول مرة ولكن فى اتجاه عكسى : من الفناء الى البستان بحذاء المنزل ، ثم عبر ممر الزيزفون . . . وهنا لحق بى صبى وناولنى ورقة مكتوبة فقرأت : «رويت كل شيء لاختى ، وهي تطالبنى بان افترق عنك . وليس فى مقدورى ان اسبب لها الاحزان بعدم طاعتى . فليهبك الله السعادة ، وسامحنى . لو تدرى كم نبكى انا وامى بحرقة .»

ثم ممر الشوح المظلم ، السياج المتهالـــــك . . . وفى ذلك الحقل الذى كانت تزهر فيه الحنطة آنذاك ويصدح السمان تتجول الآن الابقار والخيول المقيدة . وفى بعض الاماكن على التلال ظهرت نباتات القمح الخضراء . وسيطر علىّ مزاج واع عادى فشعرت بالخجل لكل ما قلته لدى آل فولتشانينوف ، وعاد الىّ الملل من الحياة . وعندما عدت الى البيت حزمت متاعى ورحلت فى المساء الى بطرسبرج .

* * *

لم ار آل فولتشانينوف بعد ذلك ولا مرة . ومنذ فترة قريبة ، كنت مسافرا الى القرم فالتقيت فى عربة القطار ببيلوكوروف . كان فى نفس الصديرى الثقيل والقميص المطرز ، وعندما سألته عن صحته اجاب : «بصلواتك» . وتجاذبنا اطراف الحديث . لقد باع ضيعته واشترى اخرى اصغر منها ، باسم لوبوف ايفانوفنا . ولم يخبرنى بالكثير عن آل فولتشانينوف . كانت ليدا ، حسبما قال ، تعيش كسابق العهد فى شيلكوفكا وتعلم الاطفال . وتمكنت شيئا فشيئا من ان تجمع حولها مجموعة من الاشخاص الذين يروقون لها والذين يشكلون فريقا قويا ، و «دحرجوا» فى انتخابات مجلس الاقليم الاخيرة بلاجين الذى كان حتى ذلك الحين يقبض بيديه على الاقليم كله . ولم يقل بيلوكوروف عن جينيا سوى انها لا تعيش فى المنزل ولا يعرف مكانها .

لقد بدأت انسى المنزل ذا العلّية ، واحيانا فقط ، عندما ارسم او اقرأ اتذكر فجأة دون سبب الضوء الاخضر فى النافذة تارة ، وتارة اخرى وقع خطواتى فى الحقل ليلا ، عندما كنت عائدا وانا عاشق وافرك يدىّ من البرد . وفى احيان نادرة ، عندما تؤرقنى الوحدة واشعر بالحزن اتذكرها بصورة مبهمة ، وشيئا فشيئا يخيل الىّ ايضا ان هناك من يتذكرنى ، وينتظرنى ، واننا سنلتقى . . .

ميسوس ، اين انت ؟

١٨٩٦

الفلاحون

١

مرض نيكولاى تشيكيلدييف الخادم بفندق «سلافيانسكى بازار» بموسكو . نملت ساقاه وتغيرت مشيته ، حتى انه تعثر ذات مرة وهو يسير فى الطرقة فوقع بالصينية التى كانت عليها شرائح خنزير بالبازلاء . واضطر الى ترك العمل . وانفق كل ماكان لديه من نقوده ونقود زوجته على العلاج ، ولم يعد هناك ما ينفق على الطعام ، ومل البطالة فقرر انه ربما كان عليه ان يرحل الى بيتهم فى الريف . فالمرض فى البيت اخف والحياة ارخص ؛ وليس عبثا ان يقال : فى البيت الجدران تساعد .

وصل الى قريته جوكوفو قبيل المساء . وكان مسقط رأسه يبدو له فى ذكريات الطفولة مشرقا ، حميما ، مريحا ، اما الآن ، وعندما دخل الدار ، فقد شعر حتى بالخوف : فكم كان المكان مظلما وضيقا وقذرا . ونظرت زوجته اولجا وابنته ساشا ، اللتان جاءتا معه ، باستغراب الى الفرن الكبير المنفر ، الذى كاد ان يشغل نصف الدار ، والمسود من الهباب والذباب . ما اكثر الذباب ! كان الفرن مائلا ، وجذوع الاشجار التى شيدت منها الجدران معوجة ، فبدا

ان الدار ستنهار توا . وفى الركن الامامى ، بجوار الايقونات ، الصقت رقع ماركات الزجاجات ومزق من الصحف ، وذلك بدلا من الصور . يا للفقر ! لم يكن احد من الكبار فى المنزل ، اذ كانوا كلهم يحصدون . وعلى الفرن جلست طفلة فى حوالى الثامنة ، بيضاء الرأس ، قذرة الوجه ، لامبالية . لم تنظر حتى الى القادمين . وفى الاسفل تمسحت قطة بيضاء بالبشكور .

ودعتها ساشا اليها :

— بس ، بس !

فقالت الطفلة :

— انها لا تسمع . طرشت .

— مم ؟

— هكذا . من الضرب .

ادرك نيكولاى واولجا منذ الوهلة الاولى اية حياة هنا ، ولكن احدا منهما لم يقل للاخر شيئا . انزلا الصرر فى صمت ، وخرجا فى صمت . كانت دارهم الثالثة من الطرف ، وبدت افقر الدور واقدمها . ولم تكن الدار الثانية افضل ، ولكن الثالثة كانت بسقف معدنى وستائر على النوافذ . هذه الدار ، التى لم تكن مسيجة ، بدت قائمة بذاتها ، وكان بها حانة . وامتدت الدور صفا واحدا ، وبدت القرية كلها ، الهادئة المستغرقة ، بأشجار الصفصاف والبيلسان والغبيراء المطلة من الافنية ، لطيفة المنظر .

وبعد دور الفلاحين يبدأ منحدر نحو النهر ، شديد الانحدار وجرفى ، فظهرت احجار ضخمة وسط الطين هنا وهناك . وعلى السفح ، بجوار هذه الاحجار والحفر التى

حفرها الفخارون ، تعرجت دروب ، وتكدست اكوام من شقف الاوانى المكسرة ، بعضها بنى وبعضها احمر ، وفى الاسفل امتد مرج اخضر ساطع واسع مستو ، حصد عشبه ، فأصبحت ماشية الفلاحين ترعى فيه الآن بحرية . وكان النهر على بعد فرسخ من القرية ، نهر متعرج ، بشطآن رائعة متموجة الخمائل ، ومن بعده مرج واسع آخر ، وماشية وطوابير طويلة من الاوز الابيض ، ثم طريق منحدر بشدة ، كما فى هذا الشاطىء ، صاعد الى التل ، وفى الاعلى ، على التل ، قرية بكنيسة ذات خمس قباب ومنزل السادة على مقربة منها .

وقالت اولجا وهى ترسم على صدرها علامة الصليب فى مواجهة الكنيسة :

— ناحيتكم جميلة ! يا الهى ، ياللرحابة !

وفى هذه اللحظة دوت اجراس صلاة المساء (كانت عشية الاحد) وتطلعت فتاتان صغيرتان كانتا تنقلان الماء فى دلو فى الاسفل الى الكنيسة لتسمعا الرنين .

ودمدم نيكولاى حالما :

— فى هذا الوقت يقدمون العشاء فى «سلافيانسكى بازار» . . .

ورأى نيكولاى وأولجا وهما جالسان على الجرف كيف راحت الشمس تغرب ، وكيف انعكست السماء الذهبية القرمزية فى النهر وفى نوافذ الكنيسة وفى الهواء كله ، الرقيق الساكن ، النقى بصورة لا توصف ، والذى لا مثيل له فى موسكو ابدا . وعندما غربت الشمس مر قطيع الماشية وهو يخور ويزأر ، واقبل الاوز طائرا من تلك الناحية ، ثم

صمت كل شيء ، وخبا الضوء الخافت في الهواء ، وزحف ظلام المساء بسرعة .

وفي تلك الاثناء عاد العجوزان ، والد نيكولاى وامه ، هزيلين ، محنيين ، بلا اسنان ، كلاهما من طول واحد . وجاءت النساء : زوجتا الأخين ماريا وفيكلا اللتان كانتا تعملان وراء النهر لدى الاقطاعى . كان لدى ماريا ، زوجة الاخ كيرياك ، ستة اطفال ، ولدى فيكلا ، زوجة الاخ دينيس الذى جند في الجيش ، طفلان . وعندما دخل نيكولاى الدار ورأى العائلة كلها ، كل هذه الاجساد الكبيرة والصغيرة التى كانت تتحرك على الواح النوم وفي المهود وفي جميع الاركان ، وعندما رأى بأية شراهة كان العجوز والنسوة يأكلون الخبز الاسود وهم يغمسونه في الماء ، ادرك انه عبثا جاء الى هنا مريضا ، بلا مال ، وفوق ذلك مع اسرته ، عبثا !

وسأل بعد ان سلم عليهم :

— وأين اخى كيرياك ؟

فأجابه ابوه :

— يعيش عند التاجر حارسا ، في الغابة . فلاح لابأس به ، لكنه يفرط في الشراب .

فدمدمت العجوز دامعة :

— ليس مُطعما ! رجالنا بلايا ، لا يحملون الى البيت بل يسحبون من البيت . كيرياك يشرب ، والعجوز ايضا ، ولا داعى للتستر ، انه يعرف الطريق الى الحانة . غضبت علينا السيدة العذراء .

وبمناسبة مجيء الضيوف اشعلوا السماور . وفاحت من

الشاى رائحة السمك ، وكان السكر مقروضا ورماديا ، وتراكضت الصراصير فوق الخبز والاوعية . كان الشرب كريها ، والحديث ايضا كريها . . كله عن الفاقة والامراض . وما ان شربوا اول كوب شاى حتى تناهت من الفناء صيحة عالية طويلة ثملة :

— م . . . . ا . . . ريا !

فقال العجوز :

— يبدو انه كيرياك قد جاء . تذكرنا القط . . .

صمت الجميع . وبعد قليل ترددت نفس الصيحة الفظة الطويلة كأنها من تحت الارض :

— م . . . . ا . . . ريا !

شحبت ماريا ، زوجة الابن الاكبر والتصقت بالفرن ، وكان غريبا ان ترى على وجه هذه المرأة القوية ، العريضة الكتفين ، القبيحة ، تعبير الرعب . وفجأة بكت ابنتها بصوت عال ، تلك الفتاة التى كانت جالسة على الفرن وبدت لا مبالية .

فصاحت بها فيكلا ، وهى امرأة جميلة وايضا قوية وعريضة الكتفين :

— وانت ، ايتها المطعونة ، مالك ؟ لن يقتلك !

علم نيكولاى من العجوز ان ماريا كانت تخاف العيش مع زوجها فى الغابة ، وانه عندما يكون ثملا يأتى دائما ليأخذها ، ويثير اثناء ذلك صخبا ويضربها بلا رحمة .

ودوت الصرخة عند الباب تماما :

— م . . . ا . . . ريا !

فتمتمت ماريا وهي تتنفس كشخص انزلوه في ماء بارد للغاية :

— احموني بحق المسيح يا احبابي ، احموني يا احبابي . . .

وبكى كل من كان في الدار من اطفال ، وبكت ساشا ايضا وهي تحذو حذوهم . وتناهى سعال ثمل ، ودلف الى الدار فلاح طويل ، اسود اللحية ، في طاقية شتوية ، ولما لم يكن وجهه ظاهرا في ضوء المصباح الكابي فقد بدا رهيبا . كان ذلك كيرياك . اقترب من زوجته فطوح بيده الى الوراء وسدد اليها لكمة في وجهها فلم يند عنها صوت وقد اصمتها اللكمة . اقعت فحسب ، وعلى الفور تدفق الدم من انفها .

ودمدم العجوز وهو يصعد الى سطح الفرن :

— يا للعار ، امام الضيوف ! حرام عليك !

اما الجدة فجلست صامتة ، متكورة ، وهي تفكر في شيء ما . وكانت فيكلا تهز المهد . . . ويبدو ان كيرياك كان يدرك انه رهيب ويشعر بالرضى لذلك ، فأمسك بذراع ماريا وجرها الى الباب ، وزأر كوحش ليبدو اكثر رهبة ، ولكنه رأى الضيوف في تلك اللحظة فتوقف .

ودمدم وهو يخلي سبيل زوجته :

— آه ، وصلتم ! . . . اخي الحبيب واسرته . . .

وصلى امام الايقونة مترنحا وقد فتح عينيه الحمراوين الثملتين واسعا ، واستطرد :

— اخي واسرته جاءوا الى بيت الوالدين . . . من موسكو يعني . من العاصمة الاولى يعني ، ام المدن . . . اعذروني . . .


I. Répine
1899

وانحط على الاريكة بجوار السماور وراح يشرب الشاى من الطبق وهو يرشفه بصوت عال ، بينما خيم الصمت . . . شرب حوالى عشرة فناجين ، ثم مال على الاريكة وارتفع شخيره .

وبدأوا يستعدون للنوم . وضعوا نيكولاى باعتباره مريضا على الفرن مع العجوز . ورقدت ساشا على الارض ، بينما مضت اولجا مع النساء الى الحظيرة .

وقالت وهى ترقد على الدريس بجوار ماريا :

— ايه يا حلوة ، الدموع لن تخفف البلوى . اصبرى وهذا كل شيء . فقد جاء فى الكتاب : من ضربك على خدك الايمن أدر له خدك الأيسر . . . ايه يا حلوة !

ثم تحدثت بصوت شبه هامس ناغم عن موسكو ، وعن حياتها ، وكيف كانت تعمل خادما فى البنسيونات . قالت :

— البيوت فى موسكو كبيرة ، حجرية ، والكنائس كثيرة جدا ، بالمئات ، واصحاب البيوت سادة ، كلهم جميلون ، كلهم مهذبون .

وقالت ماريا انها لم تذهب ابدا لا الى موسكو فحسب بل حتى الى مدينة اقليمهم . كانت امية ، لا تعرف اية صلاة ، ولا حتى «ابانا الذى» . كانت هى وزوجة الاخ الآخر ، فيكلا ، التى كانت جالسة الآن غير بعيد وتستمع ، كانتا كلتاهما متخلفتين جدا ولم يكن بوسعهما فهم شيء . وكلتاهما لم تكونا تحبان زوجيهما . كانت ماريا تخشى كيرياك ، وعندما يبقى معها كانت ترتعد من الخوف ، ودائما ما تختنق وهى بقربه فقد كانت تتصاعد منه بشدة

رائحة الفودكا والتبغ . اما فيكلا فردت على السؤال عما اذا كانت تشعر بالملل بدون زوجها ، قائلة بأسى :

— فليذهب فى داهية !

وبعد ان تحدثن صمتن . . .

كان المكان باردا ، وبجوار الحظيرة صاح ديك بأعلى صوته فعاقهن عن النوم . وعندما تسرب ضوء الفجر الازرق الشاحب عبر جميع الشقوق ، نهضت فيكلا بهدوء وخرجت ، ثم تردد وقع قدميها العاريتين وهى تركض الى مكان ما .

٢

ذهبت اولجا الى الكنيسة واصطحبت معها ماريا . وعندما هبطتا على الدرب الى المرج شعرتا كلتاهما بالمرح . كانت اولجا معجبة بالرحابة ، اما ماريا فأحست فى عديلتها بانسان قريب حبيب . واشرقت الشمس . وحلق صقر ناعس على ارتفاع منخفض فوق المرج ، وكان النهر عابسا ، وفى بعض الاماكن هوّم الضباب ، اما على الشاطئ الآخر ، فوق التل ، فقد امتد شريط ضوء ، ولمعت الكنيسة ، وفى بستان السادة صاحت الغربان بضراوة .

وتحدثت ماريا :

— العجوز لا بأس به اما الجدة فقاسية ، تتشاجر دائما . قمحنا كفانا حتى ايام المرافع فقط ، والآن نشترى الدقيق من الحانة ، ولهذا فهى حانقة ، تقول اننا نأكل كثيرا .

— ايه يا حلوة ، اصبرى وهذا كل شيء . فقد

جاء في الكتاب : تعالوا الى يا جميع المتعبين والمثقلين وانا اريحكم .

كانت اولجا تتحدث بوقار وبصوت ناغم ، وكانت مشيتها مثل مشية المتعبدة ، سريعة ومضطربة . وكانت تقرأ الانجيل كل يوم ، بصوت مسموع ، كقراءة الشماس ، ولاتفهم منه الكثير ولكن الكلمات المقدسة كانت تبعث فيها التأثر حتى تدمع عيناها . كانت تؤمن بالله ، وبالسيدة العذراء ، وبالقديسين ، وتؤمن بأنه لا يجوز ايذاء احد في الدنيا سواء البسطاء ، ام الالمان ، ام الغجر ، ام اليهود ، والويل حتى لأولئك الذين لا يشفقون على الحيوانات ، تؤمن بأن ذلك مكتوب في الكتب السماوية ، ولذلك فعندما كانت تلفظ كلمات من الكتاب المقدس ، حتى ولو لم تكن مفهومة ، يرتسم على وجهها الشفقة والحنان والاشراق .

وسألتها ماريا : — من أين اصلك ؟

— أنا من فلاديمير . لكنهم أخذوني الى موسكو من زمان ، وعمري ثمانية .

وبلغنا النهر . وعلى الشاطىء الآخر ، قرب الماء تماما ، وقفت امرأة ما وهي تنزع ثيابها .

وعرفتها ماريا فقالت :

— هذه فيكلا ، كانت في بيت السادة وراء النهر ، عند الوكلاء . انها شقية وعيابة خالص !

وقفت فيكلا ، سوداء الحاجبين ، مسدلة الشعر ، صبية بعد وقوية كفتاة ، وألقت بنفسها من الشاطىء ، وضربت في الماء بساقيها ، فامتدت الامواج منها الى جميع الاتجاهات .

وكررت ماريا :

— شقية خالص !

عبر النهر امتدت قنطرة متهالكة من جذوع الاشجار ، وتحتها بالضبط مرت اسراب من السمك العريض الرأس فى الماء الصافى الشفاف . ولمعت قطرات الندى على الخمائل الخضراء المطلة فى الماء . وهبت نسمات دافئة فبعثت السرور . يا له من صباح رائع ! وما اجمل الحياة التى كان يمكن ان تكون فى هذه الدنيا على الارجح لولا الفقر ، الفقر الفظيع المحدق ، الذى لامهرب منه ! وما ان تنظر الى القرية حتى تتذكر على الفور كل ما حدث بالامس ، وفى التو واللحظة يتلاشى سحر السعادة الذى لاح فى الاجواء .

ووصلتا الى الكنيسة . توقفت ماريا عند المدخل ولم تجرؤ على التقدم خطوة واحدة . ولم تجرؤ ايضا على الجلوس رغم انهم لم يدعوا الى القدّاس الا فى الساعة التاسعة . وهكذا ظلت واقفة طوال الوقت .

واثناء تلاوة الانجيل دبت الحركة فجأة فى جمهور المصلين وافسحوا الطريق لاسرة الاقطاعى . دخلت فتاتان فى فستانين ابيضين ، وقبعتين عريضتين ، ومعهما صبى بدين ، متورد الخدين فى بدلة بحار . وتأثرت اولجا لدى ظهورهم ، وقررت من الوهلة الاولى انهم اناس مستقيمون مهذبون جميلون . اما ماريا فنظرت اليهم شزرا ، بتجهم وكآبة ، كأنما لم يكونوا بشرا ، بل وحوشا كادت ان تسحقها لولا انها تنحت جانبا .

وكلما كان الشماس يرتل بصوت غليظ كان يتراءى لها انها تسمع صيحة «مـ . . ـا . . ريا !» فينتفض بدنها .

٣

علم اهل القرية بمجيء الضيوف فاجتمع فى الدار بعد القداس عدد كبير منهم . جاء آل ليونيتش وماتفيفيتش وايليتش ليعرفوا اخبار اقربائهم العاملين بموسكو . كان جميع صبيان قرية جوكوفو الذين يعرفون القراءة والكتابة يرسلون الى موسكو ليعملوا خدم مطاعم او فنادق فقط (كذلك كانوا يرسلون الصبيان من القرية الواقعة على الضفة الاخرى للنهر الى موسكو للعمل فى المخابز فقط) . وكان ذلك معمولا به منذ القدم ، منذ عهد القنانة ، عندما كان شخص ما لوقا ايفانيتش ، وهو فلاح من جوكوفو ، اصبح الآن اسطوريا ، يعمل عامل بوفيه فى احد نوادى موسكو ، وكان لا يستخدم عنده الا ابناء قريته فقط ، وعندما يستقر هؤلاء فى وظائفهم كانوا يجلبون اقرباءهم ويساعدونهم فى الحصول على عمل فى الحانات والمطاعم . ومنذ ذلك الحين واهالى المناطق المجاورة لجوكوفو لا يسمونها الا بـ«الوقحة» و«الخادمة» . وقد ارسلوا نيكولاى الى موسكو وهو فى الحادية عشرة ، وساعده فى الحصول على عمل ايفان مكاريتش من آل ماتفيفيتش ، الذى كان يعمل آنذاك حاجبا فى حديقة «ارميتاج» . وها هو نيكولاى الآن يخاطب آل ماتفيفيتش بلهجة الواعظ :

— ايفان مكاريتش هو ولى نعمتى ، ومن واجبى ان اصلى لله من اجله ليل نهار ، فعن طريقه اصبحت رجلا طيبا .

فقالت عجوز طويلة ، هى اخت ايفان مكاريتش ، بصوت باك :

— آه يا بنى ، لم نعد نسمع عنه شيئا .

— فى الشتاء كان يعمل لدى اومون ، اما فى الموسم الحالى فأشيع انه يعمل فى البساتين ، خارج المدينة . . . لقد شاخ ! كان من قبل ، وخاصة فى الصيف ، يكسب عشرة روبلات فى اليوم ، ولكن العمل الآن كسد فى جميع الاماكن ، والعجوز يشقى .

تطلعت العجوز والنسوة الى ساقى نيكولاى اللتين كان يضعهما فى حذاء من اللباد ، والى وجهه الشاحب ، وقلن بأسى :

— لست مطعما يا نيكولاى اوسيبتش ، لست مطعما ! لا حول لك !

وتودد الجميع الى ساشا . كانت قد تجاوزت العاشرة ، ولكنها كانت قصيرة ، نحيلة جدا ، وكانت هيئتها توحى بأنها فى السابعة لا اكثر . ووسط الفتيات الاخـــريات ، السمراوات ، ذوات الشعر المقصوص بصورة سيئة ، المرتديات جلابيب طويلة باهتة ، بدت هى ببشرتها البيضاء ، وعينيها الواسعتين الداكنتين ، والشريط الاحمر فى شعرها ، مضحكة ، كأنما حيوان صغير امسكوا به فى الحقل وجاءوا به الى الدار .

وقالت اولجا بفخر وهى تتطلع الى ابنتها برقة :

— انها تجيد القراءة ! اقرئى يا بنيتى — قالت وهى تستخرج الانجيل من الصرة — اقرئى وسيصغى اليك المسيحيون .

كان الانجيل قديما ، ثقيلا ، فى غلاف جلدى ، مهترئ الزوايا ، وفاحت منه رائحة وكأنما دخل الدار رهبان .

ورفعت ساشا حاجبيها وبدأت تقرأ بصوت عال ناغم :

— «ولما انصرفوا اذا بملاك الرب . . . تراءى ليوسف

فى الحلم قائلا : قم فخذ الصبى وامه . . .»
— الصبى وامه . . . — رددت اولجا وتضرج وجهها كله من الانفعال .
— «واهرب الى مصر. . . وكن هناك حتى اقول لك . . .»
وعندما سمعت اولجا الكلمات المقدسة لم تتمالك نفسها فبكت . وحذت ماريا حذوها فشهقت ، وتبعتها اخت ايفان مكاريتش . اما العجوز فسعل وتململ باحثا عن هدية يقدمها لحفيدته ، ولما لم يجد شيئا اشاح بيده . وعندما انتهت التلاوة تفرق الجيران الى بيوتهم متأثرين ومسرورين جدا من اولجا وساشا .

وبمناسبة العيد ظلت الأسرة فى البيت طول النهار . وكانت العجوز التى كان زوجها ، وزوجات ابنائها ، واحفادها ، جميعا ينادونها بالجدة ، تحاول ان تقوم بنفسها بكل الاعمال . اذ اشعلت الفرن ، وهيأت السماور بنفسها ، بل وذهبت بنفسها لحلب البقرة ، ثم راحت تشكو من انهم ارهقوها بالعمل . وكانت طوال الوقت تخشى ان يأكل احدهم قطعة خبز اضافية ، او ان يجلس العجوز وزوجات الأبناء بلا عمل . وتارة كان يخيل اليها ان اوزات صاحب الحانة تتسلل من الفناء الخلفى الى مزرعتها ، فتنطلق من الدار ومعها عصا طويلة ، ثم تظل بعد ذلك لنصف ساعة تصرخ بصوت حاد بجوار كرنبها المغضن الهزيل مثلها . وتارة يتراءى لها ان الحدأة تتربص بأفراخها ، فتنقض بالسباب على الحدأة . كانت تغضب وتتذمر من الصباح الى المساء ، وكثيرا ما تصيح صياحا شديدا يجعل المارة يتوقفون .

ولم تكن تعامل عجوزها برقة ، وتنعته تارة بالتنبل وتارة

بالمطعون . لم يكن رجلا قديرا يعتمد عليه ، وربما لولا حثها المستمر له لما عمل اطلاقا ، بل لجلس على الفرن فقط وتحدث . ظل يحدث ابنه طويلا عن اعداء ما ، ويشكو له من الاهانات التى ادعى انه يتحملها كل يوم من جيرانه ، وكان سماعه يبعث الملل .

كان يتحدث ممسكا بخصره :

— نعم ، نعم . . . بعد عيد نصب الصليب بأسبوع بعت الدريس بثلاثين كوبيكا للبود ، طواعية . . . نعم . . . حسنا . . . وبينما انا انقل ، يعنى ، الدريس صباحا طواعية ، ولا اتحرش بأحد ، وفى ساعة نحس ، نظرت فاذا بالعمدة انتيب سيديلنيكوف خارج من الحانة : «الى اين تحمله يا ابن كذا وكذا ؟» وضربنى على اذنى .

اما كيرياك فكان الصداع يعذبه عندما افاق ، وكان يشعر بالخجل من اخيه .

ودمدم وهو يهز رأسه المصدع :

— انظر ماذا تفعل الفودكا ، آه يا الهى ! اعذرنى يا اخى ، وانت يا اختى بحق المسيح ، انا نفسى مستاء .

وبمناسبة العيد اشتروا من الحانة فسيخا مملحا وطبخوا حساء من رؤوس الفسيخ . وفى منتصف النهار جلسوا الى المائدة ليشربوا الشاى ، وشربوه طويلا ، حتى سال عرقهم ، وبدا وكأنما انتفخوا من الشاى ، وبعدها فقط بدأوا يتناولون الحساء من صحفة واحدة . اما الفسيخ نفسه فقد اخفته الجدة .

فى المساء احرق الفخّار الآنية على جرف النهر . وعلى المرج فى الاسفل رقصت الفتيات فى دائرة وغنين . وعزفوا

على الاكورديون . وعلى الشاطئ الآخر ايضا اشتعل فرن وغنت الفتيات ، وبدا هذا الغناء من بعيد متسقا ورقيقا . وفي الحانة وحولها تعالى صخب الفلاحين ، وغنوا بأصوات مخمورة متضاربة ، وسبوا سبابا فاحشا حتى ان اولجا كانت تنتفض وتتمتم :

— آه ، يا الهى . . .

ادهشها ان السباب كان لا ينقطع ، وان الشيوخ الذين آن لهم ان يموتوا ، كانوا هم اكثر الجميع سبابا واعلاهم صوتا . اما الاطفال والفتيات فكانوا يسمعون هذا السباب دون ادنى خجل ، وبدا انهم الفوه منذ المهد .

ومر منتصف الليل ، وانطفأت الافران على هذا الشاطىء وذاك ، لكن الاحتفال المعربد استمر فى المرج وفى الحانة . وسار العجوز وكيرياك ، مخمورين ، ممسكين بأيدى بعضهما البعض ، متدافعين بالاكتاف ، واقتربا من الحظيرة التى كانت ترقد فيها اولجا وماريا .

ومضى العجوز يقنعه :

— دعها . . . انها امرأة مسالمة . . . حرام . . .

فصاح كيرياك :

— مـ . . . ا . . . ريا !

— دعها . . . حرام . . . انها امرأة طيبة . . .

ووقفا حوالى دقيقة بجوار الحظيرة ثم انصرفا .

وفجأة غنى العجوز بصوت «تينور» عال ثاقب :

— احب زهور الحقول ، احب قطاف المروج !

ثم بصق وأطلق سبابا قذرا ودخل الدار .

٤

وضعت الجدة ساشا بجوار مزرعتها وامرتها ان تحرسها من الأوز . كان يوما حارا من شهر اغسطس . وكان بوسع اوزات صاحب الحانة ان تتسلل الى المزرعة عبر الفناء الخلفى ، لكنها كانت مشغولة الآن بالتقاط الشعير بجوار الحانة وتتحدث فيما بينها بسلام ، ما عدا ذكر الاوز الذى كان يرفع رأسه عاليا ، كأنما ليعرف ما اذا كانت العجوز قادمة والعصا فى يدها ام لا . وكان بوسع الأوزات الأخريات ان تتسلل من اسفل ، ولكنها كانت ترعى الآن بعيدا وراء النهر وقد امتدت شريطا طويلا ابيض فوق المرج . وقفت ساشا قليلا ، وعندما ملت ورأت ان الاوزات لا تتسلل ، ذهبت الى جرف النهر .

وهناك رأت موتكا ، ابنة ماريا الكبرى ، واقفة بلا حراك فوق صخرة ضخمة تحدق فى الكنيسة . انجبت ماريا ثلاث عشرة مرة ، ولكن لم يبق على قيد الحياة سوى ستة اطفال ، وكلهم فتيات ، اكبرهن فى الثامنة ، ولا صبى واحد . وقفت موتكا حافية ، فى جلباب طويل ، فى اللظى ، وكانت الشمس تلهب يافوخها مباشرة ، ولكنها لم تلاحظ ذلك ، وكأنما تجمدت . ووقفت ساشا بجوارها وقالت وهى تتطلع الى الكنيسة :

ـــ الرب يعيش فى الكنيسة . وعند البشر تشتعل المصابيح والشموع ، اما عند الرب فتشتعل القناديل الحمراء والخضراء والزرقاء كالعيون . وفى الليل يسير الرب فى الكنيسة ومعه العذراء المقدسة والقديس نيكولاى ويخطون : دب ـــ دب ـــ دب . . . والحارس يخاف ، يخاف جدا ! ـــ واستطردت

مقلدة امها — ايه يا حلوة . وعندما تقوم القيامة ستطير كل الكنائس الى السماء .

وسألت موتكا بصوت غليظ وهى تمط المقاطع :

— مع اجراسها ؟

— مع اجراسها . وفى يوم القيامة يذهب الطيبون الى الجنة ، اما الاشرار فيحترقون فى النار الى الابد ودون انطفاء يا حلوة . وسيقول الرب لأمى ولماريا أيضا : انتما لم تؤذيا احدا ، ولذلك اذهبا الى اليمين ، الى الجنة . وسيقول لكيرياك والجدة : اما انتما فاذهبا الى الشمال ، الى النار . ومن أفطر فى الصيام فسيذهب ايضا الى النار .

ونظرت الى أعلى ، الى السماء ، وقد فتحت عينيها واسعا وقالت :

— انظرى الى السماء ولا ترمشى ، وسترين الملائكة .

فنظرت موتكا ايضا الى السماء ، ومرت دقيقة صمت .

فسألتها ساشا :

— أترين ؟

فتمتمت موتكا بصوت غليظ :

— لا أرى .

— اما انا فأراهم . ملائكة صغار يطيرون فى السماء ويضربون بأجنحتهم : سيك — سيك — سيك ، كالبعوض .

وفكرت موتكا قليلا ، ثم سألت وهى تحدق فى الارض :

— هل ستحترق جدتى ؟

— ستحترق يا حلوة .

من الصخرة حتى الأسفل تماما امتد منحدر مائل

مستو ، مغطى بعشب اخضر طرى يبعث فى النفس الرغبة فى لمسه باليد او الرقاد عليه . فرقدت ساشا وتدحرجت الى اسفل . ورقدت موتكا ايضا ، بوجه جاد صارم ، وهى تزحر ، وتدحرجت ، واثناء ذلك انحسر جلبابها حتى كتفيها .

وقالت ساشا باعجاب :

— كم شعرت بالمرح !

وصعدتا معا الى أعلى لتتدحرجا مرة اخرى ، وفى تلك اللحظة تناهى الى سمعهما الصوت الرفيع المألوف . أوه ما أفظع ذلك ! كانت الجدة ، المعروقة ، الحدباء ، بفم خال من الأسنان ، وشعر قصير أبيض يتطاير فى الريح ، تطارد الأوز من المزرعة بعصا طويلة وتصرخ :

— داسوا الكرنب كله ، الملاعين ، فلتأخذكم مصيبة ، عليكم ألف لعنة ، فليهلككم طاعون !

ورأت الفتاتين فألقت بالعصا والتقطت غصنا جافا ، وامسكت ساشا من رقبتها بأصابعها الجافة الصلبة كأسنان المذراة وراحت تجلدها . وبكت ساشا من الالم والخوف ، وفى تلك اللحظة اقترب ذكر الأوز من الجدة وهو يتمايل من جنب الى جنب وقد مط عنقه ، وفح بشىء ما ، وعندما عاد الى السرب صاحت الأوزات محيية ومشجعة : قو — قو — قو ! ثم شرعت الجدة فى جلد موتكا ، واثناء ذلك انحسر جلباب موتكا ثانية . وذهبت ساشا الى الدار لكى تشكو وهى تشعر بالحنق وتبكى عاليا . وتبعتها موتكا التى كانت تبكى ايضا ، ولكن بصوت غليظ ، ولا تمسح دموعها ، فأصبح وجهها مبللا حتى بدا وكأنها غمرته فى الماء .

— يا الهى ! — ذهلت أولجا عندما دخلت الفتاتان

الى الدار ــ ايتها السيدة العذراء !

وبدأت ساشا تروى لها ما حدث ، وفى تلك الاثناء دخلت الجدة وهى تصرخ بصوت ثاقب وتسب ، وغضبت فيكلا ، وارتفع الصخب فى الدار .

وقالت اولجا الشاحبة الحزينة وهى تطيب خاطر ساشا وتمسد رأسها :

ــ لا بأس ، لا بأس ، انها جدتك . حرام ان تغضبى منها . لا بأس يا بنيتى .

اما نيكولاى الذى عذبه هذا الصراخ المستمر ، والجوع الدائم والاختناق ، والرائحة الكريهة ، والذى اصبح يمقت الفقر ويزدريه ، والذى كان يشعر بالخجل امام زوجته وابنته من امه وابيه ، فقد دلى ساقيه من فوق الفرن ، ودمدم بصوت منزعج باك مخاطبا امه :

ــ ليس لك ان تضربيها ! ليس لك اى حق فى ضربها !

فصاحت فيه فيكلا بغل :

ــ فلتزهق روحك هناك على الفرن . اية مصيبة جاءت بكم الى هنا يا عالة !

واختبأت ساشا وموتكا وكل الفتيات الموجودات على الفرن خلف ظهر نيكولاى وسمعن من هناك كل ذلك فى صمت وخوف ، وترددت مسموعة دقات قلوبهن الصغيرة . عندما يوجد فى الاسرة شخص مريض منذ امد طويل مرضا ميئوسا منه ، تمر أحيانا لحظات صعبة يتمنى فيها أقاربه موته فى أعماق قلوبهم بوجل وخفية . ولكن الأطفال وحدهم هم الذين يخشون موت القريب ، ويشعرون بالرعب كلما

خطر لهم ذلك . وها قد حبست الفتيات انفاسهن ونظرن بتعبير حزن على وجوههن الى نيكولاى ، وفكرن فى أنه سيموت قريبا ، فشعرن بالرغبة فى البكاء وفى أن يقلن له بضع كلمات رقيقة مشفقة .

والتصق نيكولاى بأولجا ، وكأنما يبحث فيها عن حماية ، وقال لها بصوت خافت متهدج :

— أوليا يا عزيزتى ، لا أستطيع ان أبقى هنا . لم أعد احتمل . بحق الله ، بحق المسيح فى السماء ، اكتبى لاختك كلافديا ابراموفنا ، فلتبع ولترهن كل شيء لديها ، ولترسل لنا نقودا لنرحل من هنا . اوه يا الهى — استطرد يقول بكآبة — لو ألقى نظرة واحدة على موسكو ! لو أراها ، مدينتى العزيزة ، ولو فى الحلم !

عندما حل المساء واظلمت الدار ، غشيت الوحشة النفوس حتى أصبح من الصعب التفوه بكلمة . وبللت الجدة الغاضبة كسرا من خبز الجودار فى كوب ومضت تمصها فترة طويلة ، ساعة كاملة . وبعد ان فرغت ماريا من حلب البقرة ، جاءت بدلو اللبن ووضعته على الاريكة . ثم صبته الجدة من الدلو فى اباريق ، وايضا فترة طويلة ، على مهل ، ويبدو انها كانت مسرورة من ان احدا لن يشرب اللبن الآن ، فى صيام رفع العذراء ، سيبقى دون مساس . ولم تصب منه الا قليلا جدا فى طبق صغير لطفل فيكلا . وعندما حملت مع ماريا اللبن الى القبو قفزت موتكا فجأة ، وهبطت من على الفرن ، واقتربت من الأريكة التى كان عليها الكوب الخشبى بالخبز المبلل ، وصبت فيه قليلا من اللبن من الطبق .

وعادت الجدة الى الدار ومضت تمص خبزها ثانية ، ونظرت ساشا وموتكا اليها وهما جالستان على الفرن ، وشعرتا بالسرور لان الجدة افطرت وسوف تدخل النار بالتأكيد . وسرّى ذلك عنهما فآوتا الى النوم ، وتخيلت ساشا وهى تنعس يوم الحساب الرهيب : كان هناك فرن كبير مشتعل ، مثل فرن الفخار ، وراح عفريت بقرون كقرون البقرة ، اسود كله ، يطارد الجدة الى النار بعصا طويلة كما كانت تطارد الأوز منذ وقت قريب .

٥

فى عيد الرفع ، وفى الساعة الحادية عشرة مساء ، اطلق الفتيات والفتيان المتنزهون فى المرج فى الاسفل فجأة صراخا وعويلا ، وركضوا نحو القرية . اما اولئك الجالسون فى الاعلى ، على حافة الجرف ، فلم يدركوا للوهلة الاولى سبب ذلك .

وترددت فى الاسفل صرخة يائسة :

— حريق ! حريق ! اننا نحترق !

والتفت الجالسون فى الاعلى فتبدت لهم صورة رهيبة عجيبة . ففوق احدى الدور المتطرفة ، وعلى سطحها القشى ، انتصب عمود من النيران بارتفاع مترين ، كان يتلوى ويطلق الشرر فى جميع الجهات وكأنه نافورة . وعلى الفور اشتعل السطح كله بلهب ساطع ، وسمعت قرقعة النيران .

وخبا ضوء القمر ، واصبحت القرية كلها مغمورة بضوء احمر مرتعش . وعلى الارض تحركت ظلال سوداء وانتشرت

رائحة الحريق . ولهث الراكضون من اسفل ولم يستطيعوا ان يتكلموا من الرجفة ، وتدافعوا ، وتساقطوا ، ولعدم التعود على الضوء الساطع لم يروا جيدا ولم يميزوا بعضهم بعضا . وسيطر الرعب . وكان مرعبا بصفة خاصة ان الحمام كان يطير فوق النيران وسط الدخان ، وفى الحانة ، حيث لم يعلموا بعد بالحريق ، استمر الغناء والعزف على الاكورديون كأنما لم يحدث شيء .

وصاح شخص ما بصوت عال غليظ :

— دار العم سيميون تحترق !

وتراكضت ماريا امام دارها وهى تبكى وتلوى ذراعيها ، واسنانها تصطك ، رغم ان الحريق كان بعيدا ، فى الطرف الآخر للقرية . وخرج نيكولاى فى حذائه اللباد ، وتقاطر الاولاد الى الخارج فى قمصانهم القصيرة . وبجوار دار الخفير دقوا على لوح حديدى فتردد فى الجو : بم — بم — بم . . . وبسبب هذا الرنين المتكرر الملحاح تولد احساس بالبرودة يعصر القلب . ووقفت النساء العجائز حاملات الايقونات . ومن الافنية اخرجوا الغنم والعجول والبقر ، وحملوا الصناديق وجلود الخراف والبراميل . وكان ثمة مهر اسود لم يضموه للقطيع لانه كان يرفس ويجرح الخيول ، وقد اطلق الآن سراحه فركض عبر القرية مرة واخرى وهو يدق بقوائمه ويصهل ، ثم توقف فجأة بجوار عربة واخذ يضربها بقائمتيه الخلفيتين .

وعلى الضفة الاخرى من النهر دوت اجراس الكنيسة .

كان الصهد شديدا بجوار الدار المشتعلة . وكان المكان مضيئا الى درجة ظهرت فيها واضحة كل عشبة على الأرض . وعلى أحد الصناديق التى تمكنوا من اخراجها جلس سيميون ،

فلاح احمر الشعر ، بأنف كبير ، وفى عمرة اغمدها فى رأسه عميقا ، حتى اذنيه ، وفى سترة . ورقدت زوجته على وجهها فى حالة اغماء ، وراحت تئن . وكان هناك عجوز ما ، فى حوالى الثمانين ، قصير القامة ، بلحية طويلة ، يشبه القزم ، ليس من اهل الناحية ولكن يبدو ان له صلة بالحريق ، اخذ يروح ويجىء بلا طاقية وفى يديه صرة بيضاء . وانعكس اللهب على صلعته . واقترب العمدة انتيـــــب سيديلنيكوف ، الاسمر والاسود الشعر ، والذى يشبه الغجرى ، اقترب من الدار بالفأس وحطم النوافذ ، الواحدة تلو الاخرى ، لسبب غير معلوم ، ثم راح يحطم الدرج .

وصاح :

— الماء يا نساء ! الماكينة ! اسرعوا !

وسحب اولئك الفلاحون ، الذين كانوا يمرحون لتوهم فى الحانة ، ماكينة الاطفاء . كانوا جميعا سكارى ، فراحوا يتعثرون ويسقطون ، وظهر على وجوههم جميعا تعبير عجز ، وترقرقت الدموع فى اعينهم .

وصاح العمدة الذى كان أيضا مخمورا :

— الماء يا بنات ! بسرعة يا بنات !

وركضت النساء والفتيات الى اسفل ، حيث يوجد النبع ، وحملن الى اعلى الدلاء والطسوت المملوءة ، وبعد ان يفرغنها فى الماكينة كنّ يركضن ثانية . ونقلت الماء أولجا وماريا وساشا وموتكا ايضا . وقامت النساء والصبيان بضخ الماء ، وفح الخرطوم ، وصوبه العمدة تارة الى الباب وتارة الى النوافذ وهو يضغط التيار باصبعه فكان يصدر عنه فحيح اشد .

وترددت اصوات استحسان :

— شاطر يا انتيب ! اجتهد !

اما انتيب فاقتحم المدخل وسط اللهب ، وصاح من هناك :

— ضخوا ! اجتهدوا ايها المسيحيون بمناسبة هذا الحادث الاليم !

وتجمهر الفلاحون بجوار الدار وهم لا يفعلون شيئا ، واخذوا يتطلعون الى النار . ولم يكن احد يعرف ماذا يفعل ، ولا احد يجيد شيئا ، بينما من حولهم أكوام القمح والدريس ، والحظائر والحطب الجاف . وهنا ايضا وقف كيرياك وابوه العجوز اوسيب ، وكانا كلاهما ثملين . وقال العجوز مخاطبا المرأة الملقاة على الارض ، وكأنما يريد ان يبرر وقوفه بلا عمل :

— ما الداعى للنواح يا اشبينة ! الدار مؤمّنة ، فماذا تريدين !

واخذ سيميون يروى كيف شب الحريق مخاطبا تارة هذا الشخص وتارة ذاك :

— هذا العجوز ذو الصرة ، من خدم الجنرال جوكوف . . . كان يعمل طباخا عند جنرالنا ، عليه الرحمة . . . جاء مساء وقال : «دعنى أبيت . . .» ، وطبعا شربنا قليلا ، معلوم . . . وقامت زوجتى تشعل السماور لتسقى العجوز شايا ، ولسوء الحظ وضعت السماور فى المدخل ، وهكذا طار اللهب من مدخنته الى السقف مباشرة ، الى القش فاشتعل يعنى . نحن انفسنا كدنا نحترق . وطاقية العجوز احترقت ، ياحرام .

واستمر الطرق على اللوح الحديدى بلا كلل ، ودقت اجراس الكنيسة كثيرا وراء النهر . ونظرت اولجا برعب ،

وقد غمرها الضوء ، وهى تختنق ، الى الشياه الحمـــراء والحمامات الوردية المحلقة فى الدخان ، وركضت تارة الى اسفل وتارة الى اعلى . وخيل اليها ان هذا الرنين قد انغرز فى قلبها شوكة حادة ، وان الحريق لن ينتهى ابدا ، وان ساشا فقدت . . . وعندما انهار سقف الدار بصخب اصابها الخور من فكرة ان القرية سوف تحترق الآن كلها حتما ، ولم يعد بوسعها ان تجلب الماء ، فجلست على الجرف ووضعت الدلاء بجوارها . وجلست النساء بقربها وأعولن كأنما يندبن ميتا .

ولكن هاهم الوكلاء والعاملون قد جاءوا من الضفة الاخرى ، من ضيعة الاقطاعى ، فى عربتين ، وأتوا معهم بماكينة اطفاء . وجاء طالب فى سترة بيضاء مسدلة ، شاب جدا ، على ظهر حصان . وتعالى طرق الفؤوس ، ووضعوا سلما على الجدار المشتعل ، وتسلقه خمسة اشخاص دفعة واحدة ، وفى مقدمتهم الطالب الذى كان محمرا ، يصرخ بصوت حاد ابح . وبلهجة توحى وكأن اطفاء الحرائق كان عملا معتادا بالنسبة له . وفككوا جذوع الدار ، ونقلوا المعلف والسياج واقرب كوم دريس .

وترددت اصوات حازمة من الحشد :

— امنعوهم من تحطيم الدار ! امنعوهم !

فتوجه كيرياك نحو الدار فى هيئة حازمة ، كأنما يبغى منع القادمين من تحطيمها ، ولكن احد العمال اداره الى الخلف وضربه على قفاه . وسمعت ضحكات ، وضربه العامل مرة اخرى فسقط كيرياك وزحف على اربع عائدا الى الحشد .

وجاءت من الضفة الأخرى فتاتان جميلتان ترتديان قبعتين ، يبدو انهما شقيقتا الطالب . ووقفتا عن بعد تنظران الى الحريق . ولم تعد الجذوع المفكوكة تشتعل لكنها نفثت دخانا كثيفا . وكان الطالب الممسك بالخرطوم يوجهه تارة الى الجذوع وتارة الى الفلاحين ، وتارة الى النسوة جالبات الماء .

وصاحت به الفتاتان بعتاب وقلق :

— جورج ! جورج !

وانتهى الحريق . وعند الانصراف فقط لاحظوا ان الفجر حل ، وان الجميع شاحبون وسمر الى حدما . . هكذا يبدو دائما فى الصباح الباكر عندما تنطفىء آخر نجوم السماء . وضحك الفلاحون وهم ينفضون وسخروا من طاهى الجنرال وطاقيته التى احترقت . كانوا يرغبون الآن فى تحويل الحريق الى مزحة ، وكأنما حتى كانوا يأسفون على انتهاء الحريق بهذه السرعة .

وقالت اولجا للطالب :

— لقد اطفأتم الحريق جيدا يا سيدى . حبذا لو جئتم الينا فى موسكو . فهناك كل يوم حريق .

فسألتها احدى الفتاتين :

— وهل أنت من موسكو ؟

— هو كذلك . كان زوجى يعمل فى «سلافيانسكى بازار» . وهذه ابنتى — واشارت الى ساشا المقرورة الملتصقة بها — وهى أيضا موسكوفية .

وقالت الفتاتان شيئا ما بالفرنسية للطالب فأعطى هذا لساشا قطعة نقدية بعشرين كوبيكا . ورأى العجوز اوسيب

ذلك فأشرق وجهه بالامل فجأة .

وقال مخاطبا الطالب :

— الحمد لله يا صاحب المعالى انه لم تكن هناك ريح ، والا لاحترقنا فى الحال . — ثم اضاف بحرج وبنبرة اخفض — يا صاحب المعالى ، ايها السادة الطيبون ، الفجر بارد ، لو نتدفأ . . . لو تكرمتم بثمن نصف زجاجة .

فلم يعطوه شيئا فسعل وجر ساقيه الى البيت . اما اولجا فوقفت على الجرف وتطلعت الى العربتين وهما تعبران النهر خوضا ، والى السادة وهم يسيرون فى المرج . وعلى الشاطىء الآخر كانت هناك عربة فى انتظارهم . وعندما عادت اولجا الى الدار قصت لزوجها باعجاب :

— ما اطيبهم ! ما اجملهم ! اما الآنستان فمثل ملاكين .

ودمدمت فيكلا الناعسة بغل :

— فلتمزقهم مصيبة !

٦

كانت ماريا تعتبر نفسها تعيسة وتقول انها تود بشدة لو ماتت . اما فيكلا فعلى العكس ، كانت تروق لها كل هذه الحياة : الفقر ، والقذارة ، والسباب الجامح . كانت تأكل ما يقدم لها دون تمييز ، وتنام حيثما كان وعلى اى شيء . وكانت تلقى بالقاذورات بجوار المدخل مباشرة . تقذف بها من العتبة ثم تخوض بقدميها الحافيتين فى البركة القذرة . ومنذ اليوم الاول مقتت اولجا ونيكولاى بالذات لأن

هذه الحياة لم تعجبهما .

وكانت تقول بتشف :

— سأرى ماذا ستأكلون هنا ايها النبلاء الموسكوفيون ! سأرى !

وذات صباح — وكان ذلك في بداية سبتمبر — اتت فيكلا من اسفل بدلوى مياه . وكانت وردية من البرد ، عفية وجميلة . وفى تلك الاثناء كانت ماريا واولجا جالستين الى المائدة تشربان الشاى .

فدمدمت فيكلا بسخرية وهى تضع الدلوين :

— الشاى والسكر ! يا لهما من سيدتين ، اصبحت موضة عندهما ان تشربا الشاى كل يوم . احترسا والا انتفختما من الشاى ! — استطردت وهى تنظر الى اولجا بحقد — سمنت فى موسكو سحنة ممتلئة يا كثيرة اللحم !

ورفعت المغرفة وضربت اولجا على كتفها حتى ان كلتا الزوجتين اشاحتا بأيديهما ودمدمتا :

— آه ، يا إلهى .

ثم ذهبت فيكلا الى النهر لتغسل الملابس . وظلت طوال الطريق تسب بصوت عال كان يسمع فى الدار .

ومر النهار . وحل مساء خريفى طويل . وكانوا يلفون خيوط الحرير فى الدار . كانوا يلفون جميعا ما عدا فيكلا التى ذهبت الى ما وراء النهر . كانوا يأخذون الحرير من مصنع قريب فتكسب منه الاسرة كلها قليلا ، حوالى عشرين كوبيكا فى الاسبوع .

وقال العجوز وهو يلف الحرير :

— كان الحال افضل ايام السادة . تعمل ، وتأكل ،

وتنام ، وكل شيء بنظام . في الغداء تتناول حساء الكرنب والعصيدة ، وفي العشاء الكرنب والعصيدة . وما اكثر الخيار والكرنب ، كُلْ طواعية قدر ما تشاء . والحزم كان اكثر . كل واحد يعرف قدره .

لم يشتعل سوى مصباح صغير كان يرسل ضوءا كابيا ودخانا . وعندما يحجب احد ما الضوء فيسقط ظل كبير على النافذة ، يلوح نور القمر الساطع . وكان العجوز اوسيب يتحدث على مهل عن الحياة قبل التحرر * . وكيف انه في نفس هذه الاماكن التي يعيشون فيها الآن بملل وفقر كان السادة يصطادون بكلاب الصيد والكلاب السلوقية وكلاب بسكوف ، وكانوا اثناء المطاردة يقدمون الفودكا للفلاحين ، وكيف كانت تمضي الى موسكو العربات المحملة بالطيور البرية من اجل السادة الشبان ، وكيف كانوا يعاقبون الاشرار بالجلد او بالنفي قرب ضيعة تفير ، ويكافئون الاخيار . وروت الجدة ايضا شيئا ما . كانت تذكر كل شيء ، كل شيء بحذافيره . وتحدثت عن سيدتها السابقة ، تلك المرأة الطيبة التقية ، التي كان زوجها عربيدا وفاسقا والتي تزوجت بناتها جميعا بصورة سيئة ما بعدها سوء ، فقد تزوجت واحدة من سكير ، والاخرى من شخص متوسط الحال ، والثالثة هربت سرا (وساعدت الجدة نفسها ، التي كانت فتاة آنذاك ، في عملية الهرب) ثم سرعان ما متن جميعا ، مثل امهن ،

---

* في عام ١٨٦١ الغى نظام القنانة في روسيا وتحرر الفلاحون من العبودية المباشرة للاقطاعيين . **المعرب** .

من الأسى . وبكت الجدة قليلا اذ تذكرت ذلك .

وفجأة دق الباب فانتفضوا جميعا .

— يا عم اوسيب ، اسمح لى بالمبيت !

ودخل عجوز صغير اصلع ، طاهى الجنرال جوكوف ، ذلك الذى احترقت طاقيته . وجلس يصغى ثم راح هو الآخر يتذكر ويروى مختلف الحكايات . وكان نيكولاى ، الجالس على الفرن مدليا ساقيه ، يصغى ويسأل عن الاطعمة التى كانوا يطبخونها ايام السادة . فتحدثوا عن اللحم المحمر والكستليتة ومختلف الوان الحساء والصلصة ، وكان الطاهى ، الذى يذكر ايضا كل شىء ، يسمى انواع المأكولات التى لم يعد لها وجود الآن . كانت هناك مثلا أكلة تجهز من عيون الثيران وتسمى «صباحا بعد الاستيقاظ» .

وسأل نيكولاى :

— وهل كنتم تعدون كستليتة ماريشال ؟

— كلا .

فهز نيكولاى رأسه بعتاب وقال :

— ايه ، طهاة خائبون !

وحدقت الفتيات الراقدات والجالسات على الفرن الى اسفل دون ان تطرف عيونهن . وبدا انهن كثيرات جدا ، كالملائكة فى السحب . واعجبتهن القصص ، فرحن يتنهدن وينتفضن ويشحبن تارة من الاعجاب وتارة من الخوف . واصغين الى الجدة التى كان حديثها امتع من حديث الآخرين بانفاس مبهورة محاذرات الا تند عنهن حركة .

وأووا الى النوم فى صمت . وفكر العجائز المنفعلون الذين اثارتهم الحكايات فى روعة الصبا الذى لا يبقى بعده ،

مهما كان ، الا ما هو حي ومفرح ومؤثر ، وما ارهب برودة هذا الموت غير البعيد . . من الافضل الا تفكر فيه ! وانطفأ المصباح ولسبب ما ذكرهم الظلام والنافذتان ، المضاءتان بنور القمر الساطع ، والهدوء ، وصرير المهد بأن الحياة قد انقضت ، ولا يمكن استرجاعها بأى حــــال . . . ما ان تنعس وتغيب حتى يلمس احد ما كتفك ، وينفخ فى خدك ، فيطير النوم ، وتشعر بجسدك كأنما هرس هرسا ، ولا ترد الى الذهن الا الافكار عن الموت . وتستدير الى الجنب الآخر ، فتنسى الموت ولكن تجوس فى رأسك الافكار القديمة المملة المقبضة عن الفاقة والعلف ، عن ارتفاع اسعار الدقيق ، وبعد قليل تتذكر ثانية ان الحياة قد انقضت ، ولا يمكن استرجاعها . . .

وتنهد الطاهى :

ـــ اوه ، يا الهى .

وطرق احدهم على النافذة طرقات خافتة . يبدو انها فيكلا قد عادت . ونهضت اولجا وهى تتثاءب وتهمس بالصلوات ، وفتحت الباب ، ثم نزعت مزلاج المدخل . ولكن لم يدخل احد بل هبت برودة من الخارج وانتشر الضوء فجأة من القمر . ومن الباب المفتوح ظهر الشارع الهادئ المقفر ، والقمر ذاته الذى كان يسبح فى السماء .

وهتفت اولجا :

ـــ من هناك ؟

ـــ انا ـــ تناهى الرد ـــ هذه انا .

وقفت فيكلا بجوار الباب ، ملتصقة بالحائط ، عارية تماما . كانت ترتعش من البرد واسنانها تصطك ، ولاحت

فى ضوء القمر الساطع شاحبة للغاية وجميلة .وغريبة . وبدت الظلال الساقطة عليها ولمعان القمر على جلدها ملفتة للانظار بشدة ، وبرز بشكل خاص حاجباها الاسودان ونهداها الفتيان القويان .

وتمتمت :

— نزع الاشقياء فى الضفة الاخرى ثيابى وتركونى هكذا . . . جئت الى البيت بلا ملابس . . . كما ولدتنى امى . هاتى شيئا البسه .

فقالت اولجا وقد بدأت هى ايضا ترتعش :

— ادخلى اذن !

— اخشى ان يرانى العجوزان .

وبالفعل كانت الجدة تتململ وتتذمر والعجوز يسأل : «من هناك ؟» وجاءت اولجا اليها بقميصها وجونلتها ، والبستها ، ثم دخلت كلتاهما بهدوء محاذرتين الا تصطفق الابواب .

ودمدمت الجدة بغضب وقد خمنت من القادم :

— أهى انت يا ناعمة ؟ آه يا صايعة فا . . . لتأخذك داهية .

فهمست اولجا وهى تدثر فيكلا :

— لا بأس ، لا بأس ، لا بأس يا حلوة .

وعاد الهدوء . كان النوم فى الدار سيئا دائما . فقد كان لدى كل منهم شيء لزج ملحاح يمنعه من النوم : الالم فى الظهر لدى العجوز ، والهموم والحقد لدى الجدة ، والخوف لدى ماريا ، والجرب والجوع لدى الاطفال . والآن ايضا كان نومهم قلقا ، يتقلبون من جنب الى جنب ،

ويهذون ، وينهضون ليشربوا .

وفجأة اجهشت فيكلا بصوت عال غليظ ، ولكنها كتمت بكاءها على الفور ، ثم اخذت تشهق اقل واخفت الى ان سكتت . واحيانا كان رنين الساعة يتناهى من الضفة الاخرى من وراء النهر . ولكنها كانت ساعة غريبة ، اذ دقت فى البداية خمس دقات ثم بعد ذلك ثلاث .

وتنهد الطاهى :

— أوه ، يا إلهى !

بالنظر الى النوافذ كان من الصعب معرفة ما اذا كان ذلك ضوء القمر ام ان الفجر حل . ونهضت ماريا وخرجت ، وسمع صوتها وهى تحلب البقرة فى الفناء وتقول لها : «قفى !» وخرجت الجدة ايضا . وكان الظلام لا يزال منتشرا فى الدار ولكن معالم الاشياء اصبحت واضحة .

وهبط نيكولاى ، الذى لم ينم طوال الليل ، من على الفرن . واستخرج من الصندوق الاخضر فراكه ، ولبسه ، واقترب من النافذة فمسح كميه وشد اطرافه وابتسم . ثم نزعه بحرص ، ودسه فى الصندوق ، وعاد فرقد .

عادت ماريا وبدأت تشعل الفرن . ويبدو انها لم تفق تماما من النوم وها هى الآن تفيق اثناء الحركة . وربما تراءى لها شيء فى الحلم او تذكرت حكايات الامس ، اذ انها تمطت امام الفرن بتلذذ وقالت :

— كلا ، التحرر افضل !

٧

وصل السيد ــ هكذا كانوا فى القرية يسمون وكيل مأمور الشرطة . كانوا يعرفون منذ اسبوع متى ولماذا سيأتى . فرغم ان جوكوفو لم تكن تضم سوى اربعين دارا فان متأخرات الضرائب ، الحكومية والاقليمية ، بلغت اكثر من الفى روبل .

نزل وكيل المأمور فى الحانة . و«أكل» هنا كوبين من الشاى ، ثم توجه مشيا الى دار العمدة ، حيث كان ينتظر حشد من المتخلفين عن السداد . وبالرغم من صغر سن العمدة انتيب سيديلنيكوف ــ كان يجاوز الثلاثين بقليل ــ فقد كان صارما ويقف دائما فى صف الرؤساء ، وان كان هو نفسه فقيرا ولا يسدد الضرائب بانتظام . يبدو انه كان يسليه انه عمدة ، ويعجبه الاحساس بالسلطة التى لم يكن يستطيع اظهارها الا بالصرامة . وكانوا فى الاجتماعات يخشونه ويطيعونه . كان يحدث احيانا ان ينقض فجأة على احد السكارى فى الشارع او بجوار الحانة ، فيوثق يديه خلف ظهره ويودعه فى غرفة الحبس . بل انه اودع الجدة غرفة الحبس ذات مرة لانها ، اذ جاءت الى الاجتماع بدلا من أوسيب ، اخذت تسب ، فأبقاها هناك يوما كاملا . ولم يعش فى المدينة ، ولم يقرأ الكتب ابدا ، لكنه جمع من مكان ما شتى الكلمات الذكية وكان يهوى استخدامها فى حديثه ، ولهذا احترموه رغم انهم لم يكونوا يفهمونه دائما .

عندما دخل اوسيب دار العمدة ومعه بطاقة الضرائب ، كان وكيل المأمور ، وهو عجوز نحيف ، بسالفين طويلين اشيبين وفى سترة رمادية ثقيلة ، جالسا الى طاولة فى الركن تحت الايقونات يسجل شيئا ما . كانت الدار نظيفة ،

والجدران كلها مبرقشة بالصور المنزوعة من المجلات ، وفى ابرز مكان ، بجوار الايقونات ، علقت صورة باتنبرج ، الامير البلغارى السابق . وبجوار الطاولة وقف انتيب سيديلنيكوف ، عاقدا يديه على صدره .

وقال عندما جاء دور اوسيب :

— عليه يا صاحب المعالى مائة وتسعة عشر روبلا . منذ ان دفع روبلا قبيل عيد الفصح لم يدفع بعدها كوبيكا .

فرفع وكيل المأمور بصره الى اوسيب وسأله :

— لم هكذا يا صاحبى ؟

فشرع اوسيب يقول مضطربا :

— اصنعوا معروفا لله يا صاحب المعالى ، اسمحوا لى بأن اقول ، فى السنة الماضية قال لى سيد من ضيعة لوتريتس : «يا اوسيب بع لى الدريس . . . هيا بعه لى» ، ولم لا ؟ كان لدى حوالى مائةبود للبيع حصدتها النساء فى المروج قرب النهر . . . حسنا ، اتفقنا . . . كل شيء تمام ، طواعية . . .

اشتكى من العمدة وهو يستدير بين الحين والحين نحو الفلاحين كأنما يدعوهم شهودا . واحمر وجهه وتفصد عرقا ، واصبحت عيناه حادتين ، شريرتين .

فقال وكيل المأمور :

— لست افهم لماذا تحكى لى كل هذا . اننى اسألك . . اسألك انت ، لماذا لا تدفع المتأخرات ؟ انتم جميعا لا تدفعون وتريدون ان اتحمل انا المسئولية ؟

— لا قدرة عندى !

فقال العمدة :

— هذه الكلمات لا اثر لها يا صاحب المعالى .
صحيح آل تشيكيلدييف من طبقة غير ميسورة ، ولكن تفضلوا واسألوا الآخرين ، السبب واحد : الفودكا ، وهم عابثون جدا . بدون ادنى مفهومية .

وسجل وكيل المأمور شيئا ما ثم قال لاوسيب بسكينة وبنغمة هادئة وكأنه يطلب كوب ماء :

— اغرب من هنا .

وسرعان ما رحل . وعندما جلس فى عربته الرخيصة وسعل ، بدا واضحا حتى من منظر ظهره الطويل ، انه لم يعد يذكر شيئا عن اوسيب او العمدة او عن متأخرات جوكوفو ، بل كان يفكر فى اموره الخاصة . وما ان ابتعد فرسخا واحدا حتى كان انتيب سيديلنيكوف يخرج من دار آل تشيكيلدييف حاملا السماور ، بينما سارت الجدة خلفه وهى تصيح بصوت رفيع ، نافخة صدرها :

— لن اعطيه ! لن اعطيه لك يا ملعون !

كان أنتيب يسير بسرعة ، بخطوات واسعة ، اما هى فركضت خلفه وهى تختنق وتكاد تسقط ، حدباء ، شرسة . وسقط منديل رأسها على كتفيها ، وتطاير شعرها الاشيب المائل الى الخضرة فى الريح . وفجأة توقفت ، وكمتمردة حقيقية ، اخذت تضرب صدرها بقبضتيها وتصيح اعلى من ذى قبل بصوت ناغم وكأنها تعول :

— ايها المسيحيون ، يا عباد الله ! يا ويلى ، اهانونى ! يا احبابى ظلمونى ! اغيثونى يا اعزائى !

فقال العمدة بصرامة :

— يا جدة ، يا جدة ، ضعى عقلا فى رأسك .

اصبحت دار آل تشيكيلدييف بدون السماور مملة تماما . وكان ثمة شيء مذل ، مهين في هذا الحرمان ، كما لو ان الدار جردت فجأة من كرامتها . كان الافضل لو ان العمدة اخذ الطاولة ، وجميع الارائك وجميع الاباريق ، اذن لما بدا المكان بهذا الخواء . وكانت الجدة تصرخ ، وماريا تبكى ، والبنات يبكين ايضا اقتداء بها . واحس العجوز بالذنب فجلس فى الركن مطرقا صامتا . وصمت نيكولاى ايضا . كانت الجدة تحبه وتشفق عليه ، اما الآن فنسيت الشفقة ، وانهالت عليه فجأة بالسباب واللوم وهى تلوح بقبضتيها امام وجهه تماما . كانت تصرخ قائلة انه المذنب فى كل ما جرى . وبالفعل فلماذا كان يرسل نقودا قليلة بينما كان هو نفسه يفاخر فى رسائله بأنه يكسب فى «سلافيانسكى بازار» حوالى ٥٠ روبلا فى الشهر ؟ ولماذا جاء الى هنا ، وفوق ذلك مع اسرته ؟ واذا مات ، فبأى نقود سيدفنونه ؟ . . . وكان منظر نيكولاى واولجا وساشا يبعث على الرثاء .

وزحر العجوز وتناول طاقيته ومضى الى العمدة . كان الظلام قد حل . وكان انتيب سيديلنيكوف يلحم شيئا ما بجوار الفرن ، نافخا شدقيه . وكان الجو خانقا . وعلى الارض كان يلهو اطفاله النحفاء القذرون الذين ليسوا بأفضل من اطفال تشيكيلدييف . وكانت زوجته القبيحة ، النمشاء ، ذات البطن الكبير ، تلف خيوط الحرير . كانت عائلة بائسة تعيسة ، وانتيب وحده هو الذى كان يبدو يافعا وجميلا . واصطف على الاريكة خمسة سماورات . وصلى العجوز لصورة باتنبرج وقال :

— انتيب ، اصنع معروفا لله ورد السماور ! بحق المسيح !

— هات ثلاثة روبلات وعندها خذه .

— لا قدرة عندى !

ونفخ انتيب شدقيه ، واز اللهب وفح وهو ينعكس على السماورات . وعصر العجوز طاقيته في يديه وفكر قليلا ثم قال :

— رد السماور !

اصبح العمدة الاسمر يبدو الآن اسود تماما ، اشبه بساحر . والتفت الى اوسيب وقال بصرامة وسرعة :

— كل شيء متوقف على رئيس الاقليم . يمكنك ان تتقدم الى الاجتماع الادارى فى السادس والعشرين من الشهر بمبررات عدم رضاك شفويا ام على الورق .

لم يفهم اوسيب شيئا لكنه قنع بذلك وعاد الى الدار .

وبعد حوالى عشرة ايام جاء وكيل المأمور فمكث ساعة ثم رحل . وكان الجو آنذاك شديد الريح ، باردا ، وقد تجمد النهر منذ فترة طويلة ، بينما لم يهبط الثلج بعد ، فتعذب الناس لانعدام الطرق . وذات مساء ، فى العيد ، جاء الجيران الى اوسيب ليجلسوا قليلا ويتبادلوا الاحاديث . تحدثوا فى الظلام فقد كان من الحرام العمل فلم يشعلوا الضوء . وكانت هناك بعض الاخبار السيئة . ففى دارين او ثلاثة استولوا على الدجاج سدادا للمتأخرات ، وبعثوا به الى ادارة الاقليم ، فنفق هناك لان احدا لم يطعمه . واستولوا على الغنم ، واثناء نقلها ، ووضعها ، مربوطة ، من عربة الى عربة اخرى فى كل قرية ، نفقت احداها . والآن راحوا يبحثون : من المذنب ؟

وقال اوسيب :

— المجلس المحلى ! ومن غيره !

— معلوم ، المجلس .

كانوا يتهمون المجلس المحلى بكل شيء : بمتأخرات الضرائب وبالظلم والجدب ، على الرغم من ان احدا منهم لم يعرف ما هو المجلس المحلى . وقد بدأ ذلك منذ ان دخل الفلاحون الاغنياء ، الذين كانوا يملكون الفبارك والمتاجر والانزال ، فى عضوية المجالس المحلية فلم تحز رضاهم ، ومن بعدها اصبحوا يسبون المجالس المحلية فى فباركهم وحاناتهم .

وتحدثوا فقالوا ان الله لا يمنحهم ثلجا ، ولا بد من نقل الحطب ولكن يستحيل السير او الجر فوق الحفر والنتوءات . وفى الماضى ، منذ حوالى خمسة عشر او عشرين عاما ، وقبل ذلك كانت الاحاديث فى جوكوفو اكثر امتاعا . كان كل عجوز آنذاك يبدو وكأنه يحفظ سرا ما ، ويعرف شيئا ، ويتوقع شيئا ما وتحدثوا عن الشهادة ذات الختم الذهبى ، وعن تقسيم الارض ، وعن الاراضى الجديدة ، وعن الكنوز ، ولمحوا الى شيء ما . اما الآن فلم يعد لدى اهالى جوكوفو اية اسرار ، وكانت حياتهم كلها مكشوفة ظاهرة للعيان ، ولم يكن بوسعهم ان يتحدثوا الا عن الفاقة وعن العلف وعن ان الثلج لم يهبط . . .

وصمتوا . ثم عادوا يتذكرون الدجاج والغنم ، وراحوا يبحثون عن المذنب .

فقال اوسيب بكآبة :

— المجلس المحلى ! ومن غيره !

٨

كانت كنيسة الابرشية تقع فى كوسوجوروفو ، على بعد ستة فراسخ ، ولم يكونوا يزورونها الا للضرورة القصوى ، عند التعميد ، او عقد القران ، او لاقامة قداس الموتى . اما للصلاة فكانوا يذهبون الى ما وراء النهر . وفى ايام الاعياد ، فى الطقس الجيد تتزين الفتيات ويذهبن حشدا لصلاة الغداء ، وكان منظرهن يبعث البهجة وهن يسرن عبر المرج فى فساتينهن الحمراء والصفراء والخضراء . وفى الطقس السيئ يبقى الجميع فى بيوتهم . اما صلوات الصيام فكانوا يؤدونها فى الابرشية . وكان القسيس يطوف بالصليب على الدور فى عيد الفصح فيأخذ ١٥ كوبيكا ممن لم يؤد الفروض فى الصيام الكبير .

لم يكن العجوز يؤمن بالله لانه لم يفكر فيه ابدا تقريبا . كان يعترف بالخوارق ، ولكنه كان يعتقد ان ذلك لا يحدث الا للنساء وحدهن ، وعندما كانوا يتحدثون امامه عن الدين او المعجزات ويوجهون اليه سؤالا ما ، كان يرد كارها ، وهو يحك جلده :

— ما ادرانى !

وكانت الجدة تؤمن ولكنه كان ايمانا كابيا ، فقد اختلط كل شيء فى ذهنها ، وما ان تبدأ فى التفكير بالذنوب والموت وتخليص الروح حتى تستولى الفاقة والهموم على افكارها فتنسى على الفور ما كانت تفكر فيه . ولم تكن تذكر الصلوات ، وفى الامسيات ، قبل النوم ، كانت تقف عادة امام الايقونات وتهمس :

— يا عذراء قازان ، يا عذراء سمولنسك ، ايتها العذراء الشفيعة . . .

وكانت ماريا وفيكلا تصليان وتصومان كل عام ، ولكنهما لم تفهما شيئا . ولم يعلموا الاولاد الصلاة ، ولم يذكروا لهم شيئا عن الله ولم يبثوا فى نفوسهم اية قواعد ، بل حرموا عليهم فقط الافطار فى الصيام . وكان الحال هكذا تقريبا فى الاسر الاخرى ، فقليلون هم الذين آمنوا وقليلون هم الذين فهموا . وفى الوقت نفسه كانوا جميعا يحبون الكتاب المقدس ، يحبونه برقة ، باجلال ، بيد انه لم تكن لديهم كتب ، ولم يكن هناك من يقرأ او يشرح ، ولان اولجا كانت تقرأ الانجيل احيانا فقد احترموها ، وكانوا جميعا يخاطبونها هى وساشا بصيغة الجمع .

كانت اولجا تذهب كثيرا لحضور الاعياد والصلوات الكنسية فى القرى المجاورة وفى مدينة مركز الاقليم التى كان بها ديران وسبعة وعشرون كنيسة . كانت اولجا شاردة ، واثناء ترددها على الكنائس كانت تنسى اسرتها تماما ، وعندما تعود الى المنزل تكتشف فجأة بفرح ان لديها زوجا وابنة ، وعندئذ تقول مبتسمة متهللة :

— منَّ الله على بنعمة !

بدا لها ما يحدث فى القرية بغيضا وكان يعذبها . كانوا فى عيد ايليا يشربون ، وفى عيد رفع العذراء يشربون ، وفى عيد نصب الصليب يشربون . وفى عيد التجلى ، عيد كنيسة جوكوفو ، شرب الفلاحون ثلاثة ايام ، وبددوا على الشراب خمسين روبلا من الاموال العامة ، وفضلا عن ذلك جمعوا نقودا من جميع الدور لشراء الفودكا . وفى اليوم الاول ذبح آل تشيكيلدييف خروفا واكلوه فى الصباح وفى الغداء والعشاء ، اكلوا كثيرا ، وفى الليل ايضا نهض الاطفال

ليأكلوا . وكان كيرياك طوال الايام الثلاثة ثملا الى درجة فظيعة ، وباع كل شيء ليشرب بثمنه ، حتى الطاقية والحذاء ، وضرب ماريا حتى انهم كانوا يصبون عليها الماء لتفيق . وبعد ذلك شعر الجميع بالخجل والتقزز .

ولكن حتى في جوكوفو ، في «قرية الخدم» هذه جرى ذات مرة مهرجان ديني حقيقي . كان ذلك في اغسطس ، عندما طافوا بالاقليم كله ، من قرية الى قرية ، حاملين ايقونة المخلِّصة . وفي اليوم الذى انتظروها فيه في جوكوفو كان الطقس هادئا وغائما . وانطلقت الفتيات منذ الصباح لاستقبال الايقونة في فساتينهن الزاهية العيدية ، وجئن بها قبيل المساء في مسيرة دينية بالاناشيد ، وفي تلك اللحظة دوت الاجراس وراء النهر . وامتلأ الشارع بحشد هائل من الاهالي والغرباء ، وارتفع الصخب والغبار واشتد الزحام . . . ومد العجوز والجدة وكيرياك اياديهم نحو الايقونة ، وتطلعوا اليها بنهم وقالوا وهم يبكون :

— يا مخلصتنا ، يا أمنا العذراء ، يا مخلصة !

وكأنما ادرك الجميع فجأة ان ما بين الارض والسماء ليس فراغا ، وان الاغنياء والاقوياء لم يستولوا بعد على كل شيء ، وانه ما زالت ثمة حماية من الاهانات والاستعباد ، من الفاقة غير المحتملة ومن الفودكا الرهيبة .

وانتحبت ماريا وهي تقول :

— يا مخلصة ، يا أمنا ! يا مخلصة !

ولكن ها هو القداس قد انتهى ، وحملوا الايقونة ، وعاد كل شيء الى سابق عهده ، ومن جديد ترددت من الحانة اصوات فظة مخمورة .

ولم يكن يخشى الموت سوى الفلاحين الاغنياء الذين كلما ازدادوا ثراء قلّ ايمانهم بالله وبخلاص الارواح ، وبسبب الخوف وحده من نهاية العالم ، وتحوطا ، كانوا يضعون الشموع ويقيمون القداسات . اما الفلاحون الفقراء فلم يكونوا يخشون الموت . كان يقال للعجوز والجدة فى حضورهما انهما عاشا طويلا وآن لهما ان يموتا ، فلا يعبآن . وفى حضور نيكولاى لم يكونوا يخجلون من القول لفيكلا بأنه عندما يموت نيكولاى ، فسيستفيد زوجها دينيس ، اذ سيسرحونه من الخدمة العسكرية . اما ماريا فلم تكن لا تخشى الموت فحسب بل كانت تأسف لانه تأخر الى هذا الحد ، وكانت تشعر بالسرور عندما يموت اطفالها .

لم يكونوا يخشون الموت لكنهم كانوا ينظرون الى الامراض بخوف مبالغ فيه . كانت تكفى اية اصابة تافهة — كاضطراب فى المعدة ، او حرارة بسيطة — حتى ترقد الجدة على الفرن وتتدثر وتبدأ فى التأوه بصوت عال وبلا توقف : «آه ، اموت !» ويسرع العجوز باستدعاء القس لمناولتها ومسحها بالزيت . وكثيرا ما كانوا يتحدثون عن نزلة البرد ، وعن الديدان ، وعن الاورام المتحركة فى البطن والواصلة الى القلب . وكانت نزلة البرد اكثر ما يخشونه ، ولذلك كانوا يلبسون الملابس الثقيلة حتى فى الصيف ويتدفأون على الفرن . وكانت الجدة تهوى العلاج ، وكثيرا ما تسافر الى المستشفى ، حيث تقول ان عمرها ليس سبعين سنة بل ثمانية وخمسين . وكانت تعتقد انه لو عرف الطبيب عمرها الحقيقى فلن يعالجها بل سيقول انه آن لها ان تموت لا ان تتعالج . وكانت ترحل الى المستشفى عادة فى الصباح الباكر ، وتأخذ معها

صبيتين او ثلاثا ، وتعود فى المساء جوعى وغاضبة بقطرات لها ومراهم للصبيات . وذات مرة اخذت نيكولاى ، الذى ظل بعدها اسبوعين يتناول القطرات ويقول انه يشعر بتحسن .

كانت الجدة تعرف جميع الاطباء والحكماء والمطببين لمدى ثلاثين فرسخا ، ولم يعجبها واحد منهم . وفى عيد التجلى ، عندما طاف القسيس بالصليب على الدور ، قال لها الشماس ان هناك عجوزا ، حكيما عسكريا سابقا ، يعيش فى المدينة قرب السجن ، يعالج جيدا جدا ، ونصحها باللجوء اليه . وعملت الجدة بنصيحته . وعندما هبط الثلج لاول مرة سافرت الى المدينة وجاءت بعجوز متنصر ، بلحية وفى ثوب طويل الذيل ، وكان وجهه مغطى بعروق زرقاء . وفى تلك الاثناء كان يعمل فى الدار عمال مياومة : كان خياط عجوز يضع نظارة رهيبة يفصل من بعض الاسمال صديريا ، وشابان يلبدان الصوف ويصنعان احذية اللباد . وكان كيرياك الذى طردوه من العمل بسبب السكر واصبح يعيش الآن فى المنزل ، جالسا بجوار الخياط يصلح النير . وكانت الدار ضيقة ، خانقة ، كريهة الرائحة . وفحص العجوز المتنصر نيكولاى وقال انه بحاجة الى كاسات هواء .

واخذ يضع كاسات الهواء بينما وقف العجوز الخياط وكيرياك والفتيات ينظرون ، وخيل اليهم انهم يرون كيف يخرج المرض من جسد نيكولاى . ونظر نيكولاى ايضا الى الكاسات وهى تلتصق بصدره فتمتلىء شيئا فشيئا بدم داكن ، فشعر كما لو كان شىء ما يخرج بالفعل من جسده ، فابتسم مستمتعا .

وقال الخياط :

— هذا حسن ، جعل الله فيه الشفاء .

وضع المتنصر اثنتى عشرة كأسا ، ثم اثنتى عشرة اخرى ، وشرب الشاى ثم رحل . واخذ نيكولاى يرتجف ، وهزل وجهه ، وكما قالت النساء ، تضاءل بحجم القبضة ، وازرقت اصابعه ، وتدثر بالبطانية وبمعطف جلد الخروف ، ولكنه شعر بازدياد البرودة . وبحلول المساء تملكته الوحشة ؛ وطلب ان يضعوه على الارض ، ورجا الخياط الا يدخن ، ثم سكن تحت المعطف ، وفى الصباح توفى .

٩

اوه ، يا له من شتاء قاس ، طويل !

منذ اعياد الميلاد لم يعد لديهم قمح ، فابتاعوا الدقيق . وكان كيرياك ، الذى اصبح يعيش الآن فى المنزل ، يثور كل مساء فيلقى الرعب فى قلوب الجميع ، وفى الصباح يتعذب من الصداع والخجل فكان منظره يبعث على الرثاء . وفى المعلف كان يتردد ليل نهار خوار البقرة الجائعة فيمزق نياط قلبى الجدة وماريا . وكأنما عن عمد ظل الصقيع قارسا طوال الوقت ، وتراكم الثلج اكواما ، وامتد الشتاء ، وفى عيد البشارة هبت عاصفة شتائية حقيقية ، وفى اسبوع الفصح هطل الثلج .

ولكن ايا كان الحال فقد انتهى الشتاء . وفى بداية ابريل حلت ايام دافئة بينما كانت الليالى قارسة ، ولم يتراجع الشتاء ، ولكن يوما دافئا تغلب عليه اخيرا ، فسالت الجداول ، وصدحت الطيور . وغرق المرج كله والخمائل

بقرب النهر فى مياه الربيع ، وتحولت المساحة الواقعة بين جوكوفو والشاطئ الآخر من النهر الى خليج كبير رفرفت فوقه هنا وهناك اسراب من البط البرى . وكان الغروب الربيعى المتلهب ، بسحبه المنفوشة ، يقدم كل مساء شيئا عجيبا ، جديدا خياليا ، ذلك الشيء الذى لا تصدقه عندما ترى فيما بعد نفس هذه الالوان ونفس هذه السحب على قماش لوحة .

وطارت اللقالق بسرعة كبيرة وصاحت بحزن ، كأنما كانت تدعو للذهاب معها . ووقفت اولجا على حافة الجرف ونظرت طويلا الى الفيضان ، والى الشمس ، والى الكنيسة المشرقة التى بدت وكأنما تجدد شبابها ، وسالت الدموع من عينيها واختنقت انفاسها من الرغبة الجارفة فى الرحيل الى مكان ما ، الى حيث يمتد البصر ، ولو الى آخر الدنيا . وكانوا قد قرروا ان تعود ثانية الى موسكو لتعمل خادما ، وسيمضى معها كيرياك ليعمل بوابا او اى عمل آخر . آه ، كم تود لو ترحل بسرعة !

وعندما جفت الارض واصبح الجو دافئا استعدوا للرحيل . خرجت اولجا وساشا ، بالصرر على ظهريهما ، وفى نعلين قرويين ما ان لاح الفجر . وخرجت ماريا لكى تودعهما . وكان كيرياك مريضا فتأجل رحيله اسبوعا . وصلت اولجا لآخر مرة فى اتجاه الكنيسة وهى تفكر فى زوجها ، ولم تبك لكن وجهها تغضن وصار قبيحا كوجه عجوز . لقد هزلت خلال الشتاء وقبحت وشابت قليلا ، وبدلا من ملاحتها السابقة وابتسامتها اللطيفة الودود ظهر على وجهها تعبير حزين مسالم بالاسى الذى عاشته ، وظهر فى نظرتها شيء جامد

بليد كأنما كانت لا تسمع . كانت آسفة على فراق القرية والفلاحين . وتذكرت كيف حملوا نيكولاى وبجوار كل دار كانوا يقيمون الصلاة وكيف بكى الجميع مشاركينها بلواها . واثناء الصيف والشتاء كانت تمر بها ساعات يبدو لها فيها ان هؤلاء الناس يعيشون اسوأ من الحيوانات ، وكانت الحياة بينهم مرعبة . فهم افظاظ ، غير شرفاء ، قذرون ، مخمورون ، لا يعيشون فى وفاق ، يتشاجرون دائما لانهم لا يحترمون بعضهم بعضا ويخافون ويرتابون . من يفتح الحانات ويُسكر الناس ؟ الفلاح . ومن يبدد الاموال العامة واموال المدارس والكنائس وينفقها على الشراب ؟ الفلاح . ومن سرق جاره ، واحرق ، وشهد زورا فى المحكمة مقابل زجاجة فودكا ؟ من اول من يهاجم الفلاحين فى اجتماعات المجلس المحلى وغيرها ؟ الفلاح . نعم ، كانت الحياة بينهم مرعبة ، ومع ذلك فهم بشر ، يعانون ويبكون كالبشر ، وليس فى حياتهم شيء لا يمكن الا تجد له مبررا . العمل الشاق الذى يئن منه الجسد تعبا فى الليالى ، وفصول الشتاء القاسية ، والمحاصيل الشحيحة ، وضيق المسكن ، ولا مساعدة ، وليس من جهة تتوقعها منها . فالاغنى والاقوى منهم لا يستطيعون مساعدتهم لانهم هم انفسهم افظاظ ، غير شرفاء ، مخمورون ، ويسبون نفس السباب الكريه . واصغر موظف او وكيل يعامل الفلاحين معاملة المتشردين ويخاطب حتى الشيوخ ورؤساء الكنائس بصيغة المفرد ويعتقد ان له الحق فى ذلك . وهل يمكن ان يكون ثمة اى عون او مثال طيب من اناس مغرضين ، جشعين ، فاسقين ، كسالى ، لا يذهبون الى القرى الا لكى يهينوا وينهبوا ويرهبوا ؟ وتذكرت



اولجا كيف كان منظر العجوزين بائسا ذليلا عندما سيق كيرياك شتاء لمعاقبته بالجلد . . . وهى الآن تشعر بالرثاء والالم لكل هؤلاء الناس ، وراحت طوال سيرها تتلفت نحو الدور .

وبعد ان سارت ماريا معهما حوالى ثلاثة فراسخ ودعتهما ، ثم جثت على ركبتيها واعولت وهى تسقط بوجهها على الارض وتصيح :

— عدت وحيدة يا ماريا ! آه يا تعيسة يا بائسة . . .

وظلت تعول هكذا طويلا ، وظلت اولجا وساشا يريانها طويلا وهى جاثية على ركبتيها تسجد جانبا لشخص ما وقد امسكت رأسها بيديها ، وفوقها حلقت الغربان .

ارتفعت الشمس عاليا واشتد الحر . وبقيت جوكوفو بعيدا فى الوراء . وكان السير محببا ، فسرعان ما نسيت اولجا وساشا القرية وماريا ، واحستا بالمرح وكان كل شىء يبدو مسليا . تارة تل ، وتارة صف اعمدة البرق التى يمضى كل منها وراء الآخر الى جهة غير معلومة ، وتختفى فى الافق ، والاسلاك تئز بإلغاز . وتارة تبدو على البعد عزبة ، غارقة فى الخضرة ، تهب منها الرطوبة ورائحة القنب ، ولسبب ما يخيل اليهما ان قاطنيها اناس سعداء . وتارة يلوح هيكل عظمى لحصان ، ابيض وحيدا فى الحقل . والقبرات تصدح بلا توقف ، وتتصايح السمانات . ويصرخ طائر الدراج بصوت متحشرج يشبه بالفعل صوت درج حديدى صدىء يُسحب .

بلغت اولجا وساشا فى الظهر قرية كبيرة . وهنـــاك قابلتا فى شارع واسع طاهى الجنرال جوكوف ، ذلك العجوز . كان حران ، ولمعت فى الشمس صلعته العرقانة الحمراء .

ولم تعرفة اولجا ولا هو ايضا عرفها ، ثم نظر كل منهما الى الآخر فى نفس اللحظة فعرفا بعضهما البعض ، ودون ان يتفوها بكلمة ، مضى كل منهما فى سبيله . وتوقفت اولجا بجوار دار بدت أكثر ثراء وجدة ، وانحنت امام النوافذ المفتوحة وقالت بصوت عال رفيع ناغم :

— حسنة لله ايها المسيحيون الاتقياء ، حسنة بحق المسيح ، رحمة وسلاما على ارواح موتاكم .

وغنت ساشا :

— حسنة لله ايها المسيحيون الاتقياء ، حسنة بحق المسيح ، رحمة وسلاما . . .

١٨٩٧

ايونيتش

١

عندما كان القادمون الى مدينة «س» عاصمة المحافظة يشكون من الملل ورتابة الحياة فيها ، كان السكان المحليون يقولون ، كأنما يعتذرون ، ان الحياة في «س» على العكس جيدة جدا ، وانه توجد في «س» مكتبة ومسرح وناد ، وتقام فيها الحفلات الراقصة ، واخيرا فهناك اناس شيقون وعائلات لطيفة يمكن التعرف اليها . وكانوا يشيرون الى عائلة توركين ، باعتبارها اكثر العائلات ثقافة وموهبة .

كانت هذه العائلة تسكن في الشارع الرئيسي ، بجوار المحافظ ، في بيت ملكها . وكان ايفان بتروفتش توركين نفسه ، وهو رجل اسمر جميل ، بدين ، بسوالف ، يقيم عروض الهواة التمثيلية لأغراض خيرية ، ويلعب بنفسه أدوار الجنرالات العجائز ، ويسعل اثناء ذلك بصورة مضحكة للغاية . كان يعرف الكثير من النكات والالغاز والامثال ، ويحب المزاح والقفشات ، وعلى وجهه يرتسم دائما تعبير لا تفهم منه ان كان يمزح ام يتكلم جدية . وكانت زوجته فيرا يوسفوفنا ، وهي امرأة نحيلة ، لطيفة ، في عوينات ، تكتب القصص والروايات ، وتقرأها بصوت مسموع لضيوفها

عن طيب خاطر . أما ابنتهم ، يكاترينا ايفانوفنا ، الفتاة الشابة ، فكانت تعزف على البيانو . وباختصار كانت لكل فرد من افراد العائلة موهبته الخاصة . وكان آل توركيـــن يستقبلون الضيوف بحفاوة ويعرضون عليهم مواهبهم بمرح ، وببساطة قلبية . وكان بيتهم الحجرى الكبير رحبا ، وفى الصيف باردا ، ويطل نصف النوافذ على بستان قديم ظليل تصدح فيه البلابل ربيعا . وعندما يجلس الضيوف فى الداخل ، تسمع من المطبخ ضربات السكاكين ، وتفوح فى الفناء رائحة البصل المحمر . . . وكان ذلك يبشر فى كل مرة بعشاء لذيذ حافل .

وقد قيل ايضا للدكتور ستارتسف ، ديمترى ايونيتش ، اثر تعيينه طبيبا اقليميا واستقراره فى «دياليج» ، على بعد تسعة فراسخ من «س» ، انه لا بد له كشخص مثقف من التعرف على آل توركين . وذات مرة ، شتاء ، قدموه الى ايفان بتروفتش فى الشارع . فتحدثا عن الطقس ، وعن المسرح ، وعن الكوليرا ، وتلت ذلك الدعوة . وفى الربيع ، يوم العيد — وكان ذلك عيد الصعود — وبعد ان فرغ ستارتسف من استقبال المرضى ، رحل الى المدينة ليرفه عن نفسه قليلا ، وبالمناسبة ، ليشترى بعض الاشياء . سار على قدميه ، على مهل (لم يكن قد اقتنى خيوله الخاصة بعد) وهو يدندن طوال الطريق :

لم اكن قد ذقت مرّ الدمع من كأس الوجود . . .
تغدى فى المدينة وتنزه فى الحديقة ، وبعد ذلك تذكر عفوا دعوة ايفان بتروفتش فقرر أن يذهب الى آل توركين ليرى أى ناس هؤلاء .

قال ايفان بتروفتش وهو يلقاه على الدرج :

— مرحبا من فضلك . سعيد ، سعيد جدا برؤية مثل هذا الضيف اللطيف . هيا اقدمك الى نصفى الحلو — ومضى يقول وهو يقدم الدكتور الى زوجته — اننى اقول له يا فيروتشكا * انه لا يملك اى حق رومانى فى الاختفاء هناك فى المستشفى . عليه أن يعطى وقت فراغه للمجتمع . أليس كذلك يا روحى ؟

— اجلس هنا — قالت فيرا يوسفوفنا وهى تجلس الضيف بجوارها — يمكنك أن تغازلنى . زوجى غيور ، انه عطيل ، ولكننا سنحاول أن نفعل ذلك دون أن يلاحظ شيئا .

— آه منك يا كتكوتة ، يا شقية . . . — دمدم ايفان بتروفتش برقة وقبلها فى جبينها — جئت فى الوقت المناسب — قال مخاطبا الضيف من جديد — لقد كتب نصفى الحلو رواية كبّورة ** ، وسوف تقرأها لنا اليوم .

فقالت فيرا يوسفوفنا لزوجها :

— يا جانتشيك *** dites que l'on nous donne du thé **** .

وقدموا لستارتسف يكاترينا ايفانوفنا ، فتاة فى الثامنة عشرة ، تشبه أمها كثيرا ، ومثلها نحيلة ولطيفة . كانت

---

* اسم التدليل من الاسم الكامل «فيرا» . **المعرب** .

** يقصد : كبيرة ، ونلاحظ ان هذه الشخصية تستخدم كثيرا من الكلمات والتعابير غير المألوفة بغرض المزاح . **المعرب** .

*** جانتشيك — تدليل من الاسم الفرنسى : جان (المقابل لاسم إيفان) . **المعرب** .

**** قل لهم ان يقدموا لنا الشاى (بالفرنسية فى الاصل) .

قسماتها لا تزال طفولية ، وخصرها دقيق ورقيق . وكان صدرها العذرى الكاعب ، الجميل ، العفى ينبــىء بالربيع ، الربيع الحقيقى . ثم شربوا الشاى مع المربــى والعسل والحلويات ومع بسكوت لذيذ جدا كان يذوب فى الافواه . وبحلول المساء توافد الضيوف شيئا فشيئا ، وكان ايفان بتروفتش يحدج كلا منهم بعينيه الضاحكتين ويقول :

— مرحبا من فضلك .

ثم جلسوا جميعا فى غرفة الجلوس بوجوه جدية للغاية ، وراحت فيرا يوسفوفنا تقرأ لهم روايتها . وبدأتها هكذا : «صقع الصقيع . . .» . كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها ، وسمعت ضربات السكاكين فى المطبخ وتناهت رائحة البصل المحمر . . . واطمأنت النفوس فى المقاعد اللينة العميقة ، وومضت الاضواء برقة فى غسق الغرفة ، وفى هذا المساء الصيفى ، الذى تناهت فيه من الشارع اصوات وضحكات ، وهبت من الفناء رائحة البنفسج ، كان من العسير ان تفهم كيف صقع الصقيع ، وكيف اضاءت الشمس الغاربة باشعتها الباردة السهل الثلجى وذلك المسافر الوحيد فى الطريق . كانت فيرا يوسفوفنا تقرأ عن كونتيسة شابة جميلـــة تشيد المستشفيات والمدارس والمكتبات فى قريتها ، وكيف أحبت مصورا جوالا . . كانت تقرأ عما لا يحدث ابدا فى الحياة ، ومع ذلك كان سماعها لطيفا ومريحا ، فكانت تتوارد الى الذهن افكار طيبة مطمئنة ، ولا تشعر بالرغبة فى الانصراف . . .

وقال ايفان بتروفتش بصوت خافت :

— لم بأس . . .

وقال أحد الضيوف بصوت لا يكاد يسمع وهو يصغى

ويحلق بافكاره بعيدا جدا :

— نعم . . . بالفعل . . . .

ومرت ساعة ، وأخرى . وفى حديقة المدينة ، المجاورة لهم ، عزفت فرقة موسيقية وغنت جوقة منشدين ، وعندما اغلقت فيرا يوسفوفنا دفترها صمتوا حوالى خمس دقائق وهم يستمعون الى اغنية «لوتشينوشكا» التى كانت الجوقة تغنيها ، وعبرت هذه الاغنية عما لم يكن فى الرواية وعما يوجد فى الحياة .

وسأل ستارتسف فيرا يوسفوفنا :

— هل تنشرين مؤلفاتك فى المجلات ؟

فاجابت :

— كلا ، انا لا انشرها فى اى مكان . اكتبها واخبئها فى الصوان — وقالت موضحة — ولماذا النشر ؟ ان لدينا مواردنا . ولسبب ما تنهد الجميع .

وقال ايفان بتروفتش لابنته :

— والآن يا قطة ، اعزفى شيئا ما .

ورفعوا غطاء البيانو ، وفتحوا النوت الموضوعة هناك سلفا . وجلست يكاترينا ايفانوفنا الى البيانو وأهوت بكلتا يديها على المفاتيح . ثم أهوت على الفور مرة اخرى ،بكل قوتها ، ثم مرة اخرى ، فأخرى . وارتعش كتفاها وصدرها ، وراحت تدق بعناد على نفس الموضع ، وبدا أنها لن تكف حتى تحشر المفاتيح داخل البيانو . وامتلأت غرفة الجلوس بالرعد . كان كل شيء يرعد : الارض ، والسقف ، والأثاث . . . كانت يكاترينا ايفانوفنا تلعب مقطعا صعبا ، أطرف ما فيه صعوبته ، مقطعا طويلا رتيبا ، فأخذ ستارتسف

يصغى ويتصور احجارا تهوى من جبل عال ، تهوى بلا انقطاع ، وأراد ان تكف عن السقوط بسرعة ، وفى الوقت نفسه اعجبته جدا يكاترينا ايفانوفنا ، المتوردة من التوتر ، القوية ، النشطة ، بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها . وبعد الشتاء الذى قضاه فى «دياليج» بين الفلاحين والمرضى ، كان الجلوس فى هذه الغرفة ، والتطلع الى هذا المخلوق الفتى الرشيق ، والطاهر على الأرجح ، والاستماع الى هذه الاصوات الصاخبة المزعجة ، والراقية مع ذلك . . كم كان هذا لطيفا وجديدا . . .

وقال ايفان بتروفتش والدموع تترقرق فى عينيه عندما انتهت ابنته ونهضت :

— يا سلام يا قطة ، لعبت اليوم كما لم تلعبى ابدا . لو مت يا دينيس ، فلن تكتب افضل من ذلك * .

واحاط بها الجميع ، وهنأوها ، واعربوا عن اعجابهم واقسموا انهم لم يسمعوا منذ زمن بعيد موسيقى كهذه ، أما هى فأصغت فى صمت ، بابتسامة خفيفة ، ونطقت هيئتها كلها بالظفر .

— رائع ! ممتاز !

— رائع ! — قال ستارتسف ايضا منساقا مع الاعجاب العام ، وسألها — اين تعلمت الموسيقى ؟ فى الكونسرفاتوار ؟

— كلا ، أنا استعد للالتحاق بالكونسرفاتوار ، لكننى

---

* عبارة قيلت لدينيس فونفيزين بعد العرض الاول لمسرحيته «الغر» . ودينيس فونفيزين (١٧٤٥ — ١٧٩٢) أديب ومسرحى روسى ، من اقطاب حركة التنوير فى القرن الثامن عشر . **المعرب** .

حتى الآن كنت ادرس هنا ، عند مدام زافلوفسكايا .

— هل تخرجت من مدرسة المدينة ؟

— أوه ، كلا ! — أجابت عنها فيرا يوسفوفنا — لقد دعونا المدرسين لتدريسها منزليا . ففى المدرسة او المعهد يمكن أن تكون تأثيرات سيئة . الفتاة اثناء نموها يجب ان تكون تحت تأثير أمها فقط .

فقالت يكاترينا ايفانوفنا :

— ومع ذلك سأذهب الى الكونسرفاتوار .

— كلا ، القطة تحب ماما . القطة لن تفعل ما يغضب بابا وماما .

— كلا ، سأذهب ، سأذهب ! — قالت يكاترينا ايفانوفنا بمزاح ونزق ، ودقت الارض بقدمها .

أما اثناء العشاء فقام ايفان بتروفتش بعرض مواهبه . كان يضحك بعينيه فقط وهو يروى النكات ، ويمزح ، ويطرح مسائل مضحكة ويحلها بنفسه ، ويتحدث طوال الوقت بلغته غير العادية التى اكتسبها بالمران الطويل على التندر ، والتى اصبحت عادة لديه منذ زمن بعيد فيما يبدو : كبّور ، لم بأس ، شكرا هزيلا . . .

ولم يكن ذلك كل شيء . فعندما تزاحم الضيوف الشباع المسرورون فى المدخل وهم يتناولون معاطفهم وعصيهم دار حولهم الخادم بافلوشا ، او كما كانوا يسمونه هنا : بافا * ، وهو صبى فى حوالى الرابعة عشرة ، حليق الشعر ، بخدين ممتلئين .

---

* تعنى فى الروسية : الطاووسة (انثى الطاووس) . **المعرب** .

فقال له ايفان بتروفتش :

— هيا يا بافا ، مثّل !

فاتخذ بافا وضعا تمثيليا ، ورفع يده الى أعلى وقال بصوت مأساوى :

— فلتموتى أيتها التعيسة !

وقهقه الجميع .

«طريف !» — قال ستارتسف لنفسه وهو يخرج الى الشارع .

وذهب الى المطعم فشرب بيرة ، ثم توجه الى «دياليج» سيرا على الاقدام . وظل طوال الطريق يدندن :

صوتك فى سمعى عذب وشجى . . .

وعندما استلقى لينام بعد أن قطع تسعة فراسخ لم يشعر بأى تعب ، بالعكس فقد بدا له انه يستطيع بكل سرور ان يقطع عشرين فرسخا أخرى .

«لم بأس . . .» تذكر وهو ينعس فضحك .

٢

نوى ستارتسف ان يزور آل توركين ، ولكن العمل فى المستشفى كان كثيرا جدا فلم يتمكن من اقتناص ساعة فراغ . ومر اكثر من سنة على هذه الحال من الكد والوحدة . ولكن ها هم قد جاءوا من المدينة برسالة فى مظروف أزرق . . .

كانت فيرا يوسفوفنا تعانى من صداع نصفى منذ زمن بعيد ، ولكن نوبات الصداع تزايدت فى الفترة الاخيرة عندما أصبحت القطة تخيفها كل يوم بالرحيل الى الكونسرفاتوار .

وجاء الى آل توركين كل اطباء المدينة ، حتى وصل الدور اخيرا الى الطبيب الاقليمى . كتبت له فيرا يوسفوفنا رسالة رقيقة دعته فيها الى الحضور وتخفيف عذابها . وجاء ستارتسف ، وبعد ذلك أصبح يتردد على آل توركين كثيرا ، كثيرا جدا . . .

وبالفعل فقد خفف عن فيرا يوسفوفنا الى حد ما ، فراحت تقول لجميع الضيوف انه دكتور مدهش ، عظيم . ولكنه لم يعد يزور آل توركين الآن من أجل صداعها . . .

كان يوم عيد . وأنهت يكاترينا ايفانوفنا تمريناتها الطويلة المرهقة على البيانو . وبعد ذلك جلسوا طويلا فى غرفة الطعام يتناولون الشاى ، وروى ايفان بتروفتش شيئا ما مضحكا . وها هو جرس الباب يدق ، ولا بد من الذهاب الى المدخل لاستقبال ضيف ما . وانتهز ستارتسف فرصة الاضطراب فقال ليكاترينا ايفانوفنا همسا وهو فى شدة الانفعال :

— ارجوك ، اتوسل اليك ، لا تعذبينى ، فلنذهب الى البستان !

هزت كتفيها كأنما تستغرب ولا تفهم ما الذى يريده منها ، ولكنها نهضت وذهبت .

وقال وهو يتبعها :

— انت تعزفين على البيانو بالثلاث والاربع ساعات ، ثم تجلسين مع ماما ، وليس هناك اية فرصة للحديث معك . اعطينى ولو ربع ساعة ، أرجوك .

كان الخريف يقترب ، فكان الجو هادئا وحزينا فى البستان القديم ، وغطت ارض الممرات أوراق داكنة . وأصبح الغسق يهبط مبكرا .

ومضى ستارتسف يقول :

— أنا لم أرك اسبوعا كاملا ، وآه لو تعلمين أىّ عذاب هذا ! فلنجلس . اصغى اليّ .

كان لديهما مكان مفضل فى البستان : أريكة تحت شجرة قيقب عجوز عريضة . وها هما قد جلسا على هذه الأريكة .

وسألت يكاترينا ايفانوفنا بجفاء ، بصوت عملى :

— ماذا تريد ؟

— انا لم أرك اسبوعا كاملا ، لم اسمعك منذ مدة طويلة . أنا مشتاق جدا ، أنا ظمآن الى صوتك . تكلمى .

اثارت اعجابه بنضارتها وبتعبير السذاجة فى عينيها وخديها . حتى فى كون الفستان لائقا عليها رأى ستارتسف شيئا رقيقا للغاية ومؤثرا ببساطته ورشاقته الساذجة . وفى الوقت نفسه ، وبالرغم من هذه السذاجة ، بدت له ذكية جدا وناضجة بأكبر من سنها . كان بوسعه أن يتحدث معها عن الأدب وعن الفن ، عن أى شيء ، بوسعه أن يشكو لها من الحياة والبشر ، رغم انه كان يحدث اثناء الحديث الجدى ان تضحك فجأة دون مناسبة او تركض الى البيت . كانت ككل فتيات مدينة (س) تقرأ كثيرا (وعموما فقد كانوا فى (س) يقرأون قليلا جدا ، وكانوا فى المكتبة المحلية يقولون انه لولا الفتيات واليهود الشبان لتوجب اغلاق المكتبة) . وكان ذلك يعجب ستارتسف الى اقصى حد ، وفى كل مقابلة كان يسألها بانفعال عما قرأته فى الآونة الاخيرة ، ويصغى مسحورا الى ما ترويه .

وسألها الآن :

— وماذا قرأت فى الاسبوع الاخير الذى لم نتقابل فيه ؟ تحدثى أرجوك .

— قرأت بيسيمسكى * .

— وماذا بالتحديد ؟

فأجابت القطة :

— «ألف نفس» . كم كان اسم بيسيمسكى مضحكا : أليكسى فيوفيلاكتتش !

— الى أين أنت ؟ — قال ستارتسف بذعر عندما نهضت فجأة ومضت الى البيت — انا بحاجة الى الحديث معك ، يجب أن اصارحك . . . ابقى معى ولو خمس دقائق ! استحلفك !

فتوقفت كأنما تريد ان تقول شيئا ، ثم دست فى يده بحرج قصاصة وركضت الى البيت ، حيث جلست الى البيانو من جديد .

وقرأ ستارتسف : «اليوم فى الحادية عشرة مساء انتظرنى فى المقابر عند تمثال ديميتّى» .

وفكر عندما عاد الى صوابه : «ليس هذا ذكيا على الاطلاق . ما دخل المقابر هنا ؟ لأى غرض؟»

كان واضحا أن القطة تعبث . وبالفعل فمن ذا الذى

---

* أليكسى بيسيمسكى (١٨٢١ — ١٨٨١) كاتب ومسرحى روسى . من أشهر اعماله رواية «الف نفس» ومسرحية «الحظ المرير» . هاجم الاوضاع الاجتماعية فى روسيا القيصرية ، ولكنه هاجم ايضا الافكار الثورية . **المعرب** .

يفكر جديا فى تحديد موعد ليلا ، بعيدا خارج المدينة ، فى المقابر ، بينما من السهل تدبير ذلك فى الشارع ، فى حديقة المدينة ؟ وهل تليق به وهو طبيب الاقليم ، الرجل الذكى الرصين هذه الزفرات والرسائل والتسكع فى المقابر وارتكاب الحماقات التى يضحك منها الآن حتى تلاميذ المدارس ؟ الى اين ستقوده هذه الغراميات ؟ وما الذى سيقوله رفاقه اذا علموا ؟ هكذا فكر ستارتسف وهو يتجول فى النادى حول طاولات القمار ، ولكنه فى منتصف الحادية عشرة قرر فجأة ان يرحل الى المقابر .

كان قد اقتنى زوجا من الجياد وحوذيا يدعى بانتيليمون ، يرتدى صديريا من القطيفة . وكان القمر فى السماء . وساد الهدوء والدفء ، ولكنه دفء خريفى . وفى ضاحية المدينة ، قرب المجزر ، عوت الكلاب . وترك ستارتسف عربته عند طرف المدينة فى احدى الحارات ، وذهب الى المقابر سيرا على الاقدام . وفكر : «لكل شخص غرائبه . والقطة ايضا غريبة . ومن يدرى ، ربما لم تكن تمزح ، وستأتى» . واستسلم لهذا الرجاء الضعيف الفارغ فانتشى .

قطع نصف فرسخ عبر الحقل . ولاحت المقابر فى البعيد خطا أسود كالغابة أو البستان الكبير . وظهر سور حجرى أبيض وبوابة . . . وكان من الممكن فى ضوء القمر قراءة هذه الكلمات على البوابة : «تأتى ساعة يسمع فيها جميع من فى القبور . . .» ودخل ستارتسف ، وكان أول ما رآه الصلبان البيضاء والتماثيل على كلا جانبى الممر الطويل العريض ، وظلالا سوداء ترتمى منها ومن اشجار الحور . كان الابيض والاسود مرئيين لمسافة بعيدة حوله ، وأسدلت

الاشجار الناعسة اغصانها على الابيض . وبدا ان المكان هنا أكثر نورا من الحقل . وبرزت اوراق القيقب التى تشبه المخالب بحدة على خلفية الرمال الصفراء فى الممرات وعلى الالواح كما كانت الكتابات على التماثيل بادية . أذهل ستارتسف فى اللحظات الاولى ما يراه الآن لأول مرة فى حياته وما لن يتسنى له فى الغالب ان يراه بعد ذلك . . عالم لا يشبه اى شيء آخر ، عالم فيه نور القمر جميل وناعم الى هذه الدرجة ، وكأنما هنا مهده ، عالم ليس فيه حياة ابدا أبدا ، ولكنك تحس فى كل شجرة حور قاتمة وفى كل قبر بوجود سر يعد بحياة هادئة رائعة خالدة . ومع رائحة الاوراق الخريفية ينبعث من الالواح والازهار الذابلة الغفران والأسى والسكينة .

الصمت يلف المكان . وأطلت النجوم من السماء فى استكانة عميقة ، فترددت خطوات ستارتسف بحدة ونشاز . وعندما بدأت ساعة الكنيسة تدق وتصور نفسه ميتا ومدفونا هنا الى الأبد ، عندئذ فقط خيل اليه ان احدا يتطلع اليه ، ففكر للحظة ان هذا ليس هدوءا وسكينة ، بل وحشة العدم الصماء ، واليأس المكبوت . . .

كان تمثال ديميتّى على شكل مصّلى بملاك فى أعلاه . فى زمن ما مرت بمدينة «س» فرقة اوبرا ايطالية ، وتوفيت احدى المغنيات فدفنوها هنا واقاموا لها هذا التمثال . ولم يعد أحد يذكرها فى المدينة ، ولكن القنديل المعلق على المدخل عكس ضوء القمر فبدا وكأنما يشتعل .

لم يكن هناك أحد . ومن ذا الذى سيأتى الى هنا فى منتصف الليل ؟ ولكن ستارتسف انتظر وكأنما ألهب فيه

ضوء القمر العواطف الجياشة فراح ينتظر بهيام ويرسم فى خياله القبلات والأحضان . جلس بجوار التمثال نصف ساعة ، ثم تمشى فى الممرات الجانبية وقبعته فى يده وهو ينتظر ويفكر : كم يرقد هنا فى هذه القبور من نساء وفتيات ، كنّ جميلات ، فاتنات ، أحببن ، وتأججت شهواتهن فى الليالى مستسلمات للحنان . وما أسوأ مزاح أمنا الطبيعة بالانسان ، فى الواقع ، وما أمرّ أن تعى ذلك ! كان ستارتسف يفكر هكذا ، وفى الوقت نفسه ود لو يصرخ بأنه يريد الحب وينتظره مهما كان الامر . ولم يعد ما يلمع أمامه هو القطع المرمرية البيضاء بل أجساد رائعة ، رأى تكويناتها تتستر فى خجل بظلال الاشجار ، وأحس بدفئها ، وأصبح هذا الضنى لا يطاق . . .

كأنما أسدل الستار . . اختفى القمر خلف السحب ، فأظلم المكان كله فجأة . وبالكاد عثر ستارتسف على البوابة ، فقد كان الجو مظلما كما فى ليلة خريفية ، ثم تخبط حوالى ساعة ونصف بحثا عن الحارة التى ترك فيها العربة . وقال لبانتيليمون :

— أنا متعب ، لا أكاد أقف على قدمى .

وعندما جلس بتلذذ فى العربة فكر : «آه ، لا يجوز ان اسمن !» .

٣

فى مساء اليوم التالى رحل الى آل توركين ليخطب ابنتهم . ولكن الفرصة لم تكن مناسبة ، اذ كان الحلاق

يصفف شعر يكاترينا ايفانوفنا فى غرفتها . كانت تستعد للذهاب الى حفلة راقصة فى النادى .

واضطر مرة أخرى الى الجلوس طويلا فى غرفة المائدة وشرب الشاى . وعندما رأى ايفان بتروفتش أن ضيفه مستغرق فى التفكير وضجر اخرج من جيبه اوراقا وقرأ رسالة مضحكة من وكيل أعماله الالمانى يقول فيها أن جميع قوافل الابواب فى الضيعة قد «عندت» وأن الحيطان قد «جلست» .

وفكر ستارتسف وهو يصغى اليه شارد البال : «أظن انهم سيعطون بائنة كبيرة» .

كان فى حالة من الذهول بعد ليلة مسهدة وكأنما سقوه شرابا حلوا منوّما . وكان الضباب يلف روحه ، ولكنه أحس بالفرحة والدفء ، وفى الوقت نفسه كانت ثمة قطعة باردة ثقيلة فى رأسه تفكر :

«توقف قبل فوات الأوان ! هل هى تناسبك ؟ انها مدللة ، نزقة ، تنام حتى الساعة الثانية ، اما أنت فابن شماس ، طبيب اقليمى . . .» .

وقال فى نفسه : «وماذا ؟ فليكن» .

ومضت القطعة تقول : «وعلاوة على ذلك اذا تزوجتها فسوف يرغمك اهلها على ترك العمل فى الاقليم والعيش فى المدينة» .

فقال فى نفسه : «وماذا ؟ فليكن فى المدينة . سيعطوننا بائنة فنؤثث بيتا . . .» .

واخيرا دخلت يكاترينا ايفانوفنا فى فستان سهرة ديكولتيه ، جميلة ، نظيفة ، فملّى ستارتسف عينيه منها وتملكه الاعجاب

لدرجة انه لم يستطع أن يتفوه بكلمة ، بل راح يتطلع اليها ويضحك .

وهمت بالانصراف فنهض — اذ لم يعد ثمة معنى لبقائه — وقال انه آن له ان يعود ، فالمرضى فى انتظاره .

فقال ايفان بتروفتش :

— طيب ، ما العمل ، اذهب ، وبالمناسبة توصل القطة الى النادى .

كان مطر خفيف يسقط فى الخارج ، والظلام حالك ، ومن سعال بانتيليمون الأبح وحده كان يمكن تحديد مكان العربة . وشدوا غطاء العربة .

وقال ايفان بتروفتش وهو يجلس ابنته فى العربة :

— أنا أفقت من النوم ، أنت أفقت ، هو أفّاق ، هم أفّاقون . . . هيا ، تحرك . وداعا من فضلك !

وتحركوا .

وقال ستارتسف :

— لقد ذهبت امس الى المقابر . . . كم كنت ظالمة وقاسية عليّ . . .

— هل كنت فى المقابر ؟

— نعم ، وانتظرتك حتى الساعة الثانية . كنت اتعذب . . .

— فلتتعذب ما دمت لا تفهم المزاح .

قهقهت يكاترينا ايفانوفنا وقد أسعدها أنها مزحت بهذه الصورة الماكرة من عاشقها وانه يحبها الى هذه الدرجة ، ولكنها صرخت فجأة رعبا ، ففى تلك اللحظة انعطفت العربة بحدة الى بوابة النادى فمالت . وطوق ستارتسف خصرها ،

فالتصقت به مذعورة ، ولم يتمالك نفسه فقبلها بشهوة فى شفتيها وذقنها ، وضمها اليه بشدة .

فقالت بجفاء :

— كفى .

وبعد لحظة لم تكن فى العربة ، وصاح الشرطى الواقف بجوار مدخل النادى المضاء فى بانتيليمون بصوت منفر :

— ما لك تقف ايها الغراب ؟ سر فى طريقك !

ورحل ستارتسف الى بيته ، لكنه سرعان ما عاد . ارتدى فراكا مستأجرا وربطة عنق بيضاء قاسية كانت تنفر وتوشك على الانزلاق عن الياقة . وفى منتصف الليل كان جالسا فى قاعة الجلوس فى النادى يقول ليكاترينا ايفانوفنا بهيام :

— أوه ، ما أقل ما يعرف اولئك الذين لم يحبوا ! يخيل اليّ ان احدا لم يصور الحب تصويرا صحيحا حتى الآن ، ولا أظن انه من الممكن تصوير هذا الاحساس الرقيق البهيج المضنى ، ومن كابده ولو مرة فلن يصوره بالكلمات . ما الداعى للمقدمات والتصوير ؟ ما الداعى للبلاغة التى لا معنى لها ؟ ان حبى بلا حدود . . . ارجوك ، اتوسل اليك — قال ستارتسف اخيرا — كونى زوجتى !

ففكرت يكاترينا ايفانوفنا ثم قالت وعلى وجهها تعبير جاد جدا :

— يا ديمترى ايونيتش ، أنا ممتنة لك جدا على هذا التشريف ، اننى احترمك ولكن . . . — ونهضت واستطردت وهى واقفة — ولكن اعذرنى ، لا استطيع ان اكون زوجتك . فلنتحدث جديا . أنت تعرف يا ديمترى ايونيتش اننى احب الفن اكثر من اى شىء ، اننى أهوى الموسيقى ، احبها

بجنون ، وقد وهبتها كل حياتى . انا اريد ان أصبح فنانة ، أريد الشهرة والنجاح والحرية ، وانت تريدنى أن اواصل الحياة فى هذه المدينة ، اواصل هذه الحياة التافهة الخاوية التى أصبحت لا أحتملها . أن أصبح زوجة . . أوه ، كلا ، اعذرنى ! يجب على الانسان أن يسعى الى هدف أسمى باهر ، أما الحياة العائلية فستقيدنى الى الأبد . يا ديمترى ايونيتش (وابتسمت قليلا ، فعندما قالت «ديمترى ايونيتش» تذكرت «أليكسى فيوفيلاكتتش») ، يا ديمترى ايونيتش ، أنت رجل طيب ، نبيل ، ذكى ، أنت احسن الجميع . . . — واغرورقت عيناها بالدموع — أنا اتعاطف معك من كل قلبى ، ولكن . . . ولكنك ستفهم . . .

واستدارت كى لا تبكى وخرجت من القاعة .

كف قلب ستارتسف عن الخفقان المؤلم . وكان أول ما فعله عندما خرج من النادى ان انتزع من رقبته ربطة العنق القاسية وتنفس بملء رئتيه . كان يشعر بشىء من العار وبأن كرامته أهينت — اذ لم يتوقع الرفض — ولم يصدق أن كل أحلامه ولوعته وآماله قد أفضت به الى هذه النهاية الحمقاء كما فى مسرحية صغيرة من عروض الهواة . وكان يشعر بالشفقة على احساسه ، على حبه هذا ، كان يشعر بالشفقة الى درجة بدا له فيها أنه مستعد لأن ينفجر بالبكاء او يهوى بالشمسية على ظهر بانتيليمون العريض .

ظل ثلاثة أيام غير قادر على العمل ، ولم يأكل ولم ينم ، ولكن حينما بلغه ان يكاترينا ايفانوفنا قد سافرت الى موسكو للالتحاق بالكونسرفاتوار ، هدأت نفسه وعاد الى حياته السابقة .

وفيما بعد ، حين كان يتذكر أحيانا كيف تمشى فى المقابر ، وكيف قطع شوارع المدينة كلها بحثا عن فراك ، كان يتمطى فى كسل ويقول :

— أوه ، يا لها من هموم كانت !

٤

مرت أربع سنوات ، وأصبح لدى ستارتسف الكثير من الزبائن فى المدينة . وكل صباح كان يستقبل المرضى فى دياليج بعجلة ثم يرحل الى مرضاه فى المدينة ، ويرحل الآن لا فى عربة بجوادين بل فى عربة «ترويكا» باجراس ، ويعود الى البيت فى ساعة متأخرة . أصبح ممتلئا ، بدينا ، لا يحب السير على قدميه اذ كان يعانى من اللهاث . وبانتيليمون ايضا أصبح بدينا ، وكلما ازداد امتلاء زفر بحسرة واشتكى من حظه المرير : فقد قهرته السواقة !

كان ستارتسف يتردد على بيوت كثيرة ويلتقى باناس كثيرين ولكنه لم يوطد علاقته بأحد . كان البرجوازيون الصغار يثيرونه بأحاديثهم وبآرائهم فى الحياة ، بل وحتى بمظهرهم . وعلمته الخبرة شيئا فشيئا أن البرجوازى الصغير ، طالما تلعب معه الورق او تشرب وتمز ، فهو شخص مسالم ، سمح ، بل وحتى ذكى ، ولكن ما أن تتحدث معه عن شيء لا يؤكل ، عن السياسة او العلم مثلا ، حتى يواجه مأزقا او يشرع فى الثرثرة بفلسفة بليدة ، شريرة ، حتى لا يعود امامك الا أن تشيح بيديك وتبتعد . وحينما حاول ستارتسف ان يتحدث حتى مع برجوازى ليبرالى عن ان البشرية والحمد لله تسير الى الامام وانها فى المستقبل ستستغنى عن جوازات

السفر وعن عقوبة الاعدام ، نظر اليه البرجوازى شزرا وبريبة وسأله : «واذن فسيكون بوسع أى شخص أن يذبح فى الشارع من يشاء ؟» . وعندما كان ستارتسف يتحدث فى جمع اثناء العشاء او تناول الشاى عن انه لا بد من الكدح ، وانه لا يمكن ان تعيش بلا عمل ، كان كل شخص يعتبر ذلك لوما موجها اليه ، فيتملكه الغضب ويشرع فى الجدال بالحاح . وعلاوة على ذلك كله لم يكن البرجوازيون الصغار يفعلون أى شيء مطلقا ، ولم يهتموا بشيء ، وكان من المستحيل ايجاد مادة للحديث معهم . فصار ستارتسف يتجنب الاحاديث ويأكل فقط ويلعب «الفنت» ، وعندما تصادف زيارته عيدا عائليا فى أحد البيوت ويدعونه للمائدة ، كان يجلس ويأكل فى صمت محدقا فى طبقه . وكل ما كان يقال آنذاك كان غير طريف ، ظالما ، أحمق ، فيشعر بالانزعاج والاضطراب ، ولكنه يصمت . ولأنه كان يصمت دائما فى تجهم ويحدق فى طبقه فقد سموه فى المدينة «البولندى المتعجرف» رغم انه لم يكن بولنديا فى أى وقت من الاوقات .

كان يتحاشى الوان التسلية من امثال العروض المسرحية وحفلات الموسيقى ، وفى المقابل كان يلعب «الفنت» كل مساء ، حوالى ثلاث ساعات ، وباستمتاع . وكانت لديه تسلية أخرى انغمس فيها شيئا فشيئا ودون ان يلحظ : فقد كان كل مساء يستخرج من جيوبه اوراق البنكنوت التى حصل عليها من مرضاه ، واحيانا تكون جيوبه محشوة بحوالى سبعين روبلا من شتى الاوراق الصفراء والخضراء التى تفوح منها رائحة العطور ، والخل ، والبخور ، وزيت الحوت .

وعندما يتجمع لديه منها بضع مئات كان يحملها الى جمعية القرض المتبادل فيودعها فى حسابه الجارى .

وخلال السنوات الأربع التى مرت بعد رحيل يكاترينا ايفانوفنا لم يزر آل توركين سوى مرتين بدعوة من فيرا يوسفوفنا التى كانت لا تزال تتعالج من الصداع النصفى . وكانت يكاترينا ايفانوفنا تأتى الى اهلها كل صيف لقضاء العطلة ، ولكنه لم يرها مرة واحدة ، لم يتصادف ذلك .

وها هى السنوات الاربع قد انصرمت . وذات صباح هادىء دافىء تسلم رسالة فى المستشفى . كتبت فيرا يوسفوفنا تقول انها اشتاقت اليه جدا ورجته أن يتفضل بزيارتها حتما ليخفف من عذابها ، كما أن اليوم بالمناسبة عيد ميلادها . وفى اسفل الرسالة اضافة : «اضم صوتى الى رجاء ماما — ك .» .

وفكر ستارتسف ثم رحل مساء الى آل توركين .

— آه ، مرحبا من فضلك — استقبله ايفان بتروفتش مبتسما بعينيه فقط — بونجور عليكم .

وصافحت فيرا يوسفوفنا التى هرمت بشدة وأبيض شعرها يد ستارتسف وتنهدت بتصنع وقالت :

— أنت يا دكتور لا تريد ان تغازلنى ، ولا تزورنا ابدا ، أصبحت عجوزا بالنسبة لك . ولكن ها هى أخرى شابة قد جاءت ، فربما كان حظها أسعد .

وماذا عن القطة ؟ لقد هزلت وشحبت ، وأصبحت أجمل وأرشق ، ولكنها الآن يكاترينا ايفانوفنا وليست القطة . لم تعد فيها تلك النضارة السابقة وتعبير السذاجة الطفولية . وكان فى نظراتها وحركاتها شىء جديد ، شىء متردد ومذنب ، كأنما لم تعد تشعر هنا ، فى دار آل توركين ، بأنها فى بيتها .

— من زمان لم نرك ! — قالت وهى تمد يدها الى ستارتسف ، وكان واضحا ان قلبها يدق بقلق . وحدجته بنظرة فاحصة وبفضول واستطردت — كم سمنت ! لوحتك الشمس ، وكبرت ، ولكنك عموما لم تتغير كثيرا .

كانت الآن ايضا تعجبه ، تعجبه جدا ، ولكن كان ينقصها شيء ما ، أو كان فيها شيء زائد ، ولم يكن بوسعه ان يحدد هذا الشيء ، ولكن شيئا ما كان يعوقه عن الاحساس بما كان يحس به من قبل . لم يعجبه شحوبها ، والتعبير الجديد على وجهها ، وابتساماتها الواهنة ، وصوتها ، ثم بعد فترة قصيرة لم يعد يعجبه فستانها ، والمقعد الذى جلست فيه ، لم يعجبه شيء ما فى الماضى عندما كاد أن يتزوجها . وتذكر حبه واحلامه وآماله التى اثارته قبل أربع سنوات ، فشعر بالحرج .

شربوا الشاى مع كعكة حلوة . ثم قرأت فيرا يوسفوفنا رواية عما لا يحدث ابدا فى الحياة ، وأصغى ستارتسف وهو يتطلع الى رأسها الأشيب الجميل منتظرا أن تنتهى من القراءة . وفكر : «العاطل من الموهبة ليس ذلك الذى لا يجيد كتابة الروايات ، بل ذلك الذى يكتبها ولا يجيد اخفاء ذلك» .

وقال ايفان بتروفتش :

— لا بأس . . .

ثم عزفت يكاترينا ايفانوفنا على البيانو بصخب ولمدة طويلة . وعندما انتهت من العزف شكروها طويلا وابدوا اعجابهم بها .

وفكر ستارتسف :

«حسنا اننى لم أتزوجها» .

ونظرت اليه وهى تنتظر على ما يبدو أن يقترح عليها الخروج الى البستان ، ولكنه جلس صامتا .

فقالت وهى تقترب منه :

— هيا نتحدث . كيف أحوالك ؟ ماذا لديك ؟ لقد كنت طوال هذه الايام افكر فيك — استطردت بعصبية — أردت ان ارسل اليك خطابا ، اردت ان اذهب بنفسى اليك فى دياليج ، وقررت بالفعل ان اذهب ، ولكنى عدلت ، فمن يدرى ما هو احساسك الآن نحوى . بأى قلق انتظرت مجيئك اليوم . استحلفك بالله ، فلنذهب الى البستان .

وذهبا الى البستان ، وجلسا هناك على الاريكة تحت القيقب العجوز كما حدث منذ اربع سنوات . وكان الجو مظلما .

وسألته يكاترينا ايفانوفنا :

— اذن كيف احوالك ؟

فأجاب ستارتسف :

— لا بأس . الأمور تسير .

ولم يستطع أن يجد اكثر من ذلك . فصمتا .

وقالت يكاترينا ايفانوفنا وغطت وجهها بيديها :

— اننى مضطربة ، ولكن لا تلق بالا . كم اشعر بالراحة فى البيت ، كم انا سعيدة برؤية الجميع ولا استطيع أن اتعود على ذلك . كم من ذكريات ! بدا لى اننا سنتحدث بلا توقف حتى الصباح .

كان الآن يرى عن قرب وجهها وعينيها البراقتين ، فبدت له هنا ، فى الظلام ، أصبى مما كانت فى الغرفة ، بل وكأنما عاد اليها التعبير الطفولى السابق . وبالفعل فقد

كانت تنظر اليه بفضول ساذج ، وكأنها تريد ان تتأمل وتفهم عن قرب هذا الرجل الذى احبها فى وقت ما بذلك التأجج وتلك الرقة وتلك النهاية التعيسة . وشكرته عيناها على ذلك الحب . فتذكر كل ما حدث ، بأدق التفاصيل ، كيف جال وسط المقابر ، وكيف عاد بعدها الى البيت قرب الصباح متعبا ، فأحس فجأة بالحزن والأسف على الماضى . وومضت فى روحه جذوة .

فقال :

— أتذكرين كيف أوصلتك الى الحفل فى النادى ؟ كان المطر يسقط آنذاك ، والدنيا مظلمة . . .

وازدادت الجذوة اشتعالا فى روحه ، وأحس برغبة فى الحديث والشكوى من الحياة . . .

وقال متنهدا :

— ايه ! ها قد سألتنى عن احوالى وكيف احيا . كيف نحيا هنا ؟ لا نحيا . نهرم ونسمن ونتدهور . نهار وليل ويمر اليوم ، وتمضى الحياة كابية ، بلا انطباعات ، بلا أفكار . . . بالنهار الكسب وبالليل النادى وصحبة المقامرين والسكارى ، ذوى الاصوات المبحوحة الذين لا أطيقهم . فأى خير ؟

— ولكن لديك عملا ، هدفا نبيلا فى الحياة . كم كنت تحب الحديث عن مستشفاك . كنت أنا حينذاك غريبة ، اتصور نفسى عازفة عظيمة . كل الآنسات الآن يعزفن على البيانو ، وانا ايضا كنت اعزف مثل الجميع ، ولم يكن فيَّ أى شيء مميز . أنا عازفة مثلما أمى كاتبة . وبالطبع لم أفهمك آنذاك ، ولكن فيما بعد ، فى موسكو ،

كنت كثيرا ما أفكر فيك . كنت افكر فيك وحدك . يا لها من سعادة ان تكون طبيبا اقليميا وتساعد المعذبين وتخدم الشعب — وكررت يكاترينا ايفانوفنا بحماس — يا لها من سعادة ! عندما كنت افكر فيك في موسكو كنت تبدو لى مثاليا ، ساميا . . .

وتذكر ستارتسف الاوراق التى يستخرجها من جيوبه بلذة كل مساء فانطفأت الجذوة في روحه .

ونهض لكى يذهب الى البيت . فوضعت ذراعه فى ذراعها . ومضت تقول :

— أنت أفضل من عرفتهم فى حياتى . سوف نتقابل ونتحدث أليس كذلك ؟ عدنى . انا لست عازفة بيانو ، ولم أعد مخدوعة فيما يخصنى ولن اعزف فى حضورك او اتحدث عن الموسيقى .

وعندما دلفا الى البيت ورأى ستارتسف فى ضوء المساء وجهها وعينيها الحزينتين الشاكرتين المتفرستين والمصوبتين اليه ، احس بالقلق وفكر ثانية «حسنا اننى لم اتزوجها آنذاك» .

ونهض يودع .

فقال ايفان بتروفتش وهو يوصله :

— ليس لديك أى حق رومانى فى الرحيل دون عشاء . هذا من جانبك محورى جدا . . . هيا ، مثّل — قال مخاطبا بافا فى المدخل .

اتخذ بافا ، الذى لم يعد صبيا ، بل شابا بشوارب ، وضعا تمثيليا ورفع يده الى أعلى وقال بصوت مأساوى :

— فلتموتى ايتها التعيسة !

أثار ذلك كله ستارتسف . وعندما جلس فى العربة

ونظر الى البيت المظلم والبستان اللذين كانا رقيقين وعزيزين عليه جدا فى زمن ما ، تذكر على الفور كل شيء : روايات فيرا يوسفوفنا ، وعزف القطة الصاخب ، ونكات ايفان بتروفتش ووضع بافا المأساوى ، وفكر : اذا كان اكثر الناس موهبة فى هذه المدينة على هذه الدرجة من البؤس ، فكيف ينبغى اذن ان تكون المدينة ؟

بعد ثلاثة ايام جاء بافا برسالة من يكاترينا ايفانوفنا .

«انت لا تزورنا . لماذا ؟ — كتبت تقول — اخشى ان تكون قد تغيرت نحونا . اخاف واشعر بالرهبة من مجرد التفكير فى ذلك . فلتطمئنى ، تعال وقل ان كل شيء على ما يرام .

أنا بحاجة الى التحدث معك . المخلصة ى . ت .» .

قرأ هذه الرسالة ، وفكر ، ثم قال لبافا :

— قل لها يا عزيزى اننى لا استطيع الحضور اليوم . أنا مشغول جدا . قل لها اننى سآتى بعد حوالى ثلاثة ايام .

بيد انه مرت ثلاثة أيام ، ومر اسبوع لكنه لم يذهب . وذات مرة كان مارا بجوار منزل آل توركين فتذكر انه ينبغى أن يعرّج ولو لدقيقة ولكنه فكر و . . . لم يعرج .

وبعدها لم يزر آل توركين أبدا .

٥

ومرت عدة سنوات أخرى . ازداد ستارتسف سمنة وشحما ، وأصبح يتنفس بصعوبة ويسير ورأسه ملقى الى الوراء . وعندما يستقل الترويكا ذات الاجراس ، مكتنزا ،

أحمر الوجه ، وبانتيليمون ايضا مكتنز أحمر الوجه ، بقفا غزير اللحم ، جالسا على مقعد الحوذى ويمد الى الامام ذراعيه المستقيمتين كأنهما خشبيتان ، ويصيح فى المارة «الزم يمينك !» ، فان الصورة تبدو مهيبة ، ويبدو ان الراكب ليس بشرا بل صنما وثنيا . وأصبح لديه فى المدينة زبائن لا حصر لهم ، ولا وقت لديه لالتقاط الانفاس ، ولديه ضيعة ومنزلان فى المدينة ويسعى لاقتناء ثالث ، مربح ، وعندما يخبرونه فى جمعية القرض المتبادل عن منزل ما مخصص للبيع ، يتوجه الى هذا البيت دون كلفة ، ويطوف بجميع غرفه غير عابىء بالنساء المتجردات والاطفال الذين ينظرون اليه بذهول ورهبة ، ويدفع بعصاه جميع الابواب ويقول :

— هذه غرفة مكتب ؟ وهذه غرفة نوم ؟ وماذا هنا ؟

واثناء ذلك يتنفس بصعوبة ويمسح العرق عن جبينه .

ولديه مشاغل كثيرة ، ومع ذلك لا يترك وظيفة طبيب الاقليم . لقد تملكه الجشع ، ويود أن يلحق هنا وهناك . واصبحوا يدعونه فى المدينة وفى دياليج ايونيتش فقط . يقولون : «الى اين يذهب ايونيتش ؟» او «ألا ندعو ايونيتش للكونسلتو ؟»

وربما لأن الشحم تراكم فى زوره فقد تغير صوته ، أصبح رفيعا حادا . وتغيرت طباعه ايضا . أصبح ثقيلا ، عصبيا . وعندما يستقبل المرضى يغضب عادة ويدق بعصاه على الارض بنفاد صبر ويصرخ بصوته المنفر :

— تفضل بالاجابة على الاسئلة فقط ! ممنوع الكلام !

وهو وحيد . يحيا بملل ، ولا يهتم بشىء .

وطوال اقامته فى دياليج كان حبه للقطة فرحته الوحيدة



وربما الأخيرة . وفى المساء يلعب «الفنت» فى النادى ، ثم يجلس وحيدا الى مائدة كبيرة ويتعشى . ويقوم على خدمته النادل ايفان ، اقدم الخدم واكثرهم احتراما ويقدم له نبيذ لافيت رقم ١٧ ، ويعرف الجميع — رؤساء النادى والطهاة والنادل — ماذا يحب وما لا يحب ، ويبذلون قصارى جهدهم لنيل رضاه ، والا لاقدر الله فقد يغضب فجأة ويروح يدق الأرض بعصاه .

واثناء العشاء يلتفت أحيانا فيتدخل فى حديث ما :

— ما هو الموضوع ؟ هه ؟ من ؟

واذا ما حدث ان دار الحديث على طاولة مجاورة عن آل توركين فانه يسأل :

— عن اى توركين تتحدثون ؟ عن اولئك الذين تعزف ابنتهم على البيانو ؟

وهذا كل ما يمكن أن يقال عنه .

فماذا عن آل توركين ؟ لم يهرم ايفان بتروفتش ، ولم يتغير مطلقا ، وما زال كما فى السابق يمزح ويروى النكات . وفيرا يوسفوفنا تقرأ للضيوف رواياتها عن طيب خاطر وببساطة قلبية كما فى السابق . والقطة تعزف على البيانو كل يوم حوالى أربع ساعات . لقد هرمت بصورة ملحوظة ومرضت ، وتسافر مع أمها كل خريف الى القرم . ويودعهما ايفان بتروفتش على المحطة ، وعندما يتحرك القطار يكفكف دموعه ويصيح :

— مع السلامة من فضلك !

ويلوح بالمنديل .

١٨٩٨

الرجل المعلَّب

في اقصى طرف قرية ميرونوسيتسكويه ، وفي حظيرة العمدة بروكوفي ، نزل صيادان متأخران ليقضيا الليلة . كانا اثنين فقط : الطبيب البيطري ايفان ايفانيتش والمدرس الثانوي بوركين . وكان اسم عائلة ايفان ايفانيتش غريبا ومزدوجا : تشيمشا جيملايسكي ، ولم يكن يناسبه ابدا ، ولذلك كانوا يدعونه في المحافظة كلها باسمه واسم ابيه . كان يعيش قرب المدينة في مزرعة لتربية الجياد ، وقد جاء الآن للصيد من اجل ان يستنشق الهواء النظيف . اما المدرس الثانوي بوركين فكان ينزل كل صيف ضيفا على الكونت (ب) ، واصبح شخصا معروفا في هذه الناحية منذ زمن بعيد .

كانا مستيقظين . وجلس ايفان ايفانيتش ، العجوز الطويل النحيف ذو الشوارب الطويلة ، قرب الباب من الخارج وهو يدخن الغليون . وكان نور القمر يضيئه . اما بوركين فكان راقدا في الداخل على الدريس ، فلم يكن ظاهرا في الظلمة .

كانا يرويان شتى الحكايات . وبالمناسبة فقد رويا ان مافرا زوجة العمدة ، وهي امرأة قوية وغير غبية ، لم تذهب طوال حياتها الى اى مكان ابعد من قريتها ، ولم

تر ابدا لا المدينة ولا السكة الحديدية ، وفى السنوات العشر الاخيرة ظلت جالسة خلف الفرن ولا تخرج الى الشارع الا ليلا .

وقال بوركين :

— وما العجيب فى ذلك ! الاشخاص الانطوائيون بطبعهم ، والذين يسعون الى الاختفاء خلف قشرتهم ، كسرطان البحر الراهب والقوقعة ، كثيرون فى هذه الدنيا . وربما كان ذلك احد مظاهر الردة الخلقية ، والعودة الى ذلك العهد الذى لم يكن فيه جد الانسان حيوانا اجتماعيا بعد ، وكان يحيا وحيدا فى عرينه ، وربما كان ذلك مجرد صورة من صور الطبع البشرى ، من يدرى ؟ انا لست من المتخصصين فى العلوم الطبيعية ، وليس من شأنى ان اتناول هذه القضايا ، بل اريد فقط ان اقول ان الاشخاص الذين من طراز مافرا ليسوا ظاهرة نادرة . ولماذا نذهب بعيدا ، فمنذ حوالى شهرين مات فى مدينتنا شخص يدعى بيليكوف ، مدرس اللغة اليونانية ، زميلى . لقد سمعت عنه بالطبع . كان يمتاز بأنه كان دائما ، وحتى فى الجو الجيد لا يخرج الا بالخف فوق الحذاء وبشمسية ، وحتما فى معطف ثقيل ببطانة من القطن . وكانت شمسيته فى كيس ، وساعته فى كيس من الشامواه الرمادى ، وعندما كان يستخرج المطواة الصغيرة ليبرى قلما يستخرجها من كيس . حتى وجهه بدا وكأنه ايضا فى كيس ، فقد كان يخفيه دائما خلف الياقة المرفوعة . وكان يضع نظارة سوداء ، ويرتدى سترة بدون اكمام ، ويسد اذنيه بالقطن ، وعندما يستقل عربة يأمر الحوذى برفع الغطاء . وباختصار فقد لوحظ لدى هذا الرجل ميل مستمر وجارف



الى احاطة نفسه بقشرة ، الى وضع نفسه فيما يشبه العلبة ، التى يمكن ان تعزله وتحميه من المؤثرات الخارجية . كان الواقع يثيره ، ويخيفه ويجعله فى قلق مستمر ، وربما لكى يبرر وجله هذا ، وتقززه من الحاضر ، كان يمدح الماضى دائما وكل ما لم يكن له وجود ابدا . وكانت اللغات القديمة التى يعلمها بالنسبة له فى الواقع هى نفس الخف والشمسية التى يختبئ بها من الحياة الواقعية .

وكان يقول بتعبير عذب :

— اوه ، ما اروع اللغة اليونانية ، كم هى موسيقية .

ويزر عينيه ويرفع اصبعه ويقول كأنما يدلل على صدق كلماته : انثروبوس . *

وكان بيليكوف يسعى الى اخفاء افكاره ايضا فى علبة . فلم تكن واضحة له سوى المنشورات الدورية ومقالات الصحف التى تمنع شيئا ما . فعندما كان المنشور الدورى يمنع التلاميذ من الخروج الى الشارع بعد الساعة التاسعة مساء ، او تمنع مقالة ما الحب الجسدى كان ذلك بالنسبة له واضحا ومحددا . . . ممنوع وانتهينا . اما السماح والاباحة فكانا ينطويان بالنسبة له على عنصر مشكوك فيه دائما ، وشىء غامض لا يفصح عن نفسه . وعندما يسمح فى المدينة بتأسيس جمعية تمثيل او قاعة مطالعة او مقهى ، كان يهز رأسه ويقول بصوت خافت :

— طبعا هذا ، يعنى ، عظيم ، ولكن اخشى ان يحدث شىء .

---

* الانسان (باليونانية)

وكانت كل مخالفة او انحراف او خروج عن القواعد تجعله مهموما ، بالرغم من انه لا دخل له بذلك . فاذا ما تأخر احد من رفاقه عن الصلاة ، او سرت شائعة عن فعلة ارتكبها التلاميذ ، او شوهدت المشرفة المدرسية في ساعة متأخرة مع احد الضباط ، كان ينفعل بشدة ويردد انه يخشى ان يحدث شيء . وفي اجتماعات مجلس التربية كان يرهقنا بحذره وريبته وافكاره المعلبة للغاية بخصوص السلوك المعيب للشباب في مدرستي البنين والبنات والضجة التي يثيرونها في الصفوف . . آه ، اخشى ان يصل الامر الى الرؤساء ، آه ، اخشى ان يحدث شيء . . ولو اننا فصلنا بتروف من الصف الثاني ، ويجورروف من الصف الثالث لكان ذلك حسنا جدا . وماذا ؟ اتدرى لقد كان يثقل علينا جميعا بآهاته ، وشكايته ، وبنظارته السوداء على وجهه الصغير — وجه صغير كسحنة الظربان — فكنا نتنازل ونخفض درجة السلوك لبتروف ويجورروف ونعاقبهما بالحبس واخيرا نفصل بتروف ويجورروف . وكانت لديه عادة غريبة : ان يطوف بمنازلنا . كان يأتي الى المدرس فيجلس صامتا وكأنه يتفحص شيئا ما . ويظل على جلسته الصامته هذه ساعة او ساعتين ثم ينصرف . وكان يسمي ذلك «الحفاظ على العلاقات الطيبة مع الرفاق» ، ويبدو ان مجيئه الينا وجلوسه كان صعبا عليه ، ولم يكن يفعل ذلك الا لانه يعتبره واجبا عليه نحو رفاقه . وكنا نحن المدرسين نخشاه . حتى المدير كان يخافه . انظر ، ان مدرسينا رجال مفكرون ، قويمون جدا ، تربوا على ادب تورجينيف وشيدرين ، الا ان هذا الشخص الذي كان يسير بخف وشميسة سيطر على المدرسة خمسة عشر عاما كاملة .

وماذا تكون المدرسة ، بل سيطر على المدينة كلها . كانت سيداتنا فى ايام السبت لا يقمن الحفلات المنزلية ، خشية ان يعلم بذلك . وكان رجال الكنيسة يتحرجون من تناول اللحوم امامه او لعب الورق . وبتأثير هؤلاء الاشخاص امثال بيليكوف ، اصبح اهالى مدينتنا فى العشر او الخمس عشرة سنة الاخيرة يخشون كل شيء . يخشون التحدث بصوت عال ، وارسال الرسائل ، والتعارف ، وقراءة الكتب ، ويخشون مساعدة الفقراء وتعليم القراءة والكتابة . . .

وسعل ايفان ايفانيتش وقد اراد ان يقول شيئا ما ، ولكنه اشعل غليونه اولا وتطلع الى القمر ، ثم قال على مهل :

— نعم . اناس مفكرون ، قويمون ، يقرأون شيدرين وتورجينيف وامثال بوكلى وغيرهم ، ومع ذلك خضعوا له ، وتحملوه . . . هذه هى المسألة فعلا .

ومضى بوركين يقول :

— كان بيليكوف يعيش فى نفس المنزل الذى اقطنه ، فى نفس الطابق ، وبابه قبالة بابنا ، وكنا نتلاقى كثيرا ، وكنت اعرف حياته المنزلية . نفس الوضع فى المنزل : الروب والطاقية والنوافذ المغلقة الشيش والابواب الموصـــدة بالمزاليج ، وسلسلة طويلة من الممنوعات والمحظورات ، وايضا : آه ، اخشى ان يحدث شيء . اكل الصيام مضر ، واللحوم ممنوعة اذ قد يقال ان بيليكوف لا يصوم ، فكان يأكل السمك مقليا فى سمن البقر ، فهذا طعام ليس من مأكولات الصوم ، ولكنك لا تستطيع ان تقول انه من اللحوم . وكان لا يستخدم خادمات نساء خشية ان يساء به الظن ، وكان لديه طاه يدعى افناسى ، عجوز فى حوالى الستين ،

سكير ومخبول ، كان جندى مراسلة فى وقت ما ، ويستطيع كيفما كان ان يعد الطعام . وكان افناسى هذا يقف عادة بجوار الباب ، عاقدا ذراعيه ، ويدمدم دائما بجملة واحدة مع زفرة عميقة :

— ما اكثر عددهم الآن !

كانت غرفة نوم بيليكوف صغيرة ، كالصندوق ، وكان سريره تحت ناموسية . وعندما يأوى الى الفراش يغطى جسمه حتى رأسه . وكان جو الغرفة خانقا ، حارا ، والريح تعصف بالباب ، و تئز فى المدفأة ، ومن المطبخ تتناهى الزفرات ، الزفرات الشريرة . . . .

وكان يرتعد رعبا تحت البطانية . كان يخشى ان يحدث شيء ، ان يذبحه افناسى ، ان يتسلل اللصوص ، ثم يرى طوال الليل احلاما مزعجة ، وفى الصباح ، عندما نتوجه معا الى المدرسة ، كان يلوح كئيبا ، ممتقعا ، ويبدو واضحا ان المدرسة الكبيرة المزدحمة والتى كان ذاهبا اليها ، مرعبة وكريهة الى قلبه ، وكان من الصعب عليه ان يسير معى وهو الشخص المنعزل بطبعه .

ويقول كأنما يبحث عن تفسير لمشاعره المرهقة :

— الضجة شديدة جدا فى الصفوف . شيء لا مثيل له .

وهل تتصور ان مدرس اللغة اليونانية هذا ، الرجل المعلب ، كاد ان يتزوج .

وتطلع ايفان ايفانيتش بسرعة نحو الحظيرة وقال :

— انت تمزح !

— نعم ، كاد ان يتزوج مهما بدا ذلك غريبا . ارسلوا الينا مدرسا جديدا للتاريخ والجغرافيا يدعى كوفالنكو

ميخائيل سافيتش ، من الاوكرانيين . وقد وصل مع اخته فارنكا . كان شابا ، طويل القامة ، اسمر ، بيدين ضخمتين ، ويبدو من وجهه ان صوته غليظ ، وبالفعل كان يتكلم وكأنه يتكلم من برميل : بو — بو — بو . . . اما هى فقد تخطت سن الشباب ، فى حوالى الثلاثين ، ولكنها ايضا طويلة القامة ، رشيقة ، سوداء الحاجبين ، حمراء الخدين ، وباختصار لم تكن فتاة بل قطعة حلوى . وكانت مرحة ، صاخبة ، تغنى دائما الاغانى الاوكرانية وتقهقه . ولأتفه الأسباب تغرق فى ضحك رنان : ها — ها — ها . واذكر ان اول مرة تعرفت فيها بآل كوفالنكو عن قرب كانت فى حفلة عيد ميلاد مدير المدرسة . فبين المربين الصارمين المتوترين المملين ، الذين يذهبون حتى لحفلات الميلاد وكأنهم يؤدون واجبا ، اذ بنا نرى فجأة افرودويت الجديدة وقد بعثت من زبد الامواج . . تسير وهى تتمخطر ، وتقهقه وتغنى وترقص . وغنت «الرياح تعصف» بصورة مؤثرة ، ثم غنت اغنية اخرى ، ثم اخرى ، فأسرتنا جميعا . . جميعا بمن فينا بيليكوف . وجلس بقربها وقال وهو يبتسم ابتسامة عسلية :

— اللغة الاوكرانية تشبه فى رقتها وموسيقاها اللطيفة اللغة اليونانية القديمة .

وراقها ذلك فراحت تروى له بتأثر واقتناع ان لديها منزلا ريفيا فى مركز جاياتشى ، وامها تعيش فيه ، وان هناك كمثرى وشماما وكوسة رائعة . والاوكرانيون يسمون القرع العسلى كوسة ، والكوسة «شينكى» ، ويطهون حساء الكرنب من الكرنب والطماطم والباتنجان ، «ما الذه ، ما الذه ، شيء خرافى .»

واصغينا نحن طويلا ، ثم سنحت لنا جميعا نفس الفكرة .

وقالت لى زوجة المدير بصوت خافت :

— حسن لو زوجناهما .

ولسبب ما تذكرنا ان بيليكوف ليس متزوجا ، فبدا لنا غريبا اننا لم نلاحظ ذلك من قبل ، ولم نلتفت ابدا الى هذا الجانب الهام فى حياته . فما هو موقفه من النساء عامة ياترى ، وكيف يواجه هذه المسألة الحيوية ؟ لم يثر هذا اهتمامنا ابدا من قبل ، وربما لم تراودنا حتى فكرة ان الشخص الذى يسير فى جميع الاحوال الجوية فى خف وينام تحت ناموسية ، يمكن ان يحب .

وقالت زوجة المدير موضحة فكرتها :

— لقد تخطى الاربعين منذ زمن بعيد ، وهى فى الثلاثين . . . يخيل الىّ انها ستقبله زوجا .

وما أكثر الامور التى تحدث بفعل الملل فى الارياف عندنا ، وما اكثر ما يجرى من تفاهات لا داعـــى لها وحماقات ! وذلك لاننا لا نفعل ابدا ما هو مطلوب . حسنا ، لماذا اصبحنا فجأة فى حاجة الى تزويج بيليكوف هذا ، وهو الذى لا يمكن حتى ان تتخيله زوجا ؟ لقد انتعشت زوجة المدير ، والمفتشة وكل سيدات المدرسة ، بل وازددن جمالا ، وكأنما عثرن فجأة على غاية الحياة . واذا بزوجة المدير تحجز مقصورة فى المسرح ، وننظر نحن فنرى فى المقصورة فارنكا ممسكة بمروحة ، وهى سعيدة ، مشرقة ، وبجوارها بيليكوف ، صغيرا ، منطويا ، كأنما اخرجوه من المنزل بكماشة . واقيم انا حفلا منزليا فتصر

السيدات على ان ادعو بيليكوف وفارنكا . وباختصار فقد انطلقت الآلة . واتضح ان فارنكا لم تكن تمانع فى الزواج . فلم تكن مرتاحة فى حياتها مع اخيها ، اذ لم يكن لهما من عمل سوى الجدال والشجار طول النهار . خذ مثلا هذا المشهد : كوفالنكو يسير فى الشارع ، طويلا ، عملاقا فارع الجسد ، فى قميص مطرز ، وقصته تتهدل من تحت العمرة على جبينه . ويحمل فى احدى يديه رزمة كتب ، وفى اليد الاخرى عصا غليظة بعقد . وتسير وراءه اخته ، حاملة كتبا هى الاخرى .

وتجادله بصوت عال :

— انك لم تقرأ هذا يا ميخايليك . اننى اقول لك ، اقسم انك لم تقرأ هذا ابدا !

فيصيح كوفالنكو وهو يقعقع بعصاه على الرصيف :

— وانا اقول لك اننى قرأته .

— آه ، يا الهى ، لماذا تغضب يامنتشيك ، ان حديثنا مبدئى !

فيصيح كوفالنكو بصوت اعلى :

— وانا اقول لك اننى قرأته .

وما ان يوجد فى منزلهما شخص غريب حتى ينشب بينهما الشجار . ويبدو ان هذه الحياة ارهقتها ، ثم انها ارادت ان تستقل بركنها ، زد على ذلك السن ايضا . عندئذ لا يكون هناك متسع للاختيار ، وتصبح مستعدة للزواج بأى كان ، حتى بمدرس اللغة اليونانية القديمة . ثم انه بالنسبة لمعظم آنساتنا ليس المهم من يتزوجن ، بل المهم ان يتزوجن . وايا كان الامر فقد اخذت فارنكا

تبدى نحو بيليكوف ميلا واضحا .

وماذا عن بيليكوف ؟ كان يتردد على كوفالنكو كما يتردد علينا . يأتي اليه فيجلس صامتا . هو يصمت . اما فارنكا فتغنى له «الرياح تعصف» ، او تنظر اليه شاردة بعينيها السوداوين ، او تقهقه فجأة :

— ها — ها — ها !

ان الايحاء يلعب دورا كبيرا في امور الغرام ، وخاصة في الزواج . ومن ثم راح الجميع — الرفاق والسيدات — يؤكدون لبيليكوف انه ينبغي عليه ان يتزوج ، وانه لم يعد لديه شيء في الحياة الا ان يتزوج . وهنأناه كلنا ، وتفوهنا باشياء مبتذلة وقد اكتست وجوهنا ملامح الجدية ، اشياء من قبيل ان الزواج هو خطوة جادة ، ثم ان فارنكا لا يعوزها الجمال ، وهى جذابة ، وكانت ابنة مستشار اعتبارى * ، ولديها منزل ريفى ، واهم شيء انها اول امرأة تعامله برقة وود . فدار رأسه وقرر انه ينبغي عليه بالفعل ان يتزوج .

وقال ايفان ايفانيتش :

— تلك هى اللحظة التى يمكن فيها انتزاع الخف والشمسية منه .

— تصور ، لقد اتضح ان ذلك مستحيل . لقد وضع صورة فارنكا على مكتبه ، وراح يتردد علىّ ويتحدث

---

* كانت رتبة مدنية في روسيا القيصرية تعادل رتبة العقيد . **المعرب** .

عن فارنكا ، وعن الحياة الزوجية ، ويقول ان الزواج خطوة جادة ، واكثر من زيارته لآل كوفالنكو ، لكنه لم يغير طريقة حياته قيد شعرة . بل بالعكس ، لقد اثر عليه قراره بالزواج تأثيرا مَرَضيا ، فهزل وشحب وجهه وبدا انه قد غاص اكثر في علبته .

كان يقول لي بابتسامة ضعيفة ممتعضة :

— فارفارا سافيشنا تعجبني ، وانا اعرف انه من الضروري لكل انسان ان يتزوج ، ولكن . . . كل ذلك ، اتدري ، حدث فجأة . . . ينبغي على ان افكر .

فاقول له :

— وفيم تفكر ؟ تزوج وهذا كل ما في الامر .

— كلا ، الزواج خطوة جادة . ينبغي اولا ان ازن الواجبات القادمة والمسئوليات . . . حتى لا يحدث شيء بعد ذلك . ان هذا يقلقني جدا ، واصبحت لا انام الليل . واصارحك انني اخاف : فلديها هي وشقيقها طريقة تفكير غريبة ، انهما يفكران ، اتدري ، بطريقة غريبة ، وطبعها ايضا مندفع جدا . فاذا تزوجت ، فربما اقع ، لاقدر الله ، في ورطة ما .

ولم يتقدم لطلب يدها ، وراح يؤجل ذلك ، مما اثار خيبة امل زوجة المدير وكل نسائنا . ظل يزن الواجبات القادمة والمسئوليات ، وفي الوقت نفسه كان يتنزه مع فارنكا كل يوم تقريبا . اذ ربما كان يظن ان ذلك مطلوب في وضعه ، ويأتي اليّ ليتحدث عن الحياة العائلية . وربما تقدم في نهاية الامر لطلب يدها ، وعندئذ كان سيتم زواج من تلك الزيجات الحمقاء التي لا ضرورة لها والتي تحدث عندنا

بالآلاف بفعل الملل والفراغ . لو لا ان وقعت Kolossalische *
Scandal فجأة . اذ لا بد من القول بان شقيق فارنكا ،
كوفالنكو ، قد كره بيليكوف من اول يوم تعارفهما ، ولم
يعد يطيقه .

وكان يقول لنا وهو يهز كتفيه :

— انا لا افهم ، كيف تطيقون هذا الواشى ، هذه
السحنة المنحطة . ايه ياسادة ، كيف تستطيعون العيش هنا !
الجو لديكم خانق ، قذر . فهل انتم مربون ، معلمون ؟
انتم عبدة القاب ، وليس ما لديكم محراب علم ، بل
ادارة مناصب تفوح منها رائحة حامضة كما فى كشك الشرطة .
كلا يا اخوان ، سأعيش معكم قليلا ثم ارحل الى منزلنا
الريفى واصطاد هناك السرطان واعلم الاوكرانيين الصغار .
سارحل ، وستبقون انتم هنا مع يهوذاكم ، الا فلتأخذه
مصيبة !

واحيانا كان يقهقه ، يقهقه حتى تدمع عيناه قهقهات
غليظة مرة ورفيعة حادة مرة اخرى ويسألنى بالاوكرانية وهو
يلوح بيديه :

— لماذا يجلس عندى ؟ ما الذى يريده ؟ انه يجلس
ويتطلع .

بل واطلق عليه اسم «العنكبوت» . وبالطبع فقد تجنبنا
ان نذكر له ان اخته فارنكا تنوى الزواج من «العنكبوت»
وعندما المحت له زوجة المدير ذات مرة بانه من الخير تزويج

---

* فضيحة كبيرة (بالالمانية فى الاصل) .

اخته من سيد رصين ، يحترمه الجميع مثل بيليكوف ، عقد حاجبيه ودمدم ساخطا :

— ليس هذا من شأنى ، فلتتزوج ولو ثعبانا . انا لا احب ان اتدخل فى شئون الغير .

فلتسمع ما حدث بعد ذلك . لقد رسم احد الاشقياء رسما كاريكاتيريا لبيليكوف وهو يسير فى خف وسروال مشمر ، وتحت الشمسية ، ويتأبط ذراع فارنكا . وكتب تحت الرسم «الانثروبوس العاشق» . وهو تعبير كما ترى مناسب بشكل مدهش . لا بد ان الرسام انفق فى هذا العمل أكثر من ليلة ، لان كل مدرسى مدرستى البنين والبنات ، ومدرسى المعهد الدينى وجميع الموظفين حصل كل منهم على نسخة من الرسم . وحصل بيليكوف ايضا على نسخة . وتركت الصورة فى نفسه اسوأ انطباع .

وخرجنا معا من المنزل ، وكان ذلك فى اول مايو ، يوم الاحد ، وكنا قد اتفقنا نحن المدرسين والتلاميذ ان نلتقى عند المدرسة ، ثم نذهب جميعا سيرا على الاقدام خارج المدينة الى الغابة ، واذا به مربد الوجه مكفهر كالغمامة . وقال :

— يا لهم من اناس خبثاء ، اشرار !

وارتعشت شفتاه .

حتى اننى شعرت بالرثاء له . وبينما نحن نسير اذ بنا نرى كوفالنكو قادما نحونا على دراجة ، تصور ، ومن ورائه فارنكا على دراجة ايضا ، خداها احمران ، وهى مرهقة ، ولكنها مرحة مسرورة .

وصاحت :

— اننا نسير الى الامام . ياللجو الرائع ، ياللجو الرائع ، شيء خرافي !

واختفيا عن انظارنا . وتحول اربداد وجه بيليكوف الى شحوب ، وبدا كأنه تسمر في مكانه . وتوقف وراح يحملق فيّ ، ثم سألني :

— عفوا ، ما هذا ؟ ام ان نظري يخدعني ؟ هل من اللائق لمدرسي المدرسة وللنساء ان يركبوا الدراجات ؟

فقلت له :

— وما عدم اللياقة في ذلك ؟ فليركبوا ما شاء لهم .

فصاح وقد اذهله هدوئي :

— كيف يمكن ؟ ماذا تقول ؟ !

كان مصعوقا لدرجة انه لم يشأ ان يواصل السير وقفل عائدا الى المنزل .

وفي اليوم التالي ظل يفرك راحتيه في عصبية وينتفض ، وكان واضحا انه في حالة سيئة . وترك الدروس ، الامر الذي حدث له لاول مرة في حياته . ولم يتناول الغداء ، وقبيل المساء ارتدى ملابس ثقيلة رغم ان الجو في الخارج كان صيفيا تماما ، ومضى الى كوفالنكو . ولم تكن فارنكا في المنزل فلم يجد سوى شقيقها .

فقال له كوفالنكو ببرود وقد عقد حاجبيه :

— تفضل اجلس لو سمحت .

كان وجهه ناعسا ، فقد افاق لتوه من نوم بعد الغداء ، وكان مزاجه معتلا للغاية .

وجلس بيليكوف صامتا حوالي عشر دقائق ثم بدأ يقول :

— لقد جئت اليكم لاخفف عن قلبي . انني مرهق

نفسيا جدا . ان احد الرسامين قد رسمنى فى صورة مضحكة مع آنسة قريبة لنا معا . وارى من واجبى ان أؤكد لك انه لا دخل لى بذلك . . لم افعل من جانبى اى شيء يبرر هذه السخرية ، بالعكس دائما اسلك مسلك الشخص القويم .

كان كوفالنكو جالسا مكفهر الوجه وصامتا . وانتظر بيليكوف قليلا ، ثم مضى يقول بصوت خافت حزين :

— ولدىّ ما اريد ان اقوله لك ايضا . اننى اخدم منذ زمن طويل ، اما انت فما زلت فى بداية الخدمة ، وارى من واجبى كرفيق اقدم ان احذرك . انك تركب الدراجة ، وهذه تسلية لا تليق ابدا بمرب للنشىء .

فسأل كوفالنكو بصوت غليظ :

— ولماذا ؟

— وهل هناك داع لشرح ذلك يا ميخائيل سافيتش ، أليس ذلك مفهوما ؟ اذا كان المدرس يركب دراجة ، فماذا يتبقى للتلاميذ ؟ لا يبقى لهم الا ان يسيروا على رؤوسهم . واذا كان ذلك غير مسموح به فى المنشورات الدورية فهذا يعنى انه ممنوع . لقد ارتعت امس . عندما رأيت شقيقتك غامت عيناى . المرأة او الآنسة فوق الدراجة . . هذا فظيع .

— ماذا تريد بالضبط ؟

— لا اريد سوى شيء واحد ان احذرك ياميخائيل سافيتش . انت رجل شاب ، والمستقبل عريض امامك ، ينبغى ان يكون سلوكك حذرا ، وحذرا جدا . انك بذلك تستهتر ، اوه كم تستهتر ! انك ترتدى قميصا مطرزا ، وتسير فى الشارع حاملا كتبا ما دائما ، ثم ها انت تركب دراجة .

وسيعلم المدير انك تركب دراجة انت وشقيقتك ، ثم يصل الامر الى رئيس المنطقة التعليمية . . . فما هو الخير فى ذلك ؟

فقال كوفالنكو وهو يتضرج :

— لا شأن لأحد بركوبـى الدراجة انا وشقيقتى . اما من سيتدخل فى امورى المنزلية العائلية فسأبعث به الى الشياطين .

فامتقع بيليكوف ونهض . وقال :

— اذا كنت تتحدث معى بهذه اللهجة فانا لا استطيع ان اواصل . وارجوك الا تتحدث عن الرؤساء ابدا بهذا الشكل فى حضرتى . ينبغى عليك ان تنظر الى السلطات باحترام .

فسأله كوفالنكو وهو يحدق فيه بغيظ :

— وهل قلت شيئا سيئا عن السلطات ؟ ارجوك دعنى فى حالى . انا رجل شريف ، ولا اريد ان اتحدث مع سيد مثلك . انا لا احب الوشاة .

وارتبك بيليكوف فى عصبية ، واخذ يرتدى معطفه بسرعة وقد ارتسم الرعب على وجهه . فقد كانت تلك اول مرة فى حياته يسمع فيها هذه العبارات الفظة .

فقال وهو يخرج من الباب الى بسطة السلم :

— بوسعك ان تقول ما تشاء . غير انى ينبغى ان احذرك ، فربما سمع كلامنا احد . ولكى لا يحرف حديثنا ويحدث شىء ، ينبغى ان ابلغ السيد المدير فحوى حديثنا . . فى الخطوط العامة . يجب علىّ ان افعل ذلك .

— تبلغ ؟ اذهب وبلغ .

وامسك كوفالنكو من الخلف بياقته ودفعه ، فتدحرج بيليكوف على السلم وهو يقرقع بخفه . وكان السلم عاليا

وشديد الانحدار ، ولكنه تدحرج حتى وصل الى اسفل سالما ، ثم نهض وتحسس انفه ليتأكد هل النظارة سليمة ام لا ؟ ولكن فى اللحظة التى كان يتدحرج فيها على السلم دخلت فارنكا بصحبة سيدتين . وقفن فى الاسفل ينظرن . وكان هذا افظع شيء بالنسبة لبيليكوف . خيل اليه انه من الافضل ان يدق عنقه او تنكسر كلتا ساقيه من ان يصبح مسخرة . الآن ستعلم المدينة كلها ، وسيصل الامر الى المدير ورئيس المنطقة ، آه ، اخشى ان يحدث شيء ! اذ ربما رسموا كاريكاتيرا جديدا ، وينتهى كل ذلك بأن يأمروه بتقديم استقالته . .

وعندما نهض عرفته فارنكا . ونظرت الى وجهه المضحك ، ومعطفه المجعد ، وخفه ، وهى لا تدرك ماذا حدث ، واعتقدت انه زل وسقط ، فلم تتمالك نفسها من الاغراق فى الضحك بصوت اسمع البيت كله :

— ها — ها — ها !

بهذه القهقهات المدوية المجلجلة تكلل كل شيء : الخطبة ، ووجود بيليكوف الدنيوى . لم يعد يسمع ما تقوله فارنكا ، ولم ير شيئا . وعندما عاد الى داره بادر قبل كل شيء برفع صورة فارنكا من الطاولة ، ورقد ولم يقم بعدها .

وبعد حوالى ثلاثة ايام جاءنى افناسى وسألنى هل يستدعى الطبيب ، لان شيئا ما يحدث للسيد . فذهبت الى بيليكوف . كان راقدا تحت ناموسية السرير ، مغطى بالبطانية . وصامتا . وعندما تسأله لا يرد الا بلا او نعم ، ولا يزيد حرفا . كان راقدا ، وافناسى يجوس من حوله عابسا ، مكفهرا ،

يزفر بعمق ، ورائحة الفودكا تنبعث منه كما من حانة .

وبعد شهر توفى بيليكوف . وسرنا جميعا فى جنازته ، كلتا المدرستين والمعهد الدينى . وبعد ان تمدد فى التابوت اكتسى وجهه تعبيرا مستكينا ، لطيفا ، بل وحتى مرحا ، كأنما كان سعيدا بأنهم وضعوه اخيرا فى علبة لن يخرج منها ابدا . نعم لقد بلغ مثله الاعلى . واثناء الجنازة ، وكأنما تكريما له ، كان الجو مكفهرا ممطرا ، فارتدينا جميعا الاخفاف وحملنا الشماسى . وشهدت فارنكا ايضا الجنازة ، وعندما انزل التابوت الى القبر اجهشت بالبكاء . وقد لاحظت ان النساء الاوكرانيات اما يضحكن واما يبكين ، وليس لديهن مزاج وسط .

واصارحك بأن دفن اناس مثل بيليكوف هو متعة كبيرة . فعندما عدنا من المقبرة كانت وجوهنا متواضعة ، محايدة ، اذ لم يشأ احد منا ان يكشف عن هذا الشعور بالمتعة . . الشعور الذى يشبه ذلك الاحساس الذى كان يعترينا منذ زمن بعيد ، فى ايام الطفولة ، عندما يغادر الكبار المنزل فنمرح فى الحديقة ساعة او ساعتين مستمتعين بالحرية التامة . آه ، الحرية ، الحرية ! مجرد التلميح ، او حتى الامل الضعيف باحتمال تحققها يخلق للروح جناحين ، أليس كذلك ؟

عدنا من المقابر بنفوس منشرحة . ولكن ما ان مر اسبوع حتى عادت الحياة الى مجراها السابق . . حياة قاسية ، مرهقة ، بلا معنى ، لا تحدها ممنوعات المنشورات الدورية ، ولكنها غير مطلقة السراح تماما . لم يصبح الوضع افضل . وبالفعل ، لقد دفنا بيليكوف ، ولكن كم بقى من امثال هؤلاء الرجال المعلبين ، وكم سيظهر منهم .

فقال ايفان ايفانيتش :

— هذه هى المسألة فعلا .

واشعل غليونه .

وردد بوركين :

— وكم سيظهر منهم .

وخرج المدرس من الحظيرة . كان رجلا غير طويل ، اصلع تماما ، بلحية سوداء تكاد تصل الى خصره . وخرج معه كلبان .

وقال وهو يتطلع الى اعلى :

— القمر ، القمر ، انظر !

كان الوقت منتصف الليل . والى اليمين بدت القرية كلها . وامتد شارعها الطويل بعيدا ، حوالى خمسة كيلومترات . وكان كل شيء غارقا فى نوم عميق هادىء . لا حركة ، ولا صوت ، الى درجة يصعب معها ان تصدق ان الطبيعة يمكن ان تشتمل على هذا الهدوء . وعندما ترى فى الليل المقمر شارع القرية العريض بمنازله ، واكوام دريسه ، واشجار الصفصاف الناعسة ، تشمل روحك السكينة . ويبدو الشارع فى هدوئه هذا ، وقد تغطى بظلال الليل هربا من الكد والهموم والمصائب ، مستكينا ، حزينا ورائعا ، ويخيل اليك ان النجوم تنظر اليه برقة واعجاب ، وان الشر قد اختفى من الارض ، وكل شيء على ما يرام . والى اليسار ، عند طرف القرية يبدأ الحقل . كان يلوح بعيدا حتى الافق ، وعلى امتداد هذا الحقل الرحب ، الغارق فى ضوء القمر ، لم تكن هنالك ايضا حركة او صوت .

وردد ايفان ايفانيتش :

— هذه هى المسألة فعلا . وهل معيشتنا فى المدينة ، فى الجو الخانق والزحام ، وكتابتنا لاوراق لا حاجة اليها ، ولعبنا الورق . . أليس هذا علبة ؟ وهل قضاؤنا لعمرنا كله بين كسالى ، عاطلين ، ونساء حمقاوات فارغات ، وتحدثنا وسماعنا لشتى الوان الهراء . . أليس هذا علبة ؟ لو اردت لرويت لك قصة ذات موعظة .

فقال بوركين :

— كلا ، آن لنا ان ننام . الى الغد !

واتجه كلاهما الى الحظيرة ورقدا على الدريس . وتغطيا ونعسا واذ بخطوات خفيفة تتردد فجأة : دب — دب — دب . . . كان هناك شخص ما يسير غير بعيد عن الحظيرة . يجوس قليلا ثم يتوقف . وبعد دقيقة يعود من جديد : دب — دب . . وزمجرت الكلاب .

وقال بوركين :

— انها مافرا تسير .

وسكنت الخطوات .

ودمدم ايفان ايفانيتش وهو ينقلب الى الجنب الآخر :

— ان ترى وتسمع كيف يكذبون ، ثم يرمونك انت بالغباء لانك تطيق هذا الكذب . ان تتحمل الاهانات والاذلال ، دون ان تجروء على الاعلان صراحة انك فى صف الشرفاء الاحرار ، بل تكذب انت نفسك ، وتبتسم ، وكل ذلك من اجل لقمة العيش ، من اجل ركن دافىء ، من اجل وظيفة حقيرة لا تساوى مليما . . . كلا ، حياة كهذه لم تعد محتملة .

فقال المدرس :

— انك تغنى اغنية اخرى يا ايفان ايفانيتش . هيا ننام .

وبعد حوالى عشر دقائق كان بوركين يغط فى النوم . اما ايفان ايفانيتش فكان يتقلب من جنب الى جنب ويتنهد ، ثم نهض ، وخرج مرة اخرى فجلس قرب الباب واشعل الغليون .

١٨٩٨

حبوبة

كانت أولنكا * ، ابنة المساعد الاعتبارى المتقاعد بليميانيكوف ، جالسة فى فناء منزلهم على درج المدخل وقد استغرقت فى التفكير . كان الجو حارا ، والذباب يضايقها بالحاح ، وكان من المبهج جدا التفكير فى اقتراب المساء . ومن الشرق زحف غمام داكن ممطر ، وكانت الرطوبة تتناهى احيانا من هناك .

وفى وسط الفناء وقف كوكين ، المتعهد وصاحب حديقة ملاهى «تيفولى» ، الذى كان يسكن جناحا هنا فى الفناء ، وهو يتطلع الى السماء .

وقال بأسى :

— ثانية ! ستمطر ثانية ! كل يوم مطر ، كل يوم مطر ، كأنما عمدا ! هذا هلاك ! هذا خراب ! كل يوم خسائر رهيبة !

وأشاح بيديه ومضى يقول مخاطبا أولنكا :

---

* تدليل من الاسم الكامل : أولجا . **المعرب** .

— ها هى حياتنا يا أولجا سيميونفنا . شىء يبكى ! تعمل وتبذل جهدك ، وتتعذب ، ولا تنام الليل ، وتفكر دائما فى التحسين ، فما النتيجة ؟ من ناحية هناك الجمهور الجاهل المتوحش . أقدم له أفضل أوبريت ، أفضل مسرحية سحرية ، أروع المغنين ، ولكن هل هو بحاجة الى ذلك ؟ هل هو يفقه شيئا فى ذلك ؟ انه بحاجة الى مولد ! بحاجة الى اشياء مبتذلة ! ومن ناحية أخرى فلتنظرى الى الطقس . المطر كل مساء تقريبا . منذ أن بدأ يسقط فى العاشر من مايو وهو مستمر طوال مايو ويونيو ، شىء فظيع ! الجمهور لا يحضر ، ولكن ألست ادفع الايجار ؟ الست ادفع أجور الممثلين ؟

وفى اليوم التالى قبيل المساء زحف الغمام ثانية ، فقال كوكين وهو يقهقه بهيستيرية :

— ثم ماذا ؟ فليكن ! فليغرق الحديقة كلها ، فليغرقنى ايضا ! فليحل بى البؤس فى هذه الدنيا وفى الآخرة ! فليشكنى الممثلون الى المحكمة ! وهل تهمنى المحكمة ؟ فليحكموا علىّ بالاشغال الشاقة ، فى سيبيريا ! لتكن حتى المشنقة ! ها—ها—ها !

وفى اليوم الثالث نفس الشىء . . .

كانت اولنكا تصغى الى كوكين فى صمت ، وبجدية ، واحيانا تغرورق عيناها بالدموع . وفى نهاية الامر اثرت فيها مصائب كوكين ، فأحبته . كان قصير القامة ، هزيلا ، بوجه أصفر وصدغين ممشطين ، يتكلم بصوت «تينور» ضعيف ، وعندما يتكلم يلتوى فمه . وكان اليأس مكتوبا على وجهه دائما ، الا أنه بعث فيها شعورا حقيقيا عميقا . كانت

على الدوام تحب احدا ما ، ولا تستطيع ان تعيش بدون ذلك . فى الماضى أحبت أباها الذى أصبح يجلس الآن مريضا فى مقعد ، فى غرفة مظلمة ، ويتنفس بصعوبة . وأحبت خالتها التى كانت تأتى من بريانسلك احيانا ، مرة كل عامين . وقبل ذلك ، عندما كانت تدرس فى المدرسة المتوسطة ، أحبت مدرس اللغة الفرنسية . كانت آنسة هادئة ، طيبة حنونا ، بنظرة وديعة ناعمة ، وفى غاية الصحة . وعندما ينظر الرجال الى خديها الممتلئين المتوردين ، والى عنقها الابيض الناعم ذى الشامة الداكنة ، والى ابتسامتها الطيبة الساذجة التى ترتسم على وجهها عندما تسمع شيئا سارا ، كانوا يفكرون : «نعم ، لا بأس بها . . .» ويبتسمون هم ايضا ، أما النساء فلا يتمالكن أنفسهن اثناء الحديث من الامساك بيدها والقول فى غمرة السرور :

— يا حبّوبة !

كان البيت الذى تعيش فيه منذ أن ولدت وكتب باسمها فى الوصية يقع فى طرف المدينة ، فى محلة الغجر ، غير بعيد عن حديقة ملاهى «التيفولي» . وفى الامسيات والليالى كان يسمع فى الحديقة عزف الموسيقى وانفجارات الصواريخ النارية المزمجرة ، فكان يخيل اليها ان كوكين يحارب قدره ، ويهاجم عدوه الرئيسى : الجمهور اللامبالى . فكان قلبها يخفق بلذة ، ويجافيها النوم ، وعندما يعود كوكين قبيل الصباح كانت تدق خفيفا على نافذتها من داخل غرفة نومها ، وتبتسم له برقة ، كاشفة له عبر الستارة عن وجهها واحدى كتفيها فقط . . . .

وخطبها ، وعقدا قرانهما . وعندما رأى كما يجب

عنقها وكتفيها الممتلئتين العفيتين ، اشاح بيديه ودمدم :

— يا حبّوبة !

كان سعيدا ، ولكن لما كان المطر يسقط يوم الزفاف ثم طوال الليل ، لم يفارق وجهه تعبير الأسى .

وعاشا بعد الزفاف حياة طيبة . كانت تجلس فى شباك التذاكر لديه ، وتراقب النظام فى الحديقة ، وتسجل النفقات وتصرف الرواتب ، وكان خداها المتوردان وابتسامتها اللطيفة الساذجة التى تشبه الاشعاع تومض تارة فى شباك التذاكر ، وتارة وراء الكواليس ، وتارة فى البوفيه . وأصبحت تقول لمعارفها ان أروع وأهم وألزم شيء فى الدنيا هو المسرح ، وأنه لا يمكن أن تحصل على المتعة الحقيقية وان تصبح مثقفا وخيّرا الا فى المسرح .

— ولكن هل يفهم الجمهور ذلك ؟ — كانت تقول — انه بحاجة الى مولد ! بالامس قدمنا «فاوست بالمقلوب» ، وكانت جميع المقصورات تقريبا خالية ، ولو أننا ، انا وفانتشكا ، قدمنا اى شيء مبتذل لكان المسرح ، صدقونى ، ممتلئا عن آخره . غدا سنقدم أنا وفانتشكا «أورفيوس فى الجحيم» ، تعالوا .

وكل ما يقوله كوكين عن المسرح والممثلين كانت هى تردده . كانت مثله تحتقر الجمهور لعدم اكتراثه بالفن ولجهله ، وتتدخل فى البروفات وتصحح الممثلين ، وتراقب سلوك الموسيقيين ، وعندما تكتب الجريدة المحلية بعدم استحسان عن المسرح تبكى ثم تذهب الى ادارة التحرير للتفاهم فى الامر .

وكان الممثلون يحبونها ويسمونها «أنا وفانتشكا» و«حبوبة» .

وكانت ترق لحالهم وتقرضهم قروضا صغيرة ، واذا حدث وخدعوها تبكى فقط بصوت خافت لكنها لا تشكو لزوجها .

وفى الشتاء ايضا عاشا حياة طيبة . استأجرا مسرح المدينة لموسم الشتاء وكانوا يؤجرونه لفترات قصيرة تارة لفرقة اوكرانية ، وتارة لحاو ، وتارة للهواة المحليين . وسمنت أولنكا واشرقت كلها سرورا ، أما كوكين فنحف واصفرّ واشتكى من الخسائر الرهيبة ، رغم ان الامور طوال الشتاء سارت على ما يرام . وكان يسعل ليلا فتسقيه شراب التوت ومنقوع زهر الزيزفون ، وتدلكه بالكولونيا وتدثره فى شيلانها الناعمة .

— كم أنت رائع ! — كانت تقول بكل اخلاص وهى تداعب شعره — كم أنت حلو !

وفى الصيام الكبير سافر الى موسكو لجمع فرقة تمثيل ، فلم تستطع بدونه ان تنام وجلست طوال الليل بجوار النافذة تحدق فى النجوم . وفى تلك الاثناء كانت تقارن نفسها بالدجاجات التى لا تنام ايضا فى الليل وتشعر بالقلق اذا لم يكن الديك فى الحظيرة . وتأخر كوكين فى موسكو وكتب يقول انه سيعود فى عيد الفصح ، وأصدر فى رسائله تعليماته بخصوص «التيفولى» . ولكن فى ساعة متأخرة من المساء ، قبيل اسبوع الآلام دوى طرق مشؤوم على البوابة . كان أحد ما يدق الباب وكأنما يضرب برميلا : بوم ! بوم ! بوم ! وركضت الطاهية الناعسة لتفتح وهى تطرطش بقدميها الحافيتين فى البرك .

— افتحوا ، اعملوا معروفا — قال شخص ما من وراء البوابة بصوت غليظ — وصلتكم برقية !

كانت أولنكا تتلقى برقيات من زوجها قبل ذلك ،

ولكن الذهول تملكها الآن لسبب ما . وفضت البرقية بأصابع مرتعشة وقرأت التالى :

«توفى اليوم ايفان بتروفتش وفاة مفاجئة فى انتظار التعليمات عاجكا الدفد الثلاثاء» .

هكذا كان مكتوبا فى البرقية «الدفد» ، ثم تلك الكلمة غير المفهومة «عاجكا» ، والتوقيع لمخرج فرقة الاوبريت .

وأعولت اولنكا :

— يا حبيبى الغالى ! يا فانتشكا العزيز ، يا حبيبى الغالى ! لماذا التقيت بك ؟ لماذا عرفتك وأحببتك ؟ لمن تركت اولنكاك المسكينة ، المسكينة التعيسة ؟ . .

دفن كوكين يوم الثلاثاء ، فى موسكو ، فى مقابر فاجانكوفو . وعادت أولنكا يوم الاربعاء ، وما أن دخلت البيت حتى ارتمت على السرير وأجهشت بالبكاء بصوت عال سمع فى الخارج وفى الأفنية المجاورة .

وقالت جاراتها وهن يرسمن علامة الصليب :

— الحبوبة ! أولجا سيميونفنا الحبوبة ، انظروا ، كيف تتألم !

بعد ثلاثة أشهر كانت اولنكا عائدة من صلاة الظهر ، حزينة ، مجللة بالسواد . وتصادف أن سار بجوارها أحد جيرانها ، فاسيلى أندرييتش بوستوفالوف ، رئيس مخزن الخشب التابع للتاجر بابكايف ، وكان عائدا من الصلاة ايضا . كان فى قبعة من القش ، وفى صديرى أبيض بسلسلة ذهبية ، ويبدو اشبه باقطاعى منه بتاجر .

قال لها برزانة وبنبرة تعاطف :

— لكل شيء نظامه . فاذا مات أحد من اقربائنا

فمعنى ذلك انها مشيئة الله ، وعلينا فى هذه الحالة أن نتذرع بالصبر ونرضى بها .

وأوصل اولنكا الى باب الفناء ثم ودعها ومضى الى داره . وبعد ذلك ظل صوته الرزين يتردد فى أذنيها طول النهار وما أن تغمض عينيها حتى تتراءى لها لحيته السوداء . لقد اعجبها غاية الاعجاب . ويبدو أنها هى ايضا قد تركت فى نفسه اثرا ، اذ جاءت اليها بعد فترة قصيرة لتشرب القهوة سيدة كهلة لم تكن تعرفها الا قليلا ، وما ان جلست الى المائدة حتى تحدثت على الفور عن بوستوفالوف ، وانه رجل طيب ، رصين ، وان اية فتاة تقبله زوجا عن طيب خاطر . وبعد ثلاثة ايام زارها بوستوفالوف نفسه . لم يمكث كثيرا ، حوالى عشر دقائق ، وتحدث قليلا ، ولكن أولنكا أحبته ، احبته الى درجة انها لم تنم طول الليل وهى تحترق وكأنها مصابة بالحمى ، وفى الصباح أرسلت تستدعى السيدة الكهلة . وسرعان ما خطبت ، ثم عقد القران .

وعاش بوستوفالوف وأولنكا بعد الزفاف حياة طيبة . كان يبقى فى مخزن الخشب عادة حتى الغداء ، ثم يمضى لأعماله ، فتحل محله اولنكا وتبقى فى المكتب حتى المساء وتسجل الحسابات وتصرف البضاعة .

وتقول للمشترين والمعارف :

— اسعار الخشب ترتفع الآن عشرين فى المائة كل سنة . عفوكم ، كنا من قبل نتاجر فى الخشب المحلى ، أما الآن فان فاسيتشكا مضطر ان يسافر كل سنة الى محافظة موجيليوف لشراء الخشب . وأية رسوم ! — تقول مغطية برعب كلا خديها براحتيها — أية رسوم !

خيل اليها انها تتاجر فى الخشب منذ زمن بعيد ، وان أهم وألزم شيء فى الحياة هو الخشب ، وسمعت شيئا عزيزا ، مؤثرا فى هذه الكلمات : عرق ، أرومة ، لوح ، بطانة ، لطزان ، بندقى ، سقالة ، تربيعة . . . وفى الليل تتراءى لها فى المنام جبال من الالواح والعروق ، وقوافل طويلة بلا نهاية من العربات التى تنقل الخشب الى مكان بعيد خارج المدينة . ورأت فى الحلم فوجا كاملا من الجذوع بطول اثنى عشر ذراعا وقطر خمسة فيرشوكات * للجذع يسير منتصبا ويهاجم مخزن الخشب ، وتصطدم الجذوع والعروق والترابيع فيصدر عنها صوت أجوف للخشب الجاف ، وتتساقط كلها ثم تنهض ثانية وهى تتكدس فوق بعضها . وتصرخ أولنكا فى المنام فيقول لها بوستوفالوف برقة :

— أولنكا ، ماذا بك يا عزيزتى ؟ صلّبى .

وكانت لها نفس الأفكار التى كانت لزوجها . فاذا ما ظن ان الجو فى الغرفة حار او ان التجارة اصبحت الآن راكدة فانها تظن كذلك . ولم يكن زوجها يحب أية تسليات ، وفى العيد يبقى فى البيت ، وهى ايضا .

ويقول معارفها :

— انت دائما فى البيت او فى المكتب . هلا ذهبت الى المسرح او الى السيرك يا حبوبة .

فترد برزانة :

---

* الفيرشوك — مقياس روسى قديم يعادل ٣/٤ ١ بوصة . **المعرب** .

— ليس لدينا أنا وفاسيتشكا وقت للذهاب الى المسارح . نحن أناس عمل ، مشغولون عن هذه التوافه . اىّ خير فى هذه المسارح ؟

فى ايام السبت كانا ، بوستوفالوف وهى ، يذهبان الى صلاة المساء ، وفى ايام الاعياد الى القداس المبكر ، ويعودان من الصلاة متجاورين ، بوجهين متأثرين ، وتفوح من كليهما رائحة زكية ، ويهفهف فستانها الحريرى بصوت لطيف . وفى البيت يشربان الشاى مع الخبز الدسم ومختلف انواع المربى ، ثم يتناولان الكعكة . وكل يوم فى الظهر تفوح فى الفناء وخلف البوابة فى الشارع روائح شهية من حساء الكرنب ولحم الضأن او البط المحمر ، والسمك فى ايام الصيام ، فلا يمكن ان يمر أحد بجوار البوابة الا وتتفتح شهيته للأكل . وفى المكتب كان السماور يغلى دائما ، وكانا يضيفان الزبائن شايا بالسميط الطازج . ويتردد الزوجان على الحمّام مرة فى الاسبوع ، ويعودان من هناك متجاورين ، كلاهما أحمر الوجه .

وكانت أولنكا تقول لمعارفها :

— لا بأس ، نعيش جيدا ، الحمد لله . فليهب الله الآخرين عيشة كعيشتنا أنا وفاسيتشكا .

وعندما كان بوستوفالوف يرحل الى محافظة موجيليوف لشراء الاخشاب تشعر بوحشة شديدة ولا تنام الليل ، وتبكى . واحيانا كان يزورها فى المساء طبيب الفوج البيطرى سميرنين ، الشاب ، القاطن لديها فى الجناح . كان يروى لها شيئا ما او يلعب معها الورق ، فكان ذلك يسرّى عنها . وكانت أطرف الروايات هى تلك التى يتحدث فيها عن حياته العائلية .

كان متزوجا وله ابن ، ولكنه انفصل عن زوجته لانها خانته ، واصبح الآن يمقتها ويرسل لها كل شهر اربعين روبلا للانفاق على ابنه . وكانت اولنكا اذ تسمع ذلك تتنهد وتهز رأسها ، وتشعر بالرثاء له .

— طيب ، ليحرسك الله — كانت تقول له وهى تودعه وتمضى معه بالشمعة حتى الدرج — شكرا على مشاركتك لى وحشتى ، فلتهبك العذراء الصحة . . .

كانت تتحدث برزانة ، بحكمة ، مقلدة زوجها . وعندما يغيب البيطرى وراء الباب فى الأسفل تناديه قائلة :

— أتدرى يا فلاديمير بلاتونيتش ، هلا تصالحت مع زوجتك . هلا سامحتها ولو من أجل ابنك ! . . لا بد ان الصبـى يفهم كل شيء .

وعندما يعود بوستوفالوف تحدثه بصوت خافت عن البيطرى وحياته العائلية التعيسة ، فيتنهدان كلاهما ويهزان رأسيهما ويتحدثان عن الصبـى الذى لا شك يشتاق الى ابيه ، ثم وفقا لتسلسل غريب فى الافكار يقفان كلاهما أمام الايقونة ويركعان بشدة ويدعوان الله أن يرزقهما اطفالا .

وهكذا عاش آل بوستوفالوف فى هدوء وسكينة وحب ووفاق تام ست سنوات . ولكن حدث ذات شتاء ان خرج فاسيلى اندرييتش من المخزن ليصرف خشبا ، بعد ان شرب شايا ساخنا ، فأصيب بنزلة برد ومرض . وعالجه افضل الاطباء ، لكن المرض تغلب عليه فمات بعد اربعة اشهر . ومرة أخرى اصبحت اولنكا أرملة .

— لمن تركتنى يا عزيزى الغالى ؟ — انتحبت بعد ان دفنت زوجها — كيف سأعيش الآن بدونك ، أنا البائسـة

المسكينة ؟ أيها الطيبون فلترقوا لحالى ، انا اليتيمة المقطوعة . . .

أصبحت ترتدى فستانا اسود بأشرطة الحداد ، وتخلت تماما عن القبعة والقفاز ، وكانت لا تخرج من بيتها الا نادرا وفقط الى الكنيسة او الى قبر زوجها ، وعاشت فى بيتها كراهبة . وفقط بعد مرور ستة اشهر نزعت اشرطة الحداد واصبحت تفتح شيش النوافذ . واحيانا كانوا يرونها صباحا وهى فى طريقها الى السوق لشراء المؤونة وبصحبتها طاهيتها ، ولكن لم يعد أحد يعرف كيف تعيش الآن وما الذى يجرى فى بيتها الا تخمينا . كانوا يخمنون ذلك مثلا من رؤيتهم لها جالسة فى حديقتها الصغيرة تشرب الشاى مع البيطرى بينما يقرأ لها الجريدة ، ومن قولها لاحدى معارفها عندما التقت بها فى مكتب البريد :

— ليس لدينا فى المدينة رقابة بيطرية سليمة ، ولهذا فالامراض كثيرة . كثيرا ما نسمع ان الناس يمرضون من اللبن ويصابون بالعدوى من الخيول والابقار . فى الحقيقة ينبغى ان نهتم بصحة الحيوانات الداجنة مثلما نهتم بصحة الناس .

كانت تردد افكار البيطرى ، وأصبح رأيها فى كل شيء الآن مثل رأيه . كان واضحا أنها لا تستطيع ان تعيش ولو سنة واحدة دون ارتباط ، وقد وجدت سعادتها الجديدة فى جناح بيتها . ولو كانت امرأة غيرها لأدانوها ، ولكن لم يكن بوسع أحد ان يفكر بسوء فى أولنكا ، وكان كل شيء فى حياتها مفهوما تماما . ولم تذكر لا هى ولا البيطرى لأحد شيئا عن التغير الذى طرأ على علاقتهما ، وحاولا اخفاءه ولكنهما اخفقا فى ذلك . . فليس من الممكن ان تكون

لدى اولنكا اسرار . وعندما كان يزوره ضيوف ، من زملائه في الفوج كانت اولنكا ، وهي تصب لهم الشاي او تقدم العشاء ، تشرع في الحديث عن طاعون البقر وعن مرض اللؤلؤ ، وعن مجازر المدينة ، فكان يشعر بالحرج الشديد ، وبعد انصراف الضيوف يقبض على ذراعها ويفح بغضب :

— ألم اطلب منك الا تتحدثي فيما لا تفهمينه ! أرجوك ألا تتدخلي عندما نتحدث نحن البيطريين فيما بيننا . هذا في النهاية شيء ممل !

أما هي فكانت تنظر اليه بذهول وقلق وتسأله :

— فعّم اذن أتحدث يا فولودتشكا ؟

وتعانقه وعيناها مغرورقتان ، وتتوسل اليه الا يغضب ، ويظل كلاهما سعيدين .

الا ان هذه السعادة لم تدم طويلا . فقد رحل البيطري مع فوجه ، رحل نهائيا ، اذ نقل الفوج الى مكان بعيد جدا ، ربما الى سيبيريا . وأصبحت اولنكا وحيدة .

كانت الآن وحيدة تماما . فقد توفي والدها منذ زمن بعيد ، واصبح مقعده مطوحا في المخزن العلوي يكسوه الغبار وقد فقدت احدى سيقانه . وهزلت اولنكا وقبحت ، ولم يعد من يقابلها في الطريق ينظر اليها كما في السابق او يبتسم لها . يبدو ان افضل سنوات العمر قد ولت واصبحت خلف ظهرها ، وبدأت الآن حياة جديدة ، مجهولة ، يحسن الا تفكر فيها . كانت اولنكا تجلس في اوقات المساء على الدرج ، ويتناهى الى سمعها عزف الموسيقى وانفجار الصواريخ النارية في «التيفولي» ، بيد ان ذلك لم يعد يثير لديها أية افكار . وكانت تنظر بلا اكتراث الى فنائها الخاوي

دون ان تفكر او ترغب في شيء ، وعندما يأتي الليل تذهب الى فراشها وترى في المنام فناءها الخاوى . وكانت تأكل وتشرب كأنما قسرا .

أما المهم ، واسوأ ما في الأمر ، أنه لم تعد لديها أية آراء . كانت ترى من حولها الاشياء ، وتدرك كل ما يجرى حولها ، لكنها لم تكن قادرة على تكوين رأى في اى شيء ولا تعرف عم تتحدث وما أفظع ان تكون بلا أى رأى ! ترى مثلا زجاجة أمامك ، او المطر يسقط ، او فلاحا راكبا عربة ، ولكن لأى غرض هذه الزجاجة ، او المطر ، او الفلاح ، وما مغزى ذلك ، هذا ما لا تستطيع ان تقوله ، ولن تستطيع ولو دفعوا لك ألف روبل . عندما كانت اولنكا مع كوكين وبوستوفالوف ، ثم بعد ذلك مع البيطرى ، كان بوسعها أن تشرح كل شيء وتدلى برأيها في اى شأن مهما كان ، اما الآن فكان في افكارها وقلبها نفس الخواء الذى في الفناء . وكان ذلك فظيعا ومريرا كأنما أكلت حنظلا حتى الشبع .

اتسعت المدينة شيئا فشيئا في جميع الاتجاهات . وأصبحت محلة الغجر تسمى الآن شارعا ، وفي المكان الذى كانت تقوم فيه حديقة ملاهي «التيفولي» ومخـــازن الاخشاب ، قامت المنازل وظهرت عدة حارات . ما أسرع مرور الزمن ! ازداد منزل اولنكا قتامة ، وصدئ سطحه ، ومالت الحظيرة وغطى الحسك والأرقطيون الشائك أرض الفناء . أما اولنكا نفسها فهرمت وقبحت . وفي الصيف تجلس على الدرج وتشعر في نفسها كما في السابق بالخواء ، والضجر ومرارة الحنظل ، وفي الشتاء تجلس الى النافذة وتنظر الى

الثلج . وما أن تهب انفاس الربيع ، او تحمل الريح رنين اجراس الكنائس حتى تنهال عليها فجأة ذكريات الماضى ، وينقبض قلبها بلذة ، وتنهمر من عينيها الدموع الغزيرة ، ولكن ذلك لا يستمر غير دقيقة ومن بعدها الخواء ، ولا تعود تدرى لماذا تعيش . وتتودد اليها قطتها السوداء «بريسكا» وتهر بصوت ناعم ، ولكن ملاطفة القطة هذه لا تحرك فى نفس اولنكا شيئا . فهل هذا هو ما تبغيه ؟ انها بحاجة الى حب يملك كل كيانها ، كل روحها وعقلها ، حب يهبها الافكار واتجاه الحياة ، ويدفئُ دمها الهرم . فتنفض «بريسكا» السوداء عن حجرها وتقول لها بأسى :

— امشى ، امشى . . . ابتعدى عنى !

وهكذا يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ، دون فرحة واحدة ، دون اى رأى . وما تقوله الطاهية مافرا فهو حسن .

وذات يوم حار من شهر يوليو ، قبيل المساء ، عندما ساقوا قطيع ماشية المدينة فى الشارع فامتلأ الفناء بالغبار ، طرق احدهم البوابة فجأة . وذهبت اولنكا لتفتح بنفسها ، وما أن نظرت حتى ذهلت : فخلف البوابة وقف البيطرى سميرنين ، وقد أصبح أشيب ، وفى بدلة مدنية . تذكرت فجأة كل شيء ، فلم تتمالك نفسها واجهشت بالبكاء ووضعت رأسها على صدره دون أن تقول كلمة واحدة ، ولم تلاحظ فى قمة انفعالها كيف دخلا البيت معا ، وكيف جلسا ليشربا الشاى .

وراحت تدمدم وهى ترتعش من الفرحة :

— يا عزيزى الغالى ! يا فلاديمير بلاتونيتش ! من أين بعثك الله ؟

— اريد أن استقر هنا بصفة دائمة — مضى يحدثها — قدمت استقالتى وجئت اجرب حظى فى حياة الحرية ، لكى اعيش حياة استقرار . كما ان الوقت حان لادخال ابنى المدرسة . لقد كبر . اتدرين ، لقد تصالحت مع زوجتى .

فسألته اولنكا :

— وأين هى ؟

— انها مع ابنى فى الفندق ، وها أنذا أبحث عن شقة .

— يا الهى ، ماذا تقول ، خذوا بيتى ! ألا يصلح لكم كشقة ؟ يا الهى ، لن آخذ منكم شيئا — وهاجت مشاعر اولنكا فبكت من جديد — اية فرحة ، يا الهى !

فى اليوم التالى كانوا يطلون سطح البيت ويبيضون الجدران ، بينما كانت اولنكا تروح وتجىء فى الفناء ، ويدها فى خصرها ، وتصدر التعليمات . وتهلل وجهها بابتسامته السابقة ، أما هى فدبت فيها الحياة وانتعشت ، وكأنما استيقظت من نوم طويل . وجاءت زوجة البيطرى ، سيدة نحيفة قبيحة ، بشعر قصير وتعبير نزق ، ومعها الصبى ساشا ، وكان يبدو أصغر من سنه (كان فى عامه العاشر) ، ممتلئا ، بعينين زرقاوين صافيتين وغمازتين فى خديه . وما أن دخل الفناء حتى ركض وراء القطة ، وعلى الفور ترددت ضحكاته المرحة الفرحة .

وسأل اولنكا :

— يا عمة ، هل هذه قطتك ؟ عندما تلد اهدينا من فضلك قطا . ماما تخاف جدا من الفئران .

وتحدثت اولنكا معه ، وسقته شايا ، وأصبح قلبها دافئا فجأة وانقبض بلذة ، وكأنما كان هذا الصبى ابنها الحبيب . وعندما جلس مساء في غرفة الطعام يراجع دروسه ، نظرت اليه بتأثر وهمست باشفاق :

— يا عزيزى الغالى ، ما أجملك . . . يا سلام يا ولدى ، كيف خلقك المولى بهذا الذكاء وهذا البياض .

وقرأ الصبى :

— الجزيرة هى ذلك الجزء من اليابسة الذى تحيطه المياه من جميع الجهات .

— الجزيرة هى ذلك الجزء من اليابسة . . . — رددت هى ، وكان ذلك اول رأى تدلى به بثقة بعد هذه السنوات الطويلة من الصمت وخواء الافكار .

وأصبحت لها آراؤها ، وكانت تتحدث اثناء العشاء مع والدى ساشا عن مدى صعوبة الدراسة الآن فى المدارس الثانوية بالنسبة للاطفال ، وعن ان التعليم الكلاسيكى افضل من التعليم العملى ، لأن الطريق من المدرسة الكلاسيكية مفتوح الى كل مكان : فاذا شئت فلتصبح طبيبا واذا شئت فلتصبح مهندسا .

وبدأ ساشا يتردد على المدرسة . وسافرت أمه الى اختها فى مدينة خاركوف ولم تعد بعد ، وكان أبوه يرحل كل يوم الى جهة ما ليتفقد القطعان ، فيتغيب عن البيت احيانا ثلاثة ايام ، فخيل لأولنكا ان ساشا أصبح مهجورا تماما ، لا حاجة لأحد به ، وأنه يهلك جوعا . فأخذته اليها فى الجناح وانزلته هناك فى غرفة صغيرة .

وها قد مر نصف عام منذ أن استقر ساشا عندها فى

الجناح . وكل صباح تدخل اولنكا غرفته فتجده يغط في نوم عميق ، وقد وضع يده تحت خده . وتشعر بالاشفاق من ايقاظه .

وتقول بحزن :

— ساشنكا ، انهض يا عزيزي ! حان موعد المدرسة .

فينهض ، ويرتدي ملابسه ، ويصلي ، ثم يجلس لتناول الشاي . ويشرب ثلاثة اكواب ويأكل سميطتين كبيرتين ونصف رغيف افرنجي بالزبد . ومزاجه معتل لأنه لم يستيقظ بعد تماما .

— انك يا ساشنكا لم تحفظ الخرافة جيدا — تقول اولنكا وهي تنظر اليه كأنما تودعه في سفر طويل — كم أنا قلقة عليك . اجتهد يا عزيزي في المدرسة . . . اطع المدرسين .

فيقول ساشا :

— أوه ، كفي ارجوك !

وبعد ذلك يسير في الشارع قاصدا المدرسة ، صغيرا ولكن في عمرة كبيرة ، والحقيبة المدرسية على ظهره . ومن خلفه تسير أولنكا بخطوات خفيفة .

وتناديه :

— يا ساشنكا !

فيلتفت ، فتدس في يده بلحة او حبة كراملة . وعندما ينعطفان الى الحارة التي تقع فيها المدرسة ، يشعر بالخجل من ان امرأة طويلة عريضة تسير خلفه . فيلتفت ويقول لها :

— عودي يا عمة الى البيت ، وسأصل الآن بنفسي .

فتتوقف وتنظر في اثره دون ان تطرف الى أن يختفي خلف باب المدرسة . أوه ، كم تحبه ! لم تكن أيّ

من عواطفها السابقة بمثل هذا العمق ، ولم تذعن روحها من قبل ابدا بمثل هذا التفانى والتجرد والبهجة كما اذعنت الآن عندما تأججت فيها اكثر فأكثر مشاعر الامومة . فمن اجل هذا الصبى الغريب عنها ، من اجل غمازتى خديه ، من اجل عمرته ، كانت على استعداد لأن تقدم كل حياتها ، تقدمها فى سرور ودموع التأثر فى عينيها . لماذا ؟ ومن ذا يعلم لماذا ؟

وبعد ان توصل ساشا الى المدرسة تعود الى البيت فى هدوء وهى راضية ، قريرة ، فياضة الحب . ويبتسم وجهها الذى عاد اليه الشباب فى نصف السنة الأخير ويشع . ويشعر المارة وهم ينظرون اليها بالرضى ويقولون لها :

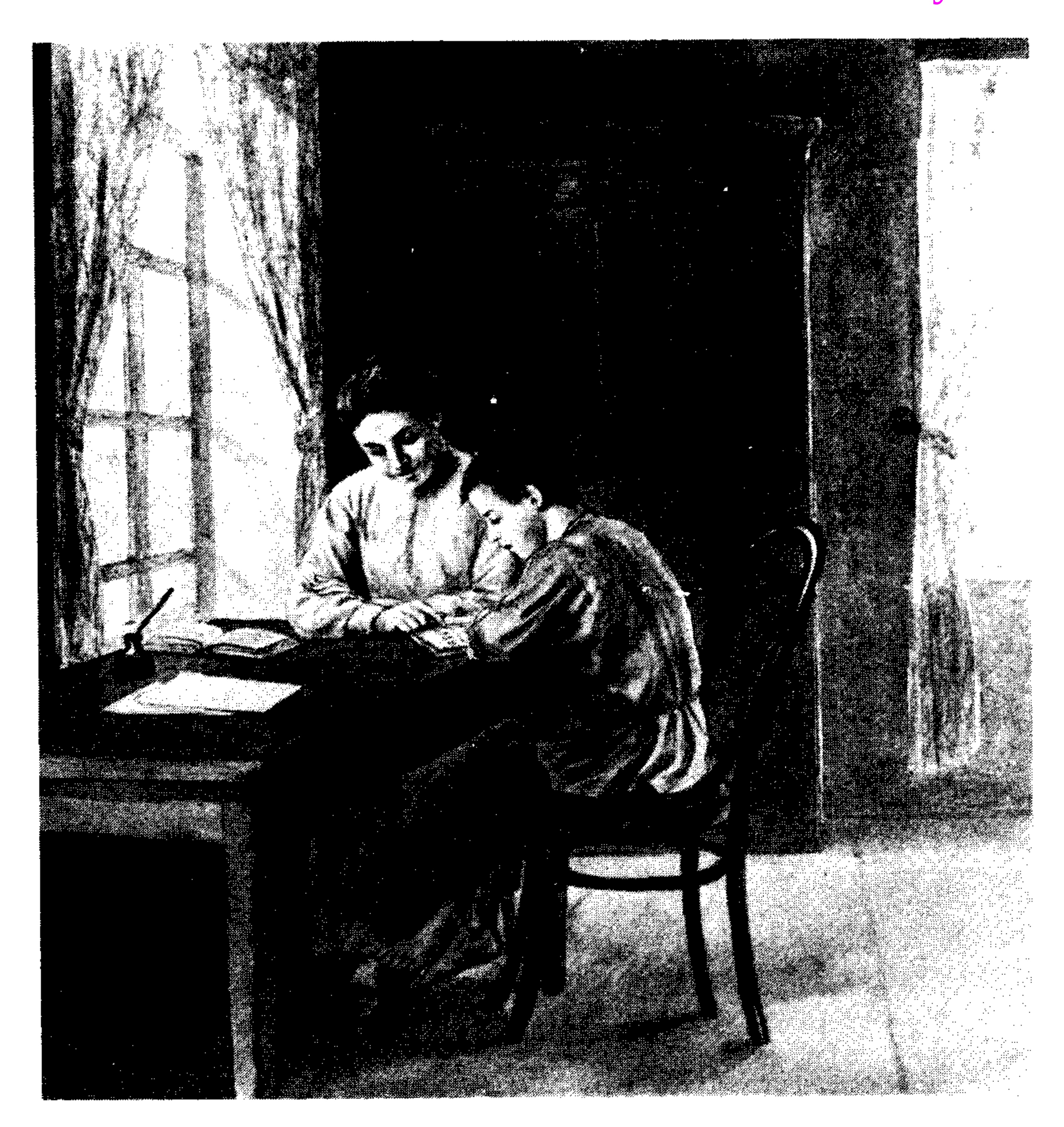
— مرحبا أولجا سيميونفنا الحبوبة ! كيف حالك يا حبوبة ؟

وتقول وهى فى السوق :

— اصبحت الدراسة فى المدارس صعبة الآن . بالأمس مثلا اعطوا للتلاميذ فى الصف الاول واجبا : ان يحفظوا خرافة ، ويترجموا من اللاتينية ، ويحلوا مسألة . . . فهل يقوى الطفل على ذلك ؟ . .

وتشرع فى الحديث عن المدرسين ، وعن الدروس ، وعن الكتب المدرسية ، فتردد ما يقوله ساشا عن ذلك .

وفى الساعة الثالثة يتناولان الغداء ، وفى المساء يحضران الدروس معا ويبكيان . وعندما تضعه فى السرير ترسم طويلا علامة الصليب وتهمس بالصلوات ، ثم تأوى الى النوم فتحلم بالمستقبل ، المستقبل البعيد الغامض ، عندما يتخرج ساشا فيصبح طبيبا او مهندسا ، ويقتنى منزلا كبيرا وخيولا وعربة ،



ويتزوج ويولد له اولاد . . . وتنعس وهى تفكر فى ذلك ، وتسيل الدموع على خديها من عينيها المغمضتين . وترقد القطة السوداء بجوارها وتهر :

— هر—ر . . . هر—ر . . . هر—ر . . .

وفجأة يدوى طرق شديد على باب الفناء . وتستيقظ اولنكا محتبسة الأنفاس من الخوف . ويدق قلبها بعنف . ويمر نصف دقيقة ويتردد الطرق ثانية .

«انها برقية من خاركوف — تفكر ويبدأ بدنها كله يرتجف — أم ساشا تستدعيه اليها فى خاركوف . . . يا الهى !»

ويتملكها اليأس . وتتثلج رأسها وساقاها ويداها ، ويبدو لها انه لا يوجد من هو اتعس منها فى الدنيا كلها . ولكن ها هى دقيقة اخرى تمر ، وتسمع اصواتا : انه البيطرى قد عاد من النادى .

فتقول لنفسها : «الحمد لله» .

وشيئا فشيئا يخف الثقل عن قلبها ، وتشعر مرة اخرى بالراحة . وترقد وتفكر فى ساشا الذى يغط فى نوم عميق فى الغرفة المجاورة ، ويردد احيانا فى نومه :

— مهلا سأريك ! امش من هنا ! لا تتشاجر !

السيدة صاحبة الكلب

١

قيل ان وجها جديدا ظهر على الكورنيش ، سيدة تصحب كلبا . وراح دميترى دميتريتش جوروف الذى وصل الى يالطا منذ اسبوعين وألف المكان ، يهتم بالوجوه الجديدة هو الآخر . ورأى وهو جالس فى جناح «فيرنيه» كيف مرت على الكورنيش سيدة شابة ، شقراء ، متوسطة القامة ، تضع على رأسها «بيريه» . ووراءها ركض كلب ابيض صغير .

ثم قابلها بعد ذلك فى حديقة المدينة وفى المتنزه عدة مرات فى اليوم . كانت تتنزه وحدها ، فى نفس البيريه وبصحبة الكلب الابيض . ولم يعرف احد من هى ، فسموها ببساطة : السيدة صاحبة الكلب .

وفكر جوروف : «اذا كانت هنا بدون زوجها وبدون معارف ، فلا بأس من التعرف بها» .

لم يكن قد بلغ الاربعين بعد ، ولكنه كان ابا لبنت فى الثانية عشرة وولدين فى المدرسة . لقد زوجوه مبكرا ، وهو بعد طالب فى الصف الثانى ، وبدت زوجته الآن اكبر منه سنا بمرة ونصف . كانت امرأة طويلة ، بحاجبين داكنين ، صريحة ، متكبرة ، رزينة ، وكما كانت تسمى

نفسها : مفكرة . وكانت تقرأ كثيرا ، ولا تكتب فى رسائلها حرف « Ъ » * — وتدعو زوجها لا دميترى بل ديميترى ، بينما كان يعدها فى سره امرأة غير ذكية محدودة الافق ، غير لبقة وكان يخشاها ولا يحب البقاء فى البيت . وقد بدأ يخونها منذ زمن بعيد ، وكان يخونها كثيرا ، وربما لذلك كان رأيه فى النساء سيئا دائما . وعندما يدور الحديث عنهن فى حضوره كان يسميهن هكذا :

— جنس منحط !

كان يظن ان تجربته المرة قد علمته بما يكفى لكى يسميهن كما يشاء ، ومع ذلك فبدون «الجنس المنحط» لم يكن ليستطيع ان يعيش يومين اثنين . كان يشعر بين الرجال بالملل والضيق ، وكان معهم قليل الكلام ، باردا ، ولكنه عندما يصبح وسط النساء يحس بالحرية ويعرف عم يتحدث معهن وكيف يتصرف ، وحتى الصمت كان سهلا عليه . كان فى مظهره وخلقه ، وفى طبيعته كلها شىء ما جذاب خفى ، يستميل اليه النساء ويستهويهن . وكان يعرف ذلك ، وهو ايضا ، كانت قوة ما تشده اليهن .

وقد علمته التجارب العديدة ، والمريرة حقا ، منذ زمن بعيد ، ان كل تقارب ، اذ يجعل الحياة فى البداية اكثر تنوعا وبهجة ويمثل مغامرة لطيفة خفيفة ، لا بد ان يتحول لدى الاشخاص القويمى السلوك وخاصة اهالى موسكو ،

---

* كان هذا الحرف يكتب سابقا فى آخر الكلمات الروسية المنتهية بحرف ساكن . **المعرب** .



البطيئى الحركة ، المترددين ، الى مسألة كبيرة معقدة للغاية ، ويصبح الوضع فى النهاية مرهقا . ومع ذلك فلدى كل لقاء جديد بامرأة جذابة كانت هذه التجارب تغيب بصورة ما عن ذاكرته ، وتراوده الرغبة فى الحياة ويبدو كل شىء بسيطا ومسليا .

وذات مرة ، قبيل المساء ، كان يتغدى فى الحديقة ، واقتربت السيدة ذات البيريه على مهل لكى تشغل الطاولة المجاورة . وانبأه تعبير وجهها ، ومشيتها ، وفستـــانها ، وتسريحتها ، انها من وسط محترم ، متزوجة . وفى يالطا لاول مرة وبمفردها وانها تشعر بالملل هنا . . . كان فى الاقاصيص التى تروى عن فساد الاخلاق المحلية الكثير من الكذب ، وكان يحتقرها ويعلم ان مثل هذه القصص ، فى اغلبها ، يؤلفها اشخاص لو كان بمقدورهم لارتكبوا الآثام عن طيب خاطر . ولكن عندما جلست السيدة الى الطاولة المجاورة ، على بعد ثلاث خطوات منه ، تذكر تلك القصص عن الانتصارات السهلة والرحلات الى الجبال ، وسيطرت عليه فجأة فكرة مغرية عن علاقة قريبة عابرة ، عن قصة غرام مع امرأة مجهولة لا يعرف اسمها .

ودعا الكلب اليه بلطف ، وعندما اقترب منه رفع اصبعه مهددا ، فنبح الكلب مغضبا . وهدده جورروف ثانية .

ونظرت اليه السيدة وخفضت بصرها على الفور .

وقالت :

— انه لا يعض .

وتضرجت وجنتاها .

— هل يمكن ان اعطيه عظمة ؟ — وعندما هزت

رأسها موافقة سألها ببشاشة — هل وصلت الى يالطا منذ مدة طويلة ؟

— منذ خمسة ايام .

— اما انا فأجرجر الاسبوع الثانى هنا .

وصمتا قليلا . ثم قالت دون ان تنظر اليه :

— الوقت يمضى بسرعة ، ومع ذلك فما اشد الملل هنا !

— انها مجرد عادة ان يقال ان المكان هنا ممل . ولكن الواحد من هؤلاء يعيش فى بيته ، فى مكان ما فى بليوف او جيزدر ، دون ان يشعر بالملل ، وما ان يأتى الى هنا حتى يقول : «آه ، يا للملل ! يا للتراب !» حتى لتظن انه جاء من غرناطة .

وضحكت . ثم واصلا الاكل فى صمت كشخصين لا يعرفان بعضهما ، ولكن بعد الغداء سارا متجاورين ، وبدأ بينهما حديث مازح خفيف ، حديث اناس احرار ، راضين ، سيان لديهم الى اين يمضون وعم يتحدثون . ومضيا يتنزهان ويتحدثان عن غرابة اضاءة البحر ، فقد كان لون المياه بنفسجيا ، ناعما ودافئا ، وامتد عبرها من القمر شريط ذهبى . وتحدثا عن الجو الخانق بعد يوم حار . واخبرها جوروف انه من موسكو ، وانه خريج كلية الآداب ولكنه يعمل فى بنك ، وكان فى وقت ما يستعد للغناء فى اوبرا خاصة ، ولكنه ترك ذلك ، ويملك فى موسكو منزلين . . . وعرف منها انها نشأت فى بطرسبورج ولكنها تزوجت فى مدينة (س) ، حيث تعيش منذ عامين ، وانها ستقضى فى يالطا حوالى شهر ، وربما يأتى فى اثرها زوجها الذى يريد ايضا ان يستريح . ولم تستطع ابدا ان توضح

اين يعمل زوجها : فى ادارة المحافظة ام فى ادارة الاقليم وضحكت وهى نفسها من ذلك . وعرف جورروف ايضا ان اسمها آنا سرجييفنا .

وبعد ذلك فكر فيها وهو فى غرفته بالفندق ، وفى انها ربما تقابله غدا . هكذا ينبغى ان يكون . وعندما أوى الى الفراش تذكر انها منذ فترة قريبة كانت طالبة ، كانت تدرس كما تدرس ابنته الآن ، وتذكر كم كان فى ضحكها وحديثها مع رجل غريب من تهيب وارتباك . لا بد انها المرة الاولى فى حياتها التى تبقى فيها وحدها وفى وضع كهذا ، عندما يغازلونها ، ويتطلعون اليها ويتحدثون معها بهدف خفى واحد ، لا يمكن الا ان تحدسه . وتذكر عنقها الرقيق الضعيف ، وعينيها الرماديتين الجميلتين .

وفكر جورروف وهو يستسلم للنوم : «هناك شىء ما فيها يثير الشفقة مع ذلك» .

٢

مر اسبوع منذ تعارفهما . وكان يوم عيد . كان الجو فى الغرف خانقا ، وفى الشوارع ثارت دوامات الغبار ، وطيرت الريح القبعات . واستبد بهما الظمأ طول النهار ، فكان جورروف يدخل الجناح كثيرا ويعرض على آنا سرجييفنا شراب عصير الفواكه تارة ، والآيس كريم تارة اخرى . ولم يكن ثمة مكان يُلجأ اليه .

وفى المساء ، عندما هدأ الجو قليلا ، ذهبا الى حاجز الامواج ليشاهدا مجىء السفينة . وكان فى الميناء كثير من

المتنزهين ، وقد جاءوا لمقابلة اشخاص ما ، وحملوا فى ايديهم الزهور . وهنا تبدت بوضوح خصيصتان تميزان جمهور يالطا المتأنق : فقد كانت النساء الكبيرات السن متزينات كالشابات ، وكان هناك جنرالات كثيرون .

وبسبب اضطراب البحر وصلت السفينة متأخرة ، بعد غروب الشمس ، ودارت مدة طويلة قبل ان ترسو على الحاجز. وتطلعت آنا سرجييفنا عبر العوينات الى السفينة والركاب وكأنها تبحث عن معارف ، وعندما كانت تخاطب جـــوروف تلمع عيناها . تكلمت كثيرا ، وكانت اسئلتها مقتضبة وكانت تنسى على الفور عم سألت . ثم فقدت عويناتها فى الزحام .

وتفرق الجمهور المتأنق ، ولم تعد الوجوه تبين ، وهدأت الريح تماما ، بينما ظل جوروف وآنا سرجييفنا واقفين وكأنما ينتظران ان يهبط احد آخر من السفينة . كانت آنا سرجييفنا الآن صامتة ، تشم الزهور دون ان تتطلع الى جوروف .

وقال جوروف :

— الجو فى المساء صار افضل . الى اين سنذهب الآن ؟ هلا رحلنا الى مكان ما ؟

ولم ترد بشيء .

عندئذ نظر اليها مليا واحتضنها فجأة ، وقبلها فى شفتيها ، فهبت عليه رائحة الزهور ورطوبتها ، وعلى الفور تلفت حوله بخوف : الم يرهما احد ؟

ودمدم بصوت خافت :

— فلنذهب اليك . . .

وانصرفا بسرعة .

كان الجو فى غرفتها خانقا ، وتضوعت فيه رائحة العطر الذى ابتاعته فى المتجر اليابانى . وفكر جوروف وهو ينظر اليها الآن : «ما اكثر ما يحدث فى الحياة من لقاءات !» . لقد بقيت لديه من الماضى ذكرى نساء خاليات البال ، طيبات ، مرحات من الحب ، ممتنات له على السعادة التى منحها اياهن وان تكن قصيرة . ونساء — مثل زوجته — احببن بلا صدق وبثرثرة كثيرة وحركات مفتعلة وهستيريا ، وبتعبير على الوجه ، كأنما لم يكن ذلك حبا او شهوة ، بل شيئا اهم بكثير . . وامرأتان او ثلاث ، بارعات الجمال ، باردات ، كان يطوف بوجوههن فجأة تعبير جشع ورغبة عنيدة فى ان يأخذن ، ويختطفن من الحياة اكثر مما تستطيع ان تعطى ، وكن نساء مضى شبابهن ، نزقات ، غير مفكرات ، متسلطات ، غير ذكيات ، وعندما كان جوروف يشعر بالبرود نحوهن كان جمالهن يثير فيه الكراهية ، وتبدو له الدانتلا على ملابسهن الداخلية اشبه بقشر السمك .

اما هنا فتلك الهيبة والارتباك لشباب غير محنك ، والشعور بالخجل ، وساد انطباع بالحرج كأنما طرق احدهم الباب فجأة ، ونظرت آنا سرجييفنا ، هذه «السيدة صاحبة الكلب» ، الى ما حدث نظرة خاصة ، وبجدية شديدة ، وكأنما كان فى ذلك سقوطها . هكذا خيل لجوروف ، فبدا له ذلك غريبا وغير مناسب . تهدلت قسماتها وذبلت ، وتدلت على صفحتى وجهها خصلات شعرها الطويل بصورة حزينة ، واستغرقت آنا سرجييفنا فى التفكير بكآبة ، فبدت فى ذلك الوضع كالخاطئة فى لوحة قديمة .

وقالت :

— هذا ليس حسنا . انك الآن اول من لا يحترمني .

وكان على المائدة في الغرفة بطيخة ، فشق جوروف قطعة وراح يأكلها على مهل . ومر ما لا يقل عن نصف ساعة وهما صامتان .

كانت آنا سرجييفنا مؤثرة ، وانبعثت منها طهارة المرأة القويمة ، الساذجة التي لم تخبر الحياة بعد . وكانت الشمعة الوحيدة المشتعلة على الطاولة لا تكاد تضيء وجهها ، بيد انه كان واضحا انها تعاني عذابا داخليا .

وسألها جوروف :

— ولماذا اكف عن احترامك ؟ انت لا تدرين ما تقولين .

فقالت وعيناها تمتلئان بالدموع :

— فليغفر لي الله . هذا فظيع .

— كأنما تبحثين عن تبرير .

— وكيف ابرر ذلك ؟ انني امرأة سيئة ، منحطة ، انني احتقر نفسي ولا افكر في المبررات . انا لم اخدع زوجي بل خدعت نفسي . وليس الآن فحسب ، بل منذ زمن بعيد وانا اخدعها . ربما كان زوجي رجلا شريفا ، طيبا ، ولكنه خادم . انا لا اعرف ماذا يفعل ولا كيف يخدم ، ولكن اعرف فقط انه خادم . كنت في العشرين من عمري عندما تزوجته ، وكان الفضول يؤرقني وكنت اتوق الى شيء ما افضل . كنت اقول لنفسي : هناك حياة اخرى حقا . كنت اريد ان اعيش واعيش واعيش . . . كان الفضـــول يلهبني . . . انك لا تدرك ذلك ، ولكني اقسم لك ، لم اعد استطيع السيطرة على نفسي ، كان هناك شيء ما يحدث

لى ، ولم يعد من الممكن لقوة ان تبقينى ، فقلت لزوجى اننى مريضة وسافرت الى هنا . . . وها انا ذا قـــد اصبحت امرأة مبتذلة ، ساقطة ، بوسع اى شخص ان يحتقرها .

كان جورروف قد ملّ السماع ، واحنقته هذه النبرة الساذجة ، وهذا الندم المفاجئ وغير المناسب . ولولا الدموع فى عينيها لظن انها تمزح او تؤدى دورا .

وقال بصوت خافت :

— انا لا افهم ، ماذا تريدين ؟

ودفنت وجهها فى صدره والتصقت به . وقالت :

— صدقنى ، صدقنى اتوسل اليك . . . اننى احب الحياة الشريفة ، الطاهرة ، اما الخطيئة فكريهة علىّ ، انا نفسى لا ادرى ما الذى افعله . البسطاء يقولون : الشيطان اضلّنا ، وبوسعى الآن ان اقول عن نفسى : لقد اضلّنى الشيطان .

فدمدم جورروف :

— كفى ، كفى . . .

وتطلع الى عينيها الجامدتين المفزوعتين ، وقبلها ، وراح يتحدث بصوت خافت وبرقة فهدأت شيئا فشيئا ، وعاد اليها المرح . واخذا كلاهما يضحكان .

وعندما خرجا الى الكورنيش فيما بعد ، لم يكن هناك احد ، وبدت المدينة بأشجار السرو ميتة تماما ، لكن البحر ظل يصخب ويضرب الشاطئ ، وتراقص على الامواج زورق وحيد وعليه مصباح يومض ناعسا .

ووجدا حوذيا ورحلا الى اوريادندا .

وقال جورروف :

— لقد عرفت اسم عائلتك عندما كنا فى المدخل ، كان مكتوبا على اللوحة : فون ديدريتس . هل زوجك المانى ؟

— كلا ، جده كان المانيا على ما اظن ، اما هو فروسى ارثوذوكسى .

وفى اورياندا جلسا على اريكة ، غير بعيد عن الكنيسة ، وتطلعا الى البحر فى الاسفل وهما صامتان . كانت يالطا تلوح بالكاد من خلال ضباب الصباح ، وعلى قمم الجبال استقرت السحب البيضاء بلا حراك . وسكنت اوراق الشجر وازت زيزان الحصاد ، اما صخب البحر الرتيب المكتوم المتناهى من اسفل فكان يتحدث عن السكينة والكرى الخالد الذى ينتظرنا . هكذا كان البحر يصخب فى الاسفل عندما لم تكن هناك يالطا واورياندا ، وهكذا يصخب الآن ، وسوف يصخب فى المستقبل بنفس اللامبالاة والصوت المكتوم عندما لا نعود على قيد الحياة . وفى هذه الاستمرارية ، فى هذه اللامبالاة التامة حيال حياة كل منا وموته ، ربما يكمن ضمان خلاصنا الابدى ، ضمان حركة الحياة المستمرة على الارض ، والرقى المستمر . وفكر جورروف وهو جالس بجوار امرأة شابة ، بدت فى الفجر على هذه الصورة من الجمال ، مستكن النفس ، مفتونا بهذا الجو الاسطورى : البحر والجبال والسحاب والسماء الرحبة . . . فكر فى ان كل شىء رائع فى هذا العالم حقا لو امعنا التفكير ، كل شىء ما عدا ما نفكر فيه ونفعله عندما ننسى اسمى اغراض الوجود ، وكرامتنا الانسانية .

ومر بجوارهما شخص ما ، يبدو انه حارس ، وتطلع

اليهما ثم انصرف . وهذه الحركة بدت ايضا غامضة وجميلة . ولاحت السفينة القادمة من فيودوسيا مطفأة الانوار وقد اضاءها نور الفجر .

وقالت آنا سرجييفنا بعد صمت :

— الندى على العشب .

— نعم ، فلنعد .

وعادا الى المدينة .

وبعد ذلك كانا يلتقيان كل ظهر على الكورنيش ، ويفطران معا ، ويتغديان ويتنزهان ويعجبان بالبحر . واشتكت له من انها تنام نوما سيئا ، وان قلبها يدق بقلق ، وكانت توجه اليه نفس الاسئلة وهى مضطربة من الغيرة تارة ، وتارة اخرى من خشية انه لا يحترمها بما فيه الكفاية . وكثيرا ما كان يحدث وهما فى المتنزه او الحديقة ، وعندما لا يكون بقربهما احد ، ان يجذبها اليه فجأة ويقبلها بشهوة . وهذا الفراغ المطلق ، وهذه القبلات فى وضح النهار مع التلفت والخوف من ان يكون احد قد رآه ، والحر ، ورائحة البحر والحركة الدائبة امام عينيه لاناس غير مشغولين ، متأنقين ، شباع ، كأنما اعادت خلقه من جديد ، فكان يقول لآنا سرجييفنا كم هى جميلة ، وكم هى مغرية ، وكان متلهفا عليها ولم يفارقها خطوة واحدة ، بينما كانت هى تستغرق فى التفكير كثيرا ، وترجوه طوال الوقت ان يعترف بأنه لا يحترمها ولايحبها ابدا بل لا يرى فيها سوى امرأة مبتذلة . وكانا كل مساء تقريبا يرحلان فى وقت متأخر الى مكان خارج المدينة ، الى اورياندا او الشلال . وكانت نزهاتهما موفقة ، وفى كل مرة كانت الانطباعات دائما رائعة ، ومهيبة .

وانتظرا ان يصل زوجها ، ولكنها تلقت منه رسالة يخبرها فيها انه مريض بعينيه ، وتوسل اليها ان تعود بسرعة . وعجلت آنا سرجييفنا بالرحيل وهى تقول لجورووف :

— حسن اننى اسافر . هذه مشيئة الاقدار .

ورحلت فى عربة ورحل معها الى المحطة ليودعها . وقطعا النهار كله فى السفر . وعندما استقلت عربة القطار السريع ودق ناقوس المحطة للمرة الثانية قالت :

— دعنى اتطلع اليك ثانية . . . مرة اخرى . هكذا .

لم تبك ، ولكنها كانت حزينة ، وبدت كأنها مريضة ، وكان وجهها يرتعش .

وقالت :

— سأفكر فيك . . . واتذكرك . ابق فى رعاية الله . لا تذكرنى بسوء . اننا نفترق الى الابد . هذا ضرورى ، لأنه ما كان ينبغى ان نلتقى . حسنا ، يرعاك الله .

ورحل القطار بسرعة ، وسرعان ما غابت انواره ، وبعد دقيقة لم يعد ضجيجه مسموعا ، كأنما تآمر كل شىء عن عمد لانهاء هذه الغيبوبة العذبة ، وهذا الجنون بسرعة . وعندما اصبح جورووف وحده على الرصيف وهو يتطلع الى الافق المظلم ، راح يصغى الى صرير الجنادب وازيز اسلاك البرق باحساس من استيقظ لتوه . وفكر فى انه ها هى ذى مغامرة قد مرت فى حياته وانتهت ، ولم يبق منها سوى الذكرى . . . كان متأثرا وحزينا ، واحس بقليل من الندم . فهذه المرأة الشابة التى لن يراها ابدا لم تكن سعيدة معه . كان لطيفا وودودا معها ، ومع ذلك فقد كان فى معاملته لها وفى لهجته وملاطفاته ظل من السخرية الخفيفة ، وشىء

من الاستعلاء الفظ لرجل سعيد ، هو فوق ذلك اكبر منها مرتين . كانت تقول له طوال الوقت انه طيب وغير عادى ، وسام . لقد بدا لها ، فيما يظهر ، على غير حقيقته فى الواقع ، واذن فقد خدعها عن غير قصد . . .

وانتشرت فى المحطة رائحة الخريف ، وكان المساء باردا .

وفكر جوروف وهو يغادر الرصيف : «وانا ايضا آن لى ان ارحل الى الشمال . حان الوقت» .

٣

عندما عاد الى بيته فى موسكو كان كل شىء يسير كما فى الشتاء ، واوقدت الافران ، وفى الصباح ، عندما يتهيأ الاطفال للمدرسة ويتناولون الشاى يكون الجو مظلما فتشعل المربية الضوء بعض الوقت . وبدأت بوادر الصقيع . وعندما يهطل الثلج لاول مرة ، وفى اول ايام استخدام الزحافات ، تشعر بالسرور وانت ترى الارض البيضاء والاسقف البيضاء ، ويصبح الهواء انقى واروع ، وفى هذه الاوقات تتذكر سنوات الصبا . وتكتسب اشجار الزيزفون والبتولا العجوز ، البيضاء من الثلج ، تعبيرا بشوشا ، فهى اقرب الى القلب من السرو والنخيل ، ولا تراودك الرغبة بالقرب منها فى التفكير فى الجبال والبحر .

كان جوروف موسكوفيا ، وقد عاد الى موسكو فى يوم بارد صحو ، وعندما ارتدى معطف الفراء والقفاز الثقيل وتمشى فى شارع بتروفكا ، وعندما سمع مساء السبت رنين اجراس

الكنائس ، فقدت رحلته القريبة الى الاماكن التى كان فيها كل سحرها بالنسبة له . وغاص شيئا فشيئا فى حياة موسكو ، واصبح يقرأ بنهم ثلاث صحف يوميا ويقول انه لا يقرأ صحف موسكو عن مبدأ . واجتذبته المطاعم والاندية ودعوات الغداء والحفلات اليوبيلية ، واصبح يشعر بالفخر لزيارة مشاهير المحامين والممثلين له ، ولأنه يلعب الورق مع بروفيسور فى نادى الاطباء . واصبح بوسعه ان يأكل طبقا كاملا من «السليانكا» المحمَّرة . . . .

وخيل اليه انه لن يمر شهر حتى يغلف الضباب آنا سرجييفنا فى ذاكرته ، ولن تخطر له الا نادرا بابتسامتها المؤثرة كما خطرت من قبل اخريات . ولكن مر اكثر من شهر ، واوغل الشتاء ، بيد ان كل شيء ظل واضحا فى ذاكرته وكأنما لم يفارق آنا سرجييفنا الا بالأمس . وهاجت الذكريات أقوى وأشد . فما ان تتناهى اليه فى مكتبه فى هدوء المساء اصوات اطفاله وهم يحضرون الدروس ، او يصغى الى اغنية عاطفية او الى عزف الاورغن فى مطعم ، او تعول الريح فى مدخنة المدفأة ، حتى ينبعث كل شيء حيا فى الذاكرة : ما كان عند حاجز الامواج ، والصباح الباكر المضبب فى الجبال ، والسفينة القادمة من فيودوسيا ، والقبلات . وكان يروح ويجيء طويلا فى الغرفة ، ويتذكر ويبتسم . ثم تحولت الذكريات الى احلام ، واختلط فى خياله ما حدث بما سوف يكون . لم تعد آنا سرجييفنا تخطر له ، بل كانت تتبعه فى كل مكان كالظل وتراقبه . وعندما يغمض عينيه يراها امامه حية ، وبدت له أجمل وأصبى وأرق مما كانت . وهو ايضا بدا لنفسه افضل مما

كان آنذاك فى يالطا . وكانت تتطلع اليه فى المساء من خزانة الكتب ومن المدفأة ، ومن ركن الغرفة ، وكان يسمع انفاسها وحفيف ثيابها الرقيق . وكان يتابع النساء فى الشارع بعينيه بحثا عمن تشبهها . . .

وأمضّته رغبة شديدة فى ان يفضى لأحد ما بذكرياته . بيد انه لم يكن من الممكن ان يتحدث عن حبه فى البيت ، اما خارج البيت فليس هناك من يتحدث اليه . فليس من المعقول ان يتحدث مع السكان او فى البنك . ثم عم يتحدث ؟ هل هو احبها آنذاك ؟ وهل كان هناك شىء ما جميل وشاعرى او ذو عبرة ، او حتى شيّق فى علاقته بآنا سرجييفنا ؟ واضطر ان يقول كلاما عاما عن الحب ، وعن النساء فلم يفطن احد الى الامر . زوجته فقط لعّبت حاجبيها الداكنين وقالت :

— انت يا ديميترى لا تليق فى دور الغندور .

وذات ليلة ، وكان خارجا من نادى الاطباء مع موظف شاركه اللعب ، لم يتمالك نفسه فقال :

— لو تدرى بأية امرأة ساحرة تعرفت فى يالطا !

وجلس الموظف فى الزحافة فمضت به ، لكنه التفت فجأة وصاح :

— يا دميترى دميتريفيتش !

— ماذا ؟

— لقد كنت على حق بالأمس ، فالسمك عفن !

اثارت هذه الكلمات ، العادية تماما ، حنق جوروف فجأة لسبب ما ، وبدت له مهينة ملوثة . يالالأخلاق الهمجية ، يالهذه السحنات ! وما هذه الليالى التى بلا معنى ، واية

ايام مملة باهتة ! اللعب المحموم بالورق ، والاكل حتى التخمة ، والسُكْر ، والاحاديث المكرورة عن نفس الشىء . الاعمال التى لا ضرورة لها والاحاديث المكرورة تستولى على افضل ساعات العمر ، وعلى افضل القوى ، ولا يبقى فى النهاية سوى حياة مبتورة ، مقصوصة الجناحين ، لا يبقى سوء هراء ، ولا تستطيع ان تهرب منه او تفر ، كأنما وضعت فى مستشفى المجانين او فى السجن !

لم ينم جوروف طوال الليل وهو ساخط ، ثم عانى طوال اليوم التالى من الصداع . وفى الليالى التالية نام نوما سيئا ، وكان يجلس فى الفراش ويفكر او يروح ويجىء من ركن لركن . وملّ الاطفال ، ومل البنك ولم يكن يرغب فى الذهاب الى اى مكان او الحديث عن اى شىء .

وفى اعياد ديسمبر استعد للسفر ، وقال لزوجته انه راحل الى بطرسبرج للتوسط لأحد الشبان ، وسافر الى (س) . لماذا ؟ هو نفسه لم يكن يعرف جيدا . لقد اراد ان يرى آنا سرجييفنا ويتحدث اليها ويدبر موعدا معها اذا امكن .

وصل الى (س) صباحا وحجز فى الفندق افضل غرفة ، وكانت ارضيتها مغطاة كلها بجوخ عسكرى رمادى ، وعلى الطاولة محبرة ، رمادية من الغبار ، تحمل فارسا على جواد ، وقد رفع يده بالقبعة بينما كان رأسه مبتورا . واعطاه الفراش المعلومات اللازمة : فون ديدريتس يسكن فى شارع ستارو- جونتشارنايا فى منزله الخاص ، غير بعيد عن الفندق ، وهو يحيا حياة طيبة ، فى بحبوحة ، ويملك خيوله الخاصة ويعرفه الجميع فى المدينة . ولفظ الفراش اسمه هكذا : ضريضيرتس .

ومضى جورروف على مهل الى شارع ستارو—جونتشارنايا وعثر على المنزل . وفي مواجهة المنزل مباشرة امتد سور رمادى طويل بمسامير .

وفكر جورروف وهو ينظر تاره الى النوافذ وتارة الى السور : «من هذا السور لا بد ان تهرب» .

وفكر : اليوم عطلة ، وزوجها على الارجح فى البيت . وعلى اى حال فليس من اللائق ان يدخل البيت ويحرجها . واذا ارسل لها رسالة فستقع في الغالب فى يد زوجها ، وعندئذ سيفسد كل شيء . افضل شيء الاعتماد على الصدفة . وراح يتمشى في الشارع بجوار السور وينتظر هذه الصدفة . ورأى شحاذا يدلف الى البوابة فتهاجمه الكلاب ، ثم سمع بعد ساعة عزفا على البيانو ، وتناهت اليه الانغام ضعيفة غير واضحة . لا بد انها آنا سرجييفنا التى تعزف . وفجأة فتح باب المدخل الرئيسى ، وخرجت منه امرأة عجوز ، وركض خلفها الكلب الابيض المعروف . واراد جورروف ان ينادى الكلب ، ولكن قلبه دق فجأة بعنف ، ولم يستطع من الاضطراب ان يتذكر اسم الكلب .

واخذ يتمشى وهو يزداد كراهية للسور الرمادى ، وبدأ يفكر بعصبية في ان آنا سرجييفنا قد نسيته وربما تمرح الآن مع رجل غيره ، فهذا شيء طبيعي بالنسبة لامرأة شابة ، مضطرة ان ترى من الصباح الى المساء هذا السور اللعين . وعاد الى غرفته فى الفندق ، وظل جالسا على الكنبة فترة طويلة وهو لا يدرى ماذا يفعل ، ثم تغدى ، ونام طويلا .

«ما اغبى كل هذا واسخفه — فكر بعد ان استيقظ وهو ينظر الى النوافذ المظلمة ، فقد كان المساء قد حل — ها

انا ذا قد شبعت نوما ، فلماذا ؟ وماذا افعل ليلا اذن ؟»

جلس على الفراش المغطى ببطانية رمادية رخيصة مثل بطانيات المستشفى ، وراح يبكت نفسه بأسى :

«تلك هى السيدة صاحبة الكلب . . . تلك هـــى المغامرة . . . فلتجلس الآن هنا» .

وقبل ذلك فى الصباح كان قد لفت نظره فى المحطة اعلان بأحرف كبيرة عن عرض اوبرا «فتاة الجيشا» لأول مرة . وتذكر ذلك الآن فتوجه الى المسرح .

وفكر : «من الجائز جدا انها تحضر العروض الاولى» .

كان المسرح مكتظا . وهنا ايضا ، مثلما فى جميع مسارح الاقاليم كان الضباب متجمعا اعلى النجفة ، وارتفع اللغط فى اعلى المسرح . وفى الصفوف الاولى ، قبيل بدء العرض ، وقف المتأنقون المحليون ، عاقدين ايديهم خلف ظهورهم . وفى مقصورة المحافظ جلست فى الصف الاول ابنته فى لفاع من الفرو ، اما المحافظ نفسه فكان مختبئا بتواضع خلف ستار باب المقصورة فلم تظهر سوى يديه . واهتزت ستارة المسرح وظل الاوركسترا يضبط آلاته طويلا . وكان جوروف يفتش بعينيه فى نهم طوال فترة دخول النظارة وشغلهم للمقاعد .

ودخلت آنا سرجييفنا . جلست فى الصف الثالث ، وعندما تطلع جوروف اليها خفق قلبه بعنف ، وأدرك بوضوح انه لم يعد لديه فى الدنيا كلها انسان أقرب وأعز وأهم منها . هذه المرأة الصغيرة ، الضائعة فى هذا الحشد الريفى ، والتى لا تتميز بشىء ، هذه المرأة ذات المنظار المبتذل فى يديها ، اصبحت الآن تشغل حياته كلها ، اصبحت

حزنه وفرحته والسعادة الوحيدة التى يرجوها الآن لنفسه . وعلى انغام الاوركسترا السيـــئ وآلات الكمان السوقية راح جوروف يفكر كم هى جميلة . كان يفكر ويحلم .

ودخل مع آنا سرجييفنا وجلس الى جوارها رجل شاب بسالفين صغيرين ، طويل جدا ، محنى القامة . وكان رأسه يهتز مع كل خطوة ، فبدا وكأنه ينحنى محييا باستمرار . يبدو انه زوجها الذى قالت عنه فى يالطا فى سورة احساس مرير ، انه خادم . وبالفعل فقد كان فى قامته الطويلة ، وفى سالفيه ، وفى الصلعة الصغيرة شيء من تواضع الخدم ، وكان يبتسم ابتسامة عسلية ، ولمعت فى عروة سترته شارة علمية كأنها شارة الخدم .

وفى الاستراحة الأولى انصرف الزوج ليدخن وبقيت هى فى مقعدها . واقترب منها جورروف ، الذى كان يجلس هو ايضا فى الصالة وقال بصوت متهدج وهو يغتصب ابتسامة :

— مرحبا .

وتطلعت اليه وامتقعت ، ثم تطلعت مرة اخرى برعب وهى لا تصدق عينيها ، واطبقت يدها بقوة على المروحة والمنظار معا وهى تجاهد فيما يبدو لكى لا تسقط مغشيا عليها . وكان كلاهما صامتا . كانت جالسة وهو واقف وقد افزعه ارتباكها ، دون ان يجرؤ على الجلوس بجوارها . وصدحت آلات الكمان والناى التى كان العازفون يضبطونها ، وتملكهما الرعب فجأة ، وخيل اليهما ان الانظار تتطلع اليهما من جميع المقصورات . ولكن ها هى قد نهضت واتجهت بسرعة نحو باب الخروج ، فتبعها . وسارا معا يتخبطان فى الطرقات والسلالم صاعدين هابطين ، ومرق امام عيونهما اناس ما

فى سترات قضاة ومعلمين وموظفين ، ومرقت نساء ، ومعاطف فرو على المشاجب ، ولفحهما تيار هواء حاملا رائحة اعقاب السجائر . وفكر جوروف وقلبه يخفق بعنف : «اوه ، يا الهى . لِمَ هؤلاء الناس ، وهذا الاوركسترا . . .»

وفى تلك اللحظة تذكر فجأة ذلك المساء فى محطة القطار ، عندما ودع آنا سرجييفنا وقال لنفسه ان كل شىء قد انتهى ولن يلتقيا بعد ذلك ابدا . ولكن كم كانت النهاية بعيدة !

وعلى سلم ضيق مظلم كتب عليه «مدخل اعلى المسرح» توقفت .

— كم افزعتنى ! — قالت وهى تتنفس بصعوبة ولا تزال شاحبة مأخوذة — اوه ، كم افزعتنى ! انا حية بالكاد . لماذا جئت ؟ لماذا ؟

فقال جوروف بصوت خافت على عجل :

— افهمينى يا آنا ، افهمينى . . . اتوسل اليك ، افهمينى . . .

كانت تتطلع اليه بخوف ، وتوسل ، وحب ، بنظرة ثاقبة لكى تطبع ملامحه فى ذاكرتها طويلا .

ومضت تقول دون ان تصغى اليه :

— كم اتعذب ! كنت طوال الوقت افكر فيك وحدك ، وكنت اعيش بفكرى معك . واردت ان انسى ، انسى ، فلماذا جئت ، لماذا ؟

على بسطة السلم العليا كان ينفث طالبان ، يدخنان ويتطلعان الى اسفل ، ولكن جوروف لم يعد يلقى بالا لشىء ، فجذب آنا سرجييفنا نحوه ، واخذ يقبل وجهها وخديها ويديها .

فقالت برعب وهي تدفعه عنها :

— ما الذى تفعله ، ما الذى تفعله ! لقد اصابنا الجنون . ارحل اليوم ، ارحل الآن . . . استحلفك بكل القديسين ، اتوسل اليك . . . انهم قادمون الى هنا !

كان هناك شخص يصعد الدرج .

ومضت آنا سرجييفنا تقول همسا :

— ينبغي ان ترحل ، أتسمعنى يا دميترى دميتريتش ؟ سأجيُ اليك فى موسكو . انا لم اكن ابدا سعيدة ، والآن اصبحت تعيسة ، ولن اكون ابدا سعيدة ، ابدا ! لا تجعلنى اذن اتعذب اكثر ! اقسم لك اننى سآتى الى موسكو . والآن لنفترق ! يا عزيزى ، يا حبيبى الطيب ، لنفترق !

وصافحته ومضت تهبط الدرج بسرعة وهى تلتفت نحوه كثيرا ، وكان واضحا فى عينيها انها لم تكن سعيدة بالفعل . . . ولبث جوروف فى مكانه قليلا وهو يرهف السمع ، وعندما هدأ كل شيء بحث عن معطفه وغادر المسرح .

٤

واصبحت آنا سرجييفنا تأتى اليه فى موسكو . كانت تغادر (س) مرة كل شهرين آو ثلاثة وتقول لزوجها انها ذاهبة لاستشارة بروفيسور بخصوص مرض نسائى ، فكان زوجها يصدقها ولا يصدقها . وعندما تصل الى موسكو كانت تنزل فى «سلافيانسكى بازار» وترسل الى جوروف على الفور رسولا على رأسه قبعة خمراء وكان جوروف يذهب اليها ولا يعلم احد فى موسكو بذلك .

وذات مرة كان ذاهبا اليها فى صباح شتائى (جاءه الرسول قبلها فى المساء فلم يجده) . وكانت بصحبته ابنته التى اراد ان يوصلها الى المدرسة فى طريقه . وتساقط ثلج مبلل كبير الندف .

وقال جوروف لابنته :

— درجة الحرارة الآن ثلاثة فوق الصفر ومع ذلك يسقط الثلج . ولكن الجو دافئ فوق سطح الارض فقط ، اما فى طبقات الجو العليا فالحرارة مختلفة تماما .

— بابا ، ولماذا لا يرعد الرعد فى الشتاء ؟

فشرح لها ذلك ايضا . كان يفكر وهو يتكلم فى انه ذاهب الآن الى موعد ، ولا يعلم بذلك اى انسان ، وربما لن يعلم . كان يعيش حياتين : حياة ظاهرة ، يعرفها ويراها كل من ينبغى ان يعرفها ويراها ، حياة مليئة بالصدق النسبى والخداع النسبى ، وتشبه تماما حياة معارفه واصدقائه ، وحياة اخرى تمضى سرا . وحسب اتساق غريب للظروف ، ربما كان عرضا ، جرى كل ما كان بالنسبة له مهما ، وطريفا ، وضروريا ، كل ما كان فيه مخلصا وصادقا مع نفسه ، كل ما كان يشكل نواة حياته ، جرى فى سرية عن الآخرين . اما ما كان كذبا ، وقشرة يختبئ خلفها ليخفى الحقيقة ، كعمله فى البنك مثلا ، ومناقشاته فى النادى ، و«جنسه المنحط» ، وتردده مع زوجته على الحفلات — كل ذلك كان ظاهرا . وحسب حاله كان يحكم على الآخرين ولا يصدق ما يراه ويعتقد دائما ان لكل انسان حياته الحقيقية ، الشيقة التى تمضى تحت ستار السرية مثلما تحت جنح الليل . وكل مخلوق فرد يقوم وجوده على الاسرار ، وربما لذلك يسعى

الانسان المثقف بقلق من اجل ان تحترم الاسرار الشخصية .

وبعد ان اوصل جوروف ابنته الى المدرسة اتجه الى «سلافيانسكى بازار» . وخلع معطفه فى الاسفل وصعد ودق الباب بخفة . كانت آنا سرجييفنا فى فستانها الرمادى المحبب اليه تنتظره منذ مساء الامس وقد ارهقها السفر والانتظار . كانت شاحبة وتطلعت اليه دون ان تبتسم ، وما ان دخل حتى ارتمت على صدره . وكانت قبلتهما طويلة ، ممتدة ، كانما لم يلتقيا منذ عامين .

وسألها جوروف :

— كيف حالك ؟ ماذا هناك من جديد ؟

— مهلا ، سأخبرك الآن . . . لا استطيع .

لم تستطع ان تتكلم ، فقد كانت تبكى . واستدارت عنه وضغطت على عينيها بالمنديل .

وقال جوروف لنفسه : «فلتبك قليلا ولأجلس انا» وجلس فى المقعد .

ثم دق الجرس وطلب شايا . وبعد ذلك ، وبينما كان يشرب الشاى ، ظلت هى واقفة ووجهها الى النافذة . . . كانت تبكى من الاضطراب ، ومن ادراكها الحزين بأن حياتهما تمضى على هذا النحو البائس اذ لا يلتقيان الا سرا ، ويختبئان من الناس كاللصوص ! أليست حياتهما محطمة ؟

وقال جوروف :

— هيا ، كفاك بكاء .

كان من الواضح له ان حبهما هذا لن ينتهى قريبا ، وليس معروفا متى ينتهى . وتعلقت به آنا سرجييفنا اكثر فاكثر ، وكانت متيمة به ، ولم يكن من المعقول ان يقول لها ان



كل ذلك لا بد وان تكون له في وقت ما نهاية . وما كانت لتصدق ذلك .

واقترب منها وامسك بكتفيها لكي يلاطفها ويداعبها ، وفي تلك اللحظة رأى صورته في المرآة .

كان رأسه قد بدأ يشيب . وبدا له غريبا انه هرم وتدهور الى هذه الدرجة في الآونة الاخيرة . وكانت الكتفان اللتان وضع عليهما يديه دافئتين ترتعشان . واحس بالعطف على هذه الحياة ، التي كانت لا تزال دافئة جميلة ، ولكنها ربما تقترب من الذبول والانطفاء كحياته هو . ترى لماذا تحبه هكذا ؟ لقد كان يبدو للنساء دائما على غير حقيقته ، ولم يكنَّ يحببنه هو نفسه ، بل يحببن فيه الرجل الذى صنعه خيالهن والذى كنَّ يبحثن عنه في حياتهن بنهم . وبعد ذلك ، عندما يدركن خطأهن ، كنَّ مع ذلك يحببنه . ولم تكن اى منهن سعيدة معه . وكان الزمن يمضى وهو يتعرف ويصادق ويفارق ، ولكنه لم يعرف الحب مرة واحدة . كان ذلك اى شيء سوى ان يكون حبا .

والآن فقط ، عندما شاب رأسه ، احب كما ينبغي ، حبا حقيقيا . لاول مرة في حياته .

احبا هو وآنا سرجييفنا بعضهما كشخصين قريبين جدا ، كأهل ، كزوج وزوجة ، كصديقين رقيقين ، وبدا لهما ان القدر نفسه قد هيأهما الواحد للآخر ، ولم يكن مفهوما لماذا هو متزوج وهي متزوجة . وكأنما كانا طائرين مهاجرين ، ذكرا وانثى ، امسكوا بهما واجبروهما على العيش في قفصين منفردين . لقد غفرا لبعضهما كل ما كانا يخجلان منه في ماضيهما ، وغفرا كل ما في حاضرهما ، واحسا ان حبهما

هذا قد غيرهما كليهما .

وكان في لحظات الحزن سابقا يطمئن نفسه بشتى الافكار التي كانت ترد الى ذهنه ، اما الآن فكان في شاغل عن الافكار . كان يشعر بشفقة عميقة وبرغبة في ان يكون صادقا ورقيقا . . .

وقال لها :

— كفى بكاء يا حبيبتي ، هذا يكفي . . . تعالى نتحدث وسوف نصل الى حل .

وظلا يتشاوران طويلا ويتحدثان في كيفية التخلص من التخفي والخداع والمعيشة في مدينتين مختلفتين والفراق الطويل ، وكيف يتحرران من هذه الاغلال التي لا تطاق .

— كيف ؟ كيف ؟ — تساءل وهو يمسك برأسه — كيف ؟

وبدا له انه لم يبق الا قليل ويعثر على الحل ، وعندها تبدأ حياة جديدة رائعة . وكان من الواضح لهما معا ان النهاية لا تزال بعيدة بعيدة ، وان اعقد شيء واصعبه يبدأ لتوه .

١٨٩٩

فى الخور

١

كانت قرية اوكليبيفو تقع فى خور ، ولذلك ، لم يكن يبدو منها للناظر من الطريق ومن محطة السكة الحديدية سوى برج الكنيسة ومداخن فبارك صباغة الشيت . وعندما كان العابرون يسألون اية قرية هذه يقال لهم :

— انها تلك القرية التى أكل فيها الشماس فى المأتم كل الكافيار .

فذات مرة ، اثناء وليمة التأبين عند الصناعى كوستيوكوف ، رأى الشماس العجوز بين اطباق المزة كافيارا اسود فراح يلتهمه بشراهة . واخذوا يدفعونه ، ويشدونه من كمه ، الا انه بدا وكأنما فقد الاحساس من شدة المتعة ، فلم يعد يشعر بشىء ، بل مضى يأكل فقط . والتهم علبة الكافيار كلها ، وكان فيها حوالى اربعة ارطال . وقد مضى على ذلك اليوم زمن طويل ، ومات الشماس منذ فترة بعيدة ، لكن الناس ظلوا يذكرون قصة الكافيار . وسواء كانت الحياة هنا فقيرة الى هذه الدرجة ، ام ان الناس لم يكونوا قادرين على ملاحظة اى شىء غير هذه الحادثة التافهة التى وقعت منذ عشرة اعوام ، فانهم لم يرووا اى شىء آخر عن قرية اوكليبيفو .

لم تكن الحمى تختفى منها ، وحتى فى الصيف كان فيها وحل كوحل المستنقعات ، وخاصة تحت الاسيجة التى تنحنى فوقها اشجار الصفصاف العتيقة بظلالها الوارفة . وكانت تفوح هنا دائما رائحة المخلفات الصناعية وحامض الخل الذى كانوا يستخدمونه فى معالجة الشيت الملون . ولم تكـــن الفبارك — ثلاث لصباغة الشيت وواحدة للجلود — تقع فى القرية ، بل فى طرفها وقريبا منها . كانت تلك فبارك صغيرة ، وكان يعمل فيها جميعا حوالى اربعمائة عامل لا اكثر . وبسبب فابريكة الجلود كانت مياه النهر كثيرا ما تصبح نتنة . ولوثت المخلفات المرج ، فاصيبت ماشية الفلاحين بالقرحة السيبيرية ، وصدر امر باغلاق الفابريكة . واعتبرت مغلقة ، لكنها كانت تعمل سرا ، بعلم وكيل المأمور وطبيب الناحية اللذين كان صاحبها يدفع لكل منهما عشرة روبلات فى الشهر . ولم يكن فى القرية كلها سوى منزلين محترمين ، مشيدين من الحجر ، وبسقف معدنى . كان احدهما مقرا لادارة الناحية ، وفى الثانى ، ذى الطابقين ، والمواجه مباشرة للكنيسة ، عاش جريجورى بتروف تسيبوكين ، البرجوازى الصغير .

كان جريجورى يملك دكان بقالة ، ولكن ذلك كان ستارا ، اما فى الحقيقة فكان يتاجر فى الفودكا ، والماشية ، والجلود ، والحبوب ، والخنازير . . كان يتاجر فى كل ما يتسنى له ، وحينما كانوا فى الخارج مثلا ، يحتاجون الى ريش العقعق للقبعات النسائية ، كان يكسب من كل زوج ثلاثين كوبيكا . وكان يشترى الاشجار لتقطيعها خشبا ، ويقرض بفائدة ، وعموما كان عجوزا ماهرا فى الاعمال .

وكان لديه ولدان . الابن الاكبر ، انيسيم ، كان يعمل

فى الشرطة ، فى قسم المباحث ، ونادرا ما يأتى الى البيت . اما الابن الاصغر ، ستيبان ، فسار على درب التجارة ، وكان يساعد اباه ، وان لم ينتظروا منه مساعدة حقيقية لانه كان معتل الصحة واطرش . وكانت زوجته اكسينيا ، وهى امرأة جميلة ، ممشوقة ، ترتدى فى الاعياد قبعة وتحمل مظلة ، تستيقظ مبكرا وتنام متأخرا ، وتركض طول النهار ، مشمرة جونلاتها ، وهى تصلصل بالمفاتيح ، تارة الى المخزن ، وتارة الى القبو ، وتارة الى الدكان ، فكان العجوز تسيبو كين ينظر اليها بمرح ، وتتوقد عيناه ، وفى تلك اللحظات كان يأسف انها ليست متزوجة من ابنه الاكبر ، بل من الاصغر ، الاطرش ، الذى لم يكن ، فيما يبدو ، يفقه كثيرا فى جمال النساء .

كان العجوز ميالا دوما الى الحياة العائلية ، فكان يحب اسرته اكثر من اى شىء فى الدنيا ، وخاصة ابنه الاكبر المخبر وزوجة ابنه الاصغر . وما ان تزوجت اكسينيا من الاطرش حتى كشفت عن مهارة عملية فائقة ، واصبحت تعرف من الذى يمكن ان تبيع له بالدين ومن الذى لا يمكن ، واحتفظت بالمفاتيح فلم تأتمن عليها حتى زوجها ، وكانت تعد على المعداد الخشبى ، وتفحص اسنان الخيول مثل الفلاحين . وطول الوقت تضحك او تصيح . وكلما عملت او قالت شيئا كان العجوز ينظر بتأثر ويدمدم :

— عفارم ياكنّة ! عفارم ياحلوة ! . .

كان ارملا ، ولكن بعد زواج ابنه بسنة ، لم يتمالك نفسه فتزوج هو الآخر . وجدوا له على بعد ثلاثين فرسخا من اوكلييفو فتاة تدعى فارفارا نيكولايفنا ، من اسرة طيبة ،

تقدمت بها السن ولكنها جميلة ، حسنة الهيئة . وما ان سكنت الغرفة الصغيرة ، فى الطابق العلوى ، حتى اشرق كل شىء فى البيت ، كأنما وضع زجاج جديد فى جميع النوافذ . وسطعت القناديل ، وفرشت على الطاولات مفارش بيضاء كالثلج ، وظهرت على النوافذ وفى الحديقة ازهار بأكمام حمراء ، ولم يعودوا يتناولون الغداء من صحفة واحدة بل وضعت الاطباق امام كل شخص . وكانت فارفارا نيكولايفنا تبتسم برقة ولطف فبدا ان كل ما فى البيت يبتسم . واخذ الشحاذون والجوالون والمتعبدات يعرجون على فناء الدار ، الامر الذى لم يحدث ابدا من قبل ، وترددت تحت النوافذ اصوات فلاحات اوكلييفو الشاكية الناغمة ، وسعال خجل للفلاحين المنهكين المفصولين من الفابريكة بسبب السكر . كانت فارفارا تساعدهم بالنقود والخبز والملابس القديمة ، وبعد ان الفت البيت راحت تختلس لهم من الدكان . وذات مرة لمحها الاطرش وهى تسرق ثُمْنَى شاى فتملكه الحرج .

وفيما بعد قال لابيه :

— نينة اخذت ثُمنى شاى . على اى حساب اسجلهما ؟

فلم يجب العجوز بشىء ، ووقف قليلا وفكر وهو يلعّب حاجبيه ، ثم صعد الى زوجته .

وقال لها برقة :

— يا فارفاروشكا ! يا روحى ! اذا ما احتجت الى شىء من الدكان فخذيه . خذى كما تشائين ولا تهتمى .

وفى اليوم التالى صاح لها الاطرش وهو يجرى عبر الفناء :

— يا نينة ، اذا احتجت لشيء ، خذيه !

كانت تتصدق ، وكان في ذلك شيء جديد ، شيء مرح وخفيف ، كما في القناديل والازهار الحمراء . وحينما كانوا ليلة الصيام او في عيد راعي الكنيسة الذي كان يستمر ثلاثة ايام ، يبيعون للفلاحين اللحم المملح العفن ذا الرائحة الفظيعة حتى ليصعب الوقوف بجوار البرميل ، ويأخذون من السكارى المناجل والطواقي ومناديل زوجاتهم رهنا ، وحينما كان عمال الفبارك يتمرغون في الاوحال وقد افقدتهم الفودكا السيئة صوابهم ، ويبدو ان الحرام قد تكاثف واصبح معلقا في الجو كالضباب ، عندها يداعب النفس شعور بالراحة من فكرة ان هناك في البيت امرأة هادئة ، لطيفة ، لا شأن لها لا باللحم المملح ولا بالفودكا . كان لصدقاتها في تلك الايام الممضة المضببة مفعول صمام الامن في الآلة .

كانت الايام في منزل تسيبوكين تمضي في المشاغل . فقبل ان تبزغ الشمس تتردد زفرات اكسينيا وهي تغتسل في المدخل ، بينما يغلي السماور في المطبخ ويئز منذرا بشيء شرير . وكان العجوز جريجوري بتروف ، وقد ارتدى سترة سوداء طويلة وسروالا من الشيت ، وحذاء عاليا لامعا ، يتجول في الغرف نظيفا ، صغيرا ، ويدق بكعبيه كوالد الزوج في الاغنية المعروفة . ثم يفتحون الدكان . وعندما ينتشر الضوء يأتون بالعربة الى درج المدخل فيقفز اليها العجوز بفتوة ، ويغمد عمرته الكبيرة حتى اذنيه ، فاذا نظـــرت اليـــه لا يمكن ان تقول انه في السادسة والخمسين . وتودعه زوجته وكنّته . وفي تلك اللحظة ، عندما يكون مرتديا سترة جيدة نظيفة ، وقد شد الى العربة حصان اسود ضخم ، ثمنه



ثلاثمائة روبل ، لا يحب العجوز ان يقصده الفلاحون بطلباتهم وشكاواهم . كان يمقت الفلاحين ويتقزز منهم ، وعندما يرى احدهم واقفا ينتظر بجوار البوابة ، يصيح فيه بغضب :

— ما لك واقف هناك ؟ سر فى طريقك !

او يصرخ اذا كان ذلك شحاذا :

— الله يسهل لك !

كان يرحل لقضاء اعماله . وكانت زوجته تنظف الغرف او تساعد فى المطبخ ، مرتدية ثيابا داكنة ومريلة سوداء . وتتاجر اكسينيا فى الدكان ، وكان يسمع فى الفناء رنين الزجاجات والنقود وضحكها او صياحها وكلمات الزبائن الغاضبة الذين اهانتهم . وفى الوقت نفسه كان واضحا ان التجارة السرية فى الفودكا قد بدأت فى الدكان . وكان الاطرش يجلس ايضا فى الدكان ، او يسير فى الشارع بلا طاقية ، وقد دس يديه فى جيبيه ، ويتطلع شاردا الى الدور او الى السماء . وكانوا يشربون الشاى فى البيت حوالى ست مرات فى اليوم ، ويجلسون الى المائدة لتناول الطعام اربع مرات . وفى المساء يحسبون الدخل ويسجلونه ، ثم يخلدون الى نوم عميق .

كانت فبارك الشيت الثلاث فى اوكلييفو ، وكذلك بيوت الصناعيين آل خريمين الاكبر وآل خريمين الاصغر وكوستيوكوف مجهزة بالتليفون . ومدوا التليفون ايضا الى ادارة الناحية ولكنه سرعان ما تعطل هناك اذ عشش فيه البق والصراصير . وكان شيخ الناحية ضعيف التعليم ، يبدأ كل كلمة فى الاوراق الرسمية بحرف كبير ، ولكنه قال عندما تعطل التليفون :

— نعم ، ستكون احوالنا اصعب بلا تليفون .

وكان آل خريمين الاكبر يقاضون دائما آل خريمين

الاصغر ، واحيانا كان آل خريمين الاصغر يتشاجرون ، هم ايضا ، فيما بينهم ويلجأون الى المحاكم ، وعندئذ تتوقف فابريكتهم شهرا وشهرين الى ان يتصالحوا ، وكان ذلك يسلي اهالي اوكلييفو ، اذ كان كل شجار يثير الكثير من الاحاديث والقيل والقال . وفي ايام الاعياد كان كوستيوكوف وآل خريمين الاصغر ينظمون تزحلقاً بالزحافات ، فيمرقون في اوكلييفو ويدوسون العجول . وكانت اكسينيا تتنزه في الشارع قرب دكانها ، في كامل زينتها وهي تخرخش بجونلاتها المنشاة ، فكان آل خريمين الاصغر يلتقطونها ويحملونها معهم كأنما عنوة . وفي ذلك الحين كان العجوز تسيبوكين يتزحلق ايضا لكي يظهر حصانه الجديد ، ويصطحب معه فارفارا .

وفي المساء ، بعد التزحلق وقبيل النوم ، كانوا يعزفون في فناء آل خريمين الاصغر على اكورديون ثمين ، وعندما يكون هناك قمر تبعث هذه الالحان القلق والبهجة في القلب ، ولا تعود اوكلييفو تبدو كالحفرة .

٢

كان الابن الاكبر انيسيم لا يأتي الى البيت الا نادرا ، في الاعياد الكبيرة فقط ، ولكنه كان كثيرا ما يرسل مع بلدييه الهدايا والرسائل ، المكتوبة بخط شخص غريب ، جميل للغاية ، وفي كل مرة على فرخ ورق في صورة التماس . وكانت الرسائل ممتلئة بتعبيرات لم يستخدمها انيسيم ابدا في حديثه : «بابا وماما العزيزين . ابعث اليكما برطل من شاي الزهور لتلبية احتياجاتكما البدنية» .

وفي اسفل كل رسالة توقيع مخربش ، كأنما كتب بريشة مكسورة : «انيسيم تسيبوكين» وتحت هذا كتب بنفس الخط الرائع السابق : «المخبر» .

كانت الرسائل تقرأ جهرا عدة مرات ، فيقول العجوز المتأثر المتضرج من شدة الانفعال :

— لم يشأ ان يبقى معنا ، وقرر ان يسلك طريق العلم . طيب ، ليكن . كل واحد وله وظيفته .

وذات مرة ، قبل ايام المرافع ، هطل مطر غزير ببرد ، واقترب العجوز وفارفارا من النافذة ليتفرجا ، فاذا بهما يريان انيسيم قادما من المحطة فى زحافة . لم يكونوا يتوقعون مجيئه ابدا . دخل الغرفة قلقا ومنزعجا من شيء ما ، وظل هكذا طوال فترة بقائه . وكان يتصرف بشيء من الاستهتار . ولم يتعجل الرحيل ، وبدا الامر وكأنما فصلوه من عمله . وكانت فارفارا مسرورة بمجيئه ، وكانت تنظر اليه بمكر ، وتتنهد وتهز رأسها . وتقول :

— يا الهى ، كيف ذلك ؟ الشاب اصبح فى الثامنة والعشرين وما زال يتسكع اعزب ، اوه — هوه — هو . . .

من الغرفة الاخرى كان حديثها الهادئ الخافت يسمع هكذا : «اوه — هوه — هو» . واخذت تتهامس مع العجوز واكسينيا ، فارتسم على وجهيهما ايضا تعبير ماكر غامض ، كما على وجوه المتآمرين .

وقرروا تزويج انيسيم .

وقالت فارفارا :

— اوه — هوه — هو . . . الاخ الاصغر زوجوه من زمان ، وانت لا تزال بلا شريكة ، كالديك فى السوق . فى اى

شرع هذا ؟ اوه — هوه ، بعد ان تتزوج ان شاء الله ، افعل كما تشاء ، اذهب الى العمل ، لكن زوجتك ستبقى فى البيت ، لتساعدنا . انك تعيش بلا ترتيب يا شاب ، وقد نسيت كل القواعد كما ارى . اوه — هوه — هو ، ما العمل معكم يا اهل المدينة .

عندما كان آل تسيبو كين يتزوجون ، كانوا يختارون لهم اجمل العرائس باعتبارهم اغنياء . وقد وجدوا لانيسيم ايضا عروسا جميلة . اما انيسيم نفسه فلم تكن هيئته جذابة ، ولا ملفتة . فمع بنيانه الضعيف المريض وقامته القصيرة ، كان له خدان ممتلئان منتفخان كأنما نفخهما عمدا . وعيناه لا تطرفان . ونظرته حادة ، ولحيته حمراء ، خفيفة الشعر ، وعندما يستغرق فى التفكير كان يدسها فى فمه ويعضها . وعلاوة على ذلك كان يسكر كثيرا ، وبدا ذلك واضحا على وجهه ومشيته . ولكن عندما اخبروه انهم وجدوا له عروسا جميلة جدا ، قال :

— حسنا ، انا ايضا لست احول . نحن آل تسيبوكين ، كلنا جميلون .

كانت قرية تورجويفو بجوار المدينة مباشرة . وقد ضم احد شطريها مؤخرا الى المدينة ، وظل الشطر الآخر قرية . وفى الشطر الاول كانت تعيش احدى الارامل ، فى دار ملكها . وكانت لديها اخت ، فقيرة تماما ، تعمل فى المنازل بالمياومة . وكان لدى هذه الاخت ابنة تدعى ليبا ، تعمل ايضا بالمياومة . وكانت الالسنة فى تورجويفو تتحدث عن جمال ليبا ، لكن الشيء الوحيد الذى كان يثير حرج الجميع هو فقرها المدقع . وكانوا يقولون انه ربما تزوجها كهل

او ارمل غير عابىء بفقرها ، او ربما اخذها لنفسه «هكذا» ، وعندئذ تعيش امها معها فتجد لقمة العيش . وعلمت فارفارا عن ليبا من الخاطبات فسافرت الى تورجويفو .

ثم اقيم فى بيت الخالة حفل عرض ، حسب الاصول ، بطعام وشراب ، وكانت ليبا فى فستان وردى جديد ، حاكوه خصيصا لحفل العرض ، وتوهج فى شعرها شريط احمر كالنار . كانت نحيلة ، ضعيفة ، شاحبة ، وقسماتها دقيقة رقيقة ، سمراء من العمل فى الهواء الطلق . ولم تفارق وجهها ابتسامة حزينة وجلة ، واطلت من عينيها نظرة اطفال ، بريئة وفضولية .

كانت صبية ، طفلة بعد ، بصدر لا يكاد يبين ، ولكن كان بوسعها ان تتزوج ، اذ بلغت السن القانونية . وكانت جميلة بالفعل ، ولكن كان فيها شيء واحد ربما لا يجوز الاعجاب : يداها الكبيرتان الرجاليتان ، اللتان كانتا تتدليان الآن بلا عمل مثل مخلبين طويلين .

وقال العجوز للخالة :

— ليس لديكم مال ، ونحن لن نشغل البال . لقد اخذنا لابننا ستيبان عروسا من اسرة فقيرة ايضا ، وهى الآن موضع فخرنا . وسواء فى الدار ام فى العمل فلها يدان من الذهب .

كانت ليبا واقفة بجوار الباب وكأنما تريد ان تقول : «اصنعوا بى ما تريدون ، انا اثق بكم» ، اما امها ، المياومة براسكوفيا ، فاختبأت فى المطبخ وقد تجمدت من الوجل . فى زمن ما ، ايام شبابها ، غضب منها تاجر كانت تمسح الارضية لديه ، فدق الارض بقدميه ثائرا فيها

فارتعبت بشدة واعتراها الذهول ، وبقي الخوف في نفسها طوال العمر . ومن الخوف كانت يداها وساقاها ترتعش دائما ، وكذلك خداها . جلست في المطبخ وهي تحاول ان تتسمع ما يقوله الضيوف ، وترسم طوال الوقت علامة الصليب وهي تلصق اصابعها بجبهتها وتنظر الى الايقونة . وشد انيسيم ، الذي ثمل قليلا ، باب المطبخ وقال باستهتار :

— لماذا تجلسين هنا يا نينة الغالية ؟ نحن نشعر بالوحشة بدونك .

اما براسكوفيا التي اشتد وجلها فقد اجابته وهي تضغط بيديها على صدرها الهزيل النحيل :

— ماذا تقول ، العفو العفو . . . بارك الله فيكم .

وبعد العرض حددوا يوم الزفاف . وعندما عادوا الى البيت راح انيسيم يجوس بالغرف مصفرا ، او يتذكر فجأة شيئا ما فيستغرق في التفكير ، محدقا في الارض بنظرة جامدة ثاقبة ، كأنما كان يريد بنظرته ان ينفذ عميقا في الارض . ولم يعرب لا عن رضاه بانه سيتزوج ، سيتزوج قريبا ، في نهاية عيد الفصح ، ولا عن رغبته في رؤية عروسه ، بل كان يصفر فقط . وكان واضحا انه لا يتزوج الا لان تلك كانت رغبة ابيه وزوجة ابيه ، ولان العادة جرت هكذا في الريف : ان يتزوج الابن لكي يأتي الى البيت بمساعدة . وعندما استعد للرحيل لم يتعجل ، وعموما كانت تصرفاته لا تشبه تصرفاته السابقة . كان مستهترا بشدة ، ولم يكن يتحدث كما ينبغي .

٣

كانت تعيش فى قرية شيكالوفا خياطتان شقيقتان ، من طائفة «الخليست» . وقد اوصيتا بتجهيز ثياب جديدة بمناسبة العرس ، فجاءتا لقياس الملابس ، وظلتا طويلا تشربان الشاى . حاكتا لفارفارا فستانا بنيا بدانتلا سوداء وخرزات زجاجية ، وحاكتا لاكسينيا فستانا اخضر فاتحا ، بصدر اصفر وذيل طويل . وبعد ان انهت الخياطتان عملهما لم يدفع لهما تسيبوكين اجرهما نقدا بل سلعا من دكانه ، فانصرفتا من عنده حزينتين ، وفى ايديهما صرر بها شموع وسردين ليستا بحاجة اليها ابدا ، وحينما غادرتا القرية واصبحتا فى الحقل ، جلستا على تلة صغيرة وراحتا تبكيان .

وجاء انيسيم قبل العرس بثلاثة ايام ، وكان كل ما عليه جديدا . كان ينتعل خفا لامعا من المطاط ، ويضع بدلا من ربطة العنق خيطا احمر بكريات ، وعلى كتفيه تدلى معطف وكان ايضا جديدا .

وصلى بوقار ثم سلم على ابيه واعطاه عشرة روبلات فضية وعشر قطع من فئة النصف روبل . واعطى لفارفارا نفس المبلغ ، ولاكسينيا عشرين قطعة من فئة الربع روبل . وكان اروع ما فى هذه الهدايا ان جميع القطع النقدية كانت جديدة كلها وتلمع فى الشمس . ولكى يظهر انيسيم وقورا وجادا شد عضلات وجهه ونفخ شدقيه ، وفاحت منه رائحة الخمر ، اذ يبدو انه كان يخرج من العربة فى كل محطة ويشرب فى البوفيه . ومن جديد كان فيه نوع من الاستهتار وشيء زائد . وفيما بعد شرب انيسيم والعجوز الشاى وأكلا ، اما فارفارا فراحت تقلب الروبلات الجديدة فى يديها وتسأل

عن بلدييهم القاطنين في المدينة .

وقال انيسيم :

— لا بأس ، يعيشون بخير والحمد لله . ولكن وقعت لايفان يجوروف حادثة في حياته العائلية . . ماتت عجوزه صوفيا نيكيفوروفنا ، بالسل . اوصوا على غداء التأبين عند الحلواني ، بروبلين ونصف للشخص . وكان هناك خمر عنب . وحتى لقاء غداء الفلاحين — بلديينا — دفعوا ايضا روبلين ونصف للشخص . ولكنهم لم يأكلوا شيئا . وهل يفقه الفلاح في المأكولات المرفهة !

فقال العجوز وهو يهز رأسه :

— روبلان ونصف !

— ولم لا ؟ هناك مدينة لا قرية . تدخل المطعم لتأكل ، فتطلب هذا وذاك ، وتجتمع الشلة ، فتشرب ، واذا بالفجر حل ، وتفضل ، ادفع ثلاثة او اربعة روبلات للشخص . اما مع ساموردوف ، فانه يحب بعد كل ذلك ان يشرب القهوة بالكونياك ، وكأس الكونياك وحده بستين كوبيكا .

فدمدم العجوز معجبا :

— يا له من كذاب ! يا له من كذاب !

— انا الآن مع ساموردوف دائما . انه هو الذى يكتب لكم رسائلي . رائع في الكتابة — واستطرد انيسيم يقول بمرح لفارفارا — لو حكيت لك يا نينة اى رجل ساموردوف هذا لما صدقت . اننا جميعا ندعوه «مختار» لانه اسود تماما ، مثل الأرمن . انني اعرف خباياه ، اعرف كل اعماله كمعرفتي لاصابعي الخمس ، وهو يشعر بذلك يا نينة . ولهذا يسير دائما ورائى ولا يتركنى ، ولا يفرقنا الآن

شيء . ويبدو انه يشعر بالرهبة منى ، ولكنه لا يستطيع العيش بدونى . اينما ذهبت ذهب ورائى . ان لى يا نينة عينا صائبة صادقة . عندما اكون فى السوق انظر ، فاذا فلاح يبيع قميصا . . قف ! القميص مسروق ! وبالفعل ، يتضح ان القيمص مسروق .

فسألت فارفارا :

— وكيف تعرف ؟

— هكذا ، عينى هكذا . انا لا اعرف ما هذا القميص ولكنى اجد نفسى لسبب ما مشدودا نحوه : قميص مسروق وانتهى الامر . عندنا فى قسم المباحث يقولون : «ذهب انيسيم لاصطياد دجاج الغابة» ومعنى ذلك : ذهب للبحث عن المسروقات . نعم . . . كل واحد يستطيع ان يسرق . ولكن كيف تخبئ المسروق ! الارض واسعة ولكن لا مكان تخبئ المسروق فيه !

— فى قريتنا سرقوا من آل جونتوريف فى الاسبوع الماضى خروفا ونعجتين — قالت فارفارا ثم تنهدت — وليس هناك من يبحث عنها . . . اوه — هوه — هو . . .

— لم ؟ البحث ممكن . . بسيطة ، ممكن .

وحل يوم الزفاف . كان يوما باردا من شهر ا بريل ولكنه صحو وبهيج . ومنذ الصباح الباكر اخذت عربات الترويكا وعربات الجوادين المزينة بالاشرطة الملونة على اقواسها واعراف خيولها تطوف باوكلييفو وهى تصلصل بأجراسها . وصاحت الغربان فى اشجار الصفصاف وقد ازعجها مرور العربات ، وصدحت الزرازير بلا توقف وباجهاد ، وكأنما اسعدها ان لدى آل تيسبوكين عرسا .

وفى المنزل مُدت على الطاولات الاسماك الطويلة ولحم فخذ الخنزير والطيور المحشوة وعلب السردين وشتى المملحات والمخللات وعدد كبير من زجاجات الفودكا والخمر ، وفاحت رائحة السجق المدخن والكركند البحرى الفاسد . وكان العجوز يتمشى بجوار الموائد وهو يدق بكعبيه ويشحذ سكينا بسكين . وكانوا ينادون على فارفارا كل حين طالبين منها شيئا ما فتركض شاردة لاهثة الى المطبخ حيث يعمل منذ الفجر طاه من عند آل كوستيوكوف وطاهية ماهرة من عند آل خريمين الاصغـــــر . وكانت اكسينيا تركض فى الفناء كالاعصار ، مجعدة الشعر ، بدون فستان بل فى الكورسيه فقط ، وفى حذاء جديد ذى صرير ، فلا تلمح منها سوى ركبتيها العاريتين وصدرها العارى . وعلا الضجيج وتردد السباب والايمان ، وتوقف المارة امام البوابة المفتوحة على مصراعيها ، وبدا محسوسا فى الجو كله انه سوف يحدث شيء غير عادى .

— ذهبوا لاحضار العروس !

ودوت الاجراس ثم صمتت بعيدا خلف القرية . . .

وفى الساعة الثالثة ركض الناس ، فقد ترددت الاجراس ثانية ، لقد احضروا العروس ! كانت الكنيسة غاصة ، واشتعلت ثريا الكنيسة ، وغنى المنشدون على النوت الموسيقية حسب رغبة العجوز تسيبوكين . وبهر بريق الاضواء والفساتين الساطعة عينى ليبا ، وخيل اليها ان المنشدين يدقون باصواتهم العاليـــــة كالمطارق على رأسها . وضغط عليها الكورسيه ، الذى ارتدته لاول مرة فى حياتها ، وكذلك الحذاء ، وارتسم على وجهها تعبير ، كأنما افاقت لتوها من اغماءة . . كانت تحدق ولاتفهم . اما انيسيم ، الذى كان فى حلة سوداء وخيط احمر بدلا

من رباط العنق ، فقد استغرق فى التفكير وهو يحدق فى نقطة واحدة ، وعندما يصرخ المنشدون عاليا كان يرسم علامة الصليب بسرعة . كان يشعر بالتأثر وبالرغبة في البكاء . كانت هذه الكنيسة مألوفة لديه منذ الصغر . ففى وقت ما جاءت به المرحومة امه لمناولته ، وفى وقت ما غنى مع الصبيان في جوقة المنشدين . انه يذكر جيدا كل ركن هنا وكل ايقونة . وها هم يزفونه ، ها هم يزوجونه كما تقتضى الاصول ، ولكنه لم يعد يفكر في ذلك او يذكر بل نسى العرس تماما . كانت دموعه تعوقه عن تأمل الايقونات ، وثمة شيء كان يضغط على قلبه . راح يصلى ويدعو الله ان يجنبه المصائب المحتومة المتأهبة للانقضاض عليه اليوم او غدا ، ان تتخطاه بصورة ما كما تتخطى العواصف الممطرة القرية فى وقت الجفاف دون ان تلقى اليها بقطرة مطر واحدة . وما أكثر الذنوب التى ارتكبت فى الماضى ، ما اكثر الذنوب ، وما اعمق التردى والتخبط حتى ليبدو طلب الغفران غير مناسب . لكنه طلب الغفران بل وافلتت منه شهقة عالية ، الا ان احدا لم يلتفت الى ذلك ، اذ ظنوا انه سكران .

وتردد بكاء طفل مضطرب :

— خذينى من هنا يا امى يا حبيبتى !

فصاح القس :

— صمتا هناك !

عند عودتهم من الكنيسة جرى الناس خلف موكب العرس . وبجوار الدكان ، وحول البوابة وفى الفناء تحت النوافذ تجمهر حشد . وجاءت المادحات لتحية العروسين . وما ان عبر العروسان العتبة حتى رفع المغنون عقيرتهم بالغناء وكانوا

واقفين فى المدخل مع نوتهم الموسيقية ، وعزفت الفرقة الموسيقية المستأجرة خصيصا من المدينة . وحملوا خمر الدون الفوارة فى كؤوس طويلة ، وقال المقاول النجار يليزاروف ، وهو عجوز طويل نحيف ، بحاجبين غزيرين حتى لا تكاد عيناه تظهران ، مخاطبا العروسين :

— انت يا انيسيم وانت يا بنيتى ، تحابا ، عيشا يا ابنائى بما يُرضى الله ، وسترعاكما السيدة العذراء — ومال على كتف العجوز وانتحب — يا جريجورى بتروف ، هيا نبكى ، لنبك من السعادة ! — قال بصوت رفيع وعلى الفور قهقه فجأة واستطرد بصوت عال غليظ — ها — ها — ها ! وهذه العروس ايضا حلوة ! كل شىء فيها ، يعنى ، فى محله ، كل شىء فيها ناعم ، لن يقرقع ، كل عددها سليمـــــــة مضبوطة ، والبراغى كثيرة .

كان اصله من اقليم يجوريفسك ، ولكنه عمل منذ الصبا فى فبارك اوكلييفو وفى الاقليم واستقر هنا . وعرفوه منذ زمن طويل عجوزا هكذا ونحيفا وطويلا على هذا النحو ، ومنذ زمن طويل سموه بالعكاز . وربما لانه ظل يعمل فى الفبارك اكثر من اربعين عاما فى تصليح الآلات فقط ، لذلك كان يحكم على كل انسان او جماد من زاوية متانته فحسب : الا يحتاج الى تصليح ؟ وقبل ان يجلس الى المائدة جرّب عدة مقاعد ، هل هى متينة ، وجس السمك المملح ايضا .

بعد تناول الخمر الفوارة بدأوا يجلسون . وراح الضيوف يتحدثون ويحركون المقاعد . وفى المدخل غنى المغنون وعزفت الموسيقى ، وفى تلك الاثناء غنت المادحات فى الفناء بصوت واحد ، وتعالى خليط اصوات فظيع رهيب يصدع الرؤوس .

كان العكاز يتلوى على مقعده ويدفع جيرانه بمرفقيه ويشوش على الكلام ، وتارة يبكى وتارة يقهقه .

ودمدم بسرعة :

— يا ابنائى ، يا ابنائى ، يا ابنائى . . . اكسينيوشكا يا عزيزتى ، يا فارفاروشكا ، سنعيش جميعا فى وئام وسلام ، يا فؤوسى الغالية . . .

كان قليلا ما يشرب فسكر الآن من كأس فودكا انجليزية واحدة . ادارت هذه الفودكا الفظيعة ، التى لا يُعرف من اى شيء صنعت ، رؤوس كل من شربها كأنما اهوت عليها بضربة . وتلعثمت الالسنة .

حضر الحفل رجال الدين والوكلاء فى الفبارك مع زوجاتهم ، والتجار ، واصحاب الحانات من القرى الاخرى . وجلس شيخ الناحية وكاتب الناحية اللذان يعملان معا منذ اربعة عشر عاما ولم يوقعا طوال هذه المدة ورقة واحدة ، ولم يتركا احدا يخرج من مقر ادارة الناحية دون ان يخدعاه ويهيناه ، جلسا الآن متجاورين ، كلاهما بدينان ، شبعانان ، وبدا انهما تشبعا بالكذب الى درجة ان بشرة وجهيهما كانت من طينة خاصة ، بشرة نصّابة . وجاءت زوجة الكاتب ، وكانت امرأة هزيلة ، حولاء ، بجميع اولادها معها ، وراحت تنظر شزرا ، كالطير الجارح ، الى الاطباق وتخطف كل ما تقع عليه يدها ، وتدسه فى جيوبها وجيوب الاطفال .

جلست ليبا جامدة ، بنفس التعبير الذى ارتسم على وجهها فى الكنيسة . ومنذ ان تعرف بها انيسيم لم يتبادل معها كلمة واحدة ، حتى انه لم يعرف الى الآن ما صوتها . وقد جلس الآن بجوارها صامتا ايضا ، يشرب الفودكــــا

الانجليزية ، وعندما ثمل تحدث مخاطبا خالتها الجالسة قبالته :

— لدى صديق اسمه ساموروودوف . رجل مخصوص . مواطن فخرى خاص ويستطيع ان يتحدث . ولكننى يا خالة اعرف خباياه ، وهو يشعر بذلك . اسمحى لى ان اشرب معك فى صحة ساموروودوف يا خالة !

ودارت فارفارا حول الموائد وهى تضيّف المدعوين . مرهقة ، شاردة ، وكانت فيما يبدو سعيدة لكثرة المأكولات وفخامة المائدة ، اذن فلن يعتب احد الآن . وغربت الشمس ولكن الغداء استمر ، ولم يعد احد يدرك ماذا يأكل او يشرب ، ولم يعد مسموعا ماذا يقال . واحيانا ، وفقط عندما تصمت الموسيقى ، كان يسمع بوضوح صوت امرأة تصيح فى الفناء :

— مصوا دماءنا الملاعين ، فلتبلعكم جهنم !

وفى المساء رقصوا بمصاحبة الموسيقى . وجاء آل خريمين الاصغر بخمورهم ، ورقص احدهم الكادريل ممسكا فى كل يد بزجاجة وبكأس فى فمه فأضحك ذلك الجميع . وفى اثناء رقصة الكادريل بدأوا فجأة يرقصون قرفصاء وكانت اكسينيا الخضراء تمرق فقط فتثير الهواء بذيل فستانها . وداس احد ما على كورنيش ذيلها الاسفل فصاح العكاز :

— هيه ، خلعوا لك الافريز ! يا ابنائى !

كانت عينا اكسينيا رماديتين ، ساذجتين ، نادرا ما تطرفان ، وارتسمت على وجهها دائما ابتسامة ساذجة . وكان فى هاتين العينين اللتين لا تطرفان ، وفى رأسها الصغير فوق عنقها الطويل ، وفى قدها الرشيق كله ثمة شىء ثعبانى . كانت تنظر ، بجسمها الاخضر وصدرها الاصفر وابتسامتها ،

كما تنظر الافعى فى حقل الجودار الفتى فى الربيع الى شخص عابر ، وقد تمددت ورفعت رأسها . وكان الاخوة خريمين يعاملونها بلا تحفظ ، وظهر واضحا تماما انها على علاقة غرامية باخيهم الاكبر منذ فترة طويلة . ولكن الاطرش لم يفهم شيئا ولم ينظر اليها . كان جالسا ، وقد وضع ساقا على ساق ، يأكل الجوز ويكسره بفرقعة عالية ، حتى بدا وكأنه يطلق النار من مسدس .

وها هو العجوز تسيبوكين نفسه يخرج الى وسط الحلبة ويلوح بمنديله مشيرا الى انه هو ايضا يريد ان يرقص الرقصة الروسية ، فانداح فى المنزل كله وفى الفناء وسط الحشد هدير استحسان :

— هو **ذاته** خرج ! **ذاته** !

فارفارا هى التى رقصت ، اما العجوز فكان يلوح بالمنديل فحسب ويحرك كعبيه ، ولكن اولئك الذين جثموا بعضهم فوق بعض فى الفناء وهم يطلون فى النوافذ كانوا فى غايـة الاعجاب ، وللحظة غفروا له كل شيء : ثراءه واهاناته لهم .

وسمعت اصوات فى الحشد :

— جدع يا جريجورى بتروف ! هكذا ، اجتهد ! اذن فما زلت قادرا بعد ! ها — ها !

وانتهى كل ذلك فى وقت متأخر ، والساعة تدور فى الثانية . ومرّ انيسيم على المنشدين والعازفين مودعا وهو يترنح واهدى كلا منهم نصف روبل جديدا . اما العجوز فلم يكن يترنح ، ولكنه كان يخطو على ساق واحدة وهو يودع الضيوف ويقول لكل منهم :

— العرس تكلف الفين .

وبينما كانوا ينصرفون اخذ شخص ما معطف صاحب حانة شيكالوفو الجديد وترك له معطفه القديم فانفجر انيسيم فجأة وراح يصرخ :

— قف ! سأجده حالا ! انا اعرف من سرق ! قف !

واندفع الى الخارج وطارد شخصا ما . ولكنهم امسكوا به واقتادوه من ابطيه الى المنزل ودفعوه ثملا ، متضرجا من الغضب ، مبللا ، الى الغرفة التى كانت الخالة تنزع فيها الثياب عن ليبا ، واوصدوا الباب .

٤

مرت خمسة ايام . وصعد انيسيم ، الذى كان يستعد للسفر ، الى غرفة فارفارا لكى يودعها . كانت جميع القناديل لديها مشتعلة ، وفاحت رائحة البخور ، اما هى فكانت جالسة بجوار النافذة تحوك جوربا من صوف احمر .

وقالت :

— لم تبق معنا كثيرا . تراك مللت ؟ اوه — هوه — هو . . . اننا نعيش عيشة طيبة ، كل شيء لدينا كثير ، واقمنا عرسك كما يجب ، مضبوط . قال العجوز تكلف الفين . وباختصار نعيش كالتجار لكن الحياة مملة عندنا . وكم نؤذى الناس . قلبى يؤلمنى يا صاحبى ، من اذيتنا للناس ، يا الهى ! وسواء استبدلنا حصانا ، او اشترينا شيئا ، او استأجرنا عاملا . . فكله قائم على الخداع . الخداع ثم الخداع . الزيت فى الدكان مر ، عطن ، حتى القطران عند الناس افضل منه . هلا قلت لى من فضلك ، الا يمكن ان نبيع زيتا جيدا ؟

— كل واحد وله وظيفته يا نينة .

— ولكن الموت قريب ! آه ، آه ! هلا تحدثت مع ابيك !

— هلا تحدثت انت معه .

— طيب ، طيب . اقول له ذلك فيجيبنى مثلما تقول بالحرف : كل واحد وله وظيفته . أتظن انهم سيبحثون يوم القيامة فى وظيفة كل واحد ؟ ان حساب الله عادل .

— بالطبع لن يبحث احد فى شيء — قال انيسيم وتنهد — الله على اى حال غير موجود يا نينة . فاى بحث اذن !

تطلعت اليه فارفارا بدهشة ، ثم ضحكت واشاحت بيديها . ولانها ابدت هذه الدهشة الصادقة من كلماته وتطلعت اليه وكأنه شاذ الاطوار ، فقد احس بالخجل .

وقال :

— ربما كان الله موجودا ، ولكن ليس هناك ايمان . عندما كللونى فى الكنيسة تملكنى انقباض شديـــــــــد . مثلما تمد يدك احيانا لتأخذ بيضة من تحت الدجاجة فاذا فيها كتكوت يصيح ، هكذا صاح ضميرى فجأة ، وطوال فترة التكليل كنت افكر : الله موجود ! ثم خرجت من الكنيسة واذا لا شيء . ومن اين لى ان اعرف هل الله موجود ام لا ؟ علمونا غير ذلك منذ الصغر . الصغير وهو لا يزال يرضع امه يعلمونه شيئا واحدا : كل واحد وله وظيفته . ابى ايضا لا يؤمن بالله . لقد قلت لى ذات مرة انهم سرقوا خرفان آل جونتوريف . . لقد وجدت السارق . سرقها فلاح من شيكالوفو . الفلاح سرقها اما جلودها فعند ابى . . . ارأيت اذن الايمان !

غمز انيسيم بعينه وهز رأسه . ومضى يقول :

— وشيخ الناحية ايضا لا يؤمن بالله ، والكاتب ايضا ، والشماس ايضا . واذا كانوا يترددون على الكنيسة ويصومون فما ذلك الا لكى لا يقول عليهم الناس بسوء ، وتحوطا ، اذ ربما يأتى حقا يوم الحساب . والآن يقال ان يوم القيامة قد جاء لان الناس ضعفوا ولا يحترمون آباءهم وخلافه . هذا كلام فارغ . اما انا ، يا نينة ، فارى ان البلوى كلها سببها قلة الضمير عند الناس . انا ارى خبايا الامور ، يا نينة ، وافهم . اذا كان الشخص يرتدى قميصا مسروقا ، ارى ذلك . يجلس الشخص فى الحانة فيخيل اليك انه يشرب الشاى فقط ، اما انا فارى ، غير الشاى ، انه عديم الضمير . وهكذا تسير طوال اليوم فلا ترى انسانا ذا ضمير . والسبب كله انهم لا يعرفون هل الله موجود ام لا . . . حسنا يا نينة ، الوداع . عيشى طويلا وفى عافية . ولا تذكرينى بسوء .

وانحنى انيسيم لفارفارا حتى الارض . وقال :

— نشكرك على كل شيء . انت تعودين على اسرتنا بفائدة كبيرة . انت امرأة محترمة جدا . انا ممتن لك كثيرا .

وخرج انيسيم المتأثر ، ولكنه عاد ثانية وقال :

— لقد ورطنى ساموردوف فى احد الاعمال ، فاما ان اصبح غنيا واما ان اهلك . فاذا حدث لى شيء فأرجوك يا نينة ان تعزى ابى .

— لا تقل ذلك ! ما هذا ! اوه — هوه — هو . . . رحمة الله عليك . ولكن هلا لاطفت زوجتك يا انيسيم ، اوه — هو ، فانى اراكما دائما عابسين . حقا ، اضحكا مرة على الاقل .

فقال انيسيم متنهدا :

— نعم ، انها غريبة . . . لا تفهم شيئا وتصمت طول الوقت . ما زالت صغيرة جدا ، فلتكبر .

الى جوار الدرج كان يقف مهر عال ، شبعان ، ابيض ، مشدودا الى العربة .

وركض العجوز تسيبوكين وقفز بفتوة وامسك باللجام . وتبادل انيسيم القبلات مع فارفارا واكسينيا واخيه . وعلى الدرج وقفت ليبا ايضا ، وقفت جامدة ، تحدق جانبا ، كأنما لم تخرج للوداع بل هكذا لسبب غير معروف . اقترب منها انيسيم ومس بشفتيه خدها مسا خفيفا . وقال :

— وداعا .

فابتسمت ابتسامة غريبة دون ان تنظر اليه . وارتعش وجهها ، ولسبب ما احس الجميع بالرثاء لها . وقفز انيسيم ايضا الى العربة وذراعه في خصره اذ كان يعتبر نفسه جميلا .

حين صعدا من الخور الى اعلى كان انيسيم يتلفت الى الوراء ، الى القرية . كان يوما دافئا صحوا . ولاول مرة بعد الشتاء اخرجوا الماشية من الحظائر ، فسارت الفتيات والنساء بجوار القطيع مرتديات ثياب العيد . وخار ثور بنى فرحا بالحرية وحفر الارض بقائمتيه الاماميتين . وفي كل مكان ، في الاعلى وفي الاسفل ، صدحت القبرات . وتطلع انيسيم الى الكنيسة الممشوقة البيضاء — فقد بيضوها حديثا — وتذكر كيف صلى فيها منذ خمسة ايام . وتطلع الى المدرسة ذات السطح الاخضر ، والى النهر ، الذى سبح فيه في وقت ما واصطاد السمك ، فتحركت الفرحة في قلبه ، وود لو برز حائط من سطح الارض فجأة ومنعه من المضى قدما ، فبقى مع الماضى وحده .

فى المحطة ذهبا الى البوفيه وشرب كل منهما كأس «خيريس» . ومد العجوز يده فى جيبه ليخرج المحفظة كى يدفع الحساب .

فقال انيسيم :

— انت ضيفى !

فربت العجوز على كتفه بتأثر وغمز بعينه لعامل البوفيه : انظر اى ابن لدىّ !

وقال له :

— لو بقيت يا انيسيم لدينا تمارس عملنا لما كان لك نظير ! ولأغرقتك ذهبا من رأسك الى قدميك .

— مستحيل يا ابَت .

كان النبيذ حامضا قليلا وفاحت منه رائحة شمع التغليف ، ولكنهما شربا كأسا اخرى .

عندما عاد العجوز من المحطة لم يتعرف للوهلة الاولى على كنته الصغرى . فما ان رحل انيسيم عن الفناء حتى تغيرت ليبا ، واصبحت فجأة مرحة . كانت تغسل درج المدخل ، حافية ، فى جونلة قديمة ، مشمرة عن ساعديها ، وهى تغنى بصوت فضى رفيع ، وعندما حملت وعاء الماء القذر الكبير الى الخارج ونظرت الى الشمس وهى تبتسم ابتسامتها الطفولية بدا وكأنها هى ايضا قبرة .

وهز عامل عجوز كان مارا بجوار الدرج رأسه وتنحنح ، وقال :

— يا لهن من كنات رزقك الله بهن يا جريجورى بتروف ! لسن نساء بل كنوزا حقيقية !

٥

في الثامن من يوليو ، يوم الجمعة ، كان يليزاروف ، الشهير بالعكاز ، وليبا عائدين من قرية كازانسكويه ، التى ذهبا اليها للزيارة بمناسبة عيد راعية المعبد عذراء كازان . وعلى مسافة بعيدة خلفهما سارت براسكوفيا ، ام ليبا ، التى كانت تتخلف دائما لمرضها ولهاثها . كان الوقت يقترب من المساء .

وقال العكاز بدهشة وهو يستمع الى ليبا :

— آه ! . . آ—آ . . . وبعدين ؟

فمضت ليبا تقول :

— انني يا ايليا مكاريتش احب المربى جدا . اجلس وحدى فى الركن واظل اشرب الشاى بالمربى . او اشرب مع فارفارا نيكولايفنا وهي تحكى لى شيئا مؤثرا . عندها مربى كثيرة ، اربعة برطمانات . تقول لى : «كلى يا ليبا ولا يهمك» .

— آه ! . . اربعة برطمانات !

— يعيشون فى رغد . شاى بالخبز الابيض . ولحم البقر ايضا بقدر ما تريد . يعيشون فى رغد ، ولكن الحياة مخيفة بينهم يا ايليا مكاريتش ، مخيفة جدا !

— ما الذى يخيفك يا بنيتى ؟ — سأل العكاز ونظر الى الوراء ليرى هل تخلفت براسكوفيا كثيرا .

— فى البداية ، بعد حفلة العرس ، خفت من انيسيم جريجوريتش . لم يفعل بى شيئا ، لم يؤذنى ، ولكن ما ان يقترب منى حتى يقشعر جلدى ، وعظامى كلها تقشعر . لم انم ليلة واحدة ، كنت طوال الوقت ارتعش واصلى للرب .

والآن اخاف من اكسينيا يا ايليا مكاريتش . لم تفعل بى شيئا ، فقط تضحك منى ، ولكن احيانا تطل من النافذة ، وعيناها غاضبتان ، خضراوان تلمعان ، كعينى النعجة فى المعلف . آل خريمين الاصغر يغوونها . يقولون لها : «عند عجوزكم قطعة ارض فى بوتيوكينو ، حوالى اربعين ديسياتينا ، فيها رمل وماء ، هيا يا اكسيوشا ابنى لك مصنع طوب وسنشاركك فيه» . الطوب الآن الالف بعشرين روبلا . عمل رائج . وبالامس قالت اكسينيا للعجوز اثناء الغداء : «انا اريد ان ابنى مصنع طوب فى بوتيوكينو ، اريد ان اصبح تاجـــــرة مستقلة» . قالت ذلك وضحكت . اما جريجورى بتروفتش فقد اربد وجهه ، يبدو ان ذلك لم يعجبه . وقال لها : «طالما انا حى فلا يصح ان نفترق ، ينبغى ان نكون معا» . فلمعت عيناها كالبرق ، وصرت اسنانها . . . وعندما قدموا الرقيق المقلى لم تأكل !

— آه ! . . — دهش العكاز — لم تأكل !

فاستطردت ليبا :

— وهل تقول لى لو تكرمت متى تنام ! تنام نصف ساعة ثم تقفز ناهضة ، وتروح وتجىء ، وتتلصص : ألم يحرق الفلاحون شيئا ، ألم يسرقوا شيئا . . . العيشة معها رهيبة يا ايليا مكاريتش ! اما آل خريمين الاصغر فلم يناموا بعد العرس ، بل ذهبوا الى المدينة ليتقاضوا . والناس يثرثرون بان ذلك من تحت رأس اكسينيا . اثنان من الاخوة وعداها ببناء المصنع ، ولكن الثالث غضب . والفابريكة توقفت شهرا ، وخالى بروخور ، المتعطل عن العمل ، كان يجمع الفتات من الافنية . اقول له هلا ذهبت يا خالى فحرثت الارض او

قطعت الحطب مؤقتا ، لا داعى للفضيحة ! فيقول لى : «بعدت انا عن العمل الفلاحى ، لم اعد اجيد شيئا يـــا ليبنكا ! . .»

وتوقفا بجوار غيضة حور رجراج فتى ليستريحا وينتظرا براسكوفيا . كان يليزاروف مقاولا منذ زمن طويل ، ولكن لم يكن لديه حصان فكان يجوب الاقليم سيرا على الاقدام وليس معه الا كيس فيه خبز وبصل . فكان يسير بخطوات واسعة ويلوح بذراعيه . وكان من الصعب مجاراته فى السير .

عند مدخل الغيضة انتصب عمود حدود الاراضى . فتحسسه يليزاروف ليختبر متانته . وجاءت براسكوفيا وهى تلهث . وتهلل بالسعادة وجهها المغضن ، المذعور دوما : لقد كانت اليوم فى الكنيسة مثل الناس ، ثم ذهبت الى السوق ، وشربت هناك منقوع الكمثرى ! كان نادرا ما يقع لها ذلك حتى انه خيل اليها الآن انها تستمتع بحياتها لاول مرة هذا اليوم . ونهضوا ثلاثتهم بعد ان استراحوا وساروا متجاورين . كانت الشمس قد اوشكت على الغروب ، وتسللت اشعتها عبر الغيضة واضاءت جذوع الاشجار . وفى الامام ترددت اصوات داوية . كانت فتيات اوكلييفو قد سبقن منذ وقت طويل ولكنهن توقفن هنا فى الغيضة ، يبدو لجمع الفطر .

وصاح يليزاروف :

— هيه يا بنـ . . . ات ! هيه يا حلوات !

وسمعوا ضحكا :

— العكاز قادم ! العكاز ! الشيطان العجوز !

وضحك الصدى ايضا . وها هى الغيضة قد اصبحت خلفهم . وظهرت قمم مداخن الفبارك ، ولمع الصليب على

برج الكنيسة . كانت تلك هى القرية ، «نفس القرية التى أكل فيها الشماس فى المأتم كل الكافيار» . هاهم قد وصلوا تقريبا . . لم يبق الا النزول الى ذلك الخور الكبير . جلست ليبا وبراسكوفيا ، اللتان كانتا تسيران حافيتين ، على العشب لارتداء الاحذية . وجلس معهما المقاول . ولو نظرت من اعلى لبدت او كلييفو بصفصافها وكنيستها البيضاء ونهرها جميلة هادئة لا يفسدها الا اسقف الفبارك المطلية بلون قاتم فظيع من باب التوفير . وعلى الجانب الآخر ، عند المنحدر ظهر الجودار اكواما واجرانا هنا وهناك ، وكأنما بعثرته العاصفة ، وكذلك الجودار المحصود لتوه صفوفا . ونضج الشوفان ايضا فاصبح الآن يتموج بالالوان فى ضوء الشمس كالصدف . كان اوان موسم الحصاد . اليوم عيد ، وغدا ، السبت سيجمعون الجودار وينقلون الدريس ، وبعد ذلك الاحد ، سيكون عيد مرة اخرى . كان الرعد البعيد يقرقع كل يوم ، وكان الجو حارا رطبا ، وبدا ان المطر سيسقط ، وكان كل من ينظر الى الحقل الآن يفكر فى ان يهبهم الله الفرصة لجمع المحصول ، وكانت النفوس مبتهجة فرحة بل وقلقة .

وقالت براسكوفيا :

— الحصادون الآن اسعارهم عالية . بروبل واربعين كوبيكا فى اليوم !

وكان الناس يتفاطرون بلا انقطاع قادمين من سوق كازانسكويه . نساء ، وعمال مصانع فى عمرات جديدة ، وشحاذون واطفال . . . وتارة تمر عربة مثيرة الغبار ، ومن خلفها يجرى حصان لم يُبع وكأنه سعيد لانهم لم يبيعوه ، وتارة يسحبون بقرة من قرونها ، بينما تحرن ، وتارة عربة اخرى

وفيها فلاحون سكارى يدلون منها سيقانهم . وقادت امرأة عجوز صبيا فى طاقية كبيرة وحذاء كبير . وكان الصبى مرهقا من الحر والحذاء الثقيل الذى كان يمنع ساقيه من الانثنـــــــاء عند الركبتين ، ولكنه سار ، وهو ينفخ بكل قواه ودون انقطاع فى بوق صغير . وهبطوا الى اسفل وانعطفوا الى الشارع بينما كان صوت البوق لا يزال مسموعا .

وقال يليزاروف :

— صناعيونا ثائرون لسبب ما . يا للمصيبة ! غضب كوستيو كوف منى . قال : «استهلكتم الواحا كثيرة فى عمل الافاريز» . ما معنى كثيرة ؟ — قلت له — استهلكنا يا فاسيلى دانيليتش بالقدر المطلوب . اننى لا آكلها مع العصيدة ، هذه الالواح . فقال : «كيف تجرؤ على توجيه هذه الكلمات لى ؟ يا مغفل ، يا بليد ! اعرف قدرك ! — وصرخ — انا الذى جعلت منك مقاولا !» فقلت له : يا سلام ، شيء عظيم ! عندما لم اكن مقاولا كنت مع ذلك اشرب الشاى كل يوم . فقال : «كلكم محتالون» . . . فسكت . وقلت لنفسى : نحن محتالون فى هذه الدنيا ، وانتم ستكونون محتالين فى الآخرة . ها — ها — ها ! وفى اليوم التالى هدأت ثائرته . قال لى : «لا تغضب منى يا مكاريتش على ما قلته لك . لو كنت قلت شيئا زائدا فلا بأس ، انا تاجر من الطبقة الاولى ، اكبر منك ، ومن واجبك ان تسكت» . فقلت له : انت تاجر من الطبقة الاولى وانا نجار ، هذا مضبوط . ويوسف القديس كان ايضا نجارا . ان عملنا ورع ، يرضى عنه الله ، اما اذا كنت تريد ان تكون اكبر فتفضل يا فاسيلى دانيليتش . وبعد ذلك ، بعد هذا الحديث يعنى فكرت :

من الاكبر ؟ التاجر من الطبقة الاولى ام النجار ؟ هو النجار يا ابنائي !

وفكر العكاز ثم اضاف :

— هو كذلك يا ابنائي . من يعمل ، من يتحمل فهو الاكبر .

غربت الشمس ، وتصاعد ضباب كثيف أبيض كاللبن فوق النهر وفي باحة الكنيسة وفي الفسحات المحيطـــــــــة بالفبارك . والآن ، عندما زحفت الظلمة بسرعة ، وومضت الاضواء في الاسفل ، وعندما بدا ان الضباب يخفي تحته هوة سحيقة ، ربما خيل لليبا وامها ، اللتين ولدتا شحاذتين وكانتا على استعداد للعيش هكذا حتى النهاية ، ولتقديم كل ما لديهما للغير ما عدا روحيهما المذعورتين الوديعتين . . ربما خيل اليهما للحظة انهما هما ايضا قوة في هذا العالم الهائل الغامض ، ضمن الاعداد اللانهائية من الارواح ، وانهما اكبر من اشخاص ما . كانتا تشعران بالراحة وهما جالستان هنا في الاعلى ، وابتسمتا بسعادة ، ونسيتا انه لا بد مع ذلك من العودة الى اسفل .

واخيرا عادوا الى البيت . كان الحصادون جالسين على الارض عند البوابة وقرب الدكان . وفي العادة لم يكن حصادو او كلييفو يذهبون للعمل عند تسيبو كين ، فيضطر الى استئجار الغرباء ، فبدا الآن في العتمة ان الجالسين مجرد اشخاص ذوي لحى طويلة سوداء . كان الدكان مفتوحا وظهر الاطرش من الباب وهو يلاعب صبيا الضامة . وغنى الحصادون بصوت خافت لايكاد يسمع او كانوا يطالبون عاليا بنقدهم اجرهم عن يوم الامس ولكن لم يدفعوا لهم حتى لا ينصرفوا قبل

الغد . وكان العجوز تسيبوكين بلا سترة ، فى الصديرى ، يشرب الشاى مع اكسينيا قرب المدخل تحت شجرة بتولا . وعلى المائدة اشتعل مصباح .

ونادى حصاد من وراء البوابة وكأنه يشاكسه :

— يا جدو . ادفع ولو النصف . يا جدو .

وعلى الفور تردد ضحك ، ثم عادوا يغنون بصوت لا يكاد يسمع . . . وجلس العكاز ليشرب الشاى ايضا .

وشرع يتحدث :

— ذهبنا اذن للسوق . تفسحنا يا ابنائى . تفسحنا جيدا جدا ، الحمد لك يا رب . ووقعت حادثة سيئة . اشترى الحداد ساشكا تبغا واعطى للتاجر نصف روبل . واذا بنصف الروبل مزيف — قال العكاز وتلفت حوله . كان يريد ان يتحدث همسا ولكنه تحدث بصوت مكتوم مبحوح سمعه الجميع — واذا بنصف الروبل مزيف . سألوه : من اين اخذته ؟ فقال : اعطاه لى انيسيم تسيبوكين . عندما حضرت حفل زواجه . . . واستدعوا الشرطى ، واخذوه . . . احذر يا بتروفيتش والا وقع سوء . . .

وتردد ثانية نفس الصوت المشاكس :

— يا جدو ! يا جدو !

وساد الصمت .

— آه يا ابنائى ، يا ابنائى ، يا ابنائى . . . — دمدم العكاز بسرعة ثم نهض ، فقد تملكه النعاس — طيب ، شكرا على الشاى والسكر يا ابنائى . حان وقت النوم . اصبحت خائرا ، نخر السوس كل عوارضى . ها — ها — ها !

وقال وهو ينصرف :

— يبدو آن ان اموت !

وشهق . اما العجوز تسيبو كين فلم يكمل شرب الشاى ، ولكنه ظل جالسا يفكر . وبدا على وجهه كأنما كان ينصت لخطوات العكاز الذى اصبح بعيدا .

وقالت اكسينيا وقد فطنت الى ما يفكر فيه :

— ربما كان ساشكا الحداد كاذبا .

دخل العجوز الدار ثم عاد بعد قليل بصرة . وعندما فكها برقت روبلات جديدة تماما . واخذ واحدا منها واختبره باسنانه ثم القاه على الصينية . ثم القى بآخر . . .

— الروبلات فعلا مزيفة — دمدم وهو ينظر الى اكسينيا كأنما متعجبا — انها تلك . . . التى احضرها انيسيم آنذاك ، هديته — ثم قال هامسا وهو يدس الصرة فى يديها — خذيها يا بنتى ، خذيها وارميها فى البئر . . . فى داهية ! واحذرى ان يعلم احد . والا وقع سوء . . . احملى السماور ، اطفئى النور . . .

رأت ليبا وبراسكوفيا الجالستان فى الحظيرة كيف انطفأت الانوار واحدا تلو الآخر ، ولم تشتعل الا القناديل الزرقاء والحمراء عند فارفارا فى الطابق العلوى ، وتناهت من هناك السكينة والرضا واللامعرفة . لم تستطع براسكوفيا ابدا ان تتعود على فكرة ان ابنتها متزوجة من غنى ، وعندما كانت تأتى لزيارتها تنكمش بوجل فى المدخل وتبتسم باستجداء فيرسلون اليها الشاى والسكر . ولم تستطع ليبا ايضا ان تتعود ، وبعد ان سافر زوجها لم تعد تنام فى سريرها بل حيثما كان ، فى المطبخ او فى الحظيرة ، وكل يوم تمسح الارضية او تغسل الملابس ، وخيل اليها انها تعمل بالمياومة . والآن ،

بعد عودتهما من الزيارة جلستا فى المطبخ تشربان الشاى مع الطاهية ، ثم ذهبتا الى الحظيرة ورقدتا على الارض بين الزحافة والحائط . كان المكان هنا مظلما وفاحت رائحة النيور . وانطفأت الانوار بقرب المنزل ، ثم ترددت جلبة الاطرش وهو يغلق الدكان وهسيس الحصادين وهم يستعدون للنـــــوم على ارض الفناء . وبعيدا عند آل خريمين الاصغر عزفوا على اكورديون ثمين . . . ونعست براسكوفيا وليبا . . .

وعندما ايقظتهما خطوات ما كان المكان مضيئا من نور القمر . كانت اكسينيا واقفة فى الباب وفى يديها فراش .

— اظن هنا ابرد . . . — دمدمت ثم دخلت فرقدت قرب العتبة تماما ، واضاءها القمر كلها .

لم تنم وظلت تزفر زفرات ثقيلة وهى تتململ من الحر ، وطوحت عن جسدها كل شيء تقريبا . . . وفـــــى ضوء القمر الساحر كم كان جميلا وابيا هذا الحيوان ! ومر بعض الوقت ثم ترددت خطوات مرة اخرى . كان العجوز يقف فى الباب ، ابيض كله .

ونادى :

— اكسينيا ، هل انت هنا ؟

فاجابت بغضب :

— وماذا ؟

— لقد قلت لك من فترة ان ترمى النقود فى البئر . هل رميتها ؟

— وهل تريدنى ان ارمى الخير فى الماء ! لقد اعطيتها للحصادين . . .

— يا الهى ، يا الهى ! — دمدم العجوز فى ذهول

ورعب — يا لك من امرأة شقية . . . آه يا الهى !

اشاح بيديه وانصرف وظل طوال ابتعاده يدمدم بشيء ما . وبعد ذلك بفترة نهضت اكسينيا فجلست وزفرت زفرة ثقيلة وبأسى ، ثم قامت وجمعت الفراش تحت ابطها وذهبت .

وتمتمت ليبا :

— لماذا زوجتنى هنا يا اماه !

— الزواج ضرورى يا بنتى . ولسنا نحن الذين ابتدعنا هذه الامور .

كان الاحساس بالاسى الذى لا عزاء له على وشك ان يستولى عليهما . ولكن خيل اليهما ان احدا ينظر اليهما من علياء السماء ، من زرقتها ، من هناك حيث النجوم ، ويرى كل ما يحدث فى اوكلييفو ويراقب . ومهما كان الشر عظيما فالليلة مع ذلك هادئة رائعة ، والحقيقة فى دنيا الله رغم ذلك موجودة وستبقى موجودة ، بهذا الهدوء والجمال ، وكل ما على الارض فى انتظار ان يتحد بالحقيقة كما تتحد اشعة القمر بالليل .

واذ هدأتا نامتا ، وقد التصقت احداهما بالاخرى .

٦

علموا منذ فترة طويلة بنبأ القبض على انيسيم وسجنه بتهمة تزييف النقود وترويج العملات المزيفة . ومرت اشهر ، مر اكثر من نصف عام ، وانقضى الشتاء الطويل وحل الربيع وتعود الجميع ، فى المنزل وفى القرية على وجود انيسيم فى السجن . وعندما كان احد ما يمر ليلا بجوار المنزل او الدكان

كانوا يتذكرون ان انيسيم في السجن . وعندما يتردد رنين الاجراس عند المدافن كانوا ايضا لسبب ما يتذكرون انه فى السجن ينتظر المحاكمة .

وبدا وكأن ظلا ارتمى على الدار . فقد اصبح المنزل داكنا ، وصدىء السطح ، اما باب الدكان المصفح بالحديد والثقيل والمطلى باللون الاخضر فقد تجعد او كما قال الاطرش : «تكرمش» . وحتى العجوز تسيبو كين نفسه بدا وكأنما اصبح داكنا . كف منذ وقت طويل عن قص شعره ولحيته فاستطالت ، ولم يعد يجلس فى العربة قفزا ، ولا يصرخ بالشحاذين : «الله يسهل لك !» واخذت قوته تتدهور ، وظهر ذلك واضحا فى كل شيء . واصبح الناس يخشونه اقل من ذى قبل ، وحرر له الشرطى محضرا فى الدكان رغم انه كان يتلقى نصيبه كما فى السابق . واستدعوه ثلاث مرات الى المدينة لمحاكمته على الاتجار سرا فى الخمور ، فكانت القضية تتأجل باستمرار لعدم حضور الشهود ، وارهق العجوز .

كان يسافر الى ابنه كثيرا ، ويستأجر اشخاصا ما ، ويرفع التماسات لاشخاص ما ، وتبرع بقماش بيرق لكنيسة ما . وقدم لحارس السجن الذى كان فيه انيسيم حاملا فضيا لكوب منقوشا عليه «الروح تعرف حدودها» وملعقة طويلة .

وكانت فارفارا تقول :

— لا يوجد من يسعى من اجله بحق ، اوه — هوه — هو . . . لو تطلب من احد السادة ان يكتب الى المسؤولين الكبار . . . لو يطلقوا سراحه لحين المحاكمة على الاقل ! ما الداعى لتعذيب الفتى !

كانت هى ايضا حزينة ، لكنها سمنت وابيضت ،

وكانت تشعل القناديل فى غرفتها كما فى السابق وتراعى ان يكون كل شيء فى المنزل نظيفا ، وتقدم للضيوف المربى وباستيليا التفاح . وكان الاطرش واكسينيا يعملان فى الدكان . وافتتحوا مشروعا جديدا — مصنعا للطوب فى بوتيوكينو ، فكانت اكسينيا تسافر الى هناك كل يوم تقريبا بالعربة . كانت تقودها بنفسها ، وعندما تقابل احد المعارف تمط عنقها ، كالافعى فى الجودار الفتى ، وتبتسم بسذاجة وغموض ، اما ليبا فكانت تلعب طول الوقت مع ابنها الذى ولد قبيل الصيام . كان طفلا صغيرا ، هزيلا ، يثير الشفقة ، وكان من الغريب انه يصرخ وينظر وانهم يعتبرونه انسانا ، بل ويسمونه نيكيفور . كان يرقد فى مهده ، بينما تمضى ليبا الى الباب ثم تقول من هناك وهى تنحنى :

— مرحبا يا نيكيفور انيسيميتش !

ثم تركض نحوه باندفاع وتقبله . وتعود الى الباب وتنحنى وتقول مرة اخرى :

— مرحبا يا نيكيفور انيسيميتش !

فكان يرفع ساقيه الحمراوين ويختلط بكاؤه بالضحك مثل النجار يليزاروف .

واخيرا تحدد يوم المحاكمة . وسافر العجوز قبل ذلك بخمسة ايام . ثم قيل ان الفلاحين قد سيقوا من القرية للادلاء بالشهادة . ورحل ايضا العامل العجوز الذى تلقى هو الآخر استدعاء .

كانت المحاكمة يوم الخميس ، ولكن مر الاحد ولم يعد العجوز ولم تصلهم عنه اية اخبار . وفى يوم الثلاثاء ، قبيل المساء ، جلست فارفارا امام النافذة المفتوحة تصيخ اذ

ربما يأتى العجوز . وفى الغرفة المجاورة كانت ليبا تلعب مع ابنها . كانت تقذف به وتتلقاه على ذراعيها وتقول باعجاب :

— ستكبر وتصبح كبيرا كبيرا . وستصبح فلاحا ونذهب معا للمياومة ! سنذهب للمياومة !

فقالت فارفارا باحتجاج :

— اخص ! ما هذه المياومة التى تفكرين فيها يا مغفلة ؟ سيصبح ابننا تاجرا ! . .

وغنّت ليبا بصوت خافت ، ولكنها نسيت نفسها بعد قليل وقالت ثانية :

— ستكبر وتصبح كبيرا كبيرا ، ستصبح فلاحا ، وسنذهب معا الى المياومة .

— اخص ، كفاك !

فوقفت ليبا فى الباب ونيكيفور على ذراعيها وسألت :

— لماذا احبه هكذا يا نينة ؟ لماذا اشفق عليه هكذا ؟ — واستطردت تقول بصوت متهدج واغرورقت عيناها بالدموع — من هو ؟ وكيف يبدو ؟ انه خفيف كالريشة ، كالوبرة ، ولكنى احبه ، احبه كأنه انسان حقيقى . ها هو لا يقدر على شيء ، ولا يتكلم ، ولكنى افهم من عينيه الصغيرتين كل ما يريد .

واصاخت فارفارا السمع ، فقد تناهى دوى قطار المساء القادم الى المحطة . ألم يصل العجوز ؟ ولم تعد تسمع او تفهم ما تقوله ليبا ، ولا تذكر كيف يمضى الوقت ، بل كانت ترتعش كلها ، لا بسبب الخوف بل من شدة الفضول . ورأت عربة تمر بسرعة وجلبة ، محملة بالفلاحين . كانوا الشهود العائدين من المحطة . وعندما مرت العربة امام

الدكان قفز منها العامل العجوز وتوجه الى الدار . وتناهت من الفناء اصوات تسلم عليه وتسأله عن شيء ما . . .

فقال بصوت عال :

— مصادرة الحقوق وجميع الاملاك ، ثم النفى الى سيبيريا ، اشغال شاقة لست سنوات .

وظهرت اكسينيا وهى تخرج من الباب الخلفى للدكان . فرغت لتوها من صب الكيروسين فكانت ممسكة فى احدى يديها بزجاجة وفى الاخرى بقمع ، وفى فمها بنقود فضية .

وسألت بثأثأة :

— واين بابا ؟

فأجاب العامل :

— فى المحطة . قال : «سأعود عندما تظلم الدنيا» .

وعندما علموا فى الدار ان انيسيم قد حكم عليه بالاشغال الشاقة اعولت الطاهية فى المطبخ فجأة كأنما على ميت ، معتقدة ان ذلك ما تقتضيه الاصول :

— لمن تركتنا يا انيسيم جريجوريتش ، يا صقرنا الغالى . . .

ونبحت الكلاب المنزعجة . وهرعت فارفارا الى النافذة وقد تملكتها الوحشة وراحت تصرخ فى الطاهية مستجمعة صوتها بكل قواها :

— كفاك يا ستيبانيدا ، كفاك ! لا تعذبينى بحق المسيح !

ونسوا اشعال السماور ، ولم تعد لديهم قدرة على التفكير. ليبا وحدها هى التى لم تستطع ابدا ان تفهم ماذا حدث وواصلت لهوها مع الطفل .

وعندما جاء العجوز من المحطة لم يسأله احد عن شيء . سلّم ، ثم طاف بجميع الغرف فى صمت ، ولم يتناول العشاء .

ولما جلسا معا بدأت فارفارا تقول :

— ليس هناك من يسعى . . . ألم اقل لك ان تطلب من السادة ، ولكنك لم تطاوعنى . . . لو التماس . . .

— بل سعيت ! — قال العجوز ثم اشاح بيده — ما ان حكموا على انيسيم حتى هرعت الى ذلك السيد الذى كان يحامى عنه ، فقال : «لا استطيع ان افعل شيئا الآن ، تأخرت» . وانيسيم ايضا قال : تأخرت . ومع ذلك فما ان خرجت من المحكمة حتى اتفقت مع احد المحامين ، واعطيته عربونا . . . سأنتظر اسبوعا ثم أسافر ثانية . الله على كل شيء قدير .

وطاف العجوز ثانية بجميع الغرف فى صمت ، وعندما عاد الى فارفارا قال :

— يبدو اننى مريض . فى رأسى هذا . . . ضباب . افكارى مشوشة .

واغلق الباب حتى لا تسمعه ليبا واستطرد بصوت خافت :

— امورى سيئة مع النقود . أتذكرين عندما اعطانى انيسيم قبيل العرس ، فى عيد الفصح ، روبلات وانصاف روبلات جديدة ؟ ساعتها خبأت صرة ، اما بقية النقود فخلطتها بنقودى . . . عندما كان عمى دميترى فيلاتيتش ، عليه الرحمة ، على قيد الحياة ، كان يسافر كثيرا تارة الى موسكو وتارة الى القرم لشراء البضائع . وكانت لديه زوجة ، وعندما كان يسافر لشراء البضائع كانت هذه الزوجة يعنى ، تخونه مع الآخرين .

وانجبت ستة ابناء . وحين يسكر عمى كان يضحك ويقول : «لا اعرف ابدا اين ابنائى فى هؤلاء واين ابناء الآخريـــن» . كان دمث الطباع يعنى . وهكذا انا الآن لا اعرف اى نقودى الحقيقى وايها المزيف . ويخيل لى انها كلها مزيفة .

— لماذا تقول ، اتق الله !

— وانا اشترى التذكرة فى المحطة دفعت ثلاثة روبلات ، وخيل الىّ انها مزيفة . كم شعرت بالرعب . يبدو اننى مريض .

— ما العمل ، الاعمار بيد الله . . . اوه — هوه — هو . . . — دمدمت فافارا وهزت رأسها — ينبغى ان تفكر فى ذلك يا بتروتش . . . قد يحدث شىء بين يوم وليلة ، فانت لست شابا . واذا مت فربما آذوا حفيدك من بعدك . آه كم اخشى ان يؤذوا نيكيفور ! طبعا ، ابوه اعتبره انتهى ، وامه صغيرة ، عبيطة . . . سجل له ولو قطعة الارض فى بوتيوكينو يا بتروفتش حقا . . . سجلها باسمه . فكر فى ذلك — مضت فارفارا تقنعه — الصبى لطيف ، مسكين ! اذهب غدا واكتب الورقة . فيم الانتظار ؟

فقال تسيبوكين :

— حقا لقد نسيت الحفيد . . . ينبغى ان اسلّم عليه . تقولين انه صبى لا بأس به ؟ حسنا ، فليكبر . على بركة الله .

وفتح الباب وثنى اصبعه داعيا ليبا . فاقتربت منه والصبى على ذراعيها .

وقال لها :

— اذا احتجت شيئا يا ليبا قولى . كلى ما تشائين ، نحن لا نبخل بشىء ، المهم ان تكونى بخير . . . — ورسم

علامة الصليب على الصبي — حافظي على الحفيد . لم يعد لدى ابن ، فليبق لى الحفيد .

وانحدرت الدموع على خديه . وشهق وابتعد . وبعد ذلك بقليل اوى الى الفراش فنام نوما عميقا بعد سبع ليال من السهاد .

٧

سافر العجوز الى المدينة لمدة قصيرة وعاد . واخبر شخص ما اكسينيا انه ذهب الى مكتب التسجيل ليكتب وصية ، وانه اوصى لحفيده نيكيفور ببوتيوكينو ، التى كانت اكسينيا تصنع فيها قوالب الطوب المحروق . اخبروها بذلك صباحا ، عندما كان العجوز وفارفارا جالسين قرب الدرج ، تحت شجرة البتولا ، يشربان الشاى . فاوصدت الدكان من جهة الشارع ومن جهة الفناء ، وجمعت كل ما كان لديها من مفاتيح ، وقذفت بها تحت قدمى العجوز .

— لن اعمل بعد الآن فى خدمتكم ! — صاحت بصوت عال وانفجرت فى البكاء فجأة — واذن فانا لست كنّة عندكم بل عاملة ! الناس كلهم يضحكون منى . يقولون «انظروا اية عاملة وجدها آل تسيبو كين !» انتم لم تستأجرونى ! انا لست شحاذة ولا وضيعة الاصل ، انا بنت ناس .

ودون ان تمسح دموعها سددت الى العجوز عينين مليئتين بالدموع ، حاقدتين ، حولاوين من الغضب . وكان وجهها ورقبتها احمرين متوترين اذ كانت تصرخ بكل قواها .

ومضت تقول :

— لا اريد ان اخدمكم اكثر ! انهد حيلى ! العمل ، والجلوس فى الدكان طول النهار ، والخروج ليلا لبيع الفودكا — هذا لى ، اما اهداء الارض — فلهذه الشقية زوجة المجرم وشيطانها الصغير ! هى هنا السيدة ، المالكة ، وانا خادمتها ! اعطها كل شيء ، زوجة المجرم هذه ، فلتغص به ، اما انا فسأذهب الى بيتنا ! هاتوا لكم حمقاء غيرى ايها السفاحون الملاعين !

لم يحدث ابدا ان سب العجوز فى حياته او عاقب اولاده ، بل لم تخطر حتى بذهنه فكرة ان يجرؤ احد من افراد اسرته على توجيه هذه الكلمات النابية اليه او معاملته بعدم احترام . ولذلك فقد خاف جدا ، وهرول الى الدار ، واختبأ خلف الصوان . اما فارفارا فاستولى عليها الذهول حتى انها لم تستطع ان تنهض من مكانها ، بل راحت تشيح بكلتا يديها كأنما تحمى نفسها من نحلة ستلدغها .

ودمدمت فى رعب :

— آى ، يا ربى ما هذا ؟ ما لها تصرخ ؟ اوه — هوه — هو . . . سيسمع الناس ! اخفضى صوتك . . اخفضى صوتك !

وواصلت اكسينيا صياحها :

— اعطيتم زوجة المجرم بوتيوكينو ، ولتعطوها اذن كل شيء ، لا اريد منكم شيئا ! فلتذهبوا فى داهية ! كلكم عصابة واحدة . كفانى ما رأيته عندكم ! نهبتم السائرين والراكبين ايها الاشقياء ، نهبتم الصغير والكبير ! ومن الذى كان يبيع الفودكا بدون ترخيص ؟ والنقود المزيفة ؟

ملأتم صناديقكم نقودا مزيفة ، والآن لم تعودوا بحاجة الىّ !

تجمع حشد من الناس امام البوابة المفتوحة على مصراعيها واخذوا يطلون فى الفناء .

وصاحت اكسينيا :

— فلينظر الناس ! سافضحكم ! ساجعلكم تحرقون خزيا ! ستر كعون تحت قدمى — ونادت الاطرش — اسمع يا ستيبان ! لنذهب حالا الى دارنا ! لنذهب الى ابى وامى ، لا اريد ان اعيش مع المجرمين ! هيا !

كان الغسيل معلقا على حبال مشدودة فى الفناء . فراحت تنزع جونلاتها وبلوزاتها ، المبللة بعد ، وتلقى بها الى يدى الاطرش . ثم جن جنونها فاخذت تدور فى الفناء حول الغسيل وتنزع كل شيء ، وتلقى بما ليس لها على الارض وتدوسه بقدميها .

وتأوهت فارفارا :

— آه يا ربى ، امسكوها ! ما هذا الذى تفعله ؟ اعطوها بوتيوكينو ، اعطوها بحق المسيح فى السماء !

وقال الواقفون عند البوابة :

— يا لها من امرأة ! امّا امرأة ! ما اعنـــــــف ثورتها !

واندفعت اكسينيا الى المطبخ حيث كانوا يغسلون فى تلك اللحظة . كانت ليبا هى التى تغسل وحدها ، اما الطاهية فذهبت الى النهر لتشطف الغسيل . وتصاعد البخار من الطست والقدر بجوار الموقد ، وكان الجو فى المطبخ خانقا وكابيا من الضباب . وكانت كومة من الملابس القذرة ما تزال علـــى

الارض ، ورقد نيكيفور رافعا ساقيه الحمراوين على اريكة بجوارها حتى لا يصاب بسوء لو وقع . وفي اللحظة التى دخلت فيها اكسينيا كانت ليبا قد استخرجت من الكومة قميص اكسينيا ووضعته فى الطست ، ومدت يدها الى الابريق الكبير الموضوع على الطاولة والذى كان به ماء يغلى . . .

— هاتى ! — قالت اكسينيا وهى تنظر اليها بكراهية ، وشدت القميص من الطست — لا شأن لك بملابسى حتى تلمسيها ! انت زوجة مجرم ويجب ان تعرفى مكانك ومركزك !

نظرت اليها ليبا بذهول وعدم فهم ، ولكنها لمحت فجأة تلك النظرة التى صوبتها اكسينيا الى الطفل ، وادركت على الفور معناها فشحبت وتثلجت اطرافها . . .

— اخذت ارضى ، فلتأخذى جزاءك !

قالت اكسينيا ذلك والتقطت الابريق بالماء المغلى ورمت بالماء على نيكيفور .

دوت اثر ذلك صرخة لم تسمع او كلييفو لها مثيلا من قبل ، وكان امرا لا يصدق ان مخلوقا صغيرا وضعيفا مثل ليبا يمكن ان يصرخ هكذا . وفجأة شمل السكون الفناء . وذهبت اكسينيا الى البيت فى صمت ، بنفس ابتسامتها الساذجة المعهودة . . . وظل الاطرش يتمشى فى الفناء ضاما الغسيل الى صدره ، ثم اخذ يعلقه ثانية فى صمت وعلى مهل . والى ان عادت الطاهية من النهر لم يجرؤ احد على دخول المطبخ لمعرفة ماذا هناك .

٨

ذهبوا بنيكيفور الى مستشفى الاقليم ، وفى المساء توفى هناك . ولم تنتظر ليبا حتى يحضروا ليأخذوها ، بل لفت الميت فى بطانية صغيرة وحملته عائدة الى البيت .

كان المستشفى ، الجديد ، المبنى مؤخرا ، بنوافذ كبيرة ، يقوم فوق تل عال . ولمعت نوافذه كلها فى ضوء الشمس الغاربة فبدا وكأنه يشتعل فى الداخل . وفى الاسفل كانت قرية . هبطت ليبا على الطريق ، وقبل ان تبلغ القرية جلست عند بركة صغيرة . وجاءت امرأة ما بحصان لتسقيه ، ولكنه لم يشرب .

فقالت المرأة بصوت خافت مستغربة :

— ماذا تريد ايضا ؟ ماذا تريد ؟

وجلس صبى فى قميص احمر قرب الماء يغسل حذاء ابيه . ولم يظهر سواه احد بتاتا لا فى القرية ولا على التل .

وقالت ليبا وهى تنظر الى الحصان :

— لا يشرب . . .

وهاهى المرأة والصبى بالحذاء فى يديه قد انصرفا ولم يعد يرى احد . واوت الشمس الى النوم وتغطت بوشاح احمر موشى بالذهب ، وامتدت فى السماء سحب طويلة ، حمراء وبنفسجية تحرس سكينتها . وفى جهة بعيدة ، غير معروفة ، صاحت واقة بصوت كئيب اصم مثل بقرة محبوسة فى حظيرة . كان صياح هذا الطائر الغامض يسمع كل ربيع ، ولكن احدا لم يعرف كيف يبدو واين يعيش . وصدحت البلابل عند المستشفى فى الاعلى ، وفى الخمائل بجوار البركة تماما ووراء القرية وفى جميع انحاء الحقل . ونعق الوقوق وهو يعد

سنوات عمر شخص ما ويخطئ فى الحساب فيبدأ مــــن جديد . ونقّت الضفادع فى البركة بغضب وجهد وهى تتنادى ، بل وكان يمكن تمييز كلمات : «انت كذلك ! انــــت كذلك !» فى نقيقها . يا لها من ضجة ! بدا ان كل هذه الدواب تصرخ وتصدح عمدا ، لكى لا ينام احد فى هذا المساء الربيعى ، لكى يتشبث الجميع ، حتى الضفادع الغاضبة ، ويستمتعوا بكل دقيقة : فالحياة لا تعطى الا مرة واحدة !

واضاء فى السماء هلال فضى ، وكان هناك الكثير من النجوم . ولم تذكر ليبا كم من الزمن جلست بجوار البركة ، ولكن عندما نهضت ومضت كان الجميع نياما فى القرية ولم يلح ضوء واحد . كانت المسافة الى الدار حوالى اثنى عشر فرسخا فى الغالب ، ولكن قواها خارت ولم تعرف الى أين تمضى . وكان الهلال يلمح تارة امامها وتارة الى يمينها ، وصاح ذلك الوقوق ولكن بصوت اصبح مبحوحا وضاحكا وكأنه يغيظها : احذرى ، ستضلين الطريق ! سارت ليبا بسرعة ، وفقدت منديل رأسها . . . وتطلعت الى السماء وفكرت : ترى اين روح ابنها الآن ، هل تتبعها ام تحلق هناك فى الاعلى ، قرب النجوم ولا تفكر بعد فى امها ؟ اوه ، ما اشد الوحدة فى الحقل ليلا ، وسط هذا الغناء ، بينما لا تستطيع ان تغنى ، وسط صيحات الفرح المتصلة ، بينما لا تستطيع ان تفرح ، وبينما يطل الهلال من السماء ، وايضا وحيدا ، سيان لديه أربيع الآن ام شتاء ، واحياء الناس ام اموات . . . عندما تحل بالنفس فاجعة يصبح الامر قاسيا بدون الناس . لو كانت معها امها براسكوفيا ، او العكاز ، او الطاهية ، او اى فلاح !

وصاحت الواقة :

— بو—و . . . بو—و . . .

وفجأة ترددت بوضوح كلمات بشرية :

— سرّج يا فافيلا !

في الامام ، بجوار الطريق تماما اشتعلت نار . . لم يعد هناك لهب بل اضاءت الجمرات الحمراء وحدها . وتردد مضغ خيول . وفي الظلام لاحت عربتان ، واحدة تحمل برميلا ، والاخرى اقل ارتفاعا ، عليها زكائب ، وظهـــر شخصان : احدهما ساق حصانا ليسرجه ، بينما وقف الآخر بجوار النار جامدا ، عاقدا يديه خلف ظهره . وزمجر كلب بجوار العربة ، فتوقف الذى كان يسوق الحصان وقال :

— يبدو ان احدا يسير على الطريق .

وصاح الآخر بالكلب :

— اسكت يا «شاريك» !

ومن الصوت كان من الممكن ادراك ان هذا الشخص الآخر كان عجوزا . وتوقفت ليبا وقالت :

— الله يساعد .

فاقترب منها العجوز واجاب بعد فترة :

— مرحبا .

— ألن يعضنى كلبك يا جدى ؟

— لا تخافى ، مرّى ، لن يمسك .

فصمتت ليبا قليلا ثم قالت :

— انا كنت فى المستشفى . ولدى مات هناك . وها انذا اعود به الى البيت .

يبدو ان العجوز انزعج من سماع ذلك فقد ابتعد عنها



وتمتم بعجلة :

— لا بأس يا بنيتي . مشيئة الله — وقال ملتفتا الى رفيقه — تتباطأ يا فتى ، هيا اسرع !

فقال الفتى :

— قوس عربتك غير موجود . لا اراه .

— ما اقل حيلتك يا فافيلا !

ورفع العجوز جمرة ونفخ فيها فلم تضىء الا عينيه وانفه ، وبعد ان وجدا القوس اقترب بالنار من ليبا وتطلع اليها . وكانت نظرته تعبر عن الشفقة والرقة .

وقال لها :

— انت ام ، وكل ام يعز عليها ولدها .

وزفر وهز رأسه اذ قال ذلك . والقى فافيلا بشيء ما على النار وداسها بقدميه ، وعلى الفور اطبقت ظلمة حالكة . اختفت المرئيات ، ولم يعد هناك الا الحقل والسماء كما في السابق ، وضجت الطيور وهي تعوق بعضها بعضا عن النوم . و بدا كأن السمان يصيح في ذلك المكان الذى كانت فيه النار .

ولم تمر دقيقة الا واصبح من الممكن رؤية العربتين والعجوز وفافيلا الطويل . وصرت العربتان وهما تصعدان الى الطريق .

وسألت ليبا العجوز :

— هل انتم قديسون ؟

— كلا . نحن من فرسانوفو .

— عندما نظرت اليّ منذ قليل لان قلبي . والفتى هادئ . ولهذا فكرت : لا بد انكم قديسون .

— هل تقصدين بعيدا ؟

— الى اوكلييفو .

— اركبـي ، سنوصلك الى كوزمنكى . من هناك تمضين الى الامام ، اما نحن فالى الشمال .

وجلس فافيلا فى العربة ذات البرميل ، وجلس العجوز وليبا فى العربة الاخرى . وسارت الخيول بالخطوة العادية وفافيلا فى المقدمة .

وقالت ليبا :

— ولدى تعذب طول النهار . كان يحدق بعينيه صامتا ، يريد ان يتكلم ولا يستطيع . يا الهى ، ايتها العذراء ! كنت اسقط واسقط على الارض من الفجيعة . اقف بجوار سريره واذا بى اسقط . هلا قلت لى يا جدى لماذا يتعذب طفل صغير قبيل الموت ؟ عندما يتعذب رجل كبير ، فلاح او امرأة ، فذلك تكفيرا عن ذنوبه ، فلماذا يتعذب الصغير وهو بلا ذنوب ؟ لماذا ؟

فاجاب العجوز :

— من ذا يعلم !

وساروا نصف ساعة فى صمت . ثم قال العجوز :

— لا يمكن معرفة كل شيء ، وكيف ولماذا . الطير مسموح له بجناحين ، لا اربعة ، لانه يستطيع ان يطير بانطلاق بجناحين اثنين . وكذلك الانسان ، مسموح له ان يعرف ولكن ليس كل شيء ، بل فقط النصف او الربع . يعرف بالقدر الذى يكفيه لكى يعيش .

— من الافضل لى يا جدى ان اسير على قدمى . قلبى الآن يتهزهز .

— لا بأس ، ابقى راكبة .

وتثاءب العجوز ورسم علامة الصليب على فمه وردد :

— لا بأس . . . بلواك نصف بلوى . الحياة طويلة وسيكون فيها الطيب والخبيث ، سيكون كل شيء . امنا روسيا واسعة ! — قال العجوز وتلفت الى كلا الجانبين — انا كنت في كل مكان في روسيا ، ورأيت كل شيء فيها ، فصدقي ما اقول يا عزيزتي . سيكون الطيب وسيكون الخبيث . انا ذهبت الى سيبيريا سيرا على الاقدام وكنت على ضفاف آمور ، وفي الطاى ، وهاجرت الى سيبيريا ، وحرثت الارض هناك ، ثم اوحشتني امنا روسيا فعدت ادراجي الى قريتنا . عدنا الى روسيا سيرا على الاقدام . واذكر ، كنا نركب المعدية ، وكنت نحيلا نحيلا ، ممزق الملابس تماما ، حافي القدمين ، ارتعش من البرد وامضغ كسرة . وكان في المعدية ايضا سيد عابر — عليه الرحمة ان كان قد مات — كان ينظر اليّ برثاء ودموعه تسيل . وقال لي : «ايه ، خبزك اسود ، وايامك سوداء . . .» . وعندما رجعت الى البيت كنت كما يقولون «على الحديدة» . كانت عندى زوجة فبقيت في سيبيريا ، دفناها هناك . وهكذا اعيش اجيرا . وماذا ؟ ساقول لك : بعد ذلك كان هناك الخبيث وكان هناك الطيب . والآن لا اريد يا عزيزتي ان اموت ، اود لو عشت عشرين عاما اخرى . واذن فالطيب كان اكثر . ما اوسع امنا روسيا ! — قال ونظر مرة اخرى الى كلا الجانبين والتفت الى الوراء .

فسألته ليبا :

— يا جدى ، عندما يموت الانسان ، كم يوما تظل روحه تسير على الارض ؟

— ومن ذا يعلم ! لنسأل فافيلا ، فهو قد تعلم في

المدرسة . الآن يعلمونهم كل شيء — ونادى العجوز — يا فافيلا !

— آه !

— عندما يموت الانسان ، كم يوما تظل روحه تسير على الارض ؟

اوقف فافيلا الحصان وبعد ذلك فقط قال :

— تسعة ايام . عندما مات عمى كيريل عاشت روحه عندنا فى الدار بعد موته ثلاثة عشر يوما .

— وكيف عرفت ؟

— طوال ثلاثة عشر يوما كنا نسمع طرقا فى الفرن .

— طيب ، تحرك — قال العجوز وكان واضحا انه لا يصدق شيئا من ذلك .

بالقرب من كوزمنكى انعطفت العربتان الى الطريق الرئيسى ، بينما مضت ليبا الى الامام . كان الضوء لاح . وعندما اخذت تهبط الى الخور اختفت دور اوكلييفو وكنيستها فى الضباب . وكان الجو باردا ، وخيل اليها ان ذلك الوقوق ما زال يصيح .

وعندما عادت ليبا لم تكن الماشية قد اخرجت من الحظائر بعد . كان الجميع نياما . فجلست على الدرج تنتظر . وكان العجوز اول من خرج . وادرك على الفور ومن اول نظرة ماذا حدث ، فوقف مدة طويلة عاجزا عن التفوه بكلمة وهو يطقطق فقط بشفتيه .

واخيرا تمتم :

— ايه يا ليبا ، لم تحافظى على الحفيد . . .

وايقظوا فارفارا ، فلوت ذراعيها واجهشت بالبكاء وشرعت

على الفور تكفن الطفل .

ومضت تقول :

— كم كان صبيا طيبا . . . اوه — هوه — هو . . . صبى واحد ، ومع ذلك لم تحافظى عليه يا عبيطة . . .

واقاموا صلاة التأبين صباحا ومساء ، وفى اليوم التالى دفنوه ، وبعد الدفن اكل الضيوف ورجال الكنيسة كثيرا وبشراهة ، كأنما لم يأكلوا منذ زمن طويل . وقامت ليبا بخدمة الضيوف ، وقال لها القس وقد رفع شوكة عليها فطر مملح :

— لا تحزنى على الوليد . امثاله فى ملكوت السماوات .

لم تدرك ليبا جيدا ، الا بعد انصراف الجميع ، ان نيكيفور لم يعد موجودا ولن يعود ، واذ ادركت ذلك اجهشت بالبكاء . ولم تدر الى اية غرفة تذهب لكى تنتحب ، فقد احست انه لم يعد لها مكان فى هذا المنزل بعد وفاة الصبى ، وانها هنا بلا داع ، زائدة عن الحاجة . واحس الآخرون بذلك ايضا .

— ما لك تجأرين هناك ؟ — صاحت اكسينيا فجأة وقد ظهرت فى الباب . وكانت ترتدى ثيابا جديدة بمناسبة الجنازة وقد وضعت البودرة — اخرسى !

ارادت ليبا ان تكف عن البكاء فلم تستطع ، بل اعولت بصوت اعلى .

— أتسمعين ؟ — صاحت اكسينيا فى سورة الغضب ودقت بقدمها — لمن اقول ؟ غورى من هنا ، واياك ان تخطو قدمك هنا ثانية ! غورى !

فقال العجوز مضطربا :

— طيب ، طيب ، طيب ، اهدئى يا اكسيوتا ، يا

بنيتي . . . انها تبكي ، شيء مفهوم . . . وليدها مات . . .
— شيء مفهوم . . . — قلدته اكسينيا مشاكسة — فلتبت الليلة هنا ، ولكن اياك ان اراها غدا ! شيء مفهوم ! — قلدته مرة اخرى ثم ضحكت وذهبت الى الدكان .

وفي صباح اليوم التالي مبكرا رحلت ليبا الى امها في تورجويفو .

٩

اصبح سقف الدكان وبابه الآن مطليين يلمعان كأنهما جديدان ، وعلى النوافذ تزهر كما في السابق زهور الجيرانيوم المرحة ، واصبح ما حدث منذ ثلاث سنوات في منزل فناء تسيبو كين منسيا تقريبا .

وما زال العجوز جريجوري بتروفتش يعتبر هو السيد كما في السابق لكن كل شيء في الواقع انتقل الى يدى اكسينيا . فهي التى تبيع وتشترى ، وبدون موافقتها لا يمكن عمل شيء . ومصنع الطوب يعمل جيدا ، ونظرا لازدياد الطلب على الطوب في السكة الحديدية فقد بلغ ثمنه اربعة وعشرين روبلا للألف . وتقوم النساء والفتيات بنقل الطوب الى المحطة ثم شحنه في العربات ، وتصل الواحدة منهن لقاء ذلك على ربع روبل في اليوم .

وشاركت اكسينيا آل خريمين ، فاصبحت الفابريكة تسمى الآن : «آل خريمين الاصغر وشركاه» . وافتتحوا حانة جديدة بقرب المحطة ، ولم يعد العزف على الاكورديون الثمين يسمع في الفابريكة ، بل في هذه الحانة ، وكثيرا ما يتردد عليها

رئيس قسم البريد ، الذى اصبحت لديه هو ايضا تجارة ما ، وكذلك رئيس المحطة . واهدى آل خريمين الاصغر الى الاطرش ساعة ذهبية ، فصار يخرجها من جيبه بين الحين والحين ويقربها من اذنه .

ويقولون عن اكسينيا فى القرية انها اكتسبت قوة كبيرة . وبالفعل ، فعندما تركب العربة فى الصباح ذاهبة الى المصنع ، جميلة ، سعيدة ، بابتسامتها الساذجة ، وعندما تصدر تعليماتها هناك فى المصنع ، تحس فيها بقوة كبيرة . ويخشاها الجميع فى البيت وفى القرية وفى المصنع . وحين تذهب الى البريد يقفز رئيس قسم البريد ناهضا ويقول لها :

— ارجو ان تتكرمى بالجلوس يا اكسينيا ابراموفنا !

وذات مرة كان احد الاقطاعيين ، وهو رجل غندور ، كهل ، فى معطف من الجوخ الخفيف ، وفى حذاء عال لامع ، يبيعها حصانا ، فجذبه الحديث معها حتى انه تنازل لها فى الثمن بقدر ما شاءت . وظل ممسكا بيدها فترة طويلة قائلا وهو يحدق فى عينيها المشرقتين الماكرتين الساذجتين :

— لامرأة مثلك يا اكسينيا ابراموفنا انا مستعد ان افعل كل ما يسر . . . فقط قولى متى نستطيع ان نتقابل بحيث لا يزعجنا احد ؟

— فى اى وقت تشاء !

وبعد ذلك اصبح الغندور الكهل يأتى الى الدكان كل يوم تقريبا ليشرب البيرة . وهى بيرة فظيعة ، مرة كالحنظل . وينفض الاقطاعى رأسه بشدة ، ولكنه يشرب .

لم يعد العجوز تسيبوكين يتدخل فى الاعمال . ولا يحتفظ لديه بنقود لانه لا يستطيع ابدا ان يميز النقود الحقيقية

عن المزيفة ، ولكنه ساكت ، لا يخبر احدا بعجزه هذا . اصبح ضعيف الذاكرة بصفة خاصة ، واذا لم يطعموه فلن يطلب من تلقاء نفسه . وقد تعودوا على الغداء بدونه . وكثيرا ما تقول فارفارا :

— عجوزنا نام امس ثانية دون عشاء .

تقول ذلك بعدم اكتراث لانها تعودت . ولسبب ما يرتدى المعطف الثقيل صيفا وشتاء . وفى الايام الحارة جدا فقط لا يخرج ويبقى فى البيت . وفى العادة ، وبعد ان يرتدى المعطف الثقيل ويرفع ياقته ويزرر كل الازرار ، يتجول فى القرية ، وفى طريق المحطة ، او يجلس من الصباح الى المساء على اريكة بجوار بوابة الكنيسة . يجلس بلا حراك . ويحييه المارة برؤوسهم ولكنه لا يرد لانه ، كسابق العهد ، لا يحب الفلاحين . وعندما يسألونه عن شيء ما فانه يجيب اجابة عاقلة تماما ، وبلهجة مهذبة ، ولكن باقتضاب .

وتتردد الاقاويل فى القرية بان كنّته طردته من بيته وتحرمه من الطعام ، وانه يأكل من الصدقات . والبعض سعيد لذلك والبعض الآخر يرثى له .

وازدادت فارفارا امتلاء وبياضا ، وما زالت تقوم باعمال الخير كما فى السابق ، واكسينيا لا تمنعها من ذلك . واصبحت المربى الآن كثيرة الى درجة انهم لا يتمكنون من أكلها كلها حتى موسم الثمار التالى ، ولذلك تتكلس فتكاد فارفارا تبكى ولا تعرف ماذا تفعل بها .

واخذوا ينسون انيسيم . وذات مرة وصلتهم رسالة منه مكتوبة شعرا ، على ورقة كبيرة فى صورة التماس ، بنفس ذلك الخط الرائع . الظاهر ان صديقه ساموروودوف كان يقضى

فترة العقوبة معه . وتحت الاشعار كتب سطر واحد بخط قبيح غير واضح : «انا هنا مريض دائما ، حالتى صعبة ، ساعدونى بحق المسيح» .

وذات مرة — وكان ذلك قبيل المساء فى يوم خريفى صحو — كان العجوز تسيبوكين جالسا بجوار بوابة الكنيسة ، وقد رفع ياقة معطفه ، فلم يُرى الا انفه ومقدمة عمرته . وعلى طرف الاريكة الطويلة الآخر جلس المقاول يليزاروف وبجواره حارس المدرسة ياكوف ، وهو عجوز فى حوالى السبعين ، بفم خال من الاسنان . وكان العكاز والحارس يتحدثان .

قال ياكوف بعصبية :

— الاولاد ينبغى ان يطعموا آباءهم . . . احترم اباك وامك . اما هى ، الكنة اقصد ، فقد طردت حماها من بيته الملْك . والعجوز لا يجد الطعام او الشراب ، فالى اين يذهب ؟ لليوم الثَالث لم يأكل .

— لليوم الثالث ! — دهش العكاز .

— يجلس هكذا ويصمت . ضعف . ولماذا الصمت ؟ فليرفع قضية ، وفى المحكمة لن يمتدحوها .

فسأل العكاز اذ لم يسمع جيدا :

— من الذى امتدحوه فى المحكمة ؟

— ماذا ؟

— انها امرأة لا بأس بها ، مجتهدة . بدون ذلك لا تسير امورهن . . . اقصد بدون الحرام . . .

فاستطرد ياكوف بعصبية :

— من بيته الملك . حسنا ، اقتنى لك بيتا اولا ، ثم اطرديه . انظر اية سيدة . . الملعونة !

كان تسيبو كين يسمع ولا يتحرك .

— بيت ملك ام بيت غيرك ، سيان ، المهم ان يكون دافئا والا تتشاجر فيه النساء . . . — قال العكاز وضحك — عندما كنت شابا كنت اشفق على زوجتي ناستاسيا جدا . كانت امرأة هادئة . وكانت تقول لي دائما : «اشتر بيتا يا مكاريتش ! اشتر بيتا يا مكاريتش ! اشتر حصانا يـــا مكاريتش» . حتى وهي تموت قالت : «اشتر يا مكاريتش عربة حتى لا تسير على قدميك» . اما انا فلم اكن اشترى لها غير الكعك ، ولا شيء اكثر .

ومضى ياكوف يقول وهو لا يصغي الى العكاز :

— زوجها الاطرش غبي ، احمق تماما مثل ذكر الوز . فهل هو يستطيع ان يفهم ؟ لو ضربت ذكر الوز على رأسه بالعصى فلن يفهم .

ونهض العكاز ليعود الى البيت . ونهض ياكوف ايضا ، وسار الاثنان معا وواصلا الحديث . وعندما ابتعدا حوالي خمسين خطوة نهض العجوز تسيبو كين ايضا وجر ساقيه في اثرهما بتردد وكأنه يخطو فوق جليد زلق .

غرقت القرية في غسق المغيب ، ولم تلمع الشمس الا في الاعلى على الطريق الذى كان يصعد من اسفل متلويا كالثعبان . وكانت العجائز عائدات من الغابة ومعهن الاولاد يحملون سلالا مملوءة بالفطر . وسار جمع من النساء والفتيات العائدات من المحطة حيث كن يشحنّ العربات بالطوب ، وكانت انوفهن وخدودهن تحت عيونهن مغطاة بطبقة رقيقة حمراء من غبار الطوب . كن يغنين . وفي مقدمة الجميع سارت ليبا وهي تنظر الى السماء وتغني بصوت رفيع رنان ، كأنما

تشعر بالفرحة والظفر لان النهار انتهى والحمد لله ، واصبح من الممكن ان تستريح . وسارت فى الجمع امها ، المياومة براسكوفيا ، ومعها صرة فى يدها ، وكانت تلهث كالعادة .

— مرحبا يا مكاريتش ! — قالت ليبا عندما رأت العكاز — مرحبا يا عمى !

ففرح العكاز وقال :

— مرحبا يا ليبنكا ! يا نسوان ، يا بنات ، احببن نجارا غنيا ! ها — ها ! يا ابنائى ، يا ابنائى (وشهق العكاز باكيا) . يا فؤوسى الغالية .

ومضى العكاز وياكوف فى طريقهما ، وسمع صوتهما وهما يتحدثان . ومن بعدهما التقى الجمع بالعجوز تسيبوكين ، وفبأة ساد السكون . تخلفت ليبا وبراسكوفيا قليلا ، وعندما حاذاهما العجوز انحنت ليبا بشدة وقالت :

— مرحبا يا جريجورى بتروفتش !

وانحنت امها ايضا . فتوقف العجوز ونظر اليهما دون ان ينطق بكلمة . كانت شفتاه ترتعشان وعيناه مليئتين بالدموع . واخرجت ليبا من صرة امها قطعة فطيرة بالعصيدة ومدتها اليه . فاخذها وراح يأكل .

غربت الشمس تماما . وانطفأ بريقها فى الاعلى ، على الطريق . واصبح الجو مظلما وباردا . ومضت ليبا وبراسكوفيا فى طريقهما ، ولفترة طويلة ظلتا ترسمان علامة الصليب .

١٩٠٠

العروس

١

كانت الساعة العاشرة مساء ، والبدر المكتمل يسطـــــع فوق الحديقة . وفى منزل آل شومين انتهت لتوها صلاة الليل التى اقيمت بطلب من الجدة مارفا ميخايلوفنا ، واصبحت نادية – التى خرجت الى الحديقة لدقيقة – ترى كيف يعدون المائدة فى القاعة ، وكيف كانت الجدة تروح وتجىء فى فستانها الحريرى المنتفخ . اما الاب اندريه ، راعى الكاتدرائية ، فكان يتحدث عن شىء ما مع نينا ايفانوفنا والدة نادية ، واصبحت امها الان فى ضوء المساء تبدو خلال النافذة لسبب ما شابة جدا . وبجوارها وقف اندريه اندريتش ابن الأب اندريه ، مصغيا بانتباه .

كان الجو فى الحديقة هادئا ، باردا ، وامتدت على الارض ظلال داكنة ساكنـــة . وتناهى من مكان بعيد ، بعيد جدا ، ربما وراء المدينة ، نقيق الضفادع . وانتشرت فى الجو رائحة مايو ، مايو الحبيب ! وتسرب الهواء عميقا فى الصدر ، واستبدت بنادية الرغبة فى التفكير بانه فى مكان ما غير هذا المكان ، تحت السماء ، وفوق الاشجار ، بعيدا وراء المدينة ، فى الحقول والغابات انطلقت الآن حياة الربيع الخاصة ، الغامضة ، الرائعة ، الخصبة والمقدســـة ، البعيدة عن ادراك الانسان الضعيف المذنب . وارادت ان تبكـــى لسبب ما .

كانت نادية فى الثالثة والعشرين . ومنذ ان بلغت السادسة عشرة وهى تحلم بالزواج بشغف ، وها هى اخيـــرا قد اصبحت

عروس اندريه اندريتش ، ذلك الذى يقف وراء النافذة . كان يروق لها ، وقد تحدد يوم الزفاف فى السابع من يوليو ، ومع ذلك لم تشعر بالفرحة ، وكانت تنام نوما سيئا ، وهجرها المرح . . . ومن القبو الذى كان المطبخ فيه ، تناهى عبر النافذة المفتوحة صوت الحركة المستعجلة ورنين السكاكين وصفق الباب ، وانبعثت روائح الديك الرومى المحمر والكرز المخلل . ولسبب ما خيل اليها ان ذلك سوف يظل هكذا طوال الحياة ، دون تغيير !

ها هو شخص يخرج من المنزل ويقف على السلاملك . انه الكسندر تيموفيتش ، او ببساطة ساشا ، الضيف الذى جاء من موسكو منذ عشرة ايام . منذ زمن بعيد كانت تتردد على الجدة طلبا للصدقة احدى قريباتها من بعيد ، وتدعى ماريا بتروفنا . وكانت ارملة من النبلاء المفلسين ، صغيرة ، نحيلة ، مريضة . وكان لديها ابن ، هو ساشا . ولسبب ما قيل انه مصور بارع ، ولما ماتت امه ، ارسلته الجدة ، زكاة عن نفسها ، الى موسكو ، الى معهد كوميساروفسكويه . وبعد حوالى سنتين انتقل الى معهد التصوير ، وقضى فيه زهاء خمسة عشر عاما . وتخرج كيفما كان من قسم العمارة ، ومع ذلك لم يمارس العمارة ، بل عمل فى احدى ورش التشكيل بموسكو . وكان يأتى كل صيف تقريبا الى الجدة ، وهو مريض عادة ، لكى يستريح ويشفى .

كان يرتدى الآن سترة مزررة وسروالا قديما من القماش السميك ، مجعدا فى الاسفل . ولم يكن قميصه مكويا ، وكانت هيأته كلها تبدو ذابلة . كان نحيلا للغاية ، بعينين واسعتين ، واصابع طويلة دقيقة ، ولحية ، وكان أسمر ، جميلا رغم ذلك . وقد الف آل شومين كأهله ، وكان يحس وسطهم كأنه فى بيته . والغرفة التى كان ينزل فيها هنا كانت تسمى منذ زمن بعيد غرفة ساشا .

ورأى نادية وهو واقف على السلاملك فاتجه نحوها . وقال :

– ما اجمل المكان عندكم هنا .

– طبعا جميل . ابق هنا حتى الخريف .

– نعم ، يبدو اننى سأفعل ، سأبقى لديكم على الارجح حتى سبتمبر .

وضحك دون سبب وجلس بقربها .

وقالت نادية :

– انني اجلس هنا وانظر الى امى . انها تبدو من هنا شابة للغاية ! – واضافت بعد صمت قصير – بالطبع لدى امى بعض الجوانب الغريبة ، ولكنها رغم ذلك امرأة رائعة .

فقال ساشا مؤمنا :

– نعم ، طيبة . . . ان امك امرأة طيبة ورقيقة جدا ، بالطبع على طريقتها الخاصة ، ولكن . . . كيف اوضح لك ؟ لقد دخلت مطبخكم اليوم فى الصباح الباكر ، فرأيت هناك اربع خادمات ينمن على الارض مباشرة ، وليس هناك أسرة ، وبدلا من الفراش اسمال بالية ، وروائح كريهة ، وبق وصراصير . . . نفس الوضع الذى كان منذ عشرين عاما ، دون اى تغيير . حسنا ، بالنسبة للجدة واضح ، ليغفر لها الله ، ولكن ماما ، اظن انها تتحدث الفرنسية وتشترك فى العروض المسرحية . من المفروض ان تدرك .

عندما كان ساشا يتكلم ، كان يبسط امام المستمع اصبعين طويلتين نحيفتين .

ومضى يقول :

– كل شىء هنا يبدو لى غريبا غير مألوف . الشيطان يعلم ما هذا . ان احدا لا يريد ان يعمل . ماماك تقضى النهار فى التنزه وكأنها احدى الدوقات ، والجدة ايضا لا تفعل شيئا ، وانت ايضا . وعريسك اندريه اندريتش ايضا لا يفعل شيئا .

سمعت نادية هذا فى العام الماضى ايضا ، ويبدو فى العام الاسبق كذلك ، وكانت تعلم ان ساشا لا يمكن ان يفكر بصورة اخرى ، وكان ذلك يضحكها فى السابق ، لكنها لسبب ما احست الآن بالأسى .

وقالت وهى تنهض :

– كل هذا قديم ومللته من زمان . عليك ان تخترع شيئا اكثر جدة .

فضحك ونهض هو الآخر ، وسارا نحو المنزل . وبدت بطولها وجمالها ورشاقتها بجواره صحيحة جدا وأنيقة . واحست هى بذلك فشعرت بالرثاء له وبالحرج لسبب ما .

وقالت له :

– ثم انك تقول كلاما كثيرا زائدا . ها قد تحدثت لتوك عن اندريه خطيبى ، مع انك لا تعرفه .

– اندريه خطيبى . . . دعينا منه اندريه خطيبك ! ولكنى ارثى لشبابك .

عندما دخلا القاعة كان الحاضرون قد جلسوا الى المائدة . وكانت الجدة ، البدينة ، الدميمة ، بحاجبيها الغزيرين وشاربها الدقيق ، تتحدث بصوت عال ، وبدا من صوتها وطريقة كلامها انها ربة المنزل . كانت تملك حوانيت فى السوق وبيتا قديما بأعمدة وحديقة ، ولكنها كانت تصلى لله كل صباح ليحميها من الافلاس وتبكى فى اثناء ذلك . وكانت هنا زوجة ابنها نينا ايفانوفنا ، والدة نادية ، الشقراء المشدودة بالكورسيه بقوة ، والتى تضع عوينات وخاتما ماسيا فى كل اصبع ، وكان هنا ايضا الاب اندريه ، وهو عجوز نحيف ، بلا اسنان ، وعلى وجهه تعبير من ينوى ان يروى شيئا مضحكا للغاية ، وابنه اندريه اندريتش ، خطيب نادية ، وهو رجل ممتلىء وجميل ، بشعر مجعد الخصلات ، ويشبه ممثلا او مصورا . وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن التنويم المغنطيسى .

وقالت الجدة مخاطبة ساشا :

– ستسترد عافيتك عندى فى اسبوع . فقط كلْ اكثر – وتنهدت وقالت – انظر ماذا تشبه ! لقد أصبحت مرعبا ! يالك من ابن ضال حقا .

وقال الاب اندريه ببطء والابتسامة تشع من عينيه :

– وبعد ان بدد ميراث ابيه ، هام الملعون على وجهه مع البهائم . . .

فقال اندريه اندريتش وهو يضع يده على كتف ابيه :

– كم احب والدى . انه عجوز رائع . عجوز طيب .

وصمت الجميع . وفجأة ضحك ساشا وغطى فمه بالمنشفة .

وسأل الاب اندريه نينا ايفانوفنا :

– اذن فأنت تؤمنين بالتنويم المغنطيسى ؟

فأجابت وهى تضفى على وجهها تعبيرا جادا للغاية بل وصارما :

– انا لا استطيع ان اؤكد انني اؤمن ، ولكن ينبغي ان اعترف ان هناك الكثير من الاشياء الغامضة وغير المفهومة فى الطبيعة .

– انا متفق معك تماما ، وان كنت اجد لزاما عليّ ان اضيف بأن الايمان يضيق لنا الى حد كبير مجال الاشياء الغامضة .

وحمل الخدم ديكا روميا كبيرا وسمينا جدا . وواصلت نينا ايفانوفنا والاب اندريه حوارهما . كانت الخواتم الماسية تلمع فى اصابع نينا ايفانوفنا ، ثم لمعت الدموع فى عينيها اذ كانت مضطربة . وقالت :

– رغم انى لا اجرؤ على مجادلتك ، ولكن ارجو ان توافقنى على ان الحياة مليئة بالالغاز التى لم تحل !

– ولا لغز واحد ، استطيع ان اؤكد لك .

وبعد العشاء عزف اندريه اندريتش على الكمان وصاحبته نينا ايفانوفنا على المعزف . كان قد تخرج منذ عشر سنوات من كلية الآداب بالجامعة ، ولكنه لم يلتحق بالخدمة ولم يكن يزاول عملا محددا ، وكان نادرا ما يشارك فى الحفلات الموسيقية للاغراض الخيرية . وسموه فى المدينة بالفنان .

كان اندريه اندريتش يعزف ، والجميع يصغون فى صمت . وعلى المائدة كان السماور يغلى بهدوء ، ولم يشرب الشاى احد سوى ساشا . وعندما دقت الساعة الثانية عشرة انقطع فجأة وتر فى الكمان فضحك الجميع ، وساد بعض الهرج ، ثم اخذوا يودعون .

وبعد ان ودعت نادية خطيبها صعدت الى غرفتها بالطابق الثانى حيث كانت تعيش مع امها (كان الطابق الاسفل للجدة) . وفى الاسفل اخذوا يطفئون الانوار فى القاعة بينما ظل ساشا جالسا يشرب الشاى . كان دائما يستغرق وقتا طويلا فى شرب الشاى ، على الطريقة الموسكوفية ، فيشرب حوالى سبعة اكواب فى المرة الواحدة . وظلت نادية تسمع طويلا ، بعد ان خلعت ثيابها واوت الى الفراش ، اصوات الخدم وهم يجمعون الاوانى ، والجدة وهى تصيح غاضبة . ثم هدأ اخيرا كل شيء ، ولم يعد مسموعا سوى سعال متقطع صادر عن غرفة ساشا فى الاسفل .

٢

يبدو ان الساعة كانت حوالى الثانية عندما استيقظت نادية ، فقد بدأ الفجر يلوح . وفى مكان ما دق الحارس منبها . لم تكن راغبة فى النوم وكان مرقدها لينا جدا ، غير مريح . وكما فى كل ليالى مايو السابقة جلست فى السرير وراحت تفكر . وكانت افكارها هى نفس افكار الليلة السابقة ، افكارا رتيبة ، لا ضرورة لها ، افكارا ملحة حول اندريه اندرييتش وكيف اخذ يتودد اليها وعرض عليها الزواج فقبلت ، ثم استطاعت شيئا فشيئا ان تقدر هذا الشخص الطيب الذكى . لكنها لا تعرف لماذا اصبحت الآن ، ولم يبق على العرس اكثر من شهر ، تحس بالخوف والقلق ، كأنما ينتظرها شيء غير واضح وصعب .

ودق الحارس بكسل : «تك ـ تك ، تك ـ تك . . .»

عبر النافذة الكبيرة القديمة تراءى البستان ، ومن بعده خمائل البنفسج المزهرة الكثيفة ، الناعسة والذابلة من البرد . ويقترب الضباب الابيض الكثيف من البنفسج ببطء ويريد ان يغطيه . وعلى الاشجار البعيدة تصيح الغربان الناعسة .

– يا الهى ، لماذا اشعر بهذا الضيق !

ربما هذا هو ما تحسه كل فتاة قبيل العرس ، من يدرى ! ام ان هذا من تأثير ساشا ؟ ولكن ساشا يقول نفس الكلام منذ عدة سنوات متتالية ، وكأنه يقرأ من كتاب ، وعندما يتكلم يبدو ساذجا وغريبا . ولكن لماذا لا يخرج ساشا من رأسى ؟ لماذا ؟

كف الحارس منذ وقت طويل عن الدق ، وصاحت الطيور تحت النافذة فى البستان ، وانقشع الضباب عن البستان وشع كل شيء بنور ربيعى وكأنه يبتسم ، وسرعان ما استيقظ البستان كله وقد ادفأته الشمس وداعبته ، ولمعت قطرات الندى كالماســـات على الاوراق . وفى هذا الصباح بدا البستان العجوز ، المهمل منذ أمد بعيد ، فتيا وأنيقا .

واستيقظت الجدة . وسعل ساشا بصوت غليظ اجش . وتناهت من اسفل اصوات الخدم وهم يضعون السماور ويزحزحون المقاعد .

الساعات تمضى ببطء . لقد استيقظت نادية منذ زمن طويل ،

وتنزهت فى البستان منذ زمن طويل ، ومع ذلك لا يزال الصباح ممتدا .

وها هى نينا ايفانوفنا ، دامعة العينين ، تمسك بكوب ميـــاه معدنية . لقد كانت تمارس تحضير الارواح ، والعلاج بالاعشاب ، وتقرأ كثيرا ، وتهوى الحديث عن الشكوك التى تنتابها ، وبدا كل ذلك لنادية مشتملا على مغزى غامض عميق . وها هى نادية تقبّل امها وتمضى الى جوارها . وسألتها :

– ما الذى ابكاك يا ماما ؟

– ليلة امس اخذت اقرأ رواية تتحدث عن رجل عجوز وابنته . والعجوز يعمل فى مكان ما ، لا اذكر ، واحب رئيسه ابنة العجوز . لم اكمل الرواية ، ولكن فيها موضعا لم استطع ان امنع فيــــه دموعى – قالت نينا ايفانوفنا وجرعت من الكوب جرعـــــة – لقد تذكرت ذلك الموضع اليوم فبكيت ايضا .

وقالت نادية بعد صمت :

– اما انا فأشعر بالتعاســـة فى هذه الايام . لماذا لا انام الليل ؟

– لست ادرى يا عزيزتى . اما انا فعندما يجافينى النوم ، اغمض عينى بقوة ، هكذا ، واتخيل آنا كارينينا * ، وكيف تسير وتتحدث ، او اتخيل شيئا تاريخيا من العالم القديم . . .

واحست نادية ان امها لا تفهمها ولا تستطيع ان تفهمها . احست بذلك لاول مرة فى حياتها ، حتى لقد اصابها الجزع ، وراودتهـــا رغبة فى الاختفاء ، فصعدت الى غرفتها .

وفى الثانية جلسوا الى مائدة الغداء . كان اليوم اربعاء ، يوم صيام ، ولذلك قدموا للجدة حساء «البورش» بدون سمن ، وسمكة الابريس بالعصيدة .

ولكى يثير الجدة أكل ساشا حساءه الدسم وحساء «البورش» بدون السمن . وكان يمزح طوال فترة الغداء ، ولكن نكاته كانت ثقيلة ، ودائما ذات موعظة خلقية فلم تثر الضحك ابدا عندما كان يرفع اصابعه الطويلة جدا ، النحيلة وكأنها ميتة ، قبل ان يمزح .

---

* بطلة رواية ليف تولستوى التى تحمل الرواية اسمها . **المعرب** .

وعندما يطوف بالذهن انه مريض وربما لن يعمر كثيرا فى هذه الدنيا ، يزداد الرثاء له الى درجة البكاء .

وانصرفت الجدة بعد الغداء الى غرفتها لتستريح . وعزفت نينا ايفانوفنا قليلا على المعزف ثم انصرفت هى الاخرى .

وبدأ ساشا حديثه المعهود بعد الغداء :

– آه يا نادية العزيزة لو سمعت كلامى ! لو !

كانت غائصة فى مقعد عتيق ، وقد اغمضت عينيها ، بينما كان هو يجوس فى الغرفة ذهابا وايابا ، ويقول :

– لو انك رحلت للدراسة ! الاشخاص المتنورون والقديسون هم وحدهم الشيقون ، هم وحدهم الضروريون ، فكلما ازداد امثال هؤلاء ، اقترب موعد قيام ملكوت الله فى الارض . وعندئذ لا يبقى من مدينتكم بالتدريج حجر واحد . . كل شىء سينقلب رأسا على عقب ، كل شىء سيتغير وكأنما مسه سحر . وستكون هنا عندئذ بيوت ضخمة عظيمة ، وبساتين ساحرة ، ونافورات مدهشة ، وأناس رائعون . . . ولكن ليس هذا هو المهم . المهم ان الغوغاء ، كما نفهمهم نحن الآن ، هذا الشر لن يعود موجودا ، لان كل انسان سيكون مؤمنا وسيعرف لماذا يعيش ، ولن يبحث احد عن ركيزة فى الغوغاء . يا عزيزتى ، سافرى ! اظهرى للجميع ان هذه الحياة الراكدة الرمادية الآثمة قد اضجرتك . اظهرى هذا ولو لنفسك !

– لا يصح يا ساشا ، اننى ساتزوج .

– اوه ، كفاك ! من بحاجة الى ذلك ؟

وخرجا الى البستان وتمشيا قليلا .

ومضى ساشا يقول :

– ايا كان الامر يا عزيزتى ينبغى عليك ان تفكرى ، ان تدركى كم هى ملوثة ولا اخلاقية حياتكم الفارغة هذه . الا تفهمين انه مثلا ، اذا كنت انت وامك وجدتك لا تفعلن شيئا ، فهذا يعنى ان احدا ما يعمل بدلا منكن ، واذن فأنتن تلتهمن حياة الاخرين ، فهل هذا من الشرف ، أليست وضاعة ؟

ارادت نادية ان تقول : «نعم ، هذا صحيح» ، وارادت ان تقول انها تدرك ذلك ، ولكن الدموع ترقرقت فى عينيها فسكتت فجأة

وانكمشت وتقوقعت وذهبت الى غرفتها .

قبيل المساء جاء اندريه اندرييتش ، وكالعادة عزف طويلا على الكمان . وعموما فقد كان قليل الكلام ويحب الكمان ، ربما لانه من الممكن ان يصمت اثناء العزف . وفى الحادية عشرة ، وهو خارج بعد ان ارتدى المعطف ، ضم نادية اليه وراح يقبل وجهها وكتفيها وذراعيها بنهم ، وهو يدمدم :

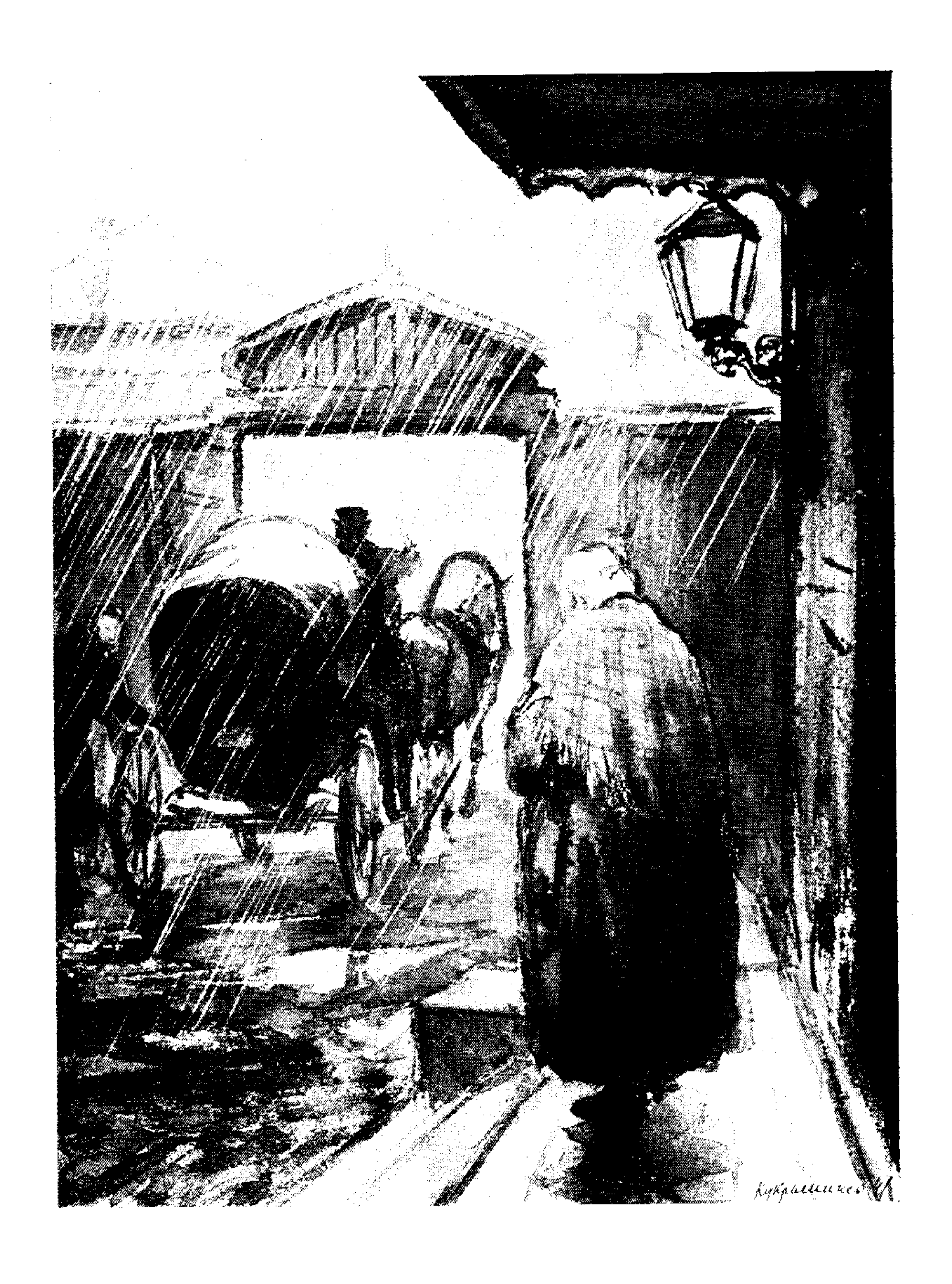
– يا عزيزتى ، يا رائعتى . . اوه كم انـــا سعيد ، انني اجن اعجابا !

وخيل اليها انها سمعت ذلك منذ امد بعيد ، بعيد جدا ، او قرأته فى كتاب ما . . . فى رواية قديمة ، ممزقة ، مهجورة من زمان .

فى القاعة كان ساشا جالسا الى المائدة يشرب الشـــاى وقد وضع طبق الفنجان على اصابعه الخمس الطويلـــة . وكانت الجدة تفرش اوراق اللعب ، ونينا ايفانوفنا تقرأ . وطقطق اللهب فى قنديل الايقونـــة ، وبدا ان الهدوء والتوفيق يلفان كل شىء . وودعتهم نادية وصعدت الى اعلى ورقدت وسرعان ما نامت . ولكن كما فى الليلة السابقة ، استيقظت ما ان انبلج الضوء . جافاهـــا النوم ، واحست بالقلق والضيق . وجلست واضعـــة رأسها على ركبتيها وأخذت تفكر فى خطيبهـــا وفى الزفاف . . . ولسبب ما تذكرت ان امها لم تكن تحب المرحوم زوجها ، ولم يعد لديها الآن شىء ، وتعيش فى تبعية كاملة لحماتها ، للجدة . ولم تستطع نادية بأى حال ان تفهم لماذا كانت ترى فى امها حتى هذه اللحظة شيئا خاصا ، غير عادى ، ولماذا لم تلحظ انها امرأة عادية ، بسيطة ، تعيسة .

ولم يكن ساشا ايضا نائما فى الاسفل ، فقد تناهى سعاله من هناك . وفكرت نادية بأنه شخص غريب ساذج . وفى جميـــــع احلامه ، فى جميع بساتينه الساحرة ونافوراته المدهشة تحس بشىء اخرق . ولكن لِمَ يبدو فى سذاجتـــه وحتى فى هذا الخرق قدر كبير من الروعة ، لدرجة انها ما ان فكرت فى الرحيل للدراسة مجرد تفكير حتى غاص قلبها وامتلأ بالفرحة والاعجاب .

وهمست لنفسها :



– ولكن من الافضل الا أفكر . . من الافضل الا افكر . لا يجب ان افكر فى هذا .

وفى مكان بعيد دق الحارس : «توك-توك . . . توك-توك . . . توك-توك . . .» .

٣

فى منتصف يونيو احس ساشا بالوحشة فجأة ومضى يستعد للرحيل . وقال عابسا :

– لا استطيع ان اعيش فى هذه المدينة ، لا مياه شرب ولا مجارى ! اننى اتقزز من تناول الغداء ، والمطبخ قذر بصورة لا تطاق . . .

وقالت الجدة تقنعه بصوت هامس لسبب ما :

– انتظر ايها الابن الضال ! العرس فى السابع من يوليو !

– لا اريد .

– كنت تريد ان تبقى عندنا حتى سبتمبر !

– لكنى الآن لا اريد . ينبغى ان اعمل !

كان الصيف رطبا باردا ، والاشجار مبللة ، وبدا كل شىء فى البستان متجهما مهموما ، وبالفعل كان هناك تشوق للعمل . وفى غرف الطابقين الاعلى والاسفل ترددت اصوات نسائية غريبة ، وطقطقت ماكينة الخياطة لدى الجدة : كانوا يعجلون باعداد جهاز العروس . خصصوا لناديــة من معاطف الفراء وحدها ستــة ، وارخصها ، حسب كلام الجدة ، يساوى ثلاثمائة روبل ! واثار الهرج والمرج ساشا ، فجلس فى غرفته محنقا . ومع ذلك اقنعوه بالبقاء ووعد بألا يسافر قبل اول يوليو .

مضى الوقت بسرعة . وفى عيد القديس بيوتر تمشى اندريه اندرييتش مع نادية بعد الغداء فى شـــارع موسكوفسكايا ، لكى يتفقدا مرة اخرى المنزل الذى استأجروه وجهزوه منذ فترة طويلة لاستقبال العريسين . كان منزلا من طابقين ، ولكن لم يكن مجهزا بعد سوى الطابق الثانى . وكانت ارضية القاعة مطلية بلون يشبه الباركيه وبها كراسى خيزران ، ومعزف ، حامل نوتات للكمان .

وفاحت رائحة الطلاء ، وعلقت على الجدار لوحة كبيرة مؤطرة مرسومة بالالوان لامرأة عارية بجوارها مزهرية ليلكية بمقبض مكسور .

وقال اندريه اندرييتش وهو يتنهد احتراما :

– لوحة رائعة ، من رسم المصور شيشماتشيفسكى .

وبعد القاعة كانت غرفة جلوس بطاولة وكنبة ومقاعد مكسوة بقماش ازرق فاقع . وفوق الكنبة صورة فوتوغرافية كبيرة لوالد اندريه فى قلنسوة فخرية واوسمة . ثم دلفا الى غرفة الطعام ذات البوفيه ، ثم الى غرفة النوم . كانت شبه مظلمة ، تضم سريرين متجاورين ، وبدا انهم عندما فرشوا هذه الغرفة وضعوا فى اعتبارهم ان الحال سيكون هنا ممتازا دائما ، ولا يمكن ان يكون على غير هذه الصورة . وطاف اندريه اندرييتش بنادية على الغرف وهو ممسك بخصرها طوال الوقت . اما هى فقد احست بنفسها ضعيفة ، مذنبة ، وامتلأت كراهية لهذه الغرف والأسرة والمقاعد ، واحست بالغثيان من منظر المرأة العارية . لقد اصبح من الواضح لها انها لم تعد تحب اندريه اندرييتش ، او ربما لم تحبه ابدا . ولكن كيف تقول ذلك ، ولمن تقوله ، ولأى غرض ، لم تكن تفهم ولا تستطيع ان تفهم ، رغم انها كانت تفكر فى ذلك طوال الايام والليالى . . . كان ممسكا بخصرها ويتحدث برقة وتواضع ، وكان سعيدا جدا وهو يجول فى شقته هذه . اما هى فلم تر فى كل هذا سوى الابتذال ، الابتذال الاحمق الساذج غير المحتمل ، وبدت لها ذراعه التى تطوق خصرها قاسية باردة كالطوق . وكانت على استعداد فى كل لحظة لان تولى هاربة ، او تنتحب وتلقى بنفسها من النافذة . وقادها اندريه اندرييتش الى الحمام ولمس صنبورا مركبا فى الحائط فسالت المياه فجأة .

فقال وهو يضحك :

– ماذا تقولين ؟ لقد أمرت بصنع خزان فى السقف سعة مائة دلو ، وسيصبح لدينا الآن مياه فى المنزل .

وسارا فى الفناء ثم خرجا الى الشارع فاستقلا عربة . كان الغبار يثور سحابات كثيفة ، وبدا ان المطر على وشك السقوط .

وسألها اندريه اندرييتش وهو يزر عينيه من الغبار :

– هل تشعرين بالبرد ؟

فلزمت الصمت .

وقال هو بعد فترة صمت :

– اتذكرين بالأمس عندما لامنى ساشا لأننى لا افعل شيئا . حسنا ، انه على حق ! على حق مائة فى المائة ! انا لا افعل شيئا ولا استطيع ان افعل . ما السبب فى ذلك يا عزيزتى ؟ لماذا اشعر بالقرف من مجرد فكرة ان اضع عمرة على رأسى فى وقت ما والتحق بوظيفة ؟ لماذا اشعر بالضيق عندما ارى محاميا ، او مدرس اللغة اللاتينية او عضو مجلس المدينة ؟ اوه يا امنا روسيا ! يا امنا روسيا ! كم ما زلت تحملين على ظهرك من اناس فارغين لا فائدة منهم ! كم فيك من اشخاص مثلى ايتها المعذبة !

وجعل من عدم قيامه بشىء وضعا عاما ورأى فيه دلالة العصر . واستطرد يقول :

– عندما نتزوج سنذهب معا الى القرية يا عزيزتى ونعمل هناك ! سنشترى قطعة ارض صغيرة ببستان ونهر ، وسوف نكدح ونتأمل الحياة . . . اوه ما اطيب ذلك !

ونزع قبعته فتطاير شعره فى الريح ، اما هى فكانت تصغى اليه وتفكر : «يا الهى ، اريد ان اعود الى المنزل ، يا الهى !» . وقرب المنزل لحقا بالأب اندريه .

فقال اندريه اندرييتش سعيدا وهو يلوح بقبعته :

– ها هو ابى هناك ! كم احب والدى حقا – قال وهو يحاسب الحوذى – عجوز رائع ، عجوز طيب .

دخلت نادية المنزل غاضبة ، مريضة ، وهى تفكر بأن المساء كله سيكون مشغولا بالضيوف ، وان عليها ان تسليهم ، وتبتسم ، وتصغى الى الكمان وتسمع اى هراء ، ولا تتحدث الا عن الزفاف . وكانت الجدة جالسة بجوار السماور ، وتبدو هامة ، منتفخة فى فستانها الحريرى ، ومتعالية كما كانت تتظاهر دائما فى حضرة الضيوف . ودخل الاب اندريه بابتسامته الماكرة .

وقال للجدة محييا :

– يسعدنى ويطيب لى ان اراك فى كامل عافيتك .

وكان من الصعب ان تفهم هل يمزح ام يقول جدا .

٤

قرعت الريح النوافذ والسقف وتردد صفير ، وغنى عفريت البيت فى مدخنة المدفأة اغنيته باسترحام وجهامة . كانت الساعة الاولى بعد منتصف الليل . وأوى الجميـــع فى المنزل الى اسرتهم ولكن احدا لم ينم ، وتراءى لنادية ان الكمان لا يزال يعزف فى الاسفل . وسمعت طرقة حادة ، لا بد ان مصراع الشيش قد انكسر . وبعد دقيقة دخلت نينا ايفانوفنا فى قميص النوم وبيدها شمعة . وسألت :

– ما هذا الذى طرق يا نادية ؟

وبدت امها فى هذه الليلة العاصفة ، بشعرها المجدول ضفيرة واحدة ، وبابتساماتها الوجلة ، اكبر سنا واكثر دمامة واقصر قامة . وتذكرت نادية كيف كانت تعد امها منذ فترة قريبـــة امرأة غير عادية وكانت تصغى بفخر الى ما تقوله من كلمات . اما الآن فلم تستطع ابدا ان تتذكر تلك الكلمات ، وكل ما خطر ببالهـــا كان باهتا ، لا لزوم له .

وتردد فى المدفأة غناء عدة اصوات غليظة ، بل سمعت حتى كلمة : «آه ، يا الهى !» وجلست نادية فى الفراش وفجأة شدت شعرها بقوة وانفجرت بالنحيب .

ودمدمت :

– ماما ، ماما ، يا حبيبتى ، لو تعلمين ما اعانى ! ارجوك ، اتوسل اليك ، دعينى اسافر ! اتوسل اليك !

فسألت نينا ايفانوفنا دون ان تفهم :

– الى اين ؟ الى اين تسافرين ؟

وجلست فى الفراش .

وبكت نادية طويلا دون ان تستطيع ان تنطق بكلمة . واخيرا قالت :

– دعينى ارحل من المدينة ! لا ينبغى ان يتم الزفاف ، ولن يتم . . افهمينى ، انا لا احب هذا الشخص . . ولا استطيـــع ان اتحدث عنه .

فقالت نينا ايفانوفنا بسرعة وقد خافت بشدة :

– كلا ، يا حبيبتى ، كلا . . اهدئى ، هذا بسبب المزاج المعتل . سيزول . هذا يحدث احيانا . ربما اختلفت مع اندريه ، ولكن شجار المحبين لهو .

فقالت نادية منتحبة .

– حسنا ، اذهبى يا ماما ، اذهبى !

وصمتت نينا ايفانوفنا ثم قالت :

– نعم ، منذ فترة قريبة كنت طفلة ، صبية ، والآن اصبحت عروسا . فى الطبيعة يحدث دائما تمثيل غذائى . ولن تلاحظى الا وقد اصبحت اما وعجوزا ، وستكون لديك ابنة متمردة مثلما لدي .

فقالت نادية :

– يا حبيبتى الطيبة ، انك ذكية ، انك تعيسة ، انت تعيسة جدا ، فلماذا تقولين اشياء وضيعة ؟ لماذا ، استحلفك بالله ؟

وأرادت نينا ايفانوفنا ان تقول شيئا ، ولكنها لم تستطع ان تنبس بكلمة فأجهشت وانصرفت . وعادت الاصوات الغليظة تئز فى المدفأة ، وشعرت نادية بالخوف فجأة ، فقفزت من السرير وأسرعت الى امها . كانت نينا ايفانوفنا راقدة فى الفراش ، دامعة العينين ، مغطاة ببطانية زرقاء وممسكة فى يديها بكتاب .

وقالت نادية :

– اصغى اليّ يا ماما ! اتوسل اليك ان تتمعنى وتفهمى ! انظرى كم هى ضحلة ومهينة حياتنا . لقد فتحت عيني وارى الآن كل شيء . وما هو اندريه اندرييتش هذا ؟ انه غير ذكى يا ماما ! يا الهى ، يا ربى ! افهمى يا ماما ، انه غبى !

فجلست نينا ايفانوفنا بحدة ، وقالت وهى تجهش :

– انت وجدتك تعذباننى ! انا اريد ان اعيش ! ان اعيش ! – رددت وضربت على صدرها بقبضتها مرتين – اعطونى حريتى ! انا ما زلت شابة ، واريد ان اعيش ! اما انتم فجعلتم مني عجوزا ! . .

وبكت بحرقة ورقدت وتكورت تحت البطانية ، فبدت جد صغيرة وبائسة وغبية . ومضت نادية الى غرفتها فارتدت ملابسها وجلست الى النافذة تنتظر الصباح . ظلت طول الليل جالسة تفكر بينما كان احد ما يطرق الشيش طوال الوقت ويصفر .

وفى الصباح اشتكت الجدة من ان الريح فى الليل اسقطت كل

التفاح فى البستان وكسرت شجرة برقوق عجوز . وكان الجـــو رماديا ، كابيا ، مقبضا يتطلب اشعال الضوء . واشتكى الجميع من البرد ، وقرع المطر النوافذ . وبعد تناول الشاى مضت نادية الى ساشا ، ودون ان تتفوه بكلمة ركعت على ركبتيها فى الركن بجوار المقعد وغطت وجهها بيديها .

فسألها ساشا :

– ماذا حدث ؟

فدمدمت :

– لا استطيع . . . كيف احتملت العيشـــة هنا من قبل ، لا افهم ، لا اتصور ! اننى احتقر خطيبى ، احتقر نفسي ، احتقر كل هذه الحياة الفارغة ، العديمة المعنى . . .

فدمدم ساشا وهو لا يفهم بعد ماذا حدث :

– حسنا ، حسنا ، لا بأس ، هذا حسن .

فمضت نادية تقول :

– مللت هذه الحياة . لن اتحمل هنا يوما واحدا . سأسافر غدا . خذنى معك ، استحلفك بالله !

ظل ساشا يحدق فيها بدهشة حوالى دقيقة ، واخيرا فهم ففرح كطفل . ولوح بذراعيه وبدأ يدق بحذائه وكأنه يرقص من الفرحة .

وقال وهو يفرك يديه :

– هذا رائع ، يا الهى ما اروع ذلك !

اما هى فحدقت فيه كالمسحورة ، دون ان تطرف ، بعينين واسعتين عاشقتين متوقعة ان يقول لها الآن شيئا ذا قيمة ، لا حدود لأهميته . ولم يكن قد قال شيئا بعد لكنه خيل اليهـــا ان شيئا ما جديدا عريضا لم تعرفه من قبل يتكشف امامها ، فراحت تنظر الى ساشا وكلهـــا انتظار ، ومستعدة لكل شيء ، حتى ولو للموت .

وقال بعد لحظة تفكير :

– غدا سأسافر ، ولتذهبى الى المحطة لوداعى . . . سآخذ امتعتك فى حقيبتى واشترى لك تذكرة . وعندمـــا يدق الجرس الثالث ادخلى العربة ، ونرحل معـــا . ستوصليننى الى موسكو ثم تواصلين سفرك الى بطرسبرج . هل لديك بطاقة شخصية ؟

– نعم .

وقال ساشا بحماس :

– اقسم لك انك لن تندمـــى ولن تأسفـــى . ستسافرين وتلتحقين بالدراسة ، وليتولك القدر . عندما تقلبين حياتك ستتغير كل شيء . المهم ان تقلبى الحيـــاة ، وكل ما عدا ذلك غير مهم . حسنا ، اذن سنسافر غدا ؟

– نعم . استحلفك بالله !

وخيل لنادية انها مضطربة جدا ، وان قلبها منقبض كمـــا لم ينقبض من قبل ، وان عليها من الآن وحتى الرحيل ان تعانى وتفكر بعذاب . ولكن ما ان صعدت الى غرفتها وتمددت على السرير حتى غابت في سبات عميق حتى المساء ، بوجه باك عليه ابتسامة .

٥

ارسلوا يستدعون عربة . وكانت ناديـــة قد ارتدت المعطف والقبعة ، وصعدت الى اعلى لتلقى نظرة اخرى على امهـــا وعلى كل ما لها . ووقفت فى غرفتها بجوار الفراش الذى كان لا يزال دافئا ، ونظرت حولها ، ثم ذهبت بهدوء الى غرفة امها . كانت نينا ايفانوفنا نائمة ، وساد الهدوء الغرفة . وقبلت نادية امها وســـوت لهـــا شعرها ، ووقفت حوالى دقيقتين . . . ثم عادت الى اسفل على مهل .

كان المطر شديدا فى الخارج . ووقف الحوذى بعربته المغطاة بجوار الباب وملابسه كلها مبللة .

وقالت الجدة عندما بدأ الخدم يرتبون الحقائب فى العربة :

– لن تتسع لكما يا نادية . ما حاجتك الى التوديع فى هذا الجو ! هلا بقيت فى البيت . يا للمطر !

وارادت نادية ان تقول شيئا ولكنها لم تستطع . وها هو ساشا يجلس نادية ويغطى ساقيها بمئزرة . وها هو نفســـه يجلس بجوارها .

وصاحت الجدة من السلاملك :

– طريق السلامة ! فى رعاية الله ! اكتب لنا يا ساشا من موسكو !

– حسنا ، الوداع يا جدتى !
– فلترعك السماوات !
ودمدم ساشا :
– ياله من جو !
الآن فقط بكت نادية . اصبح واضحا لها الآن انها راحلة حتما ، الامر الذى لم تكن واثقة منه عندما ودعت الجدة وعندما كانت تتطلع الى امها . وداعا يا مدينة ! وفجأة تذكرت كل شيء : اندريه واباه ، والشقة الجديدة ، والمرأة العارية مع المزهرية ، ولم تشعر بالخوف من كل ذلك ولم تحس له وطأة ، وبدا ساذجا وتافهـا وتراجع الى الوراء ، الى الوراء . وعندما استقلا العربة وتحرك القطار ، انكمش كل هذا الماضى الكبير والخطير قبضة صغيرة ، وتكشف مستقبل ضخم عريض لم يكن واضحا قبل الآن . وقرع المطر زجاج العربة ، ولم يظهر سوى حقل اخضر ، ومرقت اعمدة البرق والطيور الجالسة على اسلاكها ، وفجأة بهرتها السعادة ، وتذكرت انها ذاهبة الى الحرية ، ولتتعلم ، وهو نفس الامر الذى كان يسمى فى الماضى البعيد الذهاب الى القوزاق . لقد كانت تضحك وتبكى وتصلّى .
وكان ساشا يردد مبتسما :
– لا بأس ، لا بأس !

٦

مر الخريف ، ومر من بعده الشتاء . واصبحت نادية تعانى وحشة شديدة وتتذكر كل يوم امها وجدتها وتفكر فى ساشا . وكانت تتلقى من المنزل رسائل هادئة ، طيبة ، وبدا ان كل شيء قد غُفر ونُسى . وبعد الامتحانات ، فى شهر مايو سافرت الى البيت وهى ممتلئة صحة ومرحا ، وتوقفت اثناء الطريق فى موسكو لترى ساشا . وجدته مثلما كان فى الصيف الماضى : بلحية ، منفوش الشعر ، وفى نفس السترة والسروال الخشن ، وبنفس العينين الواسعتين الرائعتين . ولكنه بدا مريضا ، مرهقا ، وهرم وهزل ولم يفارقه السعال . ولسبب ما بدا لنادية رماديا ، ريفيا .

وقال وهو يضحك بمرح :

– يا الهي ، نادية جاءت ! يا عزيزتي الوديعة !

وجلسا في الورشة التي كانت معبأة بالدخان وفاحت فيها الى درجة خانقة رائحة الجواش والاصباغ . ثم توجها الى غرفته ، وكانت معبأة بالدخان وارضيتها مغطاة بالبصاق . وبجوار السماور البارد على الطاولة كان طبق مكسور وورقة سوداء ، وكان على الطاولة وعلى الارض عدد كبير من الذباب الميت . وبدا واضحا من كل شيء ان حياة ساشا الخاصة قد رتبت باهمال ، وكيفما اتفق ، باحتقار تام للوازم الراحة ، ولو ان احدا تحدث معه عن سعادته الخاصة وحياته الخاصة وعن الحب الذي يكنه له لما فقه شيئا ولضحك .

وحدثته نادية بعجلة :

– لا بأس ، كل شيء ســـار على ما يرام . زارتني ماما في بطرسبرج في الخريف ، وقالت ان جدتي غير غاضبة وان كانت تتردد على غرفتي كثيرا وترسم علامة الصليب على الجدران .

وكان ساشا مرحا ، ولكنه كان يسعـــل ويتحدث بصـــوت مشروخ ، وحدقت فيه نادية وهي لا تفهم اهو مريض مرضا خطيرا بالفعل ام ان ذلك يخيل اليها .

وقالت :

– ساشا ، يا عزيزي ، ولكنك مريض !

– كلا ، لا بأس . انني مريض ولكن ليس بشدة . . .

فاضطربت نادية وقالت :

– آه ، يا الهي ، لماذا لا تتعالج ، لمـــاذا لا تحافظ على صحتك ؟ ساشـــا يا عزيزي الغالي – قالت وطفرت الدموع من عينيها ، ولسبب ما تجلى في خيالها اندريه اندرييتش ، والمرأة العارية والمزهرية ، وكل ماضيها ، الذي بدا لها الآن جد بعيـــد كالطفولة . وبكت لأن ساشا لم يعد يبدو لهـــا جديدا ، مثقفا ، وممتعا كما كان في العام الماضي – ساشا يا عزيزي ، انت مريض جدا جدا . لا أدري ما الذي استطيع ان افعله لكي لا تكون شاحبا ونحيلا هكذا . كم انا مدينة لك ! انت لا تستطيع حتى ان تتصور مدى ما فعلت من اجلي يا ساشا الغالي ! انت بالنسبة لي في الواقع اقرب واعز انسان .

جلسا وتحدثا . واحست نادية الآن ، بعد ان قضت الشتاء فى بطرسبرج ، انه قد انبعثت من ساشـــا ، ومن كلماته ، ومن ابتسامته ، ومن هيئته كلها روائح شيء عتيق ، مضى وانتهى ، بل وربما طواه القبر .

وقال ساشا :

– سأسافر بعد غد الى الفولجا ، ثم الى المراعى طلبا للبن الخيول . اريد ان اشرب لبن الخيول . وسيسافر معى احد الاصدقاء مع زوجته . انها انسان رائع . الح عليها لكى تدرس . اريدها ان تقلب حياتها .

وبعد ان تحادثا ذهبا الى المحطة ، وضيفها ساشا شايا وتفاحا . وعندما تحرك القطار ولوح لها ساشا بالمنديل وهو يبتسم ، بدا حتى من ساقيه انه مريض جدا ، ولن يعيش طويلا على الارجح .

وصلت نادية الى مدينتها فى منتصف النهار ، وعندما توجهت من المحطة الى البيت بدت لها الشوارع عريضة جدا والبيوت صغيرة مسطحة . لم يكن هناك بشر فلم تقابل ســـوى ضابط المعازف الالمانى فى معطف اصفر . وكأنما كانت البيوت كلهـــا مغطـــاة بالغبار . اما الجدة ، التى هرمت تماما ، وان بقيت ممتلئة ودميمة كما كانت ، فقد احاطت نادية بذراعيها وبكت طويلا ملصقة وجهها بكتف نادية وهى لا تستطيع ان تنزعه . وشاخت نينا ايفانوفنا بشدة هى الاخرى وازدادت قبحا ، وضمرت كلها ، وان ظلت كما كانت مشدودة بالكورسيه ولمعت الماسات على اصابعها .

وقالت وجسدها كله يرتعش :

– يا حبيبتى ، يا حبيبتى !

ثم جلسن وبكين فى صمت . وكان واضحـــا ان الجدة والام احستا ان الماضى ضاع الى الابد وبلا رجعة : لم يعد ثمة مكانة فى المجتمع ولا الشرف السابق ، ولا الحق فى دعوة الناس اليهم . هكذا الحال عندما يحدث وسط الحياة السهلة الخالية من الهموم ان تأتى الشرطة ليلا فجأة فتجرى تفتيشا ، ويتضح ان رب الدار بدد اموالا او زور اوراقا ، وعندئذ فوداعا الى الابد ايتهـــا الحيـــاة السهلة ، الخالية من الهموم !

وصعدت نادية الى اعلى فرأت نفس الفراش ، ونفس النوافذ

بستائرها البيضاء الساذجة ، ورأت من النافذة نفس البستان الغارق فى الشمس ، المرح ، الصاخب . ولمست طاولتها ، وجلست ، وفكرت قليلا . وتغدت جيدا ، وشربت الشاى بلبن دسم لذيذ ، ولكنها احست بشيء ناقص ، احست بخواء فى الغرف ، وكانت الاسقف منخفضة . وفى المساء أوت الى الفراش ، ولسبب ما احست انه من المضحك النوم فى هذا الفراش الدافئ الناعم جدا .

وجاءت نينا ايفانوفنا للحظة ، وجلست كما يجلس المذنبون ، بوجل وحذر . وسألت بعد صمت :

– حسنا يا نادية ، كيف الحال ؟ هل انت راضية ؟ راضية جدا ؟

– راضية يا ماما .

ونهضت نينا ايفانوفنا ورسمت علامة الصليب على نادية وعلى النوافذ . وقالت :

– اما انا فقد اصبحت متدينة كما ترين . أتعلمين ، اننى ادرس الفلسفة الآن وافكر كثيرا . . . واتضحت لى الآن اشياء كثيرة كالنهار . قبل كل شيء ينبغى ان تمضى الحياة كلها مثلما من خلال بؤرة العدسة .

– خبرينى يا ماما ، كيف صحة جدتى ؟

– لا بأس فيما يبدو . عندما سافرت مع ساشا وتسلمنا منك برقية وقرأتها الجدة سقطت على الفور . ورقدت ثلاثة ايام بلا حراك . وبعد ذلك ظلت تصلى وتبكى – اما الآن فلا بأس .

ونهضت وسارت فى الغرفة .

ودق الحارس : «توك-توك . . . توك-توك ، توك-توك-توك . . .»

وقالت :

– قبل كل شيء ينبغى ان تمضى الحياة كلها مثلما من خلال بؤرة العدسة ، اى بعبارة اخرى ، ينبغى ان تنقسم الحياة فى وعينا الى عناصرها الاولية ، مثل الالوان السبعة الاساسية ، وينبغى دراسة كل عنصر على حدة .

لم تسمع نادية ما قالته امها بعد ذلك ولم تعرف متى انصرفت ، لانها سرعان ما نامت .

ومضى مايو وحل يونيو . وألفت نادية البيت . وكانت الجدة تعنى بالسماور وتتنهد بعمق ، وتتحدث نينا ايفانوفنا فى ساعات المساء عن فلسفتها . وكانت تعيش فى البيت ، كما فى السابق ، عالة ، ومضطرة الى سؤال الجدة فى كل مليم تريده . وكان فى المنزل ذباب كثير ، وبدا كأن الاسقف فى الغرف اصبحت اكثر انخفاضا . ولم تكن الجدة ونينا ايفانوفنا تخرجان الى الشارع خشية ان تلتقيا بالاب اندريه او اندريه اندرييتش . اما نادية فكانت تتجول فى البستان وتسير فى الشارع وتتطلع الى البيوت والاسوار الرمادية ، وخيل اليها ان كل ما فى المدينة قد شاخ منذ زمن بعيد وانتهى ، وان كل شيء ينتظر اما النهاية ، واما بداية شيء ما فتى وطازج . اوه لو تأتى سريعا هذه الحياة الجديدة الصافية ، عندما يصبح بالامكان ان تحدق فى عينى قدرك مباشرة وبجرأة ، وتحس بنفسك على حق ، وتصبح مرحا وحرا ! نعم ، سوف تأتى هذه الحياة عاجلا ام اجلا ! سيأتى وقت لن يبقى فيه اثر لبيت الجدة ، الذى تمضى فيه الامور بحيث لا تستطيع اربع خادمات ان يعشن الا فى غرفة واحدة ، فى القبو ، فى القذارة . سيأتى الوقت الذى لن يبقى فيه لهذا البيت من اثر ، وسينسونه ولن يذكره احد . ولم يسلّ نادية الا صبيان المنزل المجاور ، فعندما تتنزه فى البستان ، كانوا يدقون على السور ويغيظونها ضاحكين وهم يصيحون :

– العروس ! العروس !

وجاءت رسالة من ساشا من مدينة سراتوف . كتب بخطه المرح الراقص ان رحلته الى الفولجا نجحت تماما ، ولكنه مرض قليلا فى سراتوف وفقد صوته ، ويرقد فى المستشفى منذ اسبوعين . وادركت نادية ما معنى ذلك . وتملكها هاجس يشبه اليقين . وكرهت من نفسها انها لم تقلق كما فى الماضى بسبب هذا الهاجس والتفكير فى ساشا . استبدت بها رغبة عارمة فى الحياة ، وفى العودة الى بطرسبرج ، واصبحت معرفتها بساشا تبدو ماضيا رقيقا ، ولكنه بعيد ، بعيد ! ولم تنم طول الليل ، وفى الصباح جلست الى النافذة وهى تصغى . وبالفعل سمعت اصواتا فى الاسفل . كانت الجدة قلقة وتسأل عن شيء ما بسرعة ، ثم بكى

شخص ما . . . وعندما هبطت نادية رأت الجدة واقفة فى الركن تصلى ، بوجه باك . وكانت هناك برقية على الطاولة .

وتمشت نادية طويلا فى الغرفة وهى تصغى الى بكاء الجدة ، ثم تناولت البرقية وقرأتها . جاء فيها انه فى صباح الامس مات فى سراتوف بالسل الكسندر تيموفيتش ، او ببساطة ، ساشا .

وتوجهت الجدة ونينا ايفانوفنا الى الكنيسة لطلب قداس ، اما نادية فظلت تتمشى طويلا فى الغرف وتفكر . وادركت بوضوح ان حياتها قد قلبت كما اراد ساشا ، وانها هنا وحيدة ، غريبة ، غير ضرورية ، وكل ما هنا غير ضرورى لها ، وكل ما كان فى السابق قد اقتطع منها ، واختفى كأنما احترق وتبعثر رماده فى الريح . ودخلت غرفة ساشا ووقفت فى مكانها .

«وداعا يا عزيزى ساشا !» — فكرت ، وارتسمت امامها حياة جديدة ، عريضة ، رحبة ، حياة غير واضحة بعد ، مليئة بالاسرار ، كانت تجذبها وتشدها اليها .

وصعدت الى غرفتها لترتب متاعها ، وفى صباح اليوم التالى ودعت اهلها وغادرت المدينة فى حيوية ومرح ، غادرتها كما كانت تعتقد الى الابد .

١٩٠٣

«ما اطيب ان تتذكر انسانا كهذا . . . فعلى الفور يعود النشاط الى حياتك ، ومن جديد يدخل اليها معنى واضح . . .» . هكذا كتب عن تشيخوف الاديب الكبير مكسيم جوركى .

ويقدر الكتاب السوفييت المعاصرون ابداع تشيخوف تقديرا عاليا . فقد كتب قسطنطين فيدين يقول : «ان تشيخوف ، بموهبته فى رؤية العالم ، يقف فى الصف الرائع لكلاسيكيى القرن التاسع عشر ، ذلك الصف الذى يستهله اسم بوشكين الساطع» .

واشار ليونيد ليونوف فى معرض تقييمه لاهمية ابداع تشيخوف الى انه بعد قراءة روائعه «كان الناس فى روسيا يصبحون افضل واشرف» .

ورأى الكسندر فادييف فى اعمال تشيخوف «تجاوبا عميقا مع المستقبل» ، اى مع يومنا هذا .

انطون تشيخوف

مؤلفات مختارة في ٤ مجلدات

يسر دار «رادوغا» ان تصدر هذه المجموعة من «المؤلفات المختارة» للكاتب الروسى العظيم انطون بافلوفتش تشيخوف (١٨٦٠ — ١٩٠٤) فى اربعة مجلدات . يضم المجلد الاول القصص القصيرة التى كتبها تشيخوف فى الفترة من ١٨٨٠ الى ١٨٨٦ . ويضم المجلد الثانى الروايات والقصص القصيرة التى كتبت من ١٨٨٧ الى ١٨٩١ .

اما هذا المجلد ، الثالث ، فيضم روايات وقصص المرحلة الاخيرة من ابداع الكاتب ، من ١٨٩٢ الى ١٩٠٣ ، تلك المؤلفات التى عادت على تشيخوف بشهرة واسعة فى كثير من البلدان ، واصبحت جزءا من الادب الكلاسيكى العالمى ، وهى : «المنزل ذو العلية» و«الفلاحون» و«ايونيتش» و«الرجل المعلّب» و«فى الخور» و«العروس» ، وغيرها . وتستهل المجلد مقالة «فى ذكرى تشيخوف» للكاتب الروسى الشهير الكسندر كوبرين (١٨٧٠ — ١٩٣٨) .



دار «رادوغا» . موسكو